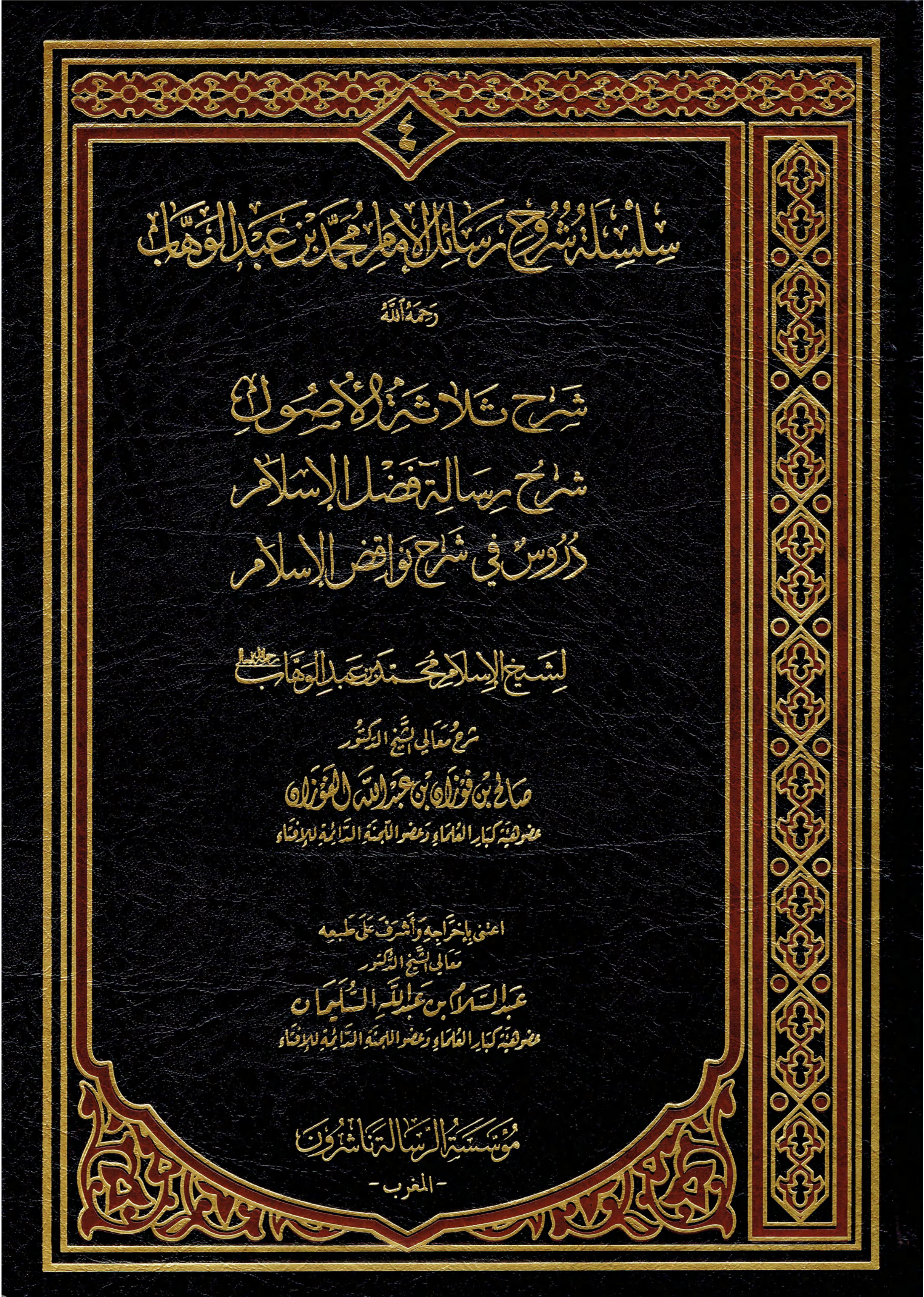
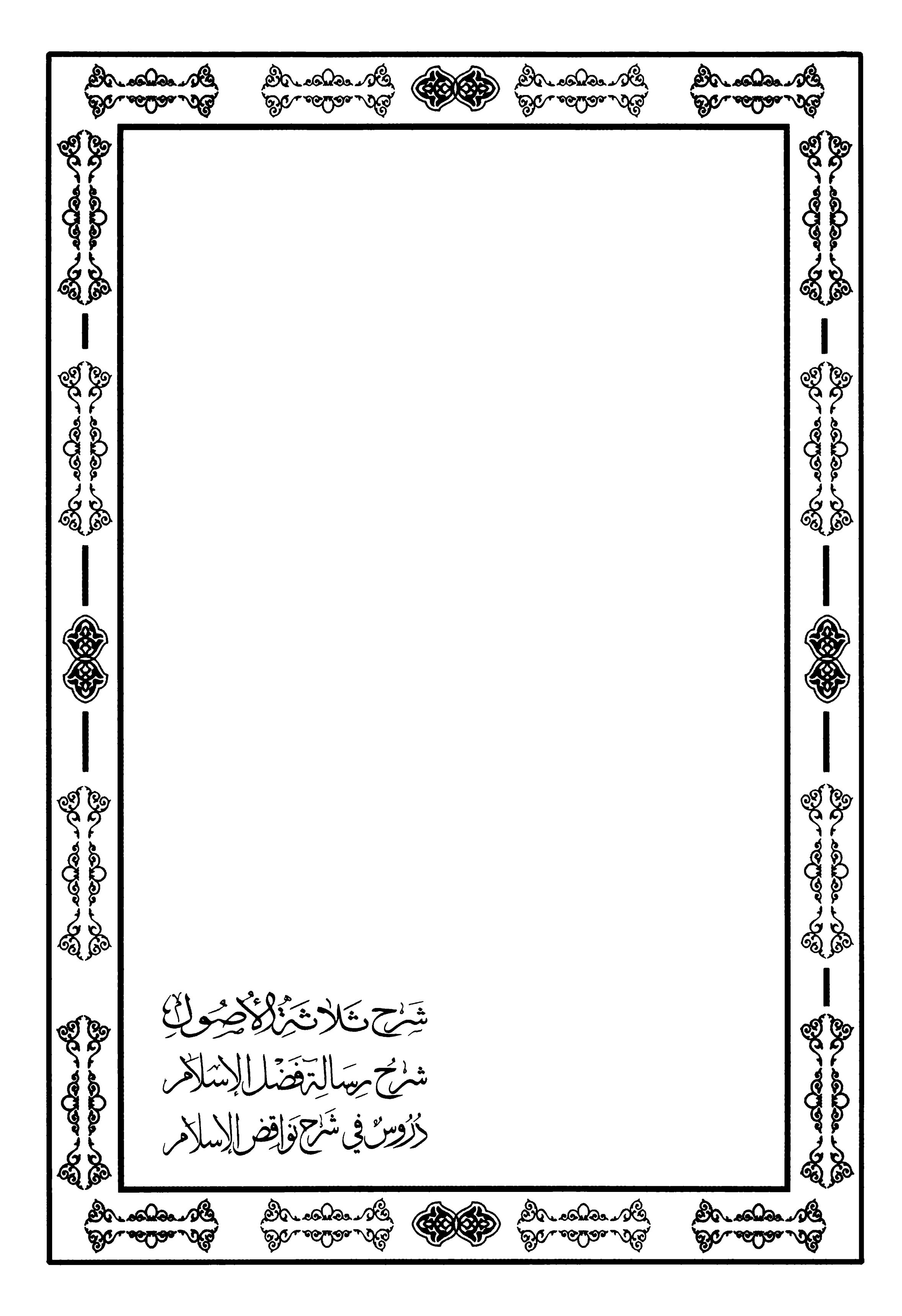

٤
سلسلة شروح رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب
رحمه الله
شرح ثلاثة الأصول
شرح رسالة فضل الإسلام
دروس في شرح نواقض الإسلام
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
شرح معالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء
اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه
معالي الشيخ الدكتور
عبد السلام بن عبد الله السليمان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء
مؤسسة الرسالة ناشرون
- المغرب -


شرح ثلاثة الأصول
شرح رسالة فضل الإسلام
دروس في شرح نواقض الإسلام



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

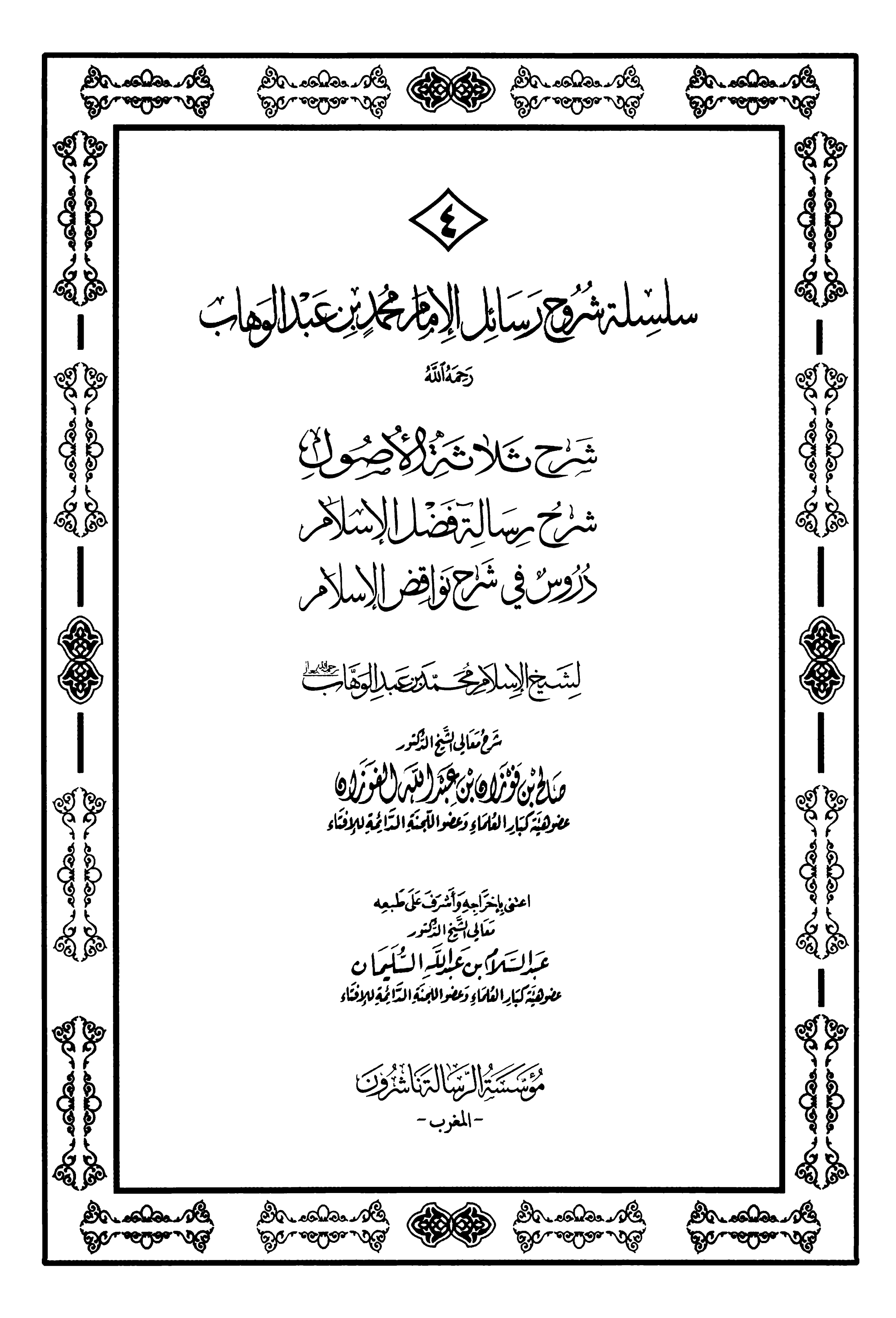
Dépôt légal : 2020MO4597
ISBN: 978-9920-9037-4-5

دار المأثور للطباعة والنشر والتوزيع

المدينة المنورة: أمام البوابة الجموعية للجامعة الإسلامية - هاتف: ٠١٤٨٤٥٣٨٠٠
الرياض: ص ب : ٢٤٠٦٣٥ - الرمز البريدي : ١١٣٢٢ - جوال : ٠٥٦٦٦٠١٦٢٧
هاتف : ٠١١٤٢٥٣٨٨٣ - فاكس : ٠١١٢٧٧٣٧٩
القاهرة: جوال : ٠١١١٢٣٧١٢٨٠ - www.daralmathour.com

مؤسسة الرسالة ناشرون
- المغرب -

الدار البيضاء _ المغرب
26 شارع ادريس الحريزي
طابق 3 الرقم 6
جوال : 00212630216055
Errissala.nachiroun@gmail.com



٤

سلسلة شروح رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب

رحمه الله

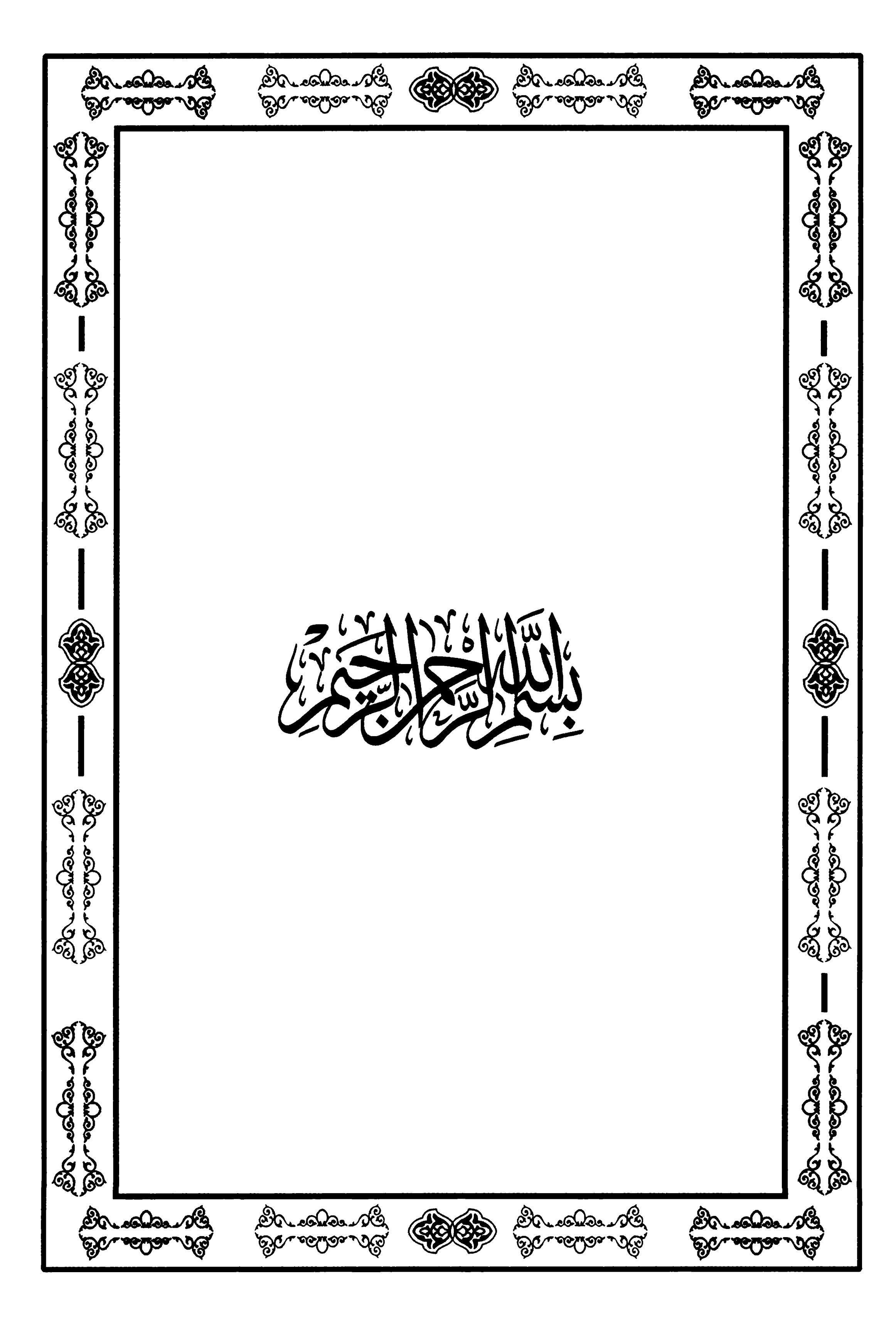
شرح ثلاثة الأصول
شرح رسالة فضل الإسلام
دروس في شرح نواقض الإسلام

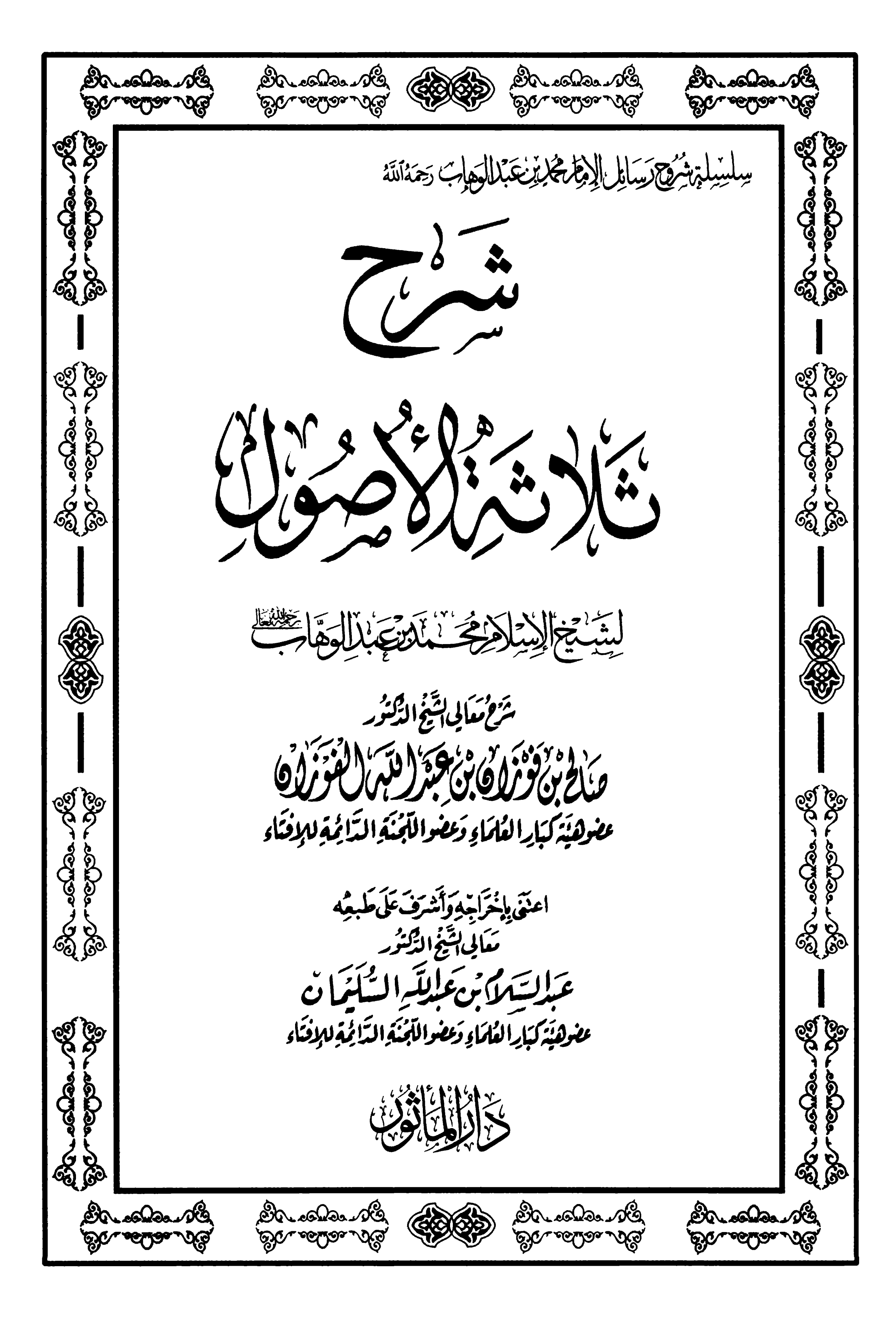
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

شرح معالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه
معالي الشيخ الدكتور
عبد السلام بن عبد الله السليمان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

مؤسسة الرسالة ناشرون
- المغرب -


بسم الله الرحمن الرحيم



سلسلة شرح رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح ثلاثة الأصول

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

شرح معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه

معالي الشيخ الدكتور

عبد السلام بن عبد الله السليمان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

دار المأثور



مقدمة الشرح

الحمد للَّه ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين:

وبعد:

فبين أيدينا هذه الرسالة -رسالة ثلاثة الأصول-وهي رسالة جليلة مختصرة، مؤيَّدة بالأدلَّة من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

وهذه الرسالة في أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو العقيدة، وكان العلماء يهتَمُّون بهذه المختصرات، يؤلفونها، ويتعبون على اختصارها وتهذيبها، ثم يُحفِّظونها لطَلَبَتِهم؛ لتبقى أصولًا عندهم، وذخيرةً يستفيدون منها، ويُفيدون منها.

والبداءةَ بهذه المختصرات هي الأساس لطلبة العلم، فطالب العلم يبدأ بالتعلم شيئًا فشيئًا يأخذ من مبادئ العلم وأصوله، ويتدرج فيه.

فهذه المختصرات طريق المطوَّلات؛ فلا يُمكنُ أن تُفهَمَ المطوَّلات إلا بعد فهم المختصرات، والتدرج منها شيئًا فشيئًا؛ ولهذا قالوا في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

إن الربَّانيين هم الذين يبدءون بصغار مسائل العلم قَبْل كباره، يُربُّون أنفُسَهم وطلابهم ابتداءً من المسائل الصغيرة إلى المسائل الكبيرة، وهذا

شيء طبيعي؛ لأن كل الأشياء تبدأ من أصولها وأساساتها ثم تكبر وتعظم بعد ذلك.

فأما الذي يهجُمُ على العلم هجومًا من أعلاه، فهذا يتعب، ولا يحصُل على شيء، بينما الذي يبدأ من الأصول ويتدرَّج هذا هو الذي -بإذن اللَّه- يسير مع الطريق الصحيح والاتجاه السَّليم.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٨٩].

هؤلاء سألوا عن الأهلَّة، لماذا يبدأ الهلالُ صغيرًا ثم يكبُرُ ثم يكبُرُ حتى يتكاملَ ثم يصغرُ حتى يعودَ هلالًا؟ فعَتَبَ اللَّه عليهم، ووجَّهَهم إلى السؤال عما ينفعُهم، وأن يأتوا بيوتَ العلم من أبوابها.

أما السؤالُ عن الهلال وأحواله وصغره وكبره، فهذا لا فائدةَ لهم فيه؛ بل الفائدة هي أن يسألوا عما يحتاجون إليه وهو معرفة فوائد الأهلَّة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ بيَّن لهم فوائدها، وهي أن اللَّه جعلَها مواقيتَ للناس يعرفون بها العبادات والمعاملات والآجال، وغير ذلك.

فأرشدهم إلى فوائد الأهلَّة، ولم يُجِبْهُم عن سؤالهم عن حقيقة الأهلة؛ لأنه ليس لهم في ذلك فائدة وليوجههم إلى ما ينبغي أن يسألوا عنه، وهو أبواب العلم لا ظهور العلم والمسائل الفُضولية التي لا يحتاجون إليها، وإن احتاجوا إليها فهي حاجة قليلة.

* * *

مقدمة المؤلف

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بسم اللَّه الرحمن الرحيم [١].

---

[١] ابتدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة بالبسملة اقتداءً بكتاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، فإن أول ما يقع عليه بصرك في المصحف، وقبل كل سورة منه: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم».

فالبداءة بها في الرسائل، وفي الكتب، وفي المؤلفات، اقتداءً بكتاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وكذلك النبي ﷺ كان يكتبها في أول رسائله حينما يكتب إلى الأمراء والرؤساء، وإلى من في أقطار الأرض يدعوهم إلى الإسلام، يبدأ كتابته بـ: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم».

وكان ﷺ يفتتح أحاديثه وكلامه بـ: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» مما يدلُّ على أن البداءة بـ: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» سُنة الرسول ﷺ، كما كان سُليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما كتب إلى بلقيس ملكة سبأ بدأ كتابه بـ: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم»: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩-٣١]. ينبغي البدء بـ: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» في كلِّ أمرٍ له أهميَّة، وكلِّ مؤلَّف له أهمية، وله قيمة، وكل رسالة.

وعلى هذا؛ فالذين لا يبدءون مؤلفاتهم ورسائلهم بـ: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» هؤلاء تركوا السنة النبوية، والاقتداء بكتاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وربما بسبب ذلك أن كتبهم هذه ورسائلهم ليس فيها بركة، وليس فيها فائدة؛ لأنها إذا خلت من «بسم اللَّه الرحمن الرحيم»، فإنها منزوعة الفائدة.

لماذا تركوا «بسم اللَّه الرحمن الرحيم»؟ إنما تركوها؛ لأنها سُنَّة وهم

الرسالة الأولى

• المسائل الأربع التي تضمنتها سورة العصر •

اعلَمْ -رحمَكَ اللَّه- [٢].

يَنْفِرون من السنة، أو يقلدون من يَنْفِر من السنة، فينبغي التنبه لمثل هذا.

فمعنى «بسم اللَّه الرحمن الرحيم»: الاستعانة باسم اللَّه.

فقوله: باسم اللَّه، جارٌّ ومجرور، متعلِّق بمحذوف تقديره: أستعين باسم اللَّه الرحمن الرحيم، أو: أبتدئ بـ: بسم اللَّه الرحمن الرحيم تبرُّكًا بها، واستعانةً باللَّه عَجَّلَ.

فهي مَطْلَعٌ عظيمٌ للكلام وللكتب والرسائل، فالإنسان يستعين باللَّه في بدايتها، ويتبرَّك باسمه سُبْحَانَهُ.

[٢] قوله: «اعلم» كلمة تشير إلى الاهتمام بالموضوع، فإذا قال: اعلم؛ فمعناه: أن الأمر الذي سيلقيه عليك أمرٌ مهمٌّ، فهذه الكلمة تدلُّ على أهمية الموضوع التي يبدأ بها فيه.

ومعنى اعلم: فعل أمر من العِلْم، أي: تعلَّمْ، والعِلْم: هو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع، أو تصور الشيء على طبق الواقع.

وإدراك الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع، أو تصور الشيء على خلاف الواقع هو الجهل، وهو ضدُّ العلم.

قوله: «رحمك اللَّه» هذا دعاءٌ لطالب العلم، فالشيخ يدعو لطلبة العلم بأن يرحمهم اللَّه، وأن يلقي عليهم رحمتَه سُبْحَانَهُ، فهذا فيه التلطُّف من المعلِّم بالمتعلِّم، وأنه يبدأ بالكلام الطيِّب، والدعاء الصالح، حتى يؤثِّر ذلك فيه،

أنَّه يجبُ علينا تعلُّمُ أربعِ مسائلَ [٣].

ويُقبِل على معلِّمه، أما إذا بدأ المعلِّم بالكلام القاسي، والكلام غير المناسب، فإن هذا يُنفِّره.

فالواجبُ على المعلِّم، وعلى مَنْ يدعو إلى اللَّه، وعلى مَنْ يأمرُ بالمعروف، وينهى عن المنكر: التلطُّف مع مَنْ يُخاطُبه بالدعاء له، والثناء عليه، والكلام الليِّن، فإنَّ هذا أدعى للقبول.

أما المعانِدُ والمكابرُ فإن هذا له خطابٌ آخر، قال اللَّه سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فالذين ظلموا من أهل الكتاب، وعاندوا، وكابروا هؤلاء لا يخاطَبون بالتي هي أحسن؛ بل يُخاطَبون بما يردَعُهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. المنافقون لا يجاهدون بالسلاح، وإنما يجاهدون بالحجة والكلام والرَّدِّ عليهم بالغلظة ردعًا لهم وتنفيرًا للناس عنهم.

وقال تعالى فيهم: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٣]. هؤلاء لهم خطابٌ خاصٌّ؛ لأنهم أهلُ عنادٍ ومكابرة، ولا يريدون الحقَّ؛ بل يريدون تضليل الناس؛ فهؤلاء يُخاطبون بما يَليق بهم.

أما الطالب المسترشد فهذا يُخاطب بالرفق والرحمة واللُّطف؛ لأنه يريد الحقَّ، ويريد العلم والفائدة.

قوله: «اعلم رحمك اللَّه»: دعاء لك بالرحمة، فإذا رحمك اللَّه، فإنك تكون سعيدًا بها في الدنيا والآخرة، إذا دخلت في رحمة اللَّه، وهذا دعاء من عالم جليل، ورجل صالح يُرجَى له القبولُ -إن شاء اللَّه-.

[٣] **قوله: «يجب»**؛ الواجب: هو ما يُثابُ فاعلُه، ويعاقَبُ تاركُه،

الأُولى: العِلْمُ [٤].

والمستحبُّ: هو ما يُثابُ فاعلُه ولا يعاقَبُ تاركُه، والمباح، لا ثواب في فعله ولا عقابَ في تركه.

فقوله: «**يجب**» يعني أن هذا الأمر ليس هو من المستحب، ولا من المباح؛ بل هو من الواجب العيني.

فإذا تركنا تعلُّمَ هذه المسائل فإننا نأثم؛ لأن هذا شأن الواجب، لم يقل: يُستحب لنا أو يستحسن لنا؛ بل قال: يجب علينا وجوبًا، والوجوب معناه: الحَتْم، من تَرَكه يأثم، ولأن العلم لا يُحصَلُ عليه إلا بالتعلُّم، والتعلُّم يحتاج إلى عناية وجهد ووقت، ويحتاج إلى فهم وإلى حضور قلب، هذا هو التعلُّم.

قوله: «**أربع مسائل**»: يعني: مباحث، سُمِّيت مسائل؛ لأنها يجب أن يُسألَ عنها، ويُعنَى بها.

[٤] **قوله**: «**العلم**»: المراد بالعلم هنا هو العلم الشرعي؛ لأنه هو الذي يجب تعلُّمه، وهذه المسائل يجب تعلُّمها على كلِّ مسلم ذكر أو أنثى، حرٍّ أو عبدٍ، غنيٍّ أو فقير، مَلِكٍ أو صُعْلُوك؛ كل مسلم يجب عليه أن يتعلَّم هذه المسائل الأربع.

وهذا ما يسميه العلماء بـ: «الواجب العَيْنِيِّ»، وهو الذي يجب على كل أحد من المسلمين، فالصلوات الخمس على الرجال والنساء، وصلاة الجماعة في المساجد على الرجال، هذا واجب على كلِّ فرد من المسلمين أن يتعلَّمها، ولذلك قال: يجب علينا، ولم يقل: يجب على بعضنا، وإنما قال: يجب علينا، يعني: معشر المسلمين، فهذا من العلم الذي يجب تعلُّمه على الأعيان؛ لأن العلم على قسمين:

الأول: ما يجب تعلُّمه على الأعيان، فلا يُعذَرُ أحدٌ بجهله، وهو ما لا يستقيم الدينُ إلا به، مثل: أركان الإسلام الخمسة، التي هي: الشهادتان،

وإقامُ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ بيت اللَّه الحرام، لا يجوز لمسلم أن يجهلها؛ بل لابدَّ له أن يتعلَّمها.

لأن تعلُّمَ معنى الشهادتين إنما هو تعلُّم العقيدة، يتعلَّم المسلم العقيدة من أجل العمل بها، ويتعلم ما يُضادها من أجل أن يتجنبه، هذا مضمون الشهادتين.

كذلك يتعلم أركان الصلاة، وشروط الصلاة، وواجبات الصلاة، وسنن الصلاة؛ لابدَّ أن يتعلَّم بالتفصيل هذه الأمور، ليس مجرد أنه يصلي وهو لا يعرف أحكام الصلاة، كيف يعمل الإنسان عملًا وهو لا يعلم هذا العمل الذي يؤديه؟ كيف يؤدي الصلاة، وهو جاهل بأحكامها؟ فلابدَّ أن يتعلَّم أحكام الصلاة، ومُبطلات الصلاة، لابدَّ من تعلُّم هذا.

كذلك يتعلم أحكام الزكاة، ويتعلم أحكام الصيام، ويتعلم أحكام الحج، فإذا أراد أن يحج وَجَبَ عليه تعلُّمُ أحكام الحج، وأحكام العمرة، من أجل أن يؤدي هذه العبادات على الوجه المشروع.

وهذا القسم لا يُعذر أحد بجهله، وهو ما يسمى بالواجب العيني على كل مسلم.

القسم الثاني من أقسام العلم: هو ما زاد عن ذلك من الأحكام الشرعية التي تحتاجها الأمةُ بمجموعها، وقد لا يحتاجه كل أحد بعينه، مثل أحكام البيع وأحكام المعاملات، وأحكام الأوقاف، والمواريث، والوصايا، وأحكام الأنكحة، وأحكام الجنايات، هذه لابدَّ منها للأمَّة؛ لكن لا يجب على كل فرد من الأمة أن يتعلَّمها؛ بل إذا تعلَّمها مَنْ يَحصُل به المقصودُ من العلماء كفَى هذا؛ ليقوموا بحاجة المسلمين من قضاء وإفتاء، وتعليم وغير ذلك، هذا يسمى واجب الكفاية الذي إذا قام به مَنْ يكفي سَقَطَ به الإثمُ عن الباقين، وإذا تركه الجميع أَثموا جميعًا.

فلابدَّ للأمة من أناس يتعلَّمون هذا القسمَ؛ لأنهم بحاجة إليه؛ لكن ما يقال

لكل واحد: يجب عليك أن تتفقه في هذه الأبواب؛ لأنه قد لا يتأتى هذا لكل أحد، وإنما يختصُّ هذا بأهل القدرة وأهل الاستطاعة من الأمة؛ ولأنه إذا تعلَّم هذا بعضُ الأمة قام بالواجب بخلاف القسم الأول فكلٌّ واحدٍ مسئول عنه بنفسه؛ لأنه لا يمكن أن يعمل هذه الأعمال إلا عن علم، ولهذا قال الشيخ: يجب علينا، ولم يقل: يجب على المسلمين؟ أو: يجب على بعضهم؛ بل قال: يجب علينا، أي: على كل واحد منا وجوبًا عينيًّا.

ولنعلم أيضًا قبل الدخول في المسائل: أن المراد بالعلم الذي يجب على الأمة إما وجوبًا عينيًّا، أو كفائيًّا، أنه العلم الشرعي الذي جاء به الرسول ﷺ.

أما العلم الدنيوي كعلم الصناعات والحِرَف والحساب والرياضيات والهندسة، فهذا العلم مباح، يُباح تعلُّمه، وقد يجب إذا احتاجت الأمةُ إليه، يجب على من يستطيع؛ لكن ليس هو العلم المقصود في القرآن والسنة، والذي أثنى اللَّه تعالى على أهله ومَدَحهم، والذي قال فيه النبي ﷺ: «**العلماء ورثةُ الأنبياء**»[1]. المراد: العلم الشرعي.

وأما العلم الدنيويُّ فمن جهله فلا إثم عليه، ومن تعلَّمه فهو مباح له، وإذا نفع به الأمة فهو مأجور عليه ومثاب عليه، ولو مات الإنسان وهو يجهل هذا العلم لم يؤاخذ عليه يوم القيامة؛ لكن من مات وهو يجهل العلم الشرعي خصوصًا العلمَ الضروري، فإنه يُسأل عنه يومَ القيامة، لِمَ لَمْ تتعلم؟ لماذا لَمْ تسأل؟ الذي يقول: إذا وضع في قبره: ربِّي اللَّه، والإسلام ديني، ونبيي محمدٌ ﷺ هذا ينجو، يقال له: من أين حصَّلت هذا؟ يقول: قرأت كتاب اللَّه وتعلمته.

أما الذي أعرَضَ عن ذلك فإنه إذا سئل في قبره فإنه يقول: هاه هاه، لا أدري سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه، فهذا يؤجَّج عليه قبره نارًا -والعياذُ باللَّه-

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل، بإثر الحديث (٦٧)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وهو معرفةُ اللَّه، ومعرفةُ نبيِّه [٥].

ويضيِّقُ عليه فيه حتى تختلف أضلاعُه، ويُصبح في حفرة من حُفَر النار؛ لأنه ما دَرَى وما تلا، فيقال له: «لا دَرَيْتَ، ولا تليت، -أو: لا تلوت-»[1]. فهو لم يتعلم، ولم يقتدِ بأهل العلم، وإنما هو ضائع في حياته، فهذا الذي يئول إلى الشَّقاء، والعياذ باللَّه.

فقوله: «**العلم**»: هذا هو العلم الشرعي المطلوب منا جماعةً وأفرادًا، وهو معرفة اللَّه بأسمائه وصفاته، ومعرفة حقه علينا، وهو عبادته وحدَه لا شريك له، فأولُ ما يجب على العبد هو معرفةُ ربه ﷻ وكيف يعبده.

[٥] **قوله**: «**وهو معرفة اللَّه**» كيف يعرف العبد ربَّه؟ يعرفه بآياته، ومخلوقاته، فمن آياته: الليل والنهار، ومن مخلوقاته: الشمس والقمر، كما يأتي بيان هذا -إن شاء اللَّه-.

يعرف اللَّه بآياته الكونية وآياته القرآنية، إذا قرأ القرآن عرف اللَّه ﷻ أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وأنه هو الذي سخَّر ما في السموات والأرض، وأنه هو الذي يحيي ويُميت، وهو على كل شيء قدير، وأنه الرحمن الرحيم، فالقرآن يعرِّف باللَّه ﷻ، وأنه هو الذي أنعم علينا بجميع النعم، وأنه هو الذي خلقنا ورزقنا، فإذا قرأت القرآن عرفت ربك ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله.

وإذا نظرت في الكون عرفت ربك ﷻ أنه هو الذي خلق هذا الخَلْق، وسَخَّر هذا الكون، وأجراه بحكمته وعلمه ﷻ، هذا هو العلم باللَّه ﷻ.

قوله: «**ومعرفة نبيه**»: هو محمد ﷺ؛ لأنه هو المبلغ عن اللَّه ﷻ، وهو الواسطة بيننا وبين اللَّه ﷻ في تبليغ الرسالة، لابدَّ أن تعرفه، تعرف مَنْ هو؟

---

(١) أخرجه البخاري مختصرًا من حديث أنس (١٣٣٨)، وأخرجه مسلم مختصرًا أيضًا من حديث أنس رضي الله عنه (٢٨٧٠)، وأخرجه أبو داود من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل (٤٧٥٣).

ومعرفةُ دين الإسلام [٦] بالأدلة [٧].

وتعرف نَسَبَه، وتعرف بلده، وتعرف ما جاء به ﷺ، تعرف كيف بدأه الوحي، وكيف قام بالدَّعوة إلى اللَّه ﷻ في مكة والمدينة، تعرف سيرة الرسول ﷺ ولو باختصار.

الرسول ﷺ: هو محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف إلى آخر النسب النبوي الشريف الذي ينتهي إلى إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وتعرف كيف عاش قبل البعثة، وكيف جاءه الوحي من اللَّه ﷻ، وماذا عمل -عليه الصلاة والسلام- بعد بعثته، تعرف ذلك بدراسة سيرته ﷺ، ولا يليق بالمسلم أن يجهل الرسول ﷺ، كيف تتبع شخصًا وأنت لا تعرفه؟! هذا غير معقول.

[٦] **قوله: «معرفة دين الإسلام»**: الذي هو دين هذا الرسول ﷺ؛ بل هو دين اللَّه ﷻ الذي أمر به عباده، والذي أمرك باتباعه وأنت مطالب به، لابد أن تعرف هذا الدين، والإسلام هو دين جميع الرسل.

كل الرسل دينهم الإسلام بالمعنى العام، فكل من اتبع رسولًا من الرسل فهو مسلم للَّه ﷻ منقاد له، موحد له، هذا الإسلام بمعناه العام، إنه دين الرسل جميعًا، فالإسلام: هو الاستسلام للَّه بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله.

أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بعث اللَّه به نبيه محمدًا ﷺ؛ لأنه بعد بعثة الرسول ﷺ لا دين إلا دينه -عليه الصلاة والسلام-، والإسلام انحصر في اتباعه ﷺ فلا يمكن لليهودي أن يقول: أنا مسلم، أو النصراني يقول: أنا مسلم بعد بعثة النبي ﷺ وهو لا يتبعه، فالإسلام بعد بعثة النبي هو اتباعه ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. هذا هو الإسلام بمعناه العام، وبمعناه الخاص.

[٧] **قوله: «بالأدلة»**: لا بالتقليد؛ وإنما بالأدلة من القرآن، ومن السنة؛

هذا هو العلم.

قال ابن القيم في الكافية الشافية:

العِلْمُ قال اللَّه قال رسولُهُ ... قالَ الصحابةُ هُمْ أُولُو العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فلان

هذا هو العلم، العلم هو علم الكتاب والسنة، أما أقوال العلماء فهي تشرح وتوضح فقط كلام اللَّه وكلام رسوله ﷺ، وقد يكون فيها أو في بعضها خطأ، والأدلة ليست كلام العلماء، إنما الأدلة هي الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأما كلام العلماء فهو شارح وموضح ومبين لذلك لا أنه دليل في نفسه.

هذه هي المسألة الأولى، وهي الأساس، بدأ بها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنها هي الأساس، وإنما يُبدأ بالعقيدة وبالأساس بالتعلُّم والتعليم والدعوة إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، يبدأ بالعقيدة؛ لأنها هي الأصل، وهي الأساس.

* * *

• العمل بالعلم •

الثانية: العمل به [٨].

---

[٨] **قوله: «العمل به»** أي: بالعلم؛ لأنه لا يكفى أن الإنسان يعلِّم ويتعلَّم؛ بل لابد أن يعمل بعلمه، فالعلم بدون عمل إنما هو حجة على الإنسان، فلا يكون العلم نافعًا إلا بالعمل، أما مَنْ عَلِمَ ولم يعمل فهذا مغضوب عليه؛ لأنه عرف الحق وتركه على بصيرة.

والناظم يقول:

وعالِم بعلمه لَم يعملَنْ معذبٌ من قَبْلِ عُبَّادِ الوثن

وهذا مذكورٌ في الحديث الشريف: «**إن من أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، عالم لم يعمل بعلمه**»[١] العلم مقرون بالعمل، والعمل هو ثمرة العلم، فعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر، لا فائدة فيها، والعلم إنما أُنزل من أجل العمل.

كما أن العمل بدون علم يكون وبالًا وضلالًا على صاحبه، إذا كان الإنسان يعمل بدون علم، فإن عمله وبالٌ وتعبٌ على صاحبه، قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢]، ولهذا نقرأ في الفاتحة في كل ركعة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

فسمى اللَّه الذين يعملون بدون علم: الضالين، والذين يعلمون ولا يعملون بالمغضوب عليهم، فلنتنبه لذلك، فإنه مهم جدًّا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢) وهو حديث طويل، وفيه: «أولئك الثلاثة أول خلق اللَّه تُسعَّر بهم النار يوم القيامة». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا قبل الحديث (٧٣٥٠)، ومسلم (١٨)(١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرج البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧)(١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد».

• الدعوة إلى العلم •

الثالثة: الدَّعوة إليه [٩].

---

[٩] قوله: «الدعوة إليه»؛ أي: لا يكفي أن يتعلم الإنسان ويعمل في نفسه، ولا يدعو إلى اللَّه ﷻ؛ بل لابد أن يدعو غيره فيكون نافعًا لنفسه، ونافعًا لغيره، ولأن هذا العلم أمانة، ليس بملك لك تختزنه وتحرم الناس منه، والناس بحاجة إليه، فالواجب عليك التبليغ والبيان ودعوة الناس إلى الخير، هذا العلم الذي حمَّلك اللَّه إياه ليس وقفًا عليك، وإنما هو لك ولغيرك، فلا تحتكره على نفسك، وتمنع الناس من الانتفاع به؛ بل لابد من تبليغه، ولابد من بيانه للناس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

هذا ميثاق أخذه اللَّه على العلماء أن يبينوا للناس ما علَّمهم اللَّه من أجل أن ينشروا الخير، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وهذا عمل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ومن اتبعهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. هذه طريقة الرسول ﷺ، وطريقة أتباعه، العلم والعمل والدعوة إلى اللَّه ﷻ، فمن لم يدعُ وهو قادر على الدعوة، وعنده علم، وكتمه، فإنه يلجم بلجام من نار يوم القيامة كما في الحديث[١].

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١ و٢٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من سُئل عن علم فكتمه؛ ألجمه اللَّه بلجام من نار يوم القيامة»، وابن ماجه (٢٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من كتم علمًا مما ينفع اللَّه به في أمر الناس، أمر الدين، ألجمه اللَّه يوم القيامة بلجام من نار»**.

• الصبر على الأذى فيه •

الرَّابعة: الصَّبرُ على الأذى فيه [١٠].

---

[١٠] **قوله: «الصبر على الأذى فيه»**: معلوم أن من دعا الناس، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فإنه سيتعرض للأذى من الأشرار؛ لأن كثيرًا من الناس لا يريدون الخير؛ بل يريدون الشهوات، والمحرمات والأهواء الباطلة، فإذا جاء من يدعوهم إلى اللَّه، ويردهم عن شهواتهم، فلابد أن يكون منهم ردُّ فعل بالقول أو بالفعل.

فالواجب على من يدعو إلى اللَّه، ويريد وجه اللَّه: أن يصبر على الأذى، وأن يستمر في الدعوة إلى اللَّه، وقدوته في ذلك الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

وخيرتهم وخاتمهم محمد ﷺ ماذا لقي من الناس؟ وكم لقي من الأذى بالقول والفعل؟ قالوا: ساحر وكذاب، وقالوا: مجنون. وقالوا فيه من الأقوال التي ذكرها اللَّه ﷻ في القرآن، وتناولوه بالأذى، قذفوه بالحجارة حتى أدموا عقبه ﷺ لما دعاهم إلى اللَّه ﷻ، وألقوا سلا جزور على ظهره وهو ساجد عند الكعبة، وتوعدوه بالقتل وهدَّدوه، وفي غزوة أُحُد جرى عليه وعلى أصحابه ما جرى، -عليه الصلاة والسلام-، كسروا رَباعيته وشجوه في رأسه ﷺ، وقع في حفرة، وهو نبي اللَّه، كل هذا أذى في الدعوة إلى اللَّه ﷻ لكنه صبر وتحمل وهو أفضل الخلق -عليه الصلاة والسلام-، فلابد للذي يقوم بهذه الدعوة أن يتعرض للأذى على حسب إيمانه ودعوته؛ ولكن عليه أن يصبر، ما دام أنه على حق فإنه يصبر ويتحمل، فهو في سبيل اللَّه وما يناله من الأذى فهو في كفة حسناته؛ أجر من اللَّه ﷻ.

والدليل: قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] [١١].

---

[١١] هذه المسائل الأربع يجب أن تتعلَّمها بالتفصيل، هل من دليل على ما قاله الشيخ؟ إن هذه المسائل الأربع يجب علينا تعلمها، وهو وعدنا أنه لا يقول شيئًا إلا بدليل، فأين الدليل؟

قال: الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]. إلا الذين آمنوا، هذه هي المسألة الأولى: العلم؛ لأن الإيمان لا يكون إلا بعلم، وهو معرفة اللَّه عز وجل، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

المسألة الثانية: وعملوا الصالحات، هذا العمل بالعلم.

المسألة الثالثة: وتواصوا بالحق، فهذه الدعوة إلى العلم والعمل.

المسألة الرابعة: وتواصوا بالصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى العلم والعمل.

فقوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾.

الواو: واو القسم.

والعصر: اسم مقسم به مجرور وعلامة جره الكسرة، والمراد به: الوقت والزمان.

أقسم اللَّه تعالى بالزمان والوقت وهو مخلوق، واللَّه -جل وعلا- يقسم بما شاء من الخلق، والمخلوق لا يقسم إلا باللَّه، واللَّه لا يقسم إلا بشيء له أهمية، وفيه آية من آياته تبارك وتعالى، فهذا الزمان فيه عبرة وله أهمية، ولذلك أقسم اللَّه بالعصر، وبالليل إذا يغشى، وأقسم بالضحى.

أما المخلوق فإنه لا يقسم إلا بالله، ولا يجوز لنا أن نحلف بغير الله، قال ﷺ: «**من حلف بغير الله، فقد كفر أو أشرك**»(١).

وقال: «**من كان حالفًا فليحلف بالله، أو ليصمت**»(٢).

فالله يقسم بما شاء، ولا يقسم إلا بما له أهمية وفيه عبرة، ما هي العبرة في هذا الزمان؟ العبر عظيمة تعاقب الليل والنهار، وتقارضهما، هذا يأخذ من هذا، وهذا يأخذ من هذا، يطول هذا، ويقصر هذا، تعاقبهما على هذا النظام العجيب الذي لا يتخلف ولا يتغير.

هذا دليل على قدرة الله ﷻ، ثم ما يجري في هذا الوقت من الحوادث والكوارث، ومن المصائب، ومن النعم ومن الخيرات، ما يجري في هذا الوقت هذا من العبر.

وكذلك فإن الليل والنهار مجال للعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ أي: يتعاقبان، يخلف هذا هذا: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. وفي بعض القراءات: «لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ».

فالليل والنهار كسب عظيم لمن استغلهما في طاعة الله ﷿، ومجال العمل هو الليل والنهار، ما عندك غير الليل والنهار، هما مجال العمل والكسب الطيب للدنيا والآخرة، في الليل والنهار عبر وفوائد لذلك أقسم الله بالعصر.

ما هو جواب القسم؟

هو قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِى خُسۡرٍ﴾ الإنسان جميع بني آدم لم يستثن أحدًا لا الملوك ولا الرؤساء، ولا الأغنياء، ولا الفقراء، ولا الأحرار، ولا العبيد، ولا الذكور، ولا الإناث، فـ «أل» في الإنسان للاستغراق، كل بني آدم في خسر، أي: في خسارة وهلاك إذا ضيعوا هذا الوقت الثمين، واستعملوه في

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦)(٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

....

معصية اللَّه، وفيما يضرهم.

وهذا الوقت الذي هو رخيص عند كثير من الناس، يطول عليهم الوقت، يملُّون ويقولون: نريد قتل الوقت، يأتون بالملهيات، أو يسافرون للخارج لقضاء العطلة والوقت، أو يضحكون ويمزحون لقطع الوقت، فهؤلاء الذين قطعوه وضيعوه سيكون خسارة وندامة عليهم يوم القيامة، وهو مصدر سعادتهم لو حافظوا عليه.

فجميع بني آدم في خسارة وهلاك إلا من اتصف بأربع صفات هي: العلم، والعمل، والدعوة إلى اللَّه، والصبر على الأذى.

فمن اتصف بهذه الصفات الأربع نَجَا من هذه الخسارة.

ولا يمكن الإيمان باللَّه إلا بالعلم الذي هو معرفة اللَّه.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحة من واجبات، ومستحبات، فاستغلوا وقتهم بعمل الصالحات بما يفيدهم في دينهم ودنياهم، حتى العمل للدنيا فيه خير وفيه أجر إذا قصد به الاستعانة على الطاعة، فكيف بالعمل للآخرة، المهم أنك لا تضيع الوقت؛ بل تستعمله في شيء يفيدك وينفعك.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ودعوا إلى اللَّه ﷻ، وعلَّموا العلم النافع، ونشروا العلم والخير في الناس، أصبحوا دعاة إلى اللَّه ﷻ.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ صبروا على ما ينالهم، والصبر في اللغة: الحبس، والمراد به هنا: حبس النفس على طاعة اللَّه، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: صبر على طاعة اللَّه.

الثاني: صبر عن محارم اللَّه.

الثالث: صبر على أقدار اللَّه.

فالأول: صبر على طاعة اللَّه؛ لأن النفس تريد الكسل، وتريد الراحة،

فلابد أن يصبِّرها الإنسان على الطاعة، وعلى الصلاة، وعلى الصيام، وعلى الجهاد في سبيل اللَّه، وإن كانت تكره هذه الأمور، يصبِّرها ويحبسها على طاعة اللَّه.

والثاني: صبر عن محارم اللَّه، النفس تريد المحرمات، والشهوات، إنها تميل إليها، وتنزع إليها، فلابد أن يربطها ويحبسها عن المحرمات، وهذا يحتاج إلى صبر، وليس من السهل منع النفس عن الشهوات المحرمة، من ليس عنده صبر فإن نفسه تتغلب عليه، وتجنح إلى المحرمات.

الثالث: الصبر على أقدار اللَّه المؤلمة، المصائب التي تصيب الإنسان من موت قريب، أو ضياع مال، أو مرض يصيب الإنسان، لابد أن يصبر على قضاء اللَّه وقدره؛ لا يجزع ولا يتسخط؛ بل يحبس اللسان عن النياحة والتسخط، ويحبس النفس عن الجزع، ويحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، هذا هو الصبر على المصائب.

أما المعائب فلا يصبر عليها؛ بل يتوب إلى اللَّه، وينفر منها؛ ولكن عند المصائب التي لا دخل لك فيها؛ بل هي من اللَّه ﷻ قدَّرها عليك ابتلاءً وامتحانًا أو عقوبة لك على ذنوب فعلتها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

فإذا حصلت للمسلم مصيبة في نفسه، أو ماله، أو ولده، أو قريبه، أو أحد إخوانه من المسلمين فعليه بالصبر والاحتساب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]. هذا هو الصبر.

ومن ذلك: الصبر على الأذى في الدعوة إلى اللَّه ﷻ فإن هذا من المصائب، فعليك أن تصبر على ما تلقى من الأذى في سبيل الخير، ولا تنثني عن فعل الخير؛ لأن بعض الناس يريد فعل الخير لكن إذا واجهه شيء يكرهه قال: ليس

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لوْ ما أنزَلَ اللَّه حجَّةً على خلقه إلا هذه السورةَ لكفتهم [١٢].

من الواجب عليَّ أن أدخل نفسي في هذه الأمور، ثم يترك التعليم إن كان معلمًا، يترك الدعوة إلى اللَّه، يترك الخطابة إن كان خطيب مسجد، يترك إمامة المسجد، يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا لم يصبر على ما ناله من الأذى.

وإذا كنت مخطئًا عليك بالرجوع إلى الحق والصواب، أما إن كنت على حق ولم تخطئ فعليك بالصبر والاحتساب، واستشعر أن هذا في سبيل اللَّه عَزَّوَجَلَّ وأنك مأجور عليه، وتذكر ما حصل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، من الأذى وكيف صبروا وجاهدوا في سبيل اللَّه حتى نصرهم اللَّه عَزَّوَجَلَّ.

[١٢] **قوله: «الشافعي»**: هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي نسبه إلى جده الرابع اسمه شافع، وهو من قريش، من بني المطلب، توفي سنة ٢٠٤هـ، وهو أحد الأئمة الأربعة، وقال هذه المقالة؛ لأن اللَّه بيَّن في هذه السورة أسباب الشقاوة وأسباب السعادة.

فأسباب السعادة: أن يتصف الإنسان بهذه الصفات الأربع: العلم، والعمل، والدعوة، والصبر على الأذى في سبيل اللَّه تعالى، فقامت الحجة من اللَّه على خلقه بهذه السورة، إن اللَّه سبحانه يقول لهم: إنِّي قد بينت لكم أسباب السعادة في هذه السورة القصيرة المختصرة.

والقرآن كله، والسنة هُما تفاصيل لهذه المسائل الأربع، لكن هذه السورة بينت أسباب السعادة مجملة، فقامت بها الحجة على الخلق، وبقية نصوص القرآن والسُّنة مفصِّلة ومبيِّنة لهذه المسائل الأربع.

وليس معنى كلام الشافعي أن هذه السورة تكفي الناس، لو ما أنزل اللَّه غيرها لكنها أقامت الحجة عليهم؛ لأن اللَّه بيَّن فيها أسباب السعادة، وأسباب

وقال البخاري -رحمه اللَّه تعالى-: بابُ العلم قبل القول والعمل.

والدليل: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [محمد:١٩].

فبدأ بالعِلمِ قَبْلَ القولِ والعملِ [١٣].

الشقاوة، فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لا أعرف أسباب السعادة، ولا أعرف أسباب الشقاوة وهو يقرأ هذه السورة المختصرة الوجيزة.

[١٣] **البخاري:** هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، نسبة إلى بخارى بلدة في المشرق، إمام أهل الحديث وجبل الحفظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صاحب «الصحيح» الذي هو أصح الكتب بعد كتاب اللَّه.

قوله: «**العلم قبل القول والعمل**»؛ لأن العمل لا ينفع إلا إذا كان مبنيًّا على علم، أما العمل المبني على جهل فإنه لا ينفع صاحبه؛ بل يكون وبالًا وضلالًا عليه يوم القيامة، فلابد أن يقدَّم تعلُّم العلم قبل العمل.

قوله: «**والدليل**» أي: على هذه الترجمة قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ حيث بدأ بالعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾ هذا هو العمل، فبدأ سبحانه بالعلم قبل العمل؛ لأن العمل إذا كان على جهل فإنه لا ينفع صاحبه، فيبدأ الإنسان بالعلم أولًا ثم يعمل بما علمه، هذا هو الأساس.

* * *

الرسالة الثانية

• ثلاث مسائل يجب على المسلم تعلمها والعمل بها •

اعلم -رَحِمك اللَّه- [١].

أنَّه يَجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تعلُّمُ ثلاث هذه المسائل والعملُ بهنَّ [٢].

---

[١] **قوله**: «**اعلم**»: هذه الكلمة قلنا فيما سبق: إنها كلمة يؤتى بها للاهتمام بما بعدها، ومعناها: تعلم وافهم وتيقن.

قوله: «**رحمك اللَّه**»: هذا دعاء لك بالرحمة، وهذا أيضًا كما سبق في أن المعلِّم ينبغي أن يتلطف مع المتعلِّم، وأن يدعو له ويرغبه، فإن هذا من أعظم وسائل التعليم، ولا ينبغي له أن يقابل المتعلِّم بالقسوة والشدة والغلظة؛ لأن هذا ينفِّر عن العلم، ثم هذا أيضًا يدل على النصح من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنه يريد النصيحة والمنفعة والتوجيه السديد.

[٢] **قوله**: «**أنه يجب**»: الوجوب معروف عند الأصوليين، والواجب هو الشيء الذي لابد منه، وقد عرفه الأصوليون بأنه ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه، وأصل الوجوب في اللغة: الثبوت والاستقرار، يقال: وجب كذا، أي: ثبت واستقر، قال تعالى في البُدن: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت على الأرض، واستقرت ميتة بعد تذكيتها، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٦].

فقوله: «**يجب**»، يدل على أن الأمر ليس من باب الاستحباب، من شاء فعل ومن شاء ترك؛ بل الأمر من باب الإلزام من اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ليس هذا الإيجاب من قِبَلِ الشيخ، وإنما هو من قِبَلِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فيما أنزل في الكتاب والسنة من إلزام العباد بهذه المسائل.

قوله: «**يجب على كل مسلم ومسلمة**»، أي: يجب على كل ذكر وأنثى من المسلمين سواء كانوا أحرارًا أو عبيدًا، أو ذكورًا أو إناثًا؛ لأن المرأة تشارك الرجل في كثير من الواجبات إلا ما خصَّه الدليل بالرجال، فإنه يختص بهم، مثل وجوب صلاة الجماعة في المساجد، وصلاة الجمعة، ومثل زيارة القبور فإنَّها خاصَّة بالرجال، ومثل الجهاد في سبيل اللَّه، فإنه خاصٌّ بالرجال.

فما دل الدليل على اختصاصه بالرجال فإنه يختص بهم، وإلا فإن الأصل أن الرجال والنساء سواء في الواجبات وتجنب المحرمات، وسائر التكاليف.

ومن ذلك: أن تعلُّم العلم واجب على الرجال والنساء؛ لأنه لا يمكن عبادة اللَّه -جل وعلا- التي خلقنا من أجلها إلا بتعلم العلم الذي نعرف به عبادة ربنا، فهذا واجب على الرجال والنساء أن يتعلموا أمور دينهم لاسيما أمور العقيدة.

قوله: «ثلاث مسائل»: التعلم هنا معناه: التلقي عن العلماء والحفظ والفهم والإدراك، هذا هو التعلم، ليس المراد مجرد قراءة أو مطالعة حرة كما يسمونها، هذا ليس تعلُّمًا إنما التعلُّم هو: التلقِّي عن أهل العلم مع حفظ ذلك وفهمه وإدراكه تمامًا، هذا هو التعلُّم الصحيح.

أما مجرد القراءة والمطالعة فإنها لا تكفي في التعلُّم وإن كانت مطلوبة وفيها فائدة؛ لكنها لا تكفي، ولا يكفي الاقتصار عليها.

ولا يجوز التتلمذ على الكتب كما هو الواقع في هذا الوقت؛ لأن التتلمذ على الكتب خطير جدًّا يحصل منه مفاسد وتعالم أضرُّ من الجهل؛ لأن الجاهل يعرف أنه جاهل ويقف عند حدِّه، لكن المتعالم يرى أنه عالم فيحلُّ ما حرَّم اللَّه، ويحرِّم ما أحل اللَّه، ويتكلم ويقول على اللَّه بلا علم، فالمسألة خطيرة جدًّا.

فالعلم لا يؤخذ من الكتب مباشرة، إنما الكتب وسائل، أما حقيقة العلم فإنها تؤخذ عن العلماء جيلًا بعد جيل، والكتب إنما هي وسائل لطلب العلم.

* * *

• الإيمان بأن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا •

الأولَى: أن اللَّه خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هَمَلًا [٣].

---

[٣] قوله: «الأولى: أن اللَّه خلقنا»؛ أي: أوجدنا من العدم، فنحن من قبل أن يخلقنا لم نكن شيئًا، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]. كان الإنسان قبل أن يخلق ليس بشيء، والذي أوجده وخلقه هو اللَّه ﷻ قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

قوله: «ورزقنا»: لما كنا نحتاج إلى الرزق إلى الطعام والشراب والملابس والمساكن والمراكب والمصالح، علم سبحانه حاجتنا فسخر لنا ما في السموات والأرض كله لمصالحنا من أجل بقائنا على قيد الحياة، ومن أجل أن نستعين بذلك على ما خلقنا لأجله، وهو عبادة اللَّه ﷻ.

قوله: «ولم يتركنا هملًا»: الهمل: هو الشيء المهمل المتروك الذي لا يُعبأ به؛ فاللَّه خلقنا ورزقنا لحكمة، ما خلقنا عبثًا ولا سدًى، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٨].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

اللَّه إنما خلقنا وخلق لنا هذه الأرزاق، والإمكانيات لحكمة عظيمة وغاية جليلة وهي أن نعبده ﷻ، ولم يخلقنا كالبهائم التي خلقت لمصالح العباد ثم تموت وتذهب؛ لأنها ليست مكلَّفة ولا مأمورة ولا منهية، إنما خلقنا لعبادته

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

ولم يخلقنا لهذه الحياة الدنيا فقط نعيش فيها، ونسرح ونمرح، ونأكل ونشرب، ونتوسع فيها، وليس بعدها شيء، وإنما الحياة مزرعة وسوق للدار الآخرة نتزود فيها بالأعمال الصالحة، ثم نموت وننتقل منها، ثم نبعث ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا.

هذه هي الغاية من خلق الجن والإنس، والدليل على ذلك آيات كثيرة تدلُّ على البعث والنشور والجزاء والحساب، والعقل يدلُّ على هذا، فإنه لا يليق بحكمة اللَّه ﷻ أن يخلق هذا الخلق العجيب، وأن يسخر هذا الكون لبني آدم ثم يتركهم يموتون ويذهبون بدون نتيجة، هذا عبث، فلابد أن تظهر نتائج هذه الأعمال في الدار الآخرة.

ولهذا قد يكون من الناس من يفني عمره في عبادة اللَّه وفي طاعته، وهو في فقر وفي حاجة، وقد يكون مظلومًا مضغوطًا عليه ومضيقًا عليه ولا ينال شيئًا من جزاء عمله في هذه الدنيا، وعلى العكس يكون من الناس كافر ملحد شرير يسرح ويمرح في هذه الحياة، ويتنعَّم ويُعطَى ما يشتهي، ويرتكب ما حرَّم اللَّه، ويظلم العباد ويعتدي عليهم، ويأكل أموالهم، ويقتل بغير حقٍّ ويتسلط ويتجبر ثم يموت على حاله، ما أصابه شيء من العقوبة.

هل يليق بعدل اللَّه ﷻ وحكمته أن يترك هذا المطيع بدون جزاء، وأن يترك هذا الكافر بدون مجازاة، هذا لا يليق بعدله ﷻ؛ ولذلك جعل دارًا أخرى يجازَى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فتظهر فيها ثمرات الأعمال.

فالدنيا دار عمل، وأما الآخرة فهي دار جزاء إما جنة، وإما نار، ولم يتركنا هملًا كما يظن الملاحدة والدهريون، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]. هذه مقالة

بل أرسلَ إلينا رسولًا [٤].

الملاحدة الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور.

وقد أنكر اللَّه ﷻ عليهم فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. فهذا لا يمكن، ولا يكون أبدًا.

[٤] لما كانت العبادة لا يجوز أن نأخذها من استحساننا أو تقليد فلان وعلان من الناس، أرسل اللَّه إلينا رسلًا تبين لنا كيف نعبده؛ لأن العبادات توقيفية لا يجوز أن يعبد اللَّه بشيء إلا بما شرعه.

فالعبادات توقيفية على ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فالحكمة من إرسال الرسل أن يبيِّنوا للناس كيف يعبدون ربهم، وينهونهم عن الشرك والكفر باللَّه ﷻ.

هذه مهمة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ولهذا يقول -عليه الصلاة والسلام-: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١). فالعبادة توقيفية، والبدع مردودة، والخرافات مردودة، والتقليد الأعمى مرفوض؛ لا تؤخذ العبادات إلا من الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ.

قوله: «بل أرسل إلينا رسولًا»: هو محمد ﷺ خاتم النبيين؛ أرسله ليبيِّن لنا لماذا خلقنا، ويبين لنا كيف نعبد اللَّه ﷻ، وينهانا عن الشرك والكفر والمعاصي، هذه مهمة الرسول ﷺ وقد بلغ البلاغ المبين، وأدَّى الأمانة،

---

(١) سبق تخريجه (ص١٦).

فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار [٥].

ونصح الأمة -عليه الصلاة والسلام-، وبيَّن ووضَّح، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

[٥] قوله: «من أطاعه» أي: فيما أمر به؛ دخل الجنة.

وقوله: «ومن عصاه» أي: فيما نهى عنه؛ دخل النار.

وهذا مصداقه كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

فمن أطاعه اهتدى ودخل الجنة، ومن عصاه ضلَّ ودخل النار، قال ﷺ: «**كلكم يدخل الجنة إلا من أبى. قالوا: يا رسول اللَّه، ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[١].

فقوله ﷺ: «**أبى**»؛ أي: أبى أن يدخل الجنة. وقال ﷺ: «**لا يسمع بي يهودي، ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا دخل النار**»[٢]. فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وهذا هو الفارق بين المؤمن والكافر.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والدليلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦] [٦].

---

[٦] **قوله: «والدليل»**؛ أي: على إرسال الرسول، قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ﴾: الضمير راجع إلى اللَّه تبارك وتعالى، وهذا ضمير المعظم نفسه؛ لأنه عظيم تبارك وتعالى.

﴿أَرْسَلْنَآ﴾: كذلك هذا ضمير العظمة. ومعنى أرسلنا: بعثناه وأوحينا إليه.

﴿إِلَيْكُمْ﴾: يا معشر الثقلين الجن والإنس، خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالة هذا الرسول عامة لجميع الناس إلى أن تقوم الساعة.

﴿رَسُولًا﴾: هو محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾: أي: عند اللَّه تبارك وتعالى يوم القيامة بأنه بلَّغكم رسالة اللَّه، وأقام الحجة عليكم كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لم أدرِ أني مخلوق للعبادة، أنا لم أدر ماذا يجب عليَّ، ولم أَدْرِ ماذا يحرم عليَّ، لا يمكن أن يقول هذا؛ لأن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد بلغتهم، وهذه الأمة المحمدية تشهد عليهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة يوم القيامة أن رسلها بلغتها رسالات اللَّه، بما يجدونه من كتاب اللَّه عز وجل؛ لأن اللَّه قصَّ علينا نبأ الأمم السابقة والرسل وما قالوه لأممهم.

كل هذا عرفناه من كتاب اللَّه عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

....

خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾: وهو محمد ﷺ عليكم، يا أمة محمد شهيدًا، يشهد عليكم عند اللَّه أنه أقام عليكم الحجة، وبلغكم الرسالة، ونصحكم في اللَّه، فلا حجة لأحد يوم القيامة بأن يقول: ما بلغني شيء، ما جاءني من نذير، حتى الكفار يعترفون عندما يلقون في النار، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨-٩]. يقولون للرسل: أنتم في ضلال، فهم يكذِّبون الرسلَ ويضللونهم.

هذه الحكمة في إرسال الرسل؛ إقامة الحجة على العباد، وهداية من أراد اللَّه هدايته، الرسل يهدي اللَّه بهم من يشاء، ويقيم الحجة على من عاند وجحد وكفر.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾: الرسول هو موسى -عليه الصلاة والسلام-، وفرعون هو الملك الجبار في مصر الذي ادعى الربوبية، وفرعون: لقب لكل من ملك مصر، يقال له: فرعون، والمراد به هنا فرعون الذي ادعى الربوبية: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾: هو موسى، كفر به فرعون كما قص اللَّه في كتابه ما جرى بين موسى وفرعون، وما انتهى إليه أمر فرعون وقومه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ أي: أخذنا فرعون بالعقوبة، وهو أن اللَّه أغرقه هو وقومه في البحر، ثم أدخلهم النار: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]. فصار في النار في البرزخ.

قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]. هذا في البرزخ قبل الآخرة، يعرضون على النار صباحًا ومساءً إلى أن تقوم الساعة، وهذا دليل على عذاب القبر، -والعياذ باللَّه-، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

هذه ثلاث عقوبات:

الأولى: أن اللَّه أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثانية: أنهم يعذبون في البرزخ إلى أن تقوم الساعة.

الثالثة: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب -والعياذ باللَّه-.

وكذلك من عصى محمدًا ﷺ فإن مآله أشد من مآل قوم فرعون؛ لأن محمدًا هو أفضل الرسل فمن عصاه تكون عقوبته أشد.

﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: شديدًا قويًّا لا هوادة فيه، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فهذه الآية دليل على منَّة اللَّه علينا بإرسال الرسول محمد ﷺ إلينا، وأن الغرض من إرساله أن يبين لنا طريق العبادة، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، كما دخل آل فرعون النار، لما عصوا رسولهم موسى -عليه الصلاة والسلام-.

وكذلك أعداء الرسل كلهم هذا سبيلهم وهذا طريقهم.

* * *

• اللَّه سبحانه وتعالى لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد •

المسألة الثانية: أنَّ اللَّه لا يرضى أن يشرك مَعَهُ أحدٌ غيرُه في عبادَته [٧].

---

[٧] هذه المسألة متعلقة بالمسألة الأولى؛ لأن الأولى: هي بيان وجوب عبادة اللَّه، واتباع الرسول ﷺ، وهو معنى الشهادتين، معنى شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وشهادة أن محمدًا رسول اللَّه.

والمسألة الثانية: أن العبادة إذا خالطها شرك فإنها لا تقبل؛ لأنه لابد أن تكون العبادة خالصة لوجه اللَّه عز وجل.

فمن عبد اللَّه وعبد معه غيره فعبادته باطلة، وجودها كعدمها؛ لأن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص والتوحيد، فإذا خالطها شرك فسدت؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. فالعبادة لا تُسمَّى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمَّى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا خالط الشركُ العبادةَ أفسدها، كما أن الطهارة إذا خالطها ناقض من نواقض الوضوء أفسدها وأبطلها، ولهذا يجمع اللَّه في كثير من الآيات بين الأمر بعبادته والنهي عن الشرك.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]. وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. فقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ فيه أمران: فيه نفي الشرك، وفيه إثبات العبادة للَّه تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي

كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. قرن بين عبادة اللَّه، واجتناب الطاغوت؛ لأن عبادة اللَّه لا تكون عبادةً إلا مع اجتناب الطاغوت، وهو الشرك، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالإيمان باللَّه لا يكفي إلا مع الكفر بالطاغوت، وإلا فالمشركون يؤمنون باللَّه؛ لكنهم يشركون به، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. بين سبحانه أن عندهم إيمان باللَّه؛ ولكن يفسدونه بالشرك - والعياذ باللَّه -.

هذا معنى قول الشيخ: أن من عبد اللَّه، وأطاع الرسول، فإنه لا يشرك باللَّه شيئًا؛ لأن اللَّه لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته.

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**قال اللَّه تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1].

هناك قوم يصلون، ويشهدون أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، ويكثرون من ذلك، ويصومون، ويحجون؛ لكنهم يدعون الأضرحة، ويعبدون الحسن والحسين والبدوي وفلانًا وعلانًا، ويستغيثون بالأموات، هؤلاء عبادتهم باطلة؛ لأنهم يشركون باللَّه ﷻ، يخلطون العبادة بالشرك، فعملهم باطل حابط حتى يوحدوا اللَّه ﷻ ويخلصوا له العبادة ويتركوا عبادة ما سواه.

وإلا فإنهم ليسوا على شيء، فيجب التنبه لهذا؛ لأن اللَّه لا يرضى أن يُشرَك معه في عبادته أحد كائنًا من كان، لا يرضى سبحانه بمشاركة أحد مهما كان؛ لئلا يقول أحد: أنا أتخذ من الأولياء والصالحين والطيبين شفعاء، أنا لا أعبد الأصنام والأوثان كما هو في الجاهلية، أنا أتَّخذ هؤلاء شفعاء، لا أعبدهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسل [٨].

والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] **[٩].**

فنقول له: هذه مقالة الجاهلية، اتخذوهم شفعاء عند اللَّه؛ لأنهم صالحون وأولياء من أولياء اللَّه، واللَّه لا يرضى بهذا.

[٨] **قوله: «لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل»** الملك المقرب هو أفضل الملائكة، مثل: جبريل عليه السلام، وحملة العرش ومن حوله، والملائكة المقربون من اللَّه تبارك وتعالى، فمع قرب المكان من اللَّه عز وجل، وقرب العبادة والمكانة عند اللَّه، لو أشركهم أحد مع اللَّه في العبادة، فإن اللَّه لا يرضى بأن يُشرَك معه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كمحمد صلى الله عليه وسلم، وعيسى، ونوح، وإبراهيم أولي العزم، لا يرضى أن يُشرَك معه أحد، ولو كان من أفضل الملائكة، ولو كان من أفضل البشر.

فهو لا يرضى أن يشرك معه أحد من الملائكة، ولا من الرسل، فكيف بغيرهم من الأولياء والصالحين، فغير الملائكة والرسل من باب أولى ألَّا يرضى اللَّه بإشراكهم معه في العبادة، وهذا ردٌّ على أولئك الذين يزعمون أنهم يتخذون الصالحين والأولياء شفعاء عند اللَّه ليقربوهم عند اللَّه زلفى، كما قال أهل الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وإلا فهم يعتقدون أن هؤلاء لا يخلقون، ولا يرزقون، ولا يملكون موتًا، ولا حياةً ولا نشورًا، وإنما قصدهم التوسط عند اللَّه عز وجل؛ ولذلك صرفوا لهم شيئًا من العبادة تقربًا إليهم، ذبحوا للقبور، ونذروا للقبور، واستغاثوا وهتفوا بالأموات.

[٩] لا يرضى اللَّه بمشاركة أحد كائنًا من كان، وهذا صريح في القرآن والسنة، لكن لمن يعقل ويتدبر، وينبذ التقليد الأعمى، والتعلل الباطل، ويتنبه لنفسه، والدليل على أن اللَّه لا يرضى أن يُشرَك مع أحد كائنًا من كان: قوله

تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

المساجد هي بيوت اللَّه، وهي المواطن المعدة للصلاة، وهي أحب البقاع إلى اللَّه، وهي بيوت أذن اللَّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يجب أن تكون هذه المساجد مواطن لعبادة اللَّه وحدَه، لا يحدث فيها شيء لغير اللَّه، فلا تُبنى فيها القبور والأضرحة؛ لأن النبي ﷺ لعن من فعل ذلك، وأخبر أن هذا هو فعل اليهود والنصارى، ونهانا عن ذلك في آخر حياته، وهو في سكرات الموت -عليه الصلاة والسلام- بقوله: «**ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد** -هذا يقوله وهو في سياق الموت- **ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[1].

ويقول ﷺ: «**لعنة اللَّه على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[2].

فالمساجد يجب أن تطهر من آثار الشرك والوثنية، وألا تقام على القبور، أو يدفن فيها الأموات بعد بنائها، بل تكون مواطن عبادة اللَّه وحده، تقام فيها الصلاة، ويذكر فيها اسم اللَّه، ويتلى فيها القرآن، وتقام فيها الدروس النافعة، ويعتكف فيها للعبادة، هذه هي وظيفة المساجد.

أما أن تُقام فيها أوثانٌ تعبد من دون اللَّه، فهذه ليست مساجد، هذه مشاهد شرك، وإن سماها أهلها مساجد؛ لأن اللَّه يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: لا لغيره؛ ولأن المساجد هي محل اجتماع الناس، وتلاقيهم، فيجب أن تكون طاهرة من الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس يتلقَّوْن فيها العلم والعبادة.

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جُنْدَب بن عبد اللَّه البجلي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة، وابن عباس رضي الله عنهم.

فإذا وجدوا في المساجد شيئًا من الشرك والخرافات تأثروا بذلك ونشروه في الأرض، فيجب أن تكون المساجد مطهرة من الشرك، وأعظمها المسجد الحرام كما أمر اللَّه -جل وعلا- بتطهيره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦]. طهِّره من ماذا؟ طهره من الشرك والبدع والخرافات، كما أنه أيضًا يُطهر من النجاسات والقاذورات.

فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾ لا: ناهية، وتدعوا: فعل مضارع مجزوم بـ: لا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأن أصله تدعون، فدخل عليه الجازم، وهو لا الناهية.

فلا تدعوا أيها الناس مع اللَّه أحدًا، لا تستغيثوا بأحد مع اللَّه، كأن يقول: يا أللَّه، يا محمد، يا أللَّه، يا عبد القادر، أو يقول: يا عبد القادر، يا محمد، أو ما أشبه ذلك، فإن اللَّه لا يرضى بذلك، ولا يقبله.

وقوله تعالى: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم كل أحد، لا يستثنى أحد؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صنم، ولا وثن، ولا قبر، ولا شيخ، ولا ولي، ولا حي، ولا ميت، كائنًا من كان.

فهي تعم كل من دُعِي من دون اللَّه: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فدلت هذه الآية على أن العبادة لا تنفع إلا مع التوحيد، وأنها إذا خالطها الشرك فإنها تبطل، وتكون وبالًا على صاحبها.

ثم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ يجب أن تبنى بنية خالصة لا يكون القصد من بنائها الرياء، والسمعة، وتخليد الذكر كما يقولون، وتكون آثارًا إسلامية، هذا كله باطل.

المساجد تبنى للعبادة، وبقصد العبادة، وتكون النية فيها خالصة للَّه ﷻ، وأيضًا تبنى من كسب طيب، لا تبنى من كسب حرام؛ لأنها للَّه ﷻ، و «إن

• الولاء والبراء •

الثالثة: أنَّ من أطاعَ الرسول، ووحَّدَ اللَّه، لا يجوزُ له موالاةُ من حادَّ اللَّه ورسوله ولو كان أقرب قريب [١٠].

اللَّه لا يقبل إلا طيبًا»[١].

فتبنى المساجد من نفقة حلال، وتكون نية بانيها خالصة لوجه اللَّه ﷻ لا يريد من بنائه مدحًا من الناس، أو تخليدًا لذكره، أو رياء، أو سمعة، فإن بناء المساجد عبادة، والعبادة يجب أن تكون خالصة للَّه ﷻ.

[١٠] لا يجوز لمن فعل ذلك موالاة مَنْ حادَّ اللَّه ورسوله، ولو كان أقرب قريب.

هذه مسألة الولاء والبراء وهي تابعة للتوحيد، من حقوق التوحيد: الولاء لأولياء اللَّه، والبراء من أعداء اللَّه، والموالاة والولاء بمعنى واحد، والولاء يراد به المحبة بالقلب، ويراد به المناصرة والمعاونة، ويراد به الإرث والعقل في الديات.

فالمسلم يوالي أولياء اللَّه بمعنى أنه يحصر محبته على أولياء اللَّه ويناصرهم، فالمسلم يكون مع المسلمين بعضهم أولى ببعض كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فالتعاقل في ديات الخطأ يكون بين المسلمين، وهو ما يسمى بالتكافل، كل هذا يدخل في الولاء، فلا يكون الولاء بين مسلم وكافر، والمحبة والنصرة والميراث والعقل وولاية النكاح، وولاية القضاء إلى غير ذلك.

فلا يكون ذلك بين مسلم وكافر، وإنما يكون هذا بين المسلمين؛ لقوله

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والدليلُ: قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] [١١].

تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. هكذا يجب أن يتميز المؤمنون عن الكفار، فلا يجوز لمن وحَّد اللَّه وأطاع الرسول ﷺ موالاةُ من حادَّ اللَّه.

والمحادَّة معناها: أن يكون الإنسان في جانب، واللَّه ورسوله والمؤمنون في جانب، ويكون المحاد في جانب الكفار، هذه هي المحادة.

قوله: «**ولو كان أقرب قريب**» أي: نسبًا، فإذا كان قريبك محادًّا للَّه ورسوله؛ فيجب عليك محادَّته ومقاطعته، ومن كان وليًّا للَّه ورسوله وجب عليك أن تحبَّه وتواليه ولو كان بعيدًا من النسب عنك، ولو كان أعجميًّا، أو أسود أو أبيض أو أحمر، يجب عليك أن تواليه وأن تحبه، سواء كان من بلدك، أو من أقصى الشرق، أو من أقصى الغرب، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١]. أي: بينهم المحبة والتناصر والتعاون، وبينهم الألفة؛ هذا بين المؤمنين.

[١١] **قوله تعالى:** ﴿لَّا تَجِدُ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، أي: لا يقع هذا، ولا يكون موجودًا أبدًا أن يكون مؤمن باللَّه ورسوله يحب الكفار، فإن أحبهم فإنه ليس بمؤمن ولو كان يدَّعي ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكافية الشافية:

أتُحِبُّ أعداءَ الحبيب وتدَّعي ... حبًّا له ما ذاك في إمكان

وكذا تُعادي جاهدًا أحبابه ... أينَ المحبَّةُ يا أخا الشيطان

فهذا لا يمكن أبدًا أن يحب الكفار، يقول: أنا أحب اللَّه ورسوله لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ١-٤].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. هذه ملة إبراهيم تبرأ من أبيه، أقرب الناس إليه لما تبين له أنه عدو اللَّه.

ودلت الآية أيضًا على أن محبة الكافر تتنافى مع الإيمان باللَّه واليوم الآخر، إما مع أصله أو مع كماله، لكن إن كانت محبتهم معها تأييد لمذهبهم وكفرهم فهذا خروج عن الإسلام، أما إن كان مجرد محبة من غير مناصرة لهم، فهذا يعتبر منقصًا للإيمان وفسقًا، ومضعفًا للإيمان.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة بن الجراح -رضي اللَّه تعالى عنه- لما قتل أباه يوم بدر؛ لأن أباه كان على الكفر، وكان يريد أن يقتل ابنه أبا عبيدة، فقتله أبو عبيدة رضي الله عنه؛ لأنه عدو اللَّه، ولم يمنعه أنه أبوه، لم يمنعه ذلك من قتله غضبًا للَّه سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يبتعدون عن محبة ومودة من حادَّ اللَّه ورسوله.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أثبت اللَّه في قلوبهم، ورسخ اللَّه في قلوبهم الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾.

التأييد: معناه التقوية، قواهم بروح منه، والروح لها عدة إطلاقات في القرآن، منها: الروح التي هي النفس التي بها الحياة، ومنها: الوحي كما في

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. ومنها: جبريل عليه السلام أنه روح القدس، والروح الأمين.

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. ومنها: ما في هذه الآية وهي القوة.

فأيدهم بروح منه، أي: بقوة منه تبارك وتعالى، قوة إيمان في الدنيا، وفي الآخرة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ جمع جنة، والجنة في اللغة: البستان، سمي جنة لأنه مجتن بالأشجار، أي: مستتر ومغطى بالأشجار الملتفة، لأن الجنة ظلال وأشجار وأنهار وقصور، وأعلاها وسقفها عرش الرحمن تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: باقين فيها لا يتحولون عنها، قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]. لا يخافون من موت ولا يخافون من أحد يخرجهم ويطردهم، مثل ما في الدنيا، قد يكون الإنسان في الدنيا في قصور لكن لا يسلم من الموت فيخرج منها، ولا يسلم من الأعداء يتسلطون عليه ويخرجونه، الإنسان في الدنيا دائمًا خائف.

قوله تعالى: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: لما أغضبوا أقرباءهم من الكفار وعادوهم منحهم اللَّه الرضا منه تبارك وتعالى جزاءً لهم، فهم عوِّضوا بإغضابهم لأقاربهم الكفار عوضوا برضا اللَّه تبارك وتعالى، ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أي: جماعة اللَّه، وأما الكفار فهم حزب الشيطان، كما قال اللَّه تعالى عنهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة: ١٩]. أي: جماعة الشيطان، وأنصار الشيطان، أما هؤلاء فهم أنصار الرب.

فهذه المسألة تتعلق بعداوة الكفار، وعدم موالاتهم، وهي لا تقتضي أننا نقاطع الكفار في الأمور والمنافع الدنيوية؛ بل يستثنى من ذلك أمور:

الأول: أنه مع بغضنا لهم وعداوتنا لهم يجب أن ندعوهم إلى اللَّه تبارك وتعالى،

يجب أن ندعوهم إلى اللَّه، ولا نتركهم ونقول: هؤلاء أعداء اللَّه وأعداؤنا، يجب علينا أن ندعوهم إلى اللَّه لعل اللَّه أن يهديهم، فإن لم يستجيبوا فإنا نقاتلهم مع القدرة، فإما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يبذلوا الجزية إن كانوا من اليهود والنصارى أو المجوس وهم صاغرون، ويخضعون لحكم الإسلام، ويُتركون على ما هم عليه.

لكن بشرط دفع الجزية وخضوعهم لحكم الإسلام، أما إن كانوا غير كتابيين وغير مجوس ففي أخذ الجزية منهم خلاف بين العلماء.

الثاني: لا مانع من مهادنة الكفار عند الحاجة، إذا احتاج المسلمون لمهادنتهم؛ لكون المسلمين لا يقدرون على قتالهم، ويخشى على المسلمين من شرهم، لا بأس بالمهادنة إلى أن يقوى المسلمون على قتالهم، أو إذا طلبوا هم المهادنة: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. فيهادنون؛ لكن ليس هدنة دائمة إنما هدنة مؤقتة مؤجلة إلى أجل حسب رأي إمام المسلمين لما فيه من المصلحة.

الثالث: لا مانع من مكافأتهم على الإحسان إذا أحسنوا للمسلمين، لا مانع أن يكافئوا على إحسانهم، قال اللَّه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

رابعًا: الوالد الكافر يجب على ولده المسلم أن يبرَّهُ، لكنه لا يطيعه في الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٤-١٥]. الوالد له حق، وإن كان كافرًا؛ لكن لا تحبه المحبة القلبية؛ بل تكافئه على تربيته لك، وأنه والد وله حق تكافئه على ذلك.

اعلم -أرشدكَ اللَّه- لطاعته [١٢].

خامسًا: تبادل التجارة معهم والشراء منهم، شراء الحاجات منهم، واستيراد البضائع والأسلحة منهم بالثمن لا بأس بذلك، وقد كان النبي ﷺ يتعامل مع الكفار، وكذلك عامل ﷺ أهل خيبر وهم يهود على أن يزرعوا الأرض بجزء مما يخرج منها، ليس هذا من الموالاة والمحبة، وإنما هو تبادل مصالح، يجب أن نعرف هذه الأمور، وأنها لا تدخل في الموالاة وليس منهيًّا عنها.

كذلك الاستدانة منهم، النبي ﷺ استدان من اليهودي طعامًا، ورهن درعه عنده، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بطعام اشتراه لأهله، لا مانع من هذا؛ لأن هذه أمور دنيوية ومصالح، ولا تدل على المحبة والمودة في القلوب، فلابد أن نفرق بين هذا وهذا؛ لأن بعض الناس إذا سمع نصوص العداوة للكفار وعدم محبتهم، قد يفهم أنه لا يتعامل معهم، ولا يتصل بهم نهائيًّا، وأن تكون مقاطعة نهائية.

لا! هذا محدد بأحكام وبحدود وبشروط معروفة عند أهل العلم مأخوذة من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

سادسًا: أباح اللَّه التزوج من نساء أهل الكتاب بشرط أن يكنَّ عفيفات في أعراضهن، وأباح اللَّه لنا أكل ذبائحهم.

سابعًا: لا بأس بإجابة دعوتهم، وأكل طعامهم المباح كما فعل النبي ﷺ.

ثامنًا: الإحسان إلى الجيران من الكفار؛ لأن لهم حق الجوار.

تاسعًا: لا يجوز ظلمهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

[١٢] **قوله**: «**اعلم -أرشدك اللَّه-**» هذا كأنه بداية رسالة ثالثة؛ لأنه مضى رسالتان الرسالة الأولى: المسائل الأربع التي تضمنتها سورة العصر.

والرسالة الثانية: المسائل الثلاث التي سبقت.

والرسالة الثالثة: هي هذه، وستأتي الرسالة الرابعة، وهي ثلاثة الأصول.

فقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم»: تقدم الكلام على لفظها، وبيان معناها، والمقصود من الإتيان بها.

قوله: «أرشدك اللَّه»: هذا دعاء من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لكل من يقرأ هذه الرسالة متفهمًا لها يطلب العمل بها بأن يرشده اللَّه، والإرشاد: هو الهداية إلى الصواب والتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح.

والرشد ضد الغي؛ قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:١٤٦]. والرشد: هو دين الإسلام، والغي: دين أبي جهل وأمثاله.

قوله: «أرشدك اللَّه لطاعته»: هذا دعاء عظيم، فإن المسلم إذا أرشده اللَّه لطاعته، فقد سعد في الدنيا والآخرة.

والطاعة هي: امتثال ما أمر اللَّه به، واجتناب ما نهى اللَّه عنه، هذه هي الطاعة، أن تطيع اللَّه في أوامره فتفعلها، وفي نواهيه فتجتنبها امتثالًا لأمر اللَّه، وابتغاء وجه اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ترجو ثوابه، وتخاف عقابه، فمن وُفِّق لطاعة اللَّه، وأُرشد لطاعة اللَّه، فإنه يسعد في الدنيا والآخرة.

* * *

الرسالة الثالثة

• الحنيفية ملة إبراهيم •

□ تعريف الحنيفية:

أن الحنيفيَّة ملةُ إبراهيم [١٣].

---

[١٣] **قوله: «إن الحنيفية ملة إبراهيم»**؛ أي: الذي يجب أن تعلمه وأن تعرفه أن الحنيفية ملة إبراهيم.

والحنَفُ في اللغة: الميل.

فمعنى الحنيفية: هي الملة المائلة عن الشرك إلى التوحيد، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان حنيفًا مسلمًا، حنيفًا، أي: مائلًا عن الشرك ومعرضًا عنه إلى التوحيد والإخلاص لله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

فالحنيف من أوصاف إبراهيم عليه السلام بمعنى: أنه معرض عن الشرك، ومائل عنه بالكلية إلى التوحيد، متوجه بكل وجهته إلى التوحيد والإخلاص لله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

هذه أوصاف إبراهيم عليه السلام العظيمة، منها: أنه كان حنيفًا، وأن ملته الحنيفية، وهي الملة الخالصة لله ﷻ التي ليس فيها شرك، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يتبع هذه الملة بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

أن تعبدَ اللَّه وحده مخلصًا له الدين [١٤].

وأُمرنا نحن كذلك أن نتبع ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]. وهي دين جميع الرسل.

ولكن لكون إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أفضل الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ لاقى في سبيل الدعوة إلى التوحيد من التعذيب ومن الامتحان ما لم يلقه غيره، فصبر على ذلك.

ولكونه أبا الأنبياء، فإن الأنبياء الذين جاءوا من بعده كلهم من ذريته -عليه الصلاة والسلام-، فالحنيفية ملة جميع الأنبياء، وهي الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك، هذه ملة جميع الرسل، لكن لما كان لإبراهيم مواقف خاصة نحو هذه الملة نسبت إليه، ولمن جاء بعده.

والأنبياء كلهم من بعده كانوا على ملة إبراهيم، وهي ملة التوحيد والإخلاص للَّه عز وجل.

ما هي هذه الملة التي أُمر نبيُّنا ﷺ باتباعها، وأُمرنا باتباعه؟ يجب علينا أن نعرفها؛ لأن المسلم يجب عليه أن يعرف ما أوجب اللَّه عليه من أجل أن يمتثله، ومن أجل ألَّا يخل به، لا يكفي الانتساب بدون معرفة، لا يكفي أن ينتسب للإسلام، وهو لا يعرفه، ولا يعرف ما هي نواقض الإسلام، وما هي شرائع الإسلام، وأحكام الإسلام، ولا يكفي الانتساب لملة إبراهيم وأنت لا تعرفها، وإذا سئلت عنها تقول: لا أدري، هذا لا يجوز، يجب أن تعرفها جيدًا من أجل أن تسير عليها على بصيرة، وألا تخل بشيء منها.

[١٤] قوله: «**أن تعبد اللَّه وحدَه مخلصًا له الدين**»: هذه ملة إبراهيم، أن تعبد اللَّه مخلصًا له الدين، تجمع بين الأمرين: العبادة والإخلاص، فمن عَبَدَ اللَّه ولم يخلص له الدين، لم تكن عبادته شيئًا، فمن عبد اللَّه، فصام وحج

وبذلك أمرَ اللَّه جميع الناس، وخلقهم لها [١٥].

وصلَّى واعتمر وتصدق وزكى وفعل كثيرًا من الطاعات؛ لكنه لم يخلص للَّه ﷻ في ذلك، إما لأنه فعل كل ذلك رياء أو سمعة، أو أنه خلط عمله بشيء من الشرك كدعاء غير اللَّه، والاستغاثة بغير اللَّه، والذبح لغير اللَّه، فإن هذا لم يكن مخلصًا في عبادته؛ بل هو مشرك، وليس على ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام اليوم يقعون في الشرك الأكبر من دعاء غير اللَّه، وعبادة القبور والأضرحة والذبح لها والنذر لها، والطواف بها والتبرك بها، والاستغاثة بالأموات وغير ذلك، وهم يقولون: إنهم مسلمون، هؤلاء لم يعرفوا ملَّة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- التي عليها نبيُّهم محمد ﷺ، لم يعرفوها، أو عرفوها وخالفوها على بصيرة -والعياذ باللَّه- وهذا أشد.

فملَّة إبراهيم لا تقبل الشرك بأي وجه من الوجوه، ومَنْ خلط عمله بشرك فليس على ملَّة إبراهيم، وإن كان ينتسب إليها، ويزعم أنه مسلم، فالواجب أن تعرف ملة إبراهيم، وأن تعمل بها، وأن تلتزمها بأن تعبد اللَّه مخلصًا له الدين، لا يكون في عبادتك شيء من الشرك الأصغر أو الأكبر.

هذه ملَّة إبراهيم ﵇: الحنيفية التي أعرضت عن الشرك بالكلية، وأقبلت على التوحيد بكليتها، أن تعبد اللَّه مخلصًا له الدين.

[١٥] قوله: «**وبذلك أمر اللَّه**»: الإشارة ترجع إلى قوله: أن تعبد اللَّه مخلصًا له الدين، أي: وبعبادة اللَّه مخلصًا له الدين أمر اللَّه جميع الخلق، أمر اللَّه جميع الناس عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، كلَّ الناس من عهد آدم إلى آخر بشر في الدنيا، كلهم أمرهم اللَّه بعبادته مع الإخلاص في العبادة، قال اللَّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا

لَكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

أنه لا ندَّ له، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا كفؤ له، فهذا نهي عن الشرك الأكبر، وعن الشرك الأصغر، أمر اللَّه بذلك جميع الناس من أولهم إلى آخرهم.

قوله: «**وخلقهم لها**»؛ أي: لعبادته وحدَه لا شريك له سبحانه، خُلقوا من أجلها، ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأُمروا بذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

هذا معنى قول الشيخ: خلقهم لها وأمرهم بها، جمع الأمرين في قوله: «وبذلك أمر اللَّه جميع الناس وخلقهم لها»، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ﴾ اللَّه هو الخالق، هو الذي خلق الأشياء كلها، ومن ذلك أنه خلق الجن والإنس، وأعطاهم العقول، وكلَّفهم بعبادته وحدَه لا شريك له، خصَّهم بالأمر بعبادته؛ لأن اللَّه أعطاهم عقولًا وأعطاهم ما يميزون به بين الضار والنافع، والحق والباطل، وخلق الأشياء كلَّها لمصالحهم ومنافعهم.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. كل مسخر لبني آدم من أجل أن يستعينوا به على ما خُلقوا من أجله، وهو عبادة اللَّه ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والجن عالم من عالم الغيب لا نراهم، وهم مكلفون بالعبادة، ومنهيون عن الشرك وعن المعصية مثل بني آدم، لكن يختلفون عن بني آدم في الخلقة.

أما من ناحية الأوامر والنواهي فهم مثل بني آدم مأمورون ومنهيون، والجن عالم من عالم الغيب لا نراهم لكنهم موجودون.

ومعنى يَعبُدون: يوحدون [١٦].

والإنس هم بنو آدم، سموا بالإنس؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، يجتمعون ويتآلفون، والجن سموا جنًّا من الاجتنان: وهو الاختفاء، ومنه الجنين في البطن؛ لأنه مختفٍ، وجَنَّهُ الليل إذا سَتَرَهُ، والمِجَنُّ: ما يتخذ للوقاية به في الحرب من السهام وغيرها، فهو يستر حامله، فالاجتنان والجَنَان: هو الشيء الخفي المستتر، فالجن مستترون عنا لا نراهم.

وَهُمْ عالم موجود من أنكرهم فهو كافر؛ لأنه مكذِّب للَّه ورسوله، ولإجماع المسلمين، فقد بيَّن اللَّه ﷻ أنه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته لا لشيء آخر.

فهو لم يخلقهم لأجل أن ينفعوه أو يضروه، أو يعتز بهم من ذلة، أو يتكثر بهم من قلة؛ لأنه غني عن العالمين، وما خلقهم لحاجة إليهم، ما خلقهم لأجل أن يرزقوه أو يكتسبوا له الأموال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨].

فاللَّه ليس بحاجة إلى الخلق، وإنما خلق الجن والإنس لشيء واحد فقط، وهو أن يعبدوه، وهو ليس بحاجة إلى عبادتهم وإنما هم المحتاجون إليها؛ لأنهم إذا عبدوا اللَّه أكرمهم وأدخلهم الجنة، فمصلحة العبادة راجعة إليهم، ومضرة المعصية عائدة إليهم، أما اللَّه -جل وعلا- لا تضره طاعة المطيع، ولا معصية العاصي، قال ﷻ: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. اللَّه لا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة المطيع، وإنما هذا راجع إلى الخلق أنفسهم، إن أطاعوه انتفعوا، وإن عصوه تضرروا بمعصيته.

[١٦] **قوله: «ومعنى يعبدون: يوحدون»**: أي: يفردوني بالعبادة، فالعبادة والتوحيد بمعنى واحد؛ التوحيد يُفَسَّر بالعبادة، والعبادة تُفَسَّر بالتوحيد ومعناهما واحد، ففي هذا ردٌّ على من فسَّر التوحيد بأنه الإقرار بأن اللَّه هو

الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، فهذا ليس هو التوحيد الذي خُلِق الخلق من أجله، وإنما خلِقَ الخَلْق من أجل توحيد العبادة، وهو توحيد الألوهية.

أما من أقر بتوحيد الربوبية فقط، فإنه ليس موحِّدًا، وليس من أهل الجنة؛ بل هو من أهل النار؛ لأنه لم يأت بالتوحيد الذي خُلق من أجله و«هو» العبادة.

* * *

• أعظم ما أمر اللَّه به التوحيد •

وأعظَمُ ما أَمَرَ اللَّه به التوحيد، وهو إفرادُ اللَّه بالعبادة [١٧].

---

[١٧] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعظم ما أمر اللَّه به التوحيد»: هذا مهم جدًّا، إن التوحيد أعظم ما أمر اللَّه به، كل الأوامر التي أمر اللَّه بها كلُّها بعد التوحيد.

الدليل على أن أعظم ما أمر اللَّه به التوحيدُ قولهُ تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦] إلى آخر الآية.

هذه الآية فيها عشرة حقوق؛ ولهذا تسمى آية الحقوق العشرة، أول هذه الحقوق حق اللَّه سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ هذا هو الحق الثاني، ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هذا هو الحق الثالث.

وذوو القربى: هم الذين تجمعك بهم قرابة نسبية من جهة الأب أو الأم، كالآباء والأجداد، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات، وأولاد الإخوة والأخوات، وأولاد الأعمام والعمات، هؤلاء هم ذوو القربى، لهم حق القرابة.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ الأيتام من المسلمين، وهم كل من مات أبوه، وهو صغير ولم يبلغ، وصار بحاجة إلى من يسد مَسَدَّ أبيه في رعاية هذا الطفل تربية وإنفاقًا وقيامًا بمصالحه، ورفع ما يضره؛ لأنه ليس له أب يحميه، وينفق عليه، ويدافع عنه، فهو بحاجة إلى من يساعده؛ لأنه فقد أباه وعائله، وله حق في الإسلام.

المهم أن اللَّه بدأها بحقه ﷻ، قوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ لم يقتصر على قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ لأن العبادة لا تصح مع الشرك ولا تنفع، ولا تسمى عبادة إلا إذا كانت خالصة للَّه ﷻ، إن كان معها شرك فإنها لا تكون عبادة مهما أتعب الإنسان نفسه فيها، قرن الأمر بالعبادة بالنهي عن الشرك؛ إذ لا تصح العبادة مع وجود الشرك أبدًا.

هذا دليل على قول الشيخ: «أعظم ما أمر اللَّه به التوحيد». حيث إن اللَّه بدأ في آيات كثيرة منها هذه الآية.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. فبدأ ﷻ بالتوحيد، وهذا يدلُّ على أنه أعظم ما أمر اللَّه به.

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١].

هذا دليل على ما يأتي أن أعظم ما نهى اللَّه عنه الشرك، فإذا كان أعظم ما أمر اللَّه به التوحيد، فإنه يجب أن يبدأ الإنسان بتعلُّم العقيدة قبل كل شيء، العقيدة هي الأساس، فيجب أن يبدأ بها بالتعلُّم والتعليم، وأن يداوم على تدريسها وبيانها للناس؛ لأنها هي أعظم ما أمر اللَّه به، فليس من المناسب أن تجعلها آخر الأشياء أو لا يؤبه بها؛ لأن الآن هناك دعاة يزهدون في تعليم التوحيد والعقيدة، هناك أناس ابتلوا بهذا؛ ولأن الإخلال بها إخلال بالدين كله فيجب العناية بها.

وما هو التوحيد؟ هل هو أن تقر بأن اللَّه هو الخالق الرازق المحيي المميت؟ لا.

التوحيد هو: إفراد اللَّه بالعبادة؛ لأن اللَّه قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال أهل التفسير: يعبدون، أي: يوحدون، ففسروا التوحيد بالعبادة.

إذن؛ فالتوحيد هو إفراد اللَّه بالعبادة، وليس هو الإقرار بأن اللَّه هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر؛ لأن هذا موجود في الفِطَرِ، موجود في عقول العقلاء، لا يوجد عاقل في الدنيا يعتقد أن أحدًا خلق السموات والأرض غير اللَّه ﷻ، لا يوجد أحد في العالم كله وما فيه من الكفار والملاحدة يعتقد أن أحدًا من البشر خلق بشرًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

لا يوجد عاقل في العالم يعتقد أن بشرًا يخلق بشرًا إنسانًا يمشي على

• أعظم ما نهى اللَّه عنه الشرك •

وأعظمُ ما نهى عنه الشِّركُ [١٨].

الأرض، ويتكلم ويأكل ويشرب، هل يوجد عاقل يعتقد هذا؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]. توحيد الربوبية موجود في الفطر والعقول؛ لكنه لا يكفي بدون توحيد العبادة، وهو إفراد اللَّه بالعبادة.

ولهذا قال الشيخ: التوحيد هو إفراد اللَّه بالعبادة، وليس هو إفراد اللَّه بالخلق والرزق والإحياء والإماتة؛ لأن هذا شيء معروف، ولا يكفي توحيد الربوبية في تعريف التوحيد.

[١٨] **قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأعظم ما نهى اللَّه عنه الشرك».**

هذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يعتقدون أن هناك أشياء هي أعظم الجرائم، وأعظم ما نهى اللَّه عنه، فيقول: الربا هو أعظم المحرمات، الزنَا هو أعظم المحرمات؛ ولذلك يركزون على النهي عن الربا، وعن الزنا، وعن فساد الأخلاق، ولكن لا يهتمون بأمر الشِّرك، ولا يحذرون منه، وهم يرون الناس واقعين فيه، هذا من الجهل العظيم بشريعة اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فأعظم ما نهى اللَّه عنه هو الشرك، فهو أعظم من الربا، وأعظم من شرب الخمر، وأعظم من السرقة، وأعظم من أكل أموال الناس بالباطل، وأعظم من القمار والميسر، هو أعظم المحرمات.

والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلى آخر

الآيات، وهذه الآيات تسمى بالوصايا العشر: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٢].

هذه المحرمات بدأها اللَّه بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فدلَّ على أن الشرك هو أعظم ما نهى اللَّه عنه.

وفي سورة الإسراء، قال اللَّه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]. بدأ بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

فدل على أنه أعظم ما نهى اللَّه عنه، هذا يدل على قول الشيخ: وأعظم ما نهى اللَّه عنه الشرك.

وفي الحديث الصحيح: «أن النبي ﷺ سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: **أن تجعل للَّه ندًّا وهو خلقك**. قيل: ثم أي؟ قال: **أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**. قيل: ثم أي؟ قال: **أن تزاني حليلة جارك**»(١).

وأنزل اللَّه تصديق ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

فبدأ بالشرك في قوله: «**أن تجعل للَّه ندًّا**-أي: شريكًا- **وهو خلقك**». وقال: هو أعظم الذنوب؛ لأنه سئل أي الذنب أعظم؟ فبدأ بالشرك.

وقال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**. قيل: وما هن يا رسول اللَّه؟! قال: **الشرك باللَّه، والسحر، وقتل النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق**...»(٢) إلخ الحديث.

بدأها بالشرك؛ فدلَّ على أن الشرك هو أعظم الذنوب، ولذلك فإن المشرك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا يدخل الجنة أبدًا، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. المشرك لا يغفر الله له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨].

فدل ذلك على تحريم الجنة على المشرك، وأن الله لا يغفر له، ودل هذا على أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الذنوب -ما عدا الشرك- قابلة للمغفرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ فالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والرباء كله داخل تحت المشيئة، إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذبه.

أما الشرك فإنه لا يغفر، حكم الله أنه لا يغفره، وكذا العاصي، وإن كان عنده كبائر دون الشرك فإنه لا تحرم عليه الجنة، مآله إلى الجنة، إما أن يغفر الله له من أول وهلة ويدخله الجنة، وإما أن يخرج من النار بعد تعذيبه، ويدخل الجنة؛ المؤمن مهما كان منه من الفسق والمعاصي التي دون الشرك، فإنه لا يقنط من رحمة الله، ولا يحرم من الجنة، وهو داخل تحت المغفرة بمشيئة الله ﷻ.

أما المشرك فإنه محروم من ذلك كله، والعياذ بالله، فدل على أن الشرك هو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]. كل هذا يدل على أن الشرك أعظم الذنوب، وإذا كان الشرك أعظم الذنوب فإنه يجب على العلماء والمتعلمين النهي عنه والتحذير منه، وألا يسكتوا عن التحذير من الشرك، وأنه يجب جهاد المشركين مع القدرة كما جاهدهم رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾ [التوبة: ٥]. فيجب التحذير من الشرك، وبيانه للناس حتى

وهو دعوة غيره معه [١٩].

يجتنبوه، هذا الذي يجب.

أما أن يسكت عن الشرك، ويترك الناس يهيمون في عبادة غير اللَّه، وهم يدَّعون الإسلام، ولا أحد ينهَى، ولا أحد يحذر، فالأمر خطير جدًّا، هناك ناس يتجهون إلى النهي عن الربا، والزنا، وفساد الأخلاق، هذه أمور محرمة، وفيها فساد، لكن الشرك أعظم، فلماذا لا يهتم بالنهي عن الشرك، والتحذير من الشرك، وبيان ما يقع فيه كثير من الناس في الشرك الأكبر وهم يدَّعون الإسلام؟!

لماذا هذا التساهل في أمر الشرك والتغافل عنه، وترك الناس يقعون فيه، والعلماء موجودون؛ بل يعيشون مع هؤلاء ويسكتون عنهم؟

الواجب: أن يتجه أولًا إلى النهي عن هذا الخطر العظيم الذي فتك بالأمة فتكًا ذريعًا، كل ذنب دونه فهو أهون منه، والواجب أن يبدأ بالأهم فالأهم.

[١٩] هذا تعريف الشرك: هو دعوة غيره معه، بمعنى أن يُصْرَف شيء من العبادة لغير اللَّه، من مَلَك من الملائكة أو نبي من الأنبياء، أو صالح من الصالحين أو بَنِيَّة من البنيَّات، أو غير ذلك من كل المخلوقات، فمن صرف شيئًا من العبادة لغير اللَّه فهذا هو أعظم ما نهى اللَّه عنه، هذا هو الشرك.

فاعرفوا تفسير التوحيد وتفسير الشرك؛ لأن هناك من الناس من يفسر التوحيد بغير تفسيره، ومن يفسر الشرك بغير تفسيره.

من الناس من يقولون: إن الشرك هو الشرك في الحاكمية، وهذا ظهر الآن مع الأسف، الحكم بغير ما أنزل اللَّه نوع من أنواع الشرك يسمى شرك الطاعة، لا شك أن طاعة المخلوق في تحليل ما حرم اللَّه، أو تحريم ما أحل اللَّه هذا نوع من الشرك؛ لكن هناك ما هو أعظم منه، وهو عبادة غير اللَّه بالذبح والنذر والطواف والاستغاثة.

فالواجب: أن يحذر من الشرك كله، لا يؤخذ منه، ويترك ما هو أعظم

وأخطر منه، فلا يفسر الشرك بأنه شرك الحاكمية فقط، أو الشرك السياسي، ويقولون: الشرك بالقبور هذا شرك ساذج -أي: هين- هذه جراءة على اللَّه ﷻ، الشرك أعظم ما نهى اللَّه عنه، وهو دعوة غيره معه، هذا هو الشرك.

ومنهم من يقول: الشرك هو محبة الدنيا، ومحبة المال، المال جعله اللَّه محبوبًا حبًّا طبيعيًّا ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]. ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]. ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ [التوبة: ٢٤].

قال: أحب إليكم، ما أنكر عليهم أنهم يحبونه، لكن أنكر عليهم أنهم يقدِّمون محبته على محبة اللَّه، محبة المال ليست شركًا؛ لأن هذه محبة طبيعية، الناس يحتاجون إلى المال ويحبونه؛ محبة المال ليست شركًا؛ لأنه من محبة المنافع التي ينتفع بها الإنسان، لكن هؤلاء الذين يقولون هذه المقالات إما أنهم جهال لم يتعلموا التوحيد والشرك. وإما أنهم مُعرضون يريدون صرف الناس عن هذه الحقائق إلى أشياء هم يريدونها؛ ومآرب يريدونها، واللَّه أعلم بالمقاصد.

المهم: أن هذا ليس هو الشرك، الشرك هو دعوة غير اللَّه معه، أو صرف شيء من أنواع العبادة لغير اللَّه، كالذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، والالتجاء، والخوف، والرجاء وغير ذلك، هذا هو الشرك الذي هو أعظم الذنوب دعوة غيره معه ﷻ؛ لأن الدعاء هو أعظم أنواع العبادة كما قال سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]. وقال: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]. فدعاء غير اللَّه هو الشرك الذي حرمه اللَّه ورسوله.

أما هذه الجزئيات التي يجعلونها هي الشرك فليس كذلك، لكن يقال: إن بعضها جزء من الشرك، وإن هناك ما هو أخطر منه، وأهم منه؛ لأن الشرك

والدليل: قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النساء: ٣٦] [٢٠].

يتفاوت، بعضه أشد من بعض، والعياذ باللَّه.

[٢٠] قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾».

قلنا: إن الدليل على أن أعظم ما أمر اللَّه به هو التوحيد قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ ثم ذكر بقية الحقوق، فكونه بدأ بالتوحيد والنهي عن الشرك، هذا دليل على أن التوحيد هو أعظم ما أمر اللَّه به؛ لأنه قال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وأتبعه بقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ فهذا نهي، فبدأ بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فدل على أن أعظم ما أمر اللَّه به التوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشرك، لأن اللَّه بدأ بذلك، ولا يبدأ سبحانه إلا بالأهم فالأهم، هذا وجه الدلالة من الآية.

* * *

الرسالة الرابعة

• الأصول الثلاثة التي تجب معرفتها •

□ الأصل الأول: معرفة اللّه ﷻ:

فإذا قيلَ لك: ما هي الأصولُ الثلاثة التي تجبُ معرفتها؟

فقل: معرفة العبدِ ربه، ودينه، ونبيه محمدًا ﷺ [١].

---

[١] **قوله: «الأصول»**: جمع أصل، والأصل: ما يُبنى عليه غيره، والفرع: ما يبنى على غيره، فهذه سُميت بالأصول؛ لأنها يُبنَى عليها غيرُها من أمر الدين؛ فلذلك سميت أصولًا لأنها يبنى عليها أمر الدين، وكل الدين يدور على هذه الأصول الثلاثة.

قوله: «معرفة العبد ربَّهُ»: ربه منصوب؛ لأنه مفعول لمعرفة؛ لأن المصدر (معرفة) أضيف إلى اسم الفاعل (العبد) والمصدر إذا أُضيف يعمل عمل فعله عند النحويين، فالمصدر هنا أضيف فيعمل عمل الفعل.

قوله: «ودينه ونبيه»: معطوف عليه، أي: على المنصوب، هذه أصول الدين إجمالًا، وسيأتي تفصيلها في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إن شاء اللّه.

لماذا خص هذه الأصول الثلاثة؟

لأنها هي الأساسات لدين الإسلام؛ ولأنها هي المسائل التي يُسأل عنها العبد حين يوضع في قبره؛ لأن العبد إذا وضع في قبره وسُوِّي عليه التراب، وانصرف عنه الناس راجعين إلى أهلهم، جاءه ملكان في القبر، فتعاد روحه في جسده ويحيا حياة برزخية ليست حياة مثل حياة الدنيا، حياة اللّه أعلم بها، فيجلسانه في قبره فيقولان له: من ربك، وما دينُك، ومَنْ نبيك؟

فالمؤمن يقول: ربي اللَّه، وديني الإسلام، ومحمد ﷺ نبيي، فيقال له: كيف عرفت؟ يقول: قرأت كتاب اللَّه فدريت وعرفت، فينادي مناد: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا من الجنة، ويُوسَّع له في قبره مدَّ البصر، فيأتيه من ريح الجنة وروحها، فينظر إلى مسكنه في الجنة، فيقول: يا ربِّ أقم الساعة؛ حتى أرجع إلى أهلي ومالي!

وأما المرتاب الذي عاش على الريبة والشك، وعدم اليقين، وإن كان يدَّعي الإسلام، إذا كان عنده شكوك وعنده ريب في دين اللَّه كالمنافق فإنه يتلجلج، فإذا قالوا له: مَنْ ربُّك؟ يقول: لا أدري، وإذا قالوا: ما دينُك؟ يقول: لا أدري، وإذا قيل : مَنْ نبيك؟ يقول: لا أدري، هاه هاه لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته[1].

يعني: أنه في الدنيا يقول ما يقوله الناس من غير إيمان -والعياذ باللَّه- هذا المنافق الذي أظهر الإسلام، وهو لا يعتقده في قلبه، وإنما أظهره من أجل مصالحه الدنيوية، فيقول في الدنيا: ربي اللَّه، وهو غير مؤمن بها، قلبه منكر والعياذ باللَّه!!

يقول: ديني الإسلام، وهو لا يؤمن بالإسلام، قلبه منكر!!

يقول: نبيي محمد ﷺ، وهو لا يؤمن برسالة محمد في قلبه!!

إنما يقول بلسانه فقط، هذا هو المنافق، فيُقال له: لا دريت ولا تَلَيْتَ، فيضرب بمرزبة من حديد يصيح منها صيحة لو سمعه الثقلان لصعقوا ، يسمعها كل شيء إلا الإنسان لو سمعه لصعق، أي: لمات من الهول، ويُضيق عليه في قبره حتى تختلف أضلاعه، ويُفتح له باب إلى النار فيأتيه من سَمُومها وحرِّهَا، فيقول: يا رب لا تقمِ الساعة، هذه عيشته وحالته في القبر، -والعياذ باللَّه-

(١) سبق تخريجه (ص١٣).

فإذا قيل لك: مَنْ ربك؟

فقل: ربِّي اللَّه الذي ربَّاني وربَّى جميع العالمين بنعمه [٢].

لأنه ما أجاب بالجواب السديد.

ولذلك ينادي مناد: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا من النار، والعياذ باللَّه.

فإذا كانت هذه المسائل بهذه الأهمية وجب علينا أن نتعلَّمها وأن نعتقدها، ولا يكفي التعلُّم فقط؛ بل نتعلَّمها ونعتقدها، ونؤمن بها، ونعمل بها ما دمنا على قيد الحياة؛ لعل اللَّه أن يثبتنا عند السؤال في القبر.

يقول اللَّه تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فهذه الأصول الثلاثة لها أهمية عظيمة، ولهذا ركَّزَ عليها الشيخ في هذه الرسالة ووضحها من أجل أن ندرسها، ونتمعَّن فيها، ونعتقدها ونعمل بها، لعل اللَّه أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

[٢] لما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الأصول الثلاثة مجملة أراد أن يبينها مفصلة واحدًا واحدًا بأدلتها من الكتاب والسنة، ومن آيات اللَّه في الكون، ومن الأدلة العقلية، وهكذا يجب أن تبنى العقائد على أدلة الكتاب والسنة، وعلى النظر في آيات اللَّه الكونية من أجل أن ترسخ وتثبت في القلب وتزول جميع الشبه.

وأما العقائد المبنية على الشُّبهات، وعلى الشكوك، وعلى أقوال الناس والتقليد الأعمى، فإنها عقائد زائلة لا تثبت، وهي عُرضة للنقض وعُرضة للإبطال.

فلا تثبت العقيدة، ولا سائر الأحكام الشرعية إلا بأدلة الكتاب والسنة، وبالأدلة العقلية المسلَّمة، ولهذا أكثر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من سياق الأدلة على هذه الأصول الثلاثة، فلا يمر أصل منها إلا وقد دعمه بالأدلة والبراهين اليقينية التي

تطرد الشكوك والأهواء، وترسخ العقيدة في القلب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فإذا قيل لك**»: أي: سُئلت «مَنْ ربك؟» وهذا سؤال وارد ستُسأل عنه في الدنيا والآخرة، فلابد أن تعرف ربك عَزَّ وَجَلَّ، وأن تجيب بجواب صحيح مبني على اليقين والبرهان.

فقل: ربي اللَّه -هذا هو الجواب-، الذي رباني وربَّي جميع العالمين بنعمه؛ هذا استدلال عقلي.

فالربُّ -جل وعلا- هو الذي يربي جميع عباده بنعمه، ويغذيهم برزقه، يخلقهم -بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا- في بطون أمهاتهم خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ويوصل إليهم الرزق حتى في بطون أمهاتهم؛ ولذلك ينمو جسم الجنين في بطن أمه ويكبر؛ لأنه يصل إليه الرزق من اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويصل إليه الغذاء.

ثم تُنفخ فيه الرُّوح، فيتحرك ويحيا -بإذن اللَّه- هذه تربية في البطن، ثم إذا خرج فإن اللَّه سبحانه يربيه بنعمه بالصحة والعافية، ويدرُّ عليه لبن أمِّه، فيتغذَّى إلى أن يأكل الطعام ويستغني عن الحليب، ثم ينمو شيئًا فشيئًا عقله وسمعه وبصره، ينمو شيئًا فشيئًا حتى يبلغ الحُلُم، ثم ينمو وينمو حتى يبلغ أشدَّه ويبلغ أربعين سنة، ويكون في غاية القوة.

فمن الذي يغذيه من يوم أن خلقه في بطن أمه إلى أن يموت، من الذي يغذيه ثم من الذي يسوغ هذا الطعام، وهذا الشراب في جسمه فيصل إلى كل خلية وعضلة وإلى كل مكان في جسمه، من الذي يشهي إليه الطعام والشراب، من الذي يصرفه ويخرج منه ضرره، من الذي يفعل هذا ويربي هذا الإنسان، أليس هو اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ هذا هو الربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يربي، هو الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمته.

كل ما على وجه الأرض من العوالم الآدمية والحيوانية، وعالم البر

وهو معبودي ليسَ لي معبودٌ سواه [٣].

والبحر، من أكبر مخلوق إلى أصغر مخلوق، في البر والبحر كلها تتغذى بنعمه ورزقه، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]. وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]. وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]. هذا هو الرب سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [يونس: ٣].

أما غير اللَّه -جل وعلا- فلا يملك من ذلك شيئًا لا الأصنام ولا غيرها، لا أحد يملك من الرزق شيئًا؛ وإنما هو مرزوق مخلوق مثلك.

[٣] قوله: «وهو معبودي»: الربُّ الذي هذا شأنه هو الذي يستحق العبادة مني ومن غيري، ثم أيضًا نبَّه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يكفي الإقرار بالربوبية، لا يكفي أن تقول: ربي اللَّه الذي رباني بنعمه.

هذا لا يكفي لابد أن تعترف له بالعبودية، وأن تُخلص له بالعبادة، وهذا هو الفرق ما بين الموحِّد والمشرك، فالموحِّد يقرُّ بربوبية اللَّه عَزَّوَجَلَّ وبعبوديته وحدهَ لا شريك له، والمشرك يقرُّ بربوبية اللَّه، ولكنه مشرك في عبادته، يُشرِكُ معه غيرَه في عبادته، يشرك معه مَنْ لا يخلق، ولا يرزق، ولا يملك شيئًا.

هذا هو الفرق ما بين الموحد والمشرك؛ الموحد يقول: ربي اللَّه، وهو معبودي، وليس لي معبود سواه.

أما المشرك فيقول: ربي اللَّه؛ لكن العبادة عنده ليست خاصَّة باللَّه، فيعبد مع اللَّه الأشجار والأحجار، والأولياء والصالحين، والقبور، فلذلك صار مشركًا ولم ينفعه الإقرار بالربوبية، ولم يدخله في الإسلام.

فقوله: «وهو معبودي»، أي: الإله الذي أعبده.

وقوله: «ليس لي معبود سواه»: لا من الملائكة، ولا من الرسل، ولا من

الصالحين، ولا من الأشجار، والأحجار، ولا من أي شيء، ليس لي معبود سواه ﷻ، هذا تقرير التوحيد بالدليل، وهذا دليل عقلي، ثم ذكر الدليل النقلي من القرآن.

والدليل قولهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

هذه الآية هي أول القرآن في المصحف، ليس قبلها إلا بسم اللَّه الرحمن الرحيم، وهي آخر كلام أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. واللَّه -جل وعلا- افتتح بها الخلق، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وختم بها الخلق، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. فتح بها الخلق، وختم بها فهي كلمة عظيمة.

فقوله تعالى: الحمد: الثناء على المحمود مع محبته وإجلاله، و«أل» في الحمد للاستغراق، أي: جميع المحامد للَّه ملكًا واستحقاقًا، فهو المستحق للحمد المطلق، وأما غيره فيحمد على قدر ما يفعل من الجميل، ومن الخير، وأما الحمد المطلق الكامل فهو للَّه ﷻ؛ لأن النعم كلها منه.

وحتى المخلوق إذا أسدى إليك شيئًا من الإحسان فإنه من اللَّه ﷻ، هو الذي سخر لك هذا المخلوق، وهو الذي مكّنه من أن يحسن إليك، فالحمد يرجع إلى اللَّه ﷻ.

وقوله: للَّه: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، أي: الحمد كائن، أو مستقر للَّه ﷻ.

واللَّه: معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وهذا الاسم لا يسمى به غيره سبحانه، لا أحد تسمى باللَّه، حتى فرعون، ما قال: أنا اللَّه، لكنه قال: أنا ربكم، فهذا الاسم خاص باللَّه، لا أحد يتسمى به أبدًا، ولا أحد يجرؤ أن يقول: أنا اللَّه.

وكلُّ ما سوى اللَّه عالَم، وأنا واحدٌ من ذلك العالَم [٤].

رب: نعت لاسم الجلالة وهو مجرور وهو مضاف.

العالمين: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

فواضح أن الحمد كله والثناء كله للَّه رب العالمين.

وعالم الملائكة وعالم الجمادات والطيور، وعالم السباع، وعالم الحيوانات، وعالم الحشرات والذر، عوالم في البر والبحر لا يعلمها إلا اللَّه، ولا يحصيها إلا اللَّه، كلها اللَّه ربها.

رب العالمين: وهذا لا يطلق إلى على اللَّه -سبحانه عز وجل-، لا يمكن لأحد أن يقال له: رب العالمين.

فإذا قيل: الرب، فهذا لا يطلق إلا على اللَّه، على اللَّه -جل وعلا-، ولا ينصرف إلا إليه، أما المخلوق فيقيد فيقال: ربُّ الدار، ربُّ البهيمة، أي: مالكها وصاحبها.

[٤] ثم بين الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وجه الاستدلال بهذه الآية.

فقوله: «وكل ما سوى اللَّه عالم، وأنا واحد من ذلك العالم» فيكون اللَّه ربِّي؛ لأن اللَّه ربُّ العالمين، وأنا واحد من العالمين، فلا أحد يستطيع أن يقول: أنا لي رب غير رب العالمين، لا الكافر ولا المسلم، هذا لا يمكن أبدًا، ولا يقوله عاقل، هذا دليل على ربوبية اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وما دام أنه رب العالمين فهو المستحق للعبادة، وهذا يُبطل عبادةَ غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وهذا يفيد الحصر؛ لأن تقديم المعمول -إياك- وتأخير العامل -نعبد- يدل على الحصر، فإياك نعبد يختلف عن نعبدك، لأن نعبد، هذا إثبات فقط، لكن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتضمن النفي والإثبات، أي: لا نعبد غيرك، والعبادة لا تصح

فإذا قيلَ لك: بما عرفتَ ربَّكَ؟

فقل: بآياته، ومخلوقاته [٥].

إلا مع النفي والإثبات، وهو معنى لا إله إلا اللَّه، فيها نفي وإثبات، نفي الألوهية عما سوى اللَّه، وإثباتها للَّه ﷻ.

[٥] أنت قلت: اللَّه ربي، أو ربي اللَّه الذي رباني بنعمه، ما هو الدليل على أن اللَّه ربك الذي ربَّاك بنعمه؟

جاء الشيخ بأدلة من الوحي ومن العقل كما سيأتي، فإذا قيل لك: بم عرفت ربَّك؟ لأن من ادَّعَى شيئًا فلابد أن يقيم الدليل على دعواه:

والدَّعاوى إذا لَم يُقيموا   عليها بينات أهلُها أدعياءُ

لابدَّ لكل مدع أن يقيم الدليل على دعواه، وإلا كانت دعواه غير صحيحة، أنت قلت: ربي اللَّه الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه، ما الدليل؟

فقل: الدليل آياته ومخلوقاته.

الآيات: جمع آية، والآية في لغة: العلامة على الشيء، والدلالة على الشيء، كما قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث**»[1]. أي: علامته.

قوله: «**بآياته**»؛ أي: العلامات والدلالات الدالة عليه سبحانه وتعالى، فجميع هذه الكائنات التي ترونها كلها كانت معدومة، ثم إن اللَّه أوجدها وخلقها بقدرته سبحانه وتعالى.

ومنها خلق يتجدد مثل النبات والمواليد وأشياء ما كانت موجودة، ثم وجدت، وأنتم تنظرون إليها، من الذي يخلقها؟ هو اللَّه سبحانه وتعالى، هل تخلق نفسها، هل أحد من البشر خلقها؟ لا أحد ادعى هذا، ولا يستطيع أن يدَّعي.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن آياته: الليل والنهارُ، والشمسُ والقمر، ومن مخلوقاته: السموات السبع والأرضون السبع، وما فيهن وما بينهما [٦].

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]. هذه الأشياء ما أَوجَدَتْ نفسها، أو أوجدها غيرُها من المخلوقات أبدًا لم ولن يخلق أحدٌ شجرةً أو بعوضة أو ذبابًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

فهذا الخلق يدل على الخالق ﷻ، ولهذا لما قيل لأعرابي على البديهة: بِمَ عرفت ربك؟ قال: البعرةُ تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ألا يدل هذا الكون على اللطيف الخبير.

إذا رأيت أثر قدم على الأرض، أما يدلك هذا على أن أحدًا مشى على هذه الأرض؟ إذا رأيت بعرَ بعيرٍ، ألا يدلك هذا على أن هذه الأرض فيها إبل، أو مر عليها بعير؟ البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير.

[٦] **قوله: «ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر»**: فالآيات على قسمين:

القسم الأول: آيات كونية تشاهد، مثل السموات والأرض والنجوم، والشمس والقمر، والجبال، والشجر، والبحار، سميت آيات؛ لأن بها دلالات على خالقها ﷻ، ولهذا يقول أبو العتاهية:

فيا عجبًا كيفَ يُعصى الإلـ ـهُ أم كيف يَجحدُه الجاحِدُ

وفي كلِّ شيء له آيةٌ تَدلُّ على أنه واحدُ

ولله في كلِّ تحريكة وتسكينة في الورَى شاهدُ

فكيف يجحد أحد اللَّه -جل وعلا-، ويقول: ليس هناك رب لهذا الكون كله، وهذه المخلوقات وجدت من غير خالق، وإن وجدت بخالق فمن هو هذا

الخالق غير اللَّه -جل وعلا- بيِّنْ لي؟ لا تجد خالقًا غير اللَّه ﷻ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

القسم الثاني: الآيات القرآنية التي تُتلى من الوحي المنزل على الرسول ﷺ، هذه كلها أدلة على وجود الرب ﷻ، وعلى كماله وصفاته وأسمائه، وعلى أنه مستحق للعبادة وحده لا شريك له، كلها تدل على ذلك الآيات الكونية والآيات القرآنية.

الآيات الكونية تدل على خالقها وموجدها ومدبرها، والآيات القرآنية فيها الأمر بعبادة اللَّه، وفيها تقرير توحيد الربوبية، والاستدلال به على توحيد الألوهية، والأمر بعبادة اللَّه ﷻ، كل القرآن يدور على هذا المعنى، وأُنزل من أجل هذا المعنى.

ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر، هذه من أعظم آياته ﷻ، الليل المظلم الذي يغطي هذا الكون، والنهار المضيء الذي يضيء هذا الكون، فينتشر الناس لأشغالهم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

هذا من أعظم آيات اللَّه هذا الليل، وهذا النهار، لا الوقت كله ليل، ولا الوقت كله نهار؛ لأنه لو كان كذلك تعطلت مصالح العباد وتعبوا.

جعل اللَّه لهم الليل والنهار يتعاقبان، ثم إن الليل والنهار منتظمان لا يتخلف واحد منهما ولا يتغير على نظام واحد؛ مما يدل على حكمة الحكيم ﷻ، أفعال العباد وصناعاتهم تخرب وتختلف مهما كانت وتتعطل، وأما مخلوقات اللَّه ﷻ فإنها لا تخرب إلا في وقت يأذن اللَّه فيه بخرابها.

• الدليل على ربوبيته وإلهيته ﷻ •

والدليل: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] [٧].

فالليل والنهار مستمران لم يتعطل أحد منهما، بينما صناعة الخلق تتعطل وتخرب وتفنى، وإن كانت قوية أو ضخمة.

كم تشاهدون من السيارات المرمية والطائرات والبواخر مع أنها قوية ومعتنى بها لكنها تخرب وتتعطل، هل تعطل الليل أو تعطل النهار؟ لا، لأن صانعه قدير حكيم -جل وعلا-: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨].

[٧] هذا دليل على ربوبيته وإلهيته ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾.

الشمس والقمر: الشمس الكوكب العظيم الذي يضيء الكون سراجًا وهاجًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

والقمر: نور يضيء الليل، ويضيء الطريق للناس.

ومن مصالحهما أيضًا: إصلاح الكون بأشجاره وثماره وبحاره، فلو اختفت الشمس عن الكون لتضرر الكون وفسدت كثير من معايش الناس ومصالحهم، ولو اختفى القمر كذلك، القمر أيضًا فيه منافع للثمار والأشجار، مع ما فيه أيضًا من معرفة الحساب، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]. وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ففي الأهلَّة مصلحة لمعرفة المواقيت والآجال، آجال الديون، وآجال

العِدَدِ للنساء، ومواقيت العبادات، والصيام، والحج، كلها تعرف بالحساب المبني على هذين النيرين: الشمس والقمر، فالحساب الشمسي والحساب القمري فيهما مصالح للخلق أجمعين.

ومن مخلوقاته: السموات السبع، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]. بعضها فوق بعض، السماء الدنيا، ثم التي تليها إلى السابعة، وفوق الجميع عرش الرحمن ﷻ.

والأرضون سبع كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فهي سبع طباق أيضًا، وكل طبقة من طبقات السموات السبع والأرضين لها سكان وعُمَّار، ما في السموات من الكواكب والأفلاك الشمس والقمر، وما في الأرض من المخلوقات من الدواب باختلاف أنواعها، ومن الجبال والأشجار والأحجار، ومن المعادن، ومن البحار هذه من آيات اللّٰه ﷻ، الآيات الكونية التي تُرى وتُشاهد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

من آياته الليل: يعني من علاماته الدالة على الربوبية، وقدرته، واستحقاقه للعبادة دون سواه: الليل الذي يظلم، والنهار الذي يضيء الكون كله، هذا من عجائب آيات اللّٰه ﷻ.

فمن الذي يجعل الكون كله مظلمًا في آن واحد؟ ثم يجعل الكون كله مضيئًا في آن واحد؟ هو اللّٰه ﷻ، لو اجتمع الخلق على أن يضيئوا بقعة من الأرض ما استطاعوا أن يضيئوا إلا بقعة محدودة، لو جاءوا بمكائن الكهرباء التي في الدنيا كلها لا تضيء إلا جزءًا محدودًا من الأرض.

أما الشمس والقمر فهما يضيئان الأرض كلها، الليل والنهار يتعاقبان،

والشمس والقمر كذلك.

قال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

هذا إبطال للشرك، لا تسجدوا للمخلوقات؛ لأن من أعظم المخلوقات الشمس والقمر؛ ولأن المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها، ومنهم من يعبد القمر والكواكب مثل قوم إبراهيم يبنون لها هياكل على صورة الكواكب ويعبدونها، فقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ السجود معناه: وضع الجبهة على الأرض خضوعًا للمعبود، وهو أعظم أنواع العبادة، ورسول الله ﷺ يقول: «**أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد**»[1].

فأعظم أنواع العبادة السجود على الأرض؛ لأن وجهك الذي هو أعزُّ شيء عندك وضعتَه للَّه على الأرض تعبدًا للَّه وتذللًا بين يديه ﷻ، هذا هو السجود الحقيقي، ولا يليق التعبد به إلا للَّه.

أما السجود للشمس والقمر فهو سجود لمخلوق لا يستحق أن يسجد له، فلا يجوز السجود للمخلوقات، وإنما السجود لخالق المخلوقات، أما المخلوقات فهي مثلك مخلوقة مُدَبَّرة متصرَّف فيها، هل تسجد لمخلوق عاجز مثلك؟ هذا لا يجوز أين ذهبت العقول؟!

السجود إنما يستحقه الخالق ﷻ الذي لا يعجزه شيء، فالسجود حق للَّه ﷷ وليس حقًّا للمخلوق مهما كان هذا المخلوق من العِظَم والكِبَر فإنه مخلوق ضعيف مدبَّر متصرَّف فيه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

فالواجب: ألا نعبد إلا اللَّه، فإذا سجدتم له، وسجدتم لغيره، فإنكم

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] [٨].

لا تكونون عابدين للَّه العبادةَ الصحيحة؛ بل تعبدونه مع الشرك، والشرك يفسد العبادة.

[٨] ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، وهي موطئة للقسم، يقدر قبلها قسم تقديره واللَّه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾: فهي في جواب قسم مقدر.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أي: خالقكم، ومربيكم بالنعم.

﴿ٱللَّهُ﴾: لا غيره ﷻ.

ثم ذكر الدليل على ذلك فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا هو البرهان على ربوبية اللَّه ﷻ، أنه خلق السموات والأرض، ولا أحد خلق شيئًا منهما، ولا أحد أعانه ﷻ على ذلك؛ بل هو المنفرد بخلقه: ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هل أحد من المشركين أو الملاحدة عارض هذا، وقال: ما خلق اللَّه السموات والأرض، الذي خلقها هو فلان، أو أنا الذي خلقتها، أو خلقها الصنم الفلاني؟ هل قال هذا أحد من العالم قديمًا وحديثًا، مع أن هذه الآية تتلى ليلًا ونهارًا؟ ولا أحد عارضها ولا يستطيع أن يعارضها أبدًا.

﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: هذه المخلوقات الهائلة العظيمة خلقها اللَّه في ستة أيام، وهو قادر على أن يخلقها في لحظة، ولكنه خلقها في ستة أيام لحكمة يعلمها ﷻ، وستة الأيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، ففي يوم الجمعة تكامل الخلق؛ ولذلك صار هذا اليوم أعظم أيام الأسبوع، وهو سيد الأيام، وعيد الأسبوع، وهو أفضل الأيام.

قال رسول اللَّه ﷺ: **«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة»**[١]. لأنه تكامل فيه خلق المخلوقات، وخُلِق فيه آدم وأُدخل الجنة، وأُهبط منها، وفيه تقوم الساعة، كل ذلك في يوم الجمعة، فهو أفضل الأيام، وهو آخر أيام الخلق خلق السموات والأرض وما فيهن.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ حرف عطف وترتيب، أي: أن استواءه على العرش جاء بعد خلق السموات والأرض؛ لأنه من صفات الأفعال التي يفعلها اللَّه متى شاء.

ومعنى استوى: ارتفع وعلا.

العرش: هو سقف المخلوقات.

وهو في اللغة: السرير، وهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو أعظم المخلوقات وأعلى المخلوقات.

الاستواء: صفة من صفات اللَّه الفعلية، كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، ليس كاستواء المخلوق على المخلوق، وليس هو بحاجة إلى العرش؛ لأنه هو الذي يمسك العرش وغيره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ﴾ [فاطر: ٤١].

فالعرش محتاج إلى اللَّه عز وجل؛ لأنه مخلوق، واللَّه غني عن العرش وغيره، لكنه استوى عليه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، والاستواء نوع من العلو، لكن العلو صفة ذات، وأما الاستواء فهو صفة فعل يفعله إذا شاء سبحانه وتعالى.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يغشي الليل بالنهار، ويغطي النهار بالليل، فبينما ترون الكون مضيئًا فإذا الليل يغطيه فيصبح مظلمًا، والليل يغطيه النهار فيصبح مضيئًا.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ يأتي هذا بعد هذا مباشرة ولا يتأخر، فإذا أدبر الليل جاء النهار، وإذا أدبر النهار جاء الليل مباشرة، لا يتأخر هذا عن هذا، وهذا من

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٤)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٨٨)، والنسائي (٣/ ٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كمال قدرته ﷻ، لا يفتر هذا عن هذا.

والشمس هي الكوكب العظيم المعروف، والقمر كذلك كوكب من الكواكب السبعة السيارة، وكل منهما يجري ويدور على الأرض، والأرض ثابتة مستقرة، جعلها قرارًا، أي قارة ثابتة لمصالح العباد، والشمس وسائر الأفلاك تدور عليها.

لا كما يقوله المتخرصون الآن من الذين يدَّعون المعرفة، يقولون: إن الشمس ثابتة والأرض تدور عليها هذا عكس ما في القرآن . . . ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨]. وهم يقولون: الشمس ثابتة، يا سبحان اللَّه!

والنجوم: هي الكواكب.

مسخرات بأمره: مسخرات في الجريان والدوران دائمًا لا يفترن، وهذا رد على الذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب بأنها مسخرة بأمر اللَّه مأمورة، اللَّه الذي يجريها، واللَّه الذي يوقفها، إذا شاء ﷻ، فهي مسخرة مدبَّرة ليس لها من الأمر شيء.

يأمرها سبحانه فتجري وتدور وتضيء بأمره الكوني ﷻ، يطلع هذا ويغرب هذا ويتعاقبان، نصب الشمس والقمر، والنجوم على العطف؛ لأن السموات منصوب؛ لأنه مفعول وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والأرض معطوف على السموات منصوب بالفتحة، ثم قال: والشمس والقمر معطوف على المنصوب، والمعطوف على المنصوب منصوب.

مسخرات: منصوب على الحال، أي: حال كونها مسخرات، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المؤنث السالم. قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿أَلَآ﴾: أداة تنبيه وتقرير، له ﷻ لا لغيره.

﴿ٱلْخَلْقُ﴾: وهو الإيجاد؛ فهو القادر على الخلق إذا أراد ﷻ يخلق ما يشاء.

والأمر: أمره ﷻ، وهو كلامه ﷻ الكوني والشرعي.

أمره الكوني: الذي يأمر به المخلوقات فتطيعه، وتستجيب له، مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]. أمرهما سبحانه، وهذا أمر كوني أمر به السموات والأرض، فتكونت: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. هذا أمر كوني.

أما الأمر الشرعي: فهو وحيه المنزل الذي يأمر به عباده، يأمرهم بعبادته، يأمرهم بالصلاة، يأمرهم بالزكاة، يأمرهم ببر الوالدين، هذا أمره الشرعي، يدخل فيه الأوامر والنواهي التي في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، هذا من أمر اللَّه ﷻ.

إذا كان له الخلق والأمر فماذا بقي لغيره ﷻ؟

ولهذا يقول ابن عمر لما قرأ هذه الآية، قال: «من له شيء فليطلبه».

ودلت الآية على الفرق بين الخلق والأمر ففيه ردٌّ على من يقولون بخلق القرآن؛ لأن القرآن من الأمر، وأمر اللَّه ليس مخلوقًا؛ لأن اللَّه غاير بين الخلق وبين الأمر فجعلهم شيئين متغايرين، والقرآن داخل في الأمر فهو غير مخلوق.

وهذا ما خَصَمَ به الإمام أحمد الجهميةَ لما طلبوا منه أن يقول بخلق القرآن. قال: هل القرآن من الخلق أو من الأمر؟ قالوا: القرآن من الأمر. قال: الأمر غير مخلوق، اللَّه غاير بينه وبين الخلق، فجعل الخلق شيئًا والأمر شيئًا آخر.

الأمر كلام، وأما الخلق فهو إيجاد وتكوين، يوجد فرق بينهما.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعاظم الذي هذه أفعاله ﷻ وهذه قدرته وهذه مخلوقاته -تبارك وتعالى-.

وتبارك: فعل خاص به سبحانه، فلا يطلق على غيره، والبركة هي كثرة الخير ونماؤه، وبركات اللَّه -جل وعلا- لا تتناهى، أما المخلوق فلا يقال له: تبارك. إنما يقال له: مبارك يعني: بارك اللَّه فيه وجعله مباركًا، والبركة

والربُّ هو المعبودُ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢] **[٩]**.

كلها من اللَّه ﷻ.

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: مثلما سبق ففي هذه الآية تقرير التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية كما سبق.

[٩] قوله: «والرب هو المعبود» أي: هو الذي يستحق العبادة، وأما غيره فلا يستحق العبادة؛ لأنه ليس ربًّا، هذا وجه كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «الرب هو المعبود» أي: هو الذي يستحق العبادة، ثم أيضًا لا يكفي أن الإنسان يقرُّ بالربوبية بل لابد أن يقرَّ بالعبودية للَّه ﷻ، ويفعلها مخلصًا له ﷻ، فما دام أقر أنه الرب، فإنه يلزمه أن يقر أنه هو المعبود، وأن غيره لا يستحق شيئًا من العبادة.

والدليل على أن العبادة خاصة بالرب، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هذا نداء من اللَّه لجميع الناس المؤمنين والكفار؛ لأن اللَّه ذكر في هذه السورة -سورة البقرة- انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المؤمنون الذين يؤمنون بالغيب، ويؤمنون باليوم الآخر، ووصفهم بأنهم هم المفلحون في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

القسم الثاني: الكفار الذين أظهروا الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

القسم الثالث: المنافقون الذين ليسوا مع الكفار، وليسوا مع المؤمنين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]. فهم مؤمنون في الظاهر لكنهم كفار في الباطن، وهؤلاء شرٌّ من الكفار المجاهرين بكفرهم، ولهذا أنزل اللّه فيهم بضع عشرة آية، بينما أنزل في المؤمنين آيات قليلة، وفي الكفار آيتين.

أما المنافقون فبدأ ذكرهم من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ إلى قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة:٨-٢٠].

هذا كله في المنافقين لشدة خطرهم وقبح فعلهم، ولما ذكر هذه الأصناف الثلاثة قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهذا دعاء لجميع الأصناف المؤمنين والكفار والمنافقين.

قال العلماء: أول نداء في المصحف هو هذا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

اعبدوا: فعل أمر، أي: أخلصوا له العبادة، لماذا؟ لأنه ربكم، والعبادة لا تصلح إلا للرب ﷻ، ثم ذكر الدليل على ذلك، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: من الأمم كلهم، خلق اللّه ﷻ الملائكة، والجن، والإنس، وجميع المخلوقات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: إذا تدبرتم هذا، فلعل هذا أن يسبب لكم التقوى إذا تدبرتم أنه الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، لعلكم تتقونه ﷻ في عبادته؛ لأنه لا يقي من عذابه إلا طاعته ﷻ، لعلكم تتقون عذابي وتتقون النار؛ لأنه لا يقيكم منها إلا عبادة ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.

ثم واصل الاستدلال على ربوبيته وعبوديته ﷻ بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي: بساطًا ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح:١٩]. أي: مبسوطة، وفراشًا، أي: تفترشونها، تنامون عليها، تبنون عليها، تزرعون على ظهورها، تسيرون عليها في سفركم أينما تريدون، فالأرض فراش ومهاد ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]. **لأجل مصالحكم.**

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: فالسماء سقف الأرض، وفيها مصالح للعباد ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

* * *

• أنواع العبادة التي أمر اللَّه بها، وأدلة كل نوع •

قال ابن كثير -رحمه اللَّه تعالى-: الخالقُ لهذه الأشياء هو المستحقُّ للعِبادَة. وأنواع العبادة التي أَمَرَ اللَّه بها مثلُ الإسلام والإيمان والإحسان.[١٠].

---

[١٠] لما بين الشيخ أن الرب هو المعبود، واستدل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ استشهد بكلام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره للآية، وأراد أن يبين أنواع العبادة، وأدلة كل نوع، فالعبادة في اللغة معناها: التذلل والخضوع، ومنه طريق معبد، يعني: مذلل مخضع بالمشي عليه.

والعبادة قسمان:

القسم الأول: عبادة عامة لجميع الخلق، كلهم عباد اللَّه، المؤمن، والكافر، والفاسق، والمنافق كلهم عباد اللَّه، بمعنى أنهم تحت تصرفه وقهره، وأنهم تجب عليهم عبادته ﷻ، هذه عبادة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، كلهم يقال لهم: عباد اللَّه، بمعنى أنهم مخلوقون له مذللون، لا يخرج أحد منهم عن قبضته وسلطانه، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

هذا يشمل كل من في السموات والأرض المؤمن والكافر، كلهم يأتون يوم القيامة منقادين للَّه ﷻ، ليس لأحد منهم شركة مع اللَّه ﷻ في ملكه.

القسم الثاني: عبودية خاصة بالمؤمنين كما قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. وقال الشيطان: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]. هذه عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة والتقرب إلى اللَّه بالتوحيد.

والعبادة في الشرع اختلف العلماء في تعريفها، يعني: اختلفت عباراتهم في تعريفها، والمعنى واحد:

فمنهم من يقول: العبادة غاية الذل مع غاية الحب، كما قال ابن القيم في النونية:

وعبادةُ الرَّحْمَن غايةُ حُبِّه مع ذُلِّ عابده هما قطبان

فعرفها بأنها غاية الحب مع غاية الذل.

ومنهم من يقول: العبادة هي: ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي، ولا اقتضاء عقلي.

لأن العبادة توقيفية لا تثبت بالعقل، ولا بالعرف، وإنما تثبت بالشرع، وهذا تعريف صحيح.

ولكن التعريف الجامع المانع هو ما عرَّفه بها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

هذا التعريف الجامع المانع، وهو أن العبادة اسم لجميع ما أمر اللَّه به، ففعل ما أمر اللَّه به طاعة للَّه، وترك ما نهى اللَّه عنه طاعة للَّه، هذه هي العبادة، ولا تحصر أنواعها، أنواعها كثيرة، كل ما أمر اللَّه به فهو عبادة، وكل ترك لما نهى اللَّه عنه طاعة للَّه هو عبادة، ولا تحصر أنواعها، أنواعها كثيرة كل ما أمر اللَّه به فهو عبادة، وكل ما نهى اللَّه عنه فتركه -سواء كان ظاهرًا على الجوارح، أو كان باطنًا في القلوب-، هو عبادة؛ لأن العبادة تكون على اللسان، وتكون على القلب، وتكون على الجوارح.

تكون على اللسان مثل: التسبيح، والذكر، والتهليل، والنطق بالشهادتين، كل أقوال اللسان المشروعة من ذكر اللَّه، فإنها عبادة.

• الإسلام، والإيمان، والإحسان ودليل كل •

وأنواع العبادة التي أَمَرَ اللَّه بها مثلُ الإسلام، والإيمان، والإحسان [١١].

وكذلك كل ما في القلب من التقرب إلى اللَّه ﷻ فإنه عبادة: كالخوف، والرجاء، والخشية، والرغبة، والرهبة، والتوكل، والإنابة، والاستعانة، كل هذه أعمال

قلب، اللجوء إلى اللَّه بالقلب، وخشية اللَّه وخوفه، والرغبة إليه، ومحبته سبحانه، والإخلاص له، والنية الصادقة للَّه ﷻ، كل ما في القلوب من هذه الأنواع فهو عبادة.

وكذلك تكون العبادة على الجوارح مثل: الركوع والسجود، والجهاد في سبيل اللَّه، والجهاد بالنفس، والهجرة، كل هذه عبادات بدنية، والصيام عبادة بدنية تظهر على الجوارح.

فإذن العبادة تكون على اللسان، وعلى القلب، وتكون على الجوارح، ثم هذه العبادة تنقسم إلى عبادة بدنية وإلى عبادة مالية.

العبادة البدنية: هي الثلاثة الأنواع التي قلنا، تكون على اللسان، وعلى الجوارح، وعلى القلب.

وتكون مالية: مثل: إخراج الزكاة، ومثل: الإنفاق في سبيل اللَّه، وهو الإنفاق في الجهاد، قال اللَّه تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٢٠]. قدَّم الأموال على الأنفس، فالجهاد بالمال عبادة مالية.

الحج يتكون من عبادة بدنية، وعبادة مالية، فأداء المناسك: الطواف، والسعي، ورمي الجمار، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة عبادة بدنية، أما الإنفاق فيه فهو عبادة مالية؛ لأن الحج يحتاج إلى نفقة.

[١١] والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أورد أمثلة للعبادة من باب التمثيل لا من باب الحصر؛

• الدعاء أقسامه ودليله •

ومنه الدُّعاء، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبة، والخشوع، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة

لأنها أكثر مما ذكره، ولا يمكن استيعابها في رسالة مختصرة، لكن ذكر أمثلة، ولشيخ الإسلام رسالة مستقلة، اسمها «العبودية» تبحث في العبادة، وأنواع العبادة، وبيان الانحرافات التي حصلت من الصوفية وغيرهم في العبادة، وهي رسالة قيمة يحتاج طالب العلم أن يقرأها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **«مثل الإسلام والإيمان، والإحسان»**: هذه الأنواع الثلاثة أعظم أنواع العبادات، الإسلام، والإيمان والإحسان، وسيأتي شرحها في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الأصل الثاني، وذكرها هنا؛ لأنها من أنواع العبادة.

فالإسلام بأركانه الخمسة؛ الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت اللَّه الحرام، هذه كلها عبادات مالية وبدنية، وكذلك الإيمان، بأركانه الستة، وهو من أعمال القلوب: الإيمان باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، هذا عبادة قلبية.

كذلك الإحسان وهو ركن واحد، وهو أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، هذا أعلى أنواع العبادة؛ لأن الإحسان هو أعلى أنواع العبادة، وهذه تسمى مراتب الدين؛ لأن مجموعها هو الدين؛ لأن جبريل لما سأل النبي ﷺ بحضرة أصحابه، وأجابه النبي ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، قال: **«هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»**[1]. فسمى هذه الثلاثة: الدين.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٨ و٩ و١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التي أمر اللَّه بها، كلها للَّه تعالى [١٢].

والدليل: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] **[١٣].**

---

[١٢] **قوله: «ومنه الدعاء»**؛ أي: ومن أنواع العبادة: الدعاء، بدأ به لأنه أعظم أنواع العبادة:

والدعاء على قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

دعاء العبادة: هو الثناء على اللَّه ﷻ كما في أول الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥]. هذا كله دعاء عبادة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. إلى آخر السورة هذا دعاء مسألة.

ودعاء المسألة: هو طلب شيء من اللَّه ﷻ كطلب الهداية، وطلب الرزق، وطلب العلم من اللَّه، وطلب التوفيق.

[١٣] **المساجد**: تطلق ويراد بها أماكن السجود والبقاع التي يُصلَّى فيها، وهي أحب البقاع إلى اللَّه ﷻ، قد جاء الترغيب في بنائها وإعدادها، قال ﷺ: **«من بنى مسجدًا للَّه كمفحص قطاة، أو أصغر، بنَى اللَّه له بيتًا في الجنة»**[١].

يقول اللَّه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

والمراد بالعمارة: العمارة الحسية، والمعنوية، عمارتها بالطين، وما تحتاج إليه حتى تأوي المصلين، وتظلهم من الحر، وتكنُّهم من البرد، وعمارتها بالعبادة؛ بالصلاة، وتلاوة القرآن، وذكر اللَّه ﷻ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٥٤) (٢١٥٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن ماجه (٧٣٨)، وابن خزيمة (١٢٩٢) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه.

فمن صرف شيئًا منها لغير اللَّه فهو مشرك كافرٌ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وفي الحديث: «الدعاءُ مخُّ العبادة»[1].

والدليلُ: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

وتطلق المساجد، ويراد بها أعضاء السجود السبعة، وهي الجبهة، والأنف، واليدان والركبتان ورءوس القدمين؛ لأنها تسجد للَّه، والآية تشتمل المعنيين.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: البقاع التي يُصلَّى فيها، وأعضاء السجود للَّه ﷻ.

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ لا تجعلوا هذه المساجد وهذه البقاع محلًّا للشرك ودعوة غير اللَّه؛ بل يجب أن تطهَّر المساجد من الشرك، فلا يكون فيها قبور، ولا يكون فيها دعاء لغير اللَّه، ولا يكون فيها بدع ومحدثات وحلقات صوفية مبتدعة.

يجب أن تطهر المساجد عن البدع والشرك والمعاصي؛ لأنها للَّه ﷻ فلا يكون فيها إلا ما يرضي اللَّه ﷻ، فلا تدعوا مع اللَّه أحدًا في هذه المساجد، أو تستخدموا أعضاءكم بالسجود لغير اللَّه ﷻ؛ لأن هذا شرك أكبر كالذي يسجد للصنم، أو للقبر، أو يسجد للوثن فهذا يسجد لغير اللَّه ﷻ.

الشاهد في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أمر بإخلاص الدعاء له وحده.

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ يعم كل مدعو من دون اللَّه سواء كان ملكًا، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو شجرًا، أو حجرًا، يعم كل من دُعِيَ من دون اللَّه ﷻ فإنه يكون شركًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده ابن لهيعة، ضعيف يعتبر به، قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] [١٤].

أكبر.

[١٤] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ أي: أمركم ربكم وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أمر بدعائه سبحانه ووعد بالاستجابة، وهذا من كرمه ﷻ؛ لأنه غني عن دعائنا؛ ولكننا محتاجون لدعائه ﷻ، فهو يأمرنا بما نحتاج إليه وبما يصلحنا، وهو سبحانه يغضب إذا تركت سؤاله بينما المخلوق يغضب إذا سألته، ولهذا يقول الشاعر:

اللَّه يغضبُ إن تركت سؤالَه ... وبُنَيُّ آدمَ حين يُسألُ يَغضبُ

ويقول آخر:

فلو سُئل الناسُ الترابَ لأوشكوا ... إذا قيل هاتوا أن يَملُّوا ويَمنعوا

فالناس أقسام ثلاثة:

الأول: من لا يدعو اللَّه أصلًا، فيكون مستكبرًا عن عبادة اللَّه.

الثاني: من يدعو اللَّه؛ ولكن يدعو معه غيره فيكون مشركًا.

الثالث: من يدعو اللَّه مخلصًا له الدعاء، فهذا هو الموحد.

في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء مخ العبادة**». وفي رواية: «**الدعاء هو العبادة**»(١). فهذا يدل على عظيم الدعاء، وأنه أعظم أنواع العبادة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**مخ العبادة**».

وفي رواية: «**الدعاء هو العبادة**». والرواية الثانية أصح من رواية: «**الدعاء مخ العبادة**». والمعنى واحد.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

• الخوف أنواعه ودليله •

ودليلُ الخوف: قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] **[١٥]**.

فالحديث بروايتيه يبين عِظَمَ الدعاء، وأنه هو النوع الأعظم من أنواع العبادة، كما قال ﷺ: «**الحج عرفة**»[١]. بمعنى أن الوقوف بعرفة في الحج هو الركن الأعظم من أركان الحج، وليس معناه أن الحج كله هو عرفة؛ ولكن الوقوف بعرفة هو أعظم أركان الحج، كذلك ليست العبادة محصورة في الدعاء؛ ولكن الدعاء هو أعظم أنواعها، ولهذا قال: «**الدعاء هو العبادة**». من باب تعظيم الدعاء، وبيان مكانته.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلة أنواع العبادة التي ذكرها وهي: الخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر اللَّه بها كلها للَّه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[١٥] الخوف نوع من أنواع العبادة، وهو عبادة قلبية، وكذلك الخوف، والخشية، والرغبة، والرهبة، والرجاء، والتوكل كلٌّ هذه عبادات قلبية.

والخوف: هو توقع المكروه، وهو نوعان: خوف العبادة، والخوف الطبيعي.

النوع الأول: خوف العبادة، هذا صرفه لغير اللَّه شرك، وذلك بأن يخاف غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، كأن يخاف أحدًا أن يمرضه، أو أن يقبض روحه، أو يميت ولده.

كما يفعل كثير من الجهال؛ يخافون على حمل زوجاتهم، وعلى أولادهم

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥) من حديث عبد الرحمن بن يعمَرَ الديلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من الجن، يخافون من السحرة، أو من الموتى، فيعملون أعمالًا شركية لأجل أن يتخلصوا من هذا الخوف، فهذا لا يقدر عليه إلا اللَّه، الأمراض والموت والرزق وقطع الأجل، هذه أمور لا يقدر عليها إلا اللَّه ﷻ.

وكذلك إنزال البركة، أو غير ذلك، هذه أمور لا تكون إلا من اللَّه ﷻ فإذا خاف أحدًا في شيء لا يقدر عليه إلا اللَّه، فهذا شرك أكبر؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير اللَّه ﷻ.

كالذين يخافون من القبور، ومن الأضرحة، ومن الجن، ومن الشياطين، أن تمسهم بسوء، أو أن تنزل بهم ضررًا، فيذهبون يتقربون إلى هذه الأشياء لدفع ضررها، أو خوفًا منها، هذا شرك أكبر.

يقول: أخاف إن لم أذبح له أن يصيبني أو يصيب أولادي، أو مالي، أو ما أشبه ذلك، كما قال قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يهددونه بآلهتهم، ويخوفونه بآلهتهم ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٤-٥٦]. هذا هو التوحيد تحداهم كلهم هم وآلهتهم.

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلوني؛ بل من الآن فكيدوني، ولم يقدروا عليه بشيء؛ بل نصره اللَّه عليهم.

فالذي يخاف من غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه؛ هذا يكون قد أشرك الشرك الأكبر، وهذا يسمى خوف العبادة.

وخوف الشرك كثير في الناس، يخافون من القبور أو من الأولياء، يخافون من الشيطان، يخافون من الجن؛ ولذلك يقومون بتقديم القربات لهم، يقدمون لهم الذبائح والنذور والأطعمة وغير ذلك كإلقاء النقود على أضرحتهم من أجل أن يسلموا من شرهم، أو ينالوا من خيرهم، فهذا هو خوف العبادة.

النوع الثاني: **الخوف الطبيعي**: وهو أن تخاف من شيء ظاهر يقدر على ما

تخافه منه، كأن تخاف من الحية، أو العقرب، أو من العدو؛ هذه أمور ظاهرة ومعروفة فالخوف منها لا يسمى شركًا، هذا خوف طبيعي من شيء ظاهر معروف؛ لأنك تخاف من سبب ظاهر ومطلوب الوقاية منه، والحذر منه، تأخذ السلاح، تأخذ العصا لقتل الحية والعقرب، وقتل السبع؛ لأن هذه أمور محسوسة، وفيها ضرر معلوم، فإذا خفت منها، فهذا لا يسمى شركًا؛ بل يسمى خوفًا طبيعيًّا.

ولهذا قال اللَّه في موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ أي: من البلد ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]. خائفًا من أعدائه؛ لأنه قتل منهم نفسًا.

وهرب -عليه الصلاة والسلام- إلى مَدْيَنَ، وكان يترقب، ويخشى أن يلحقوه، فهذا خوف طبيعي؛ لكن تعلَّم الإنسان أن يعتصم باللَّه عز وجل، ويأخذ بالأسباب التي تدفع عنه الضرر، ويعتمد على اللَّه عز وجل ويتوكل على اللَّه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. هذه الآية في سورة آل عمران في قصة النبي ﷺ مع المشركين يوم أُحد لما توعَّدهم المشركون وقالوا: نرجع إليهم، ونستأصلهم، فاللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. أي: أن هذا التهديد وهذا الوعيد إنما هو من الشيطان، أي: يخوفكم أولياءه أو يخوف مَنِ انقاد له من الناس، وخاف منه، فإنه يتسلط عليهم.

* * *

• الرجاء ودليله •

ودليلُ الرجاء: قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] [١٦].

---

[١٦] قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ يعني يطمع في ثواب اللَّه ﷻ ورؤيته عيانًا يوم القيامة، من كان يطمع في أن يرى اللَّه عيانًا يوم القيامة؛ فليعمل عملًا صالحًا.

يأتي بالسبب الذي يؤهله لحصول هذا المطلوب، وهو الثواب بدخول الجنة، والنجاة من النار، والنظر إلى وجه اللَّه؛ لأن هذا متلازم؛ لأن من دخل الجنة فإنه يرى اللَّه ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هذا يدل على أن الرجاء وحدهَ لا يكفي، لابد من العمل.

أما أنك ترجو اللَّه؛ ولكنك لا تعمل فهذا تعطيل للسبب، فالرجاء المحمود هو الذي يكون معه عمل صالح، أما الرجاء غير المحمود فهو الرجاء الذي ليس معه عمل صالح.

والعمل الصالح ما توفر فيه شرطان:

الأول: الإخلاص له ﷻ.

الثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

فالعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه هذان الشرطان: أن يكون خالصًا لوجه اللَّه ليس فيه شرك، وأن يكون صوابًا على سُنَّة رسول اللَّه ﷺ ليس فيه بدعة، فإذا توفر فيه الشرطان فهو صالح، وإن اختل فيه شرط فإنه يكون عملًا فاسدًا لا ينفع صاحبه.

فالعمل الذي فيه شرك يرد على صاحبه، كذلك العمل الذي فيه بدعة يرد

• التوكل ودليله •

ودليلُ التوكل: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] [١٧].

على صاحبه، قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١]. فهذه الآية فيها الرجاء، وأنه عبادة للَّه ﷻ، وفيها أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل الصالح.

[١٧] **التوكل**: هو التفويض والاعتماد على اللَّه ﷻ، وتفويض الأمور إليه ﷻ؛ هذا هو التوكل، وهو من أعظم أنواع العبادة، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قدم الجار والمجرور على العامل؛ ليفيد الحصرَ.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ أي: عليه لا على غيره، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فجعل من شرط الإيمان التوكل على اللَّه ﷻ، ودل على أن من لم يتوكل على اللَّه فليس بمؤمن، فالتوكل عبادة عظيمة، فالمؤمن دائمًا يتوكل على اللَّه، ويعتمد على اللَّه ﷻ، واللَّه من أسمائه الوكيل، أي: الموكول إليه أمور عباده ﷻ، فالتوكل لا يكون إلا على اللَّه، ولا يجوز أن يقول: توكلت على فلان؛ لأن التوكل عبادة، والعبادة لا تكون إلا للَّه.

أما إذا أسندت إلى أحد من الخلق تصرفًا، فهذا لا يسمى توكلًا إنما يسمى توكيلًا، والوكالة معروفة أنك توكِّل أحدًا يقضي لك حاجة، وقد وكَّل النبي من ينوبون عنه في بعض الأعمال، فالتوكيل غير التوكل، فالتوكل عبادة، ولا تكون إلا للَّه، ولا يجوز أن تقول: توكلت على فلان، وإنما تقول: وكَّلتُ فلانًا.

ومع هذا أنت توكله، ولا تتوكل عليه، وإنما تتوكل على اللَّه ﷻ؛ فلاحظوا الفرق بين الأمرين التوكل والتوكيل.

ومن صفات المؤمنين ما ذكره اللَّه تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ

---

(١) سبق تخريجه (ص١٦).

• الرغبة والرهبة والخشوع ودليل كل •

ودليلُ الرَّغبةِ والرَّهبة والخُشوع: قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] [١٨].

اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

هذه من صفات المؤمنين، فالتوكل عبادة عظيمة لا تكون إلا للَّه عز وجل؛ لأنه هو القادر على كل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو الذي يقدر أن يحقق لك مطلوبك، أما المخلوق فإنه قد لا يقدر أن يحقق لك مطلوبك فإنك توكله في قضاء شيء من الأمور، لكن تتوكل على اللَّه في حصول ذلك الشيء.

ثم أيضًا لنعلم أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، فيجمع المسلم بين التوكل على اللَّه، والأخذ بالأسباب، ولا تنافي بينهما، فأنت تعمل الأسباب التي أُمِرْتَ بعملها؛ ولكن لا تعتمد على الأسباب؛ وإنما تعتمد على اللَّه، أنت تزرع الزرع في الأرض، هذا سبب، ولكن لا تعتمد على زرعك وفعلك؛ بل اعتمد على اللَّه في نمو هذا الزرع، وتثميره وحمايته وإصلاحه، ولهذا يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤]. فالزارع الحقيقي هو اللَّه، أما أنت فقد فعلت سببًا فقط قد ينتج هذا الزرع وينبت، وقد لا ينتج، وإذا نبت قد يصلح وقد لا يصلح، قد يصاب بآفة، فيذهب.

[١٨] **الرغبة**: هي طلب الشيء المحمود.

الرهبة: هي الخوف من الشيء المرهوب، قال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. وهي نوع من الخوف، الرهبة والخوف بمعنى واحد.

الخشوع: نوع من التذلل للَّه عز وجل، والخضوع والذل بين يديه سبحانه وتعالى، وهو من أعظم مقامات العبادة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ﴾ الضمير يرجع للأنبياء؛ لأن سورة الأنبياء قد ذكر اللَّه قصص الأنبياء فيها، ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا

• الخشية ودليلها •

دليل الخشية: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] [١٩].

رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يتسابقون إليها، ويبادرون إليها، هذه صفة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يتكاسلون، ولا يتعاجزون؛ وإنما يسارعون إلى فعل الخيرات، ويتسابقون إليها.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ أي: طمعًا لما عند اللَّه ﷻ، طمعًا في حصول المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَرَهَبًا﴾ أي: خوفًا منا، فيدعون اللَّه أن يرحمهم، ويدعونه ألا يعذبهم، وألا يؤاخذهم، وألا يعاقبهم، فهم يطمعون في رحمة اللَّه، ويخافون من عذابه، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فهم يدعون اللَّه خوفًا منه، ويدعونه أيضًا طمعًا فيما عنده، يدعون اللَّه أن يقدر لهم الخير، ويدفع عنهم الشر ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي: خاضعين متذللين متواضعين للَّه ﷻ، فجمعوا بين الصفات الثلاث: الرغبة والرهبة والخشوع، هذه صفات الأنبياء -صلى اللَّه عليهم وسلم-، وهذه الأنواع الثلاثة من أنواع العبادة للَّه ﷻ.

وفيها ردٌّ على الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد اللَّه رغبة في ثوابه ولا خوفًا من عقابه، وإنما نعبده محبة له فقط، هذا كلام باطل؛ لأن الأنبياء يدعون اللَّه رغبًا ورهبًا وهم أكمل الخلق.

[١٩] الخشية نوع من الخوف، وهي أخصُّ من الخوف وقيل: الخشية: خوف يشوبه تعظيم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أمر اللَّه ﷻ بخشيته وحدَه.

• الإنابة ودليلها •

ودليلُ الإنابة: قولُه تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] **[٢٠]**.

وقال تعالى في الآية: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فأمر بخشيته ﷻ، وقال في صفة المصلين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧]. أي: خائفون. هؤلاء خواص الخلق يخافون الله ﷻ.

وقال عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ [النحل: ٥٠].

خواص الخلق من الملائكة، والرسل، والأنبياء، والصالحين يكونون على غاية عظيمة من خشية الله ﷻ، والخوف منه ﷻ، والرهبة منه، فالرهبة والخوف والخشية، كلها بمعنى واحد، وإن كان بعضها أخص من بعض.

إلا أنها يجمعها الخوف من الله ﷻ، وهذه من صفات الأنبياء وعباد الله الصالحين، وهي أنواع عظيمة من أنواع العبادة، وهي من أعمال القلوب التي لا يعلمها إلا الله ﷻ.

[٢٠] الإنابة: الرجوع وهي بمعنى التوبة، والتوبة والإنابة بمعنى واحد.

ولكن بعض العلماء يقول: الإنابة أخصُّ من التوبة، أي: آكد لأنها توبة مع إقبال إلى الله ﷻ، أي: توبة خاصة، والإنسان قد يتوب ويترك الذنب ولا يعود إليه، ويندم عليه، ولكن قد يكون في الإقبال على الله إقبال ضعيف.

أما الإنابة فهي إقبال على الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: ارجعوا له، وأقبلوا عليه ﷻ: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إذا جاء العذاب المهلك الماحق فإنها لا تُقبل توبةُ من تاب عند ذلك: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ [يونس: ٩٨]. هذا مستثنى، وإلا فإنه إذا نزل العذاب المهلك فإنها لا تقبل التوبة، ولهذا قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

• الاستعانة ودليلها •

ودليل الاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن باللَّه»[(١)] [٢١].

فالتوبة والإنابة لهما أجل ولهما حدٌّ، فلا تقبل توبة مَنْ غَرْغَرَ أو من حضره الموت، ولا تقبل توبة من نزل به العذاب الماحق المهلك، ولا تقبل التوبة إذا خرجت الشمس من مغربها قبل قيام الساعة، لا تقبل التوبة حينئذٍ، فاللَّه يحث العبد على التوبة والإنابة قبل انتهاء أجله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

الشاهد قوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ دل على أن الإنابة نوع من أنواع العبادة؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فهذا يدل على أنها نوع من أنواع العبادة.

[٢١] الاستعانة: طلب العون، وهي على نوعين:

النوع الأول: الاستعانة بشيء لا يقدر عليه إلا اللَّه، فهذه صرفُها لغير اللَّه شرك، من استعان بغير اللَّه في شيء لا يقدر عليه إلا اللَّه، فإنه قد أشرك، لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير اللَّه ﷻ.

النوع الثاني: الاستعانة فيما يقدر عليه المخلوق، فأنت تستعين بأحد أن يبني معك الجدار، أو أن يحمل معك متاعك، أو أن يعينك على مطلوب مباح، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

فالاستعانة في الأمور العادية التي يقدر عليها الناس، هذا النوع لا بأس فيه؛ لأنه من التعاون على البر والتقوى، وقال ﷺ: «**واللَّه في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس ﭭ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

• الاستعاذة ودليلها •

ودليلُ الاستعاذة: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] [٢٢].

أما الاستعانة بالمخلوق في شيء لا يقدر عليه إلا اللَّه، مثل جلب الرزق، ودفع الضرر، فهذا لا يكون إلا للَّه، كالاستعانة بالأموات، والاستعانة بالجن والشياطين، والاستعانة بالغائبين، وهم لا يسمعونك تهتف بأسمائهم، هذا شرك أكبر؛ لأنك تستعين بمن لا يقدر على إعانتك.

فقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: هذا فيه تقديم المعمول على العامل، المعمول إياك في محل نصب، ونعبد هذا هو العامل الذي نصب إياك، وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر.

فمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أي: لا نعبد غيرك، فحصر العبادة في اللَّه ﷻ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: حصر الاستعانة باللَّه ﷻ، وذلك في الأمور التي لا يقدر عليها إلا اللَّه ﷻ.

وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ براءة من الحول والقوة، وأن الإنسان لا قوة له إلا باللَّه، ولا يقدر إلا باللَّه ﷻ، وهذا غاية التعبد للَّه إذا تبرأ من الشرك، وتبرأ من الحول، ومن القوة، فهذا غاية التعبد للَّه ﷻ.

[٢٢] **الاستعاذة**: طلب الالتجاء إلى من يمنعك من محذور تخافه من أجل أن يدفع عنك هذا الشيء، هذه هي الاستعاذة.

والاستعاذة نوع من أنواع العبادة، لا يجوز أن تستعيذ بغير اللَّه ﷻ، فمن استعاذ بقبر، أو بوثن، أو بأي شيء غير اللَّه ﷻ فإنه يكون مشركًا

الشرك الأكبر، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

كان العرب في جاهليتهم إذا نزلوا في مكان من الأرض يقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي، أي: كبير الجن، يستعيذ به من شر سفهاء قومه.

فقال النبي ﷺ -مبطلًا لذلك، ومبينًا لما يشرع بدله-: «**من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**»[(1)].

هذا هو البديل الصحيح، الاستعاذة بكلمات اللّه التامات بدلًا من الاستعاذة بالجن.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[الفلق: ١].

الفلق: هو الصبح. ورب الفلق: هو اللّه ﷻ كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]؛ أي: مظهر نور الصبح في ظلام الليل، من الذي يقدر على هذا إلا اللّه ﷻ.

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي: رب الصبح إذا أصبح، المالك المتصرف فيه القادر عليه.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[الفلق: ٢]: هذا يشمل شر جميع المخلوقات، يستعيذ باللّه من شر جميع المخلوقات، هذا يكفيك عن كل استعاذة، أو تعوذ مما يفعله الناس.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[الفلق: ٣].

الغاسق: هو ظلام الليل؛ لأن ظلام الليل تخرج فيه الوحوش والسباع، فأنت تقع في خطر تستعيذ باللّه من شر هذا الظلام، وما تحته من هذه المؤذيات.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾[الفلق: ٤] وهي السواحر تستعيذ بالله من السحر

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] [٢٣].

وأهله؛ لأن السحر شر عظيم.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، الحاسد: هو الذي يتمنى زوال النعمة عن الغير، إذا رأى على أحد نعمة، فإنه يغتاظ، ويتمنى زوال هذه النعمة حسدًا وبغيًا والعياذ باللَّه، وهو من أعظم الخصال المذمومة؛ لأن فيه اعتراضًا على اللَّه، وفيه إساءة إلى الخلق.

ويدخل فيه العائن، الذي يصيب بنظرته؛ لأن الإصابة بالعين نوع من الحسد، فأنت تستعيذ باللَّه من هذه الشرور، فدل على أن الاستعاذة عبادة لا يجوز أن تصرف لغير اللَّه، فلا تستعذ بالمخلوق، ومن استعاذ بمخلوق فقد أشرك باللَّه ﷻ، والنبي ﷺ يقول لعبد اللَّه بن عباس ﵄: «**وإذا استعنت فاستعن باللَّه**»(١).

[٢٣] وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦]. أمر اللَّه ﷻ بالاستعاذة برب الناس ملك الناس إله الناس، هذه كلها أسماء وصفات للَّه ﷻ، وفيها أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

استعذ باللَّه، وبهذه الأسماء والصفات، استعذ باللَّه من شر الوسواس، وهو الشيطان، أما الوِسواس بالكسر فهو مصدر وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ، وأما الوَسواس فهذا اسم من أسماء الشيطان؛ لأنه يوسوس للإنسان ويخيل إليه، ويشغله من أجل أن يلقي في قلبه الرعب والتردد والحيرة في أموره، خصوصًا في أمر العبادة فإن الشيطان يوسوس للإنسان في العبادة حتى يلبِّس عليه صلاته أو عبادته، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يخرج من الصلاة، ويعتقد أنها بطلت، أو يصلي ثم يعتقد أنه على

---

(١) سبق تخريجه (ص٩٥).

غير وضوء، أو أنه ما قام لكذا أو أنه ما فعل كذا، ويصبح في وسواس، ولا يطمئن إلى عبادته.

فاللَّه -جل وعلا- أعطانا الدواء لهذا الخطر، وذلك بأن نستعيذ باللَّه من شر هذا الوسواس.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: الذي يتخلف ويبتعد، فهو يوسوس إذا غفلت عن ذكر اللَّه، ويخنس، أي: يتأخر إذا ذكرت اللَّه ﷻ، فهو وسواس مع الغفلة، وخناس عند ذكر اللَّه ﷻ.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: كأن المعنى -واللَّه أعلم- أنه هناك موسوسون من الجن، ومن الإنس يوسوسون للناس، يأتون الناس ويشككونهم، فكما أن للجن شياطين يوسوسون فكذلك للإنس شياطين يوسوسون فأنت تستعيذ باللَّه من شر القبيلين.

ولهذا يقول النبي ﷺ: **«ما تعوذ متعوِّذٌ بمثلهما»**[1]. أي: هاتين السورتين؛ فينبغي للمسلم أن يقرأهما في أدبار الصلوات، ويكررهما ويقرأهما عند النوم مع آية الكرسي، وسورة الإخلاص.

يقرأ آية الكرسي، وسورة الإخلاص والمعوذتين، يقرؤهما دبر كل صلاة ويكررهما ثلاثًا بعد المغرب وبعد الفجر، وكذلك يقرؤهما عند النوم من أجل أن يبتعد عنه الشيطان؛ فلا يكدر عليه نومه ويزعجه بالأحلام.

الشاهد من هاتين السورتين: أن اللَّه أمر بالاستعاذة به وحدَه؛ فدل على أن الاستعاذة بغيره من الجن، أو من الإنس، أو من أي مخلوق أنه لا يجوز؛ لأنها نوع من أنواع العبادة.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٣)، والنسائي (٨/ ٢٥٣)، وأحمد (٢٨/ ٥٣٠) (١٧٢٩٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

• الاستغاثة ودليلها •

ودليل الاستغاثة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] [٢٤].

---

[٢٤] الاستغاثة: هي نوع من أنواع العبادة، وهي طلب الغوث، وهي لا تكون إلا عند الشدة، إذا وقع الإنسان في شدة فإنه يطلب الغوث من اللَّه، والنجاة من هذه الشدة.

والاستغاثة على نوعين:

النوع الأول: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه ﷻ وهذا شرك، فمن استغاث بغير اللَّه من جن، أو إنس، أو غائبين، أو أموات، فإن هذا شرك باللَّه ﷻ.

فالاستغاثة بالأموات، وبالغائبين من الشياطين والجن هذا شرك باللَّه ﷻ.

النوع الثاني: الاستغاثة بالمخلوق الحاضر الحي فيما يقدر عليه، هذا جائز.

قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥].

* * *

• الذبح أقسامه ودليله •

ودليلُ الذَّبح: قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ومن السنة: «لَعَنَ اللَّه مَنْ ذبَحَ لغير اللَّه»[1] [٢٥].

---

[٢٥] الذبح على أربعة أقسام:

الأول: الذبح على وجه التقرُّب والتعظيم لأحدما، وهذا لا يجوز إلا للَّه ﷻ؛ لأنه من العبادات المالية، فلا يجوز الذبح للجن، ولا للشياطين، ولا للملوك والرؤساء، تعظيمًا لهم؛ لأن هذه عبادة لا تجوز إلا للَّه ﷻ.

فالذين يذبحون للجن من أجل السلامة من شرهم، أو من أجل شفاء المرضى، كما يفعله الكهان والمنجمون الذين يدَّعون العلاج ويقولون للناس: اذبحوا كذا لأجل شفاء مريضكم، ولا تذكروا اسم اللَّه عليه، هذا شرك أكبر مخرج من الملة، وهذا الذي قال اللَّه تعالى محذرًا من فعله لغير اللَّه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]. أي: واذبح لربك.

الثاني: الذبح من أجل أكل اللحم، هذا لا بأس به؛ لأنه ما ذبح من أجل التقرُّب والتعظيم لأحد، وإنما ذبح لحاجة والأكل منه، فهذا لا بأس به؛ لأنه ليس نوعًا من العبادة ويذبح لبيع اللحم.

الثالث: الذبح على وجه الفرح والسرور، بمناسبة زواج، أو مناسبة نزول مسكن جديد، أو قدوم غائب، أو ما أشبه ذلك بجمع الأقارب، ويذبح من باب إظهار الفرح والسرور بما حصل له، هذا لا بأس به؛ لأنه ليس فيه تعظيم لأحد،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي بن أبي طالب ﵁.

• النذر ودليله •

ودليلُ النَّذرِ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] [٢٦].

ولا تقرب لأحد، وإنما هو من باب الفرح والسرور في شيء حصل.

الرابع: الذبح من أجل التصدق باللحم على الفقراء والمساكين والمعوزين هذا يعتبر سنة وهو داخل في العبادة.

[٢٦] النذر: هو إلزام الإنسان نفسه بشيء لم يلزمه بأصل الشرع، كأن ينذرَ أن يصوم، أو ينذِرَ أن يتصدق بكذا، فيلزمه الوفاء بنذره؛ لقول النبي ﷺ: «**من نَذَرَ أن يطيع اللَّه فليطعه**»(١).

والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز إلا للَّه، فمن نذر لقبر، أو صنم، أو غير ذلك فقد أشرك باللَّه ﷻ، وهو نذر معصية وشرك، وقد قال النبي ﷺ: «**ومن نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصه**»(٢).

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦ و٦٧٠٠) من حديث عائشة ﵂.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٩٦ و٦٧٠٠) من حديث عائشة ﵂.

• الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام •

□ تعريف الدين :

الأصلُ الثاني: معرفةُ دين الإسلام بالأدلة [٢٧].

---

[٢٧] فلما فرغ الشيخ من بيان معرفة الأصل الأول، وهو معرفة اللَّه ﷻ بالأدلة، انتقل إلى بيان الأصل الثاني، وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

فقال: الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، ثم عرفه وبين معناه ثم ذكر مراتبه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**معرفة دين الإسلام**»: الدِّين يراد به الطاعة، يقال: دان له إذا أطاعه فيما أمر وترك ما نهى.

ويطلق الدِّين، ويراد به الحساب، كما في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. ويقال: دانه إذا حاسبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الحساب: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٩].

قوله: «بالأدلة» أي: أن معرفة دين الإسلام لا تكون بالتقليد، أو تكون بالتخرص من عند الإنسان، الدِّينُ لابد له من أدلة من الكتاب والسنة.

أما الإنسان الذي لا يعرف دينه؛ وإنما يقلد الناس، ويكون إمعة مع الناس، فهذا لن يعرف دينه وحريٌّ به أنه إذا سئل عنه في القبر أن يقول: هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته[١].

فواجب على الإنسان أن يعرف دينه بالأدلة من كتاب اللَّه، وسنة رسوله ﷺ ولا يعرف هذا إلا بالتعلُّم.

---

(١) انظر ما سلف (ص١٣).

وهو الاستسلامُ له بالتوحيد، والانقيادُ له بالطَّاعة، والبراءةُ من الشِّرك وأهله [٢٨].

---

[٢٨] الإسلام مأخوذ من أسلم للشيء إذا انقاد له، أسلم نفسه للقتل، أي: خضع للقتل، فأسلم نفسه للشيء إذا انقاد له.

فالإسلام هو إسلام الوجه والقصد والنية له ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]. أي: أخلص عمله للَّه ﷻ، وانقاد للَّه عن طواعية واختيار ورغبة ومحبة.

الاستسلام للَّه بالتوحيد: وهو إفراد اللَّه -جل وعلا- بالعبادة، وهذا هو معنى التوحيد، فمن عبد اللَّه وحدَه لا شريك له، فقد استسلم له.

قوله: «**والانقياد له سبحانه بالطاعة**»: فيما أمرك به، وما نهاك عنه، فما أمرك به تفعله، وما نهاك عنه تجتنبه طاعةً للَّه ﷻ.

قوله: «**والبراءة من الشرك وأهله**»: البراءة معناها الانقطاع والاعتزال، والبعد عن الشرك وأهل الشرك، بأن تعتقد بطلان الشرك فتبتعد عنه، وتعتقد وجوب عداوة المشركين لأنهم أعداء اللَّه ﷻ، فلا تتخذهم أولياء إنما تتخذهم أعداء؛ لأنَّهم أعداء للَّه ولرسوله ولدينه، فلا تحبهم ولا تواليهم؛ وإنما تقاطعهم في الدين، وتبتعد عنهم، وتعتقد بطلان ما هم عليه، فلا تحبهم بالقلب، ولا تناصرهم بالقول والفعل؛ لأنهم أعداء لربك وأعداء لدينك، فكيف تواليهم وهم أعداء الإسلام؟!

لا يكفي أنك تستسلم للَّه، وتنقاد له بالطاعة، وأنت لا تتبرأ من الشرك، ولا من المشركين، هذا لا يكفي، ولا تعدُّ مسلمًا حتى تتصف بهذه الصفات:

أولًا: الاستسلام للَّه بالتوحيد.

ثانيًا: الانقياد له بالطاعة.

• مراتب الدين •

المرتبة الأولى: الإسلام.

وهو ثلاثُ مراتب:

الإسلام [٢٩].

والإيمانُ، والإحسانُ [٣٠].

ثالثًا: البراءة مما يضاد التوحيد، ويضاد الطاعة وهو الشرك.

رابعًا: البراءة من أهل الشرك.

بتحقيق هذه الصفات تكون مسلمًا، أما إذا نقصت صفة واحدة منها، فإنك لا تكون مسلمًا، فبهذه الكلمات الثلاث لخص الشيخ تعريف الإسلام، وكم من إنسان لا يعرف معنى الإسلام، لأنه لم يتعلم هذا الشيء، ولو قيل له: ما هو الإسلام؟ لم يجب جوابًا صحيحًا.

[٢٩] معنى المراتب: الدرجات؛ لأننا قلنا: إن الدين ثلاث درجات بعضها أعلى من بعض، أول مرتبة من مراتب الدين هي الإسلام، ثم بعدها الإيمان، ثم بعدها الإحسان، فالإسلام أوسع، والإيمان أضيق من الإسلام، والإحسان أضيق من الإيمان.

فدائرة الإسلام واسعة، المنافقون يدخلون فيها إذا انقادوا إلى الإسلام وأظهروه والتزموا به ظاهرًا، إذا صلَّوا مع المسلمين، وزكوا وعملوا الأعمال الظاهرة، يسمون مسلمين، وتطبق عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، لكنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم ليس عندهم إيمان وإنما عندهم إسلام ظاهري فقط.

[٣٠] قوله: «الإيمان»: هذه هي المرتبة الثانية، والمؤمنون يتفاوتون، منهم المقربون، ومنهم الأبرار، والمقربون هم أصحاب أعلى الدرجات،

وكلُّ مرتبة لها أركانٌ [٣١].

والأبرار دونهم، ومنهم الظالم لنفسه، وهو المرتكب للكبائر التي هي دون الشرك، فهو مؤمن فاسق، أو مؤمن ناقص الإيمان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

قوله: «الإحسان»: هذه هي المرتبة الثالثة، وهي الإحسان، وهي أن يحسن العبد فيما بينه وبين اللَّه، في عبادة اللَّه ﷻ، وذكر النبي ﷺ الإحسان فقال: «**الإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»[(١)]. أي: يكون عندك علمٌ يقينيٌّ أن اللَّه يراك أينما كنت.

[٣١] قوله: «وكل مرتبة لها أركان»: والأركان جمع ركن، وهو ما يقوم عليه الشيء.

فأركان الشيء جوانبه التي يقوم عليها، ولا يقوم بدونها، وتكون بداخل الشيء، خلاف الشروط فهي تكون خارج الشيء، مثل شروط الصلاة فهي خارج الصلاة قبلها، وأما أركان الصلاة فإنها بداخلها، مثل تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة، فإذا اختل شيء منها فإن الصلاة لا تصح، كما لو فقد شيء من أركان البنيان فإنه لا يقوم ولا يعتمد.

* * *

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٥٠)، وأخرجه مسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

• أركان الإسلام •

• شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه •

□ **معناها ودليلها:**

فأركانُ الإسلام خمسةٌ: شهادةُ أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ بيت اللَّه الحرام [٣٢].

فدليل الشهادة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] **[٣٣]**.

---

[٣٢] لا يقوم الإسلام إلا على هذه الأركان، إذا فقدت فإن الإسلام لا يستقيم، وبقية الطاعات مكملات لهذه الأركان، كل الطاعات وأفعال الخير كلها مكملات لهذه الأركان، ولهذا سأل جبريل عليه السلام رسول اللَّه ﷺ بحضرة الصحابة قال: «أخبرني عن الإسلام، قال: **الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**»(١).

ففسر الإسلام بأنه هذه الأركان الخمسة، لكن حديث ابن عمر بيَّن أن هذه الخمسة هي مباني الإسلام، فقال: «**بني الإسلام على خمس**»(٢). أي: أن هذه الخمس ليست هي الإسلام كله لكنها أركانه ومبانيه التي يقوم عليها، وبقية المشروعات مكملات ومتممات لهذه الأركان.

[٣٣] قوله تعالى: ﴿شَهِدَ﴾ أي: حكم وقضى وأعلَمَ وبيَّن وألزم، فالشهادة

---

(١) التخريج السابق نفسه.

(٢) أخرجه البخاري (٨)، وأخرجه مسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

من اللَّه تدور على هذه المعاني الخمسة: الحكم والقضاء والإعلان والبيان والإلزام.

فمعنى شهد: أي: قضى سبحانه، وأعلم وأخبر، وألزم عباده بذلك، أنه لا إله إلا هو.

لا إله: لا نافية تنفي جميع ما عُبد من دون اللَّه.

إلا هو: مثبت العبادة للَّه وحده.

ومعنى أنه لا إله إلا هو: أي: لا معبود بحق إلا اللَّه ﷻ، أما من عبد غير اللَّه، فإن عبادته باطلة، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

شهد لنفسه ﷻ بالوحدانية، وهو أصدق القائلين، وشهادته ﷻ أصدق الشهادات؛ لأنها صادرة عن حكيم خبير عليم، يعلم كل شيء، فهي شهادة صادقة.

والملائكة: شهدوا أنه لا إله إلا هو، وهم عالَمٌ خلقهم اللَّه لعبادته، ملائكة كرام عباد مكرمون خلقهم اللَّه لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأيضًا خلقهم اللَّه لتنفيذ أوامره في الكون، وكَّل إليهم تنفيذ ما يأمر به ﷻ من أمور الكون، فكل مَلَك منهم موكل بعمل، وشهادتهم شهادة صدق؛ لأنهم أهل علم وعبادة ومعرفة باللَّه ﷻ، وهم من أفضل الخلق على الخلاف، هل صالح البشر أفضل من الملائكة، أو الملائكة أفضل من صالح البشر؟ على خلاف.

وأولو العلم: صنفان: الملائكة، والصنف الثاني: أولو العلم من البشر، وأولو العلم لا يشهدون إلا بما هو حق بخلاف الجهال لا اعتبار بشهادتهم، وكل عالم من خلق اللَّه يشهد للَّه بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وهذا فيه تشريف لأهل العلم؛ حيث إن اللَّه قرن شهادتهم مع شهادته ﷻ وشهادة ملائكته.

اعتبر شهادة أهل العلم من الخلق ودل على فضلهم وشرفهم ومكانتهم، على أعظم مشهود به وهو التوحيد.

والمراد بأولي العلم: أهل العلم الشرعي لا كما يقوله بعض الناس: إن أهل العلم المراد بهم أهل الصناعة والزراعة، فهؤلاء لا يقال لهم أهل العلم على وجه الإطلاق؛ لأن علمهم محدود مقيد، بل يقال: هذا عالم بالحساب، عالم بالهندسة، عالم بالطب، ولا يقال لهم: أهل العلم مطلقًا؛ لأن هذا لا يطلق إلا على أهل العلم الشرعي.

وأيضًا أكثر هؤلاء أهل علم دنيوي، وفيهم ملاحدة يزيدهم علمُهم -غالبًا- جهلًا بالله ﷻ وغرورًا وإلحادًا كما تشاهدون الآن في الأمم الكافرة، إنهم متقدمون في الصناعات، وفي الزراعة؛ لكنهم كفار فكيف يقال: إنهم أهل العلم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾؟!! هذا غير معقول أبدًا.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. المراد: علماء الشرع الذين يعرفون الله حق معرفته، ويعبدونه حق عبادته، ويخشونه.

أما هؤلاء فأغلبهم لا يخشون الله ﷻ؛ بل يكفرون بالله ويجحدونه، ويدَّعون أن العالَم ليس له رب، وإنما الطبيعة هي التي توجده وتتصرف فيه، كما هو عند الشيوعيين، إنهم ينكرون الرب ﷻ مع أن عندهم علمًا دنيويًّا، كيف نقول: إن هؤلاء هم أهل العلم؟!

هذا غلط، فالعلم لا يطلق إلا على أهله، وهو لقب شريف لا يطلق على الملاحدة والكفار ويقال: هؤلاء أهل العلم!!

فالملائكة وأولو العلم شهدوا لله بالواحدانية.

إذن؛ لا عبرة بقول غيرهم من الملاحدة والمشركين والصابئين الذين يكفرون بالله ﷻ، هؤلاء لا عبرة بهم ولا بقولهم؛ لأنه مخالف لشهادة الله وشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم من خلقه.

ومعناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا اللَّه، «لا إله» نافيًا جميعَ ما يُعبدُ من دون اللَّه، «إلا اللَّه»: مُثبتًا العبادةَ له وحدَهُ لا شريكَ له في عبادته كما أنه ليس له شريكٌ في مُلكه [٣٤].

وقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: منصوب على الحال من شهد، أي: حالة كونه قائمًا ﷻ.

والقسط: العدل، أي: أن اللَّه ﷻ قائم بالعدل في كل شيء، والعدل ضد الجور، وهو ﷻ حكم عدل لا يصدر عنه إلا العدل في كل شيء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تأكيد للجملة الأولى.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: اسمان للَّه ﷻ يتضمنان صفتين من صفاته، وهما العزة والحكمة.

[٣٤] قوله: «ومعناها: لا معبود بحق إلا اللَّه»، أي: معنى لا إله إلا اللَّه ليس كما يقول أهل الباطل: لا خالق، ولا رازق إلا اللَّه؛ لأن هذا توحيد الربوبية يقرُّ به المشركون، وهم لا يقولون لا إله إلا اللَّه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦]. آلهتنا، أي: معبوداتنا ﴿لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ يعنون الرسول ﷺ، وصفوه بالشعر والجنون لأنه قال لهم: قولوا: لا إله إلا اللَّه، ونهاهم عن عبادة الأصنام.

ولما قال لهم: قولوا: لا إله إلا اللَّه. قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٥]. يحسبون الآلهة متعددة.

فدل على أن معناها لا معبود بحق إلا اللَّه، ولو كان معناها لا خالق ولا رازق إلا اللَّه، فإن هذا يقرون به، ولا يمارون فيه، فلو كان هذا معناها ما امتنعوا من قول لا إله إلا اللَّه؛ لأنهم يقولون إذا سئلوا من خلق السموات والأرض؟ يقولون: اللَّه، إذا سئلوا من الذي يخلق؟ من الذي يرزق؟ من الذي

وتفسيرُها الذي يوضِّحها قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] **[٣٥]**.

يحيي ويميت؟ ويدبر الأمر؟ يقولون: اللَّه. هم يعترفون بهذا، فلو كان هذا معنى لا إله إلا اللَّه لأقروا بهذا، لكن معناها لا معبود بحق إلا اللَّه.

لو قلت: لا معبود إلا اللَّه هذا غلط كبير؛ لأن المعبودات كلها تكون هي اللَّه -تعالى اللَّه عن هذا-، لكن إذا قيدتها وقلت: بحق؛ انتفت المعبودات كلها إلا اللَّه ﷻ، لابد أن تقول: لا معبود حق، أو لا معبود بحق إلا اللَّه، ثم بيِّن ذلك على لفظ الكلمة:

لا إله: النفي، نفي للعبودية عما سوى اللَّه.

إلا اللَّه: هذا إثبات للعبودية للَّه وحده لا شريك له.

فلا إله إلا اللَّه تشتمل على نفي وإثبات، ولابد في التوحيد من النفي والإثبات، لا يكفي الإثبات وحده، ولا يكفي النفي وحده؛ بل لابد من النفي والإثبات كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

فلو قلت: اللَّه إله هذا. لا يكفي، اللات إله، والعزى إله، ومناة إله، كل الأصنام تسمى آلهة.

فلابد أن تقول: لا إله إلا اللَّه، فلابد من الجمع بين النفي والإثبات حتى يتحقق التوحيد وينتفي الشرك.

[٣٥] خير ما يُفسِّر القرآنَ القرآنُ، فلا إله إلا اللَّه فسَّرها اللَّه في القرآن، وذلك في قول الخليل -عليه الصلاة والسلام- فيما ذكر اللَّه عنه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ هذا النفي، لا إله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: يعني: إلا اللَّه، هذا الإثبات.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] **[٣٦]**.

فهذه الآية تفسير معنى لا إله إلا اللَّه تمامًا.

[٣٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذه الآية من سورة آل عمران نزلت في وفد نجران النصارى الذين قدموا على النبي ﷺ، وناظروه وسألوه، وحصل بينهم وبينه كلام طويل، وهم نصارى من نصارى العرب، وفي النهاية طلب النبي ﷺ منهم المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فلما طلب منهم المباهلة خافوا، ولم يباهلوه -عليه الصلاة والسلام-، ودفعوا له الجزية؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل، وأنه رسول اللَّه ﷺ.

نبتهل، أي: ندعو باللعنة على الكاذب منا، وكانوا يعلمون أنهم هم الكاذبون، ولو باهلوه لنزلت عليهم النار وأحرقتهم في مكانهم، فقالوا: لا، لكن ندفع الجزية، ولا نباهلكم، فقبل النبي ﷺ منهم الجزية، لقد تبين لهم أن اللَّه أمره بما في هذه الآية.

وهذه الآية فيها معنى لا إله إلا اللَّه، قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ هذا النفي، وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا الإثبات، وهذا هو العدل الذي قامت له السموات والأرض، فالسموات والأرض قامت على التوحيد والعدل، لا نشرك في عبادته شيئًا، لا المسيح الذي تزعمون أنه رب وتعبدونه من دون اللَّه، ولا غير المسيح ولا محمد -عليه الصلاة والسلام-، ولا أحد من الأنبياء، ولا من الصالحين، ولا من الأولياء: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما اتخذتم الأحبار والرهبان

أربابًا من دون اللَّه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

واتِّخاذ الأحبار والرهبان من دون اللَّه بيَّنه رسول اللَّه ﷺ في أنه طاعتهم في تحليل ما حرم اللَّه، وتحريم ما أحل اللَّه[1] هذا معنى اتخاذهم أربابًا من دون اللَّه، إذا كانوا يحللون ما حرم اللَّه، ويحرمون ما أحل اللَّه فإذا أطاعوهم في ذلك، فقد اتخذوهم أربابًا؛ لأن الذي يشرع للناس، ويحلل ويحرم، هو اللَّه ﷻ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولم يقبلوا دعوة التوحيد ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أشهدوهم على أنكم موحدون وأنهم كفار، بيِّنوا لهم بطلان ما هم عليه، ففي هذه الآية البراءة من دين المشركين والمصارحة بذلك، اشهدوا بأنا مسلمون، ففي هذا وجوب إعلان بطلان ما عليه المشركون، وعدم السكوت عن ذلك، والإعلان عن بطلان الشرك والرد على أهله.

* **والخلاصة:**

أن لا إله إلا اللَّه لها ركنان: هما النفي والإثبات، فإذا قيل لك: ما هي أركان لا إله إلا اللَّه، فتقول: النفي والإثبات.

وشروطها سبعة لا تنفع إلا بهذه الشروط نظمها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

فالعلم: ضده الجهل، فالذي يقول: لا إله إلا اللَّه بلسانه ويجهل معناها، هذا لا تنفعه لا إله إلا اللَّه.

واليقين: فلا يكون معه شك؛ لأن بعض الناس قد يعلم معناها؛ ولكن عنده

---

(١) انظر: حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه الذي أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وفيه: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم؛ ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه»**.

شك في ذلك، فليس علمه بصحيح، لابد أن يكون عنده يقين بلا إله إلا اللَّه، وأنها حق.

والإخلاص: ضده الشرك، بعض الناس يقول: لا إله إلا اللَّه؛ ولكنه لا يترك الشرك، مثلما هو الواقع الآن عند عباد القبور، هؤلاء لا تنفعهم لا إله إلا اللَّه؛ لأن من شروطها ترك الشرك.

والصدق: ضده الكذب؛ لأن المنافقين يقولون: لا إله إلا اللَّه؛ لكنهم كاذبون في قلوبهم، لا يعتقدون معناها، قال اللَّه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ١-٢].

والمحبة: أن تكون مُحبًّا لهذه الكلمة وليًّا لأهلها، أما الذي لا يحبها أو لا يحب أهلها فإنها لا تنفعه.

والانقياد: ضد الإعراض والترك، وهو الانقياد لما تدل عليه من عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وامتثال أوامره، ما دمت اعترفت وشهدت أنه لا إله إلا اللَّه يلزمك أن تنقاد لأحكامه ودينه، أما أن تقول: لا إله إلا اللَّه، ولا تنقاد لأحكام اللَّه وشرعه، فإنها لا تنفعك لا إله إلا اللَّه.

والقبول: القبول المنافي للرد، بألَّا تردَّ شيئًا من حقوق لا إله إلا اللَّه، وما تدل عليه؛ بل تقبل كل ما تدل عليه لا إله إلا اللَّه، تقبله تقبلًا صحيحًا.

وزيدَ شرطٌ ثامن:

وزيد ثامنها الكفران بما مع الإله من الأشياء قد ألها

أي: البراءة من الشرك، فلا يكون موحدًا حتى يتبرأ من الشرك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦].

هذه شروط لا إله إلا اللَّه، ثمانية شروط.

ودليلُ شهادةِ أن محمدًا رسولُ اللَّه: قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] **[٣٧]**.

---

[٣٧] الركن الأول من أركان الإسلام مكون من شيئين:

الأول: شهادة أن لا إله إلا اللَّه.

والثاني: شهادة أن محمدًا رسول اللَّه.

فهما ركن واحد، الشق الأول: يعني الإخلاص في العبادة، والشق الثاني: يعني متابعة الرسول ﷺ.

ودليل شهادة أن محمدًا رسول اللَّه قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وأدلة شهادة أن محمدًا رسول اللَّه كثيرة من: الكتاب، والسنة، والمعجزات الباهرات؛ الدالة على رسالته ﷺ.

ومن الكتاب هذه الآية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهذه شهادة من اللَّه لهذا الرسول ﷺ بالرسالة، وبيان صفاته.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ اللام هذه لام القسم، ففيها قسم مقدر، تقديره: واللَّه لقد جاءكم.

«**قد**»: حرف تحقيق وتأكيد بعد تأكيد.

﴿جَآءَكُمْ﴾: أيها الناس، هذا خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالته ﷺ عامة لجميع الثقلين، الإنس والجن.

﴿رَسُولٌ﴾: هو من أُوحي إليه بشرع، وأُمِرَ بتبليغه، سمي رسولًا؛ لأنه مرسل من قبل اللَّه ﷻ.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي من جنسكم من البشر، وليس ملكًا من الملائكة، وهذه سنة اللَّه ﷻ أنه يرسل إلى البشر رسلًا منهم من أجل البيان، ومن أجل أن يتخاطبوا معهم؛ ولأنهم يعرفونه.

لو أرسل إليهم ملكًا ما استطاعوا أن يتخاطبوا معه؛ لأنه ليس من جنسهم، وأيضًا لا يقدرون على رؤية الملك؛ لأنه ليس من جنسهم، من رحمته ﷻ أن أرسل إلى الناس رسولًا من جنسهم؛ بل ومن العرب ومن أشرف بيوت العرب نسبًا، من بني هاشم الذين هم أشرف أنساب قريش، وقريش أشرف أنساب العرب، فهو خيار من خيار، يعرفونه، ويعرفون شخصه، ويعرفون نسبه، ويعرفون قبيلته، ويعرفون بلده، ولو كانوا لا يعرفونه فكيف يصدقونه؟ ولو كان بغير لغتهم فكيف يفهمون كلامه.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

فقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾: يعني شاق عليه ﷺ.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: يعني ما يشق عليكم، العنت معناه: التعب والمشقة، والرسول ﷺ يشق عليه ما يشق على أمته، وكان لا يريد لها المشقة وإنما يريد لها اليسر والسهولة.

ولذلك جاءت شريعته ﷺ سهلة سمحة، قال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[1].

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]. فشريعته سهلة تتماشى مع قدرة الناس، واستطاعة المكلفين، ولا تحمِّلهم ما لا يطيقون.

ولهذا كان النبي ﷺ يحب لهم التيسير، وما خير بين أمرين إلا اختار

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٦٢٣) (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة الباهلي ﵁.

أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وكان يُحب أن يأتي بالعمل ويتركه شفقة بأمته، يترك العمل، وهو يحب أن يأتي به من الأعمال الصالحة من أجل ألَّا يشق على أمته، هذه من صفاته، أنه يشق عليه ما يشق على أمته، ويسر بسرورها، ويفرح بفرحها، ومن كانت هذه صفته فلا شك أنه لا يأتي إلا بالخير والرحمة ﷺ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم، وإخراجكم من الظلمات إلى النور، ولذلك كان يتحمل المشاق في دعوة الناس طلبًا لهدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور حتى قال اللَّه له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. أي: لعلك مهلك نفسك ألا يكونوا مؤمنين من أجل الحزن عليهم، فلا تحزن عليهم، وهذا من كمال نصحه ﷺ.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿رَءُوفٌ﴾: من الرأفة، وهي الرفق واللطف.

﴿رَّحِيمٌ﴾: وصفه بالرحمة، فليس بغليظ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

كان ﷺ متواضعًا لينًا مع المؤمنين، يخفض لهم جناحه ويستقبلهم بالبشر والمحبة والعطف والإحسان، هذا من صفاته ﷺ.

ذكر اللَّه خمس صفات في هذا الرسول ﷺ:

الأولى: أنه منكم.

الثانية: عزيز عليه ما عنتم.

الثالثة: حريص عليكم.

الرابعة: بالمؤمنين رءوف.

الخامسة: رحيم.

خمس صفات من صفات هذا النبي ﷺ، وخص المؤمنين بالرأفة والرحمة؛

ومعنى شهادة أن محمدًا رسولُ اللَّه: طاعَتُه فيما أمر، وتصديقه فيما أخبَرَ، واجتنابُ ما عنه نهى وزجر، وألّا يُعبَدَ اللَّه إلا بما شرع [٣٨].

لأنه ﷺ كان غليظًا على المشركين والمعاندين، يغضب لغضب اللَّه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الرحمة والرأفة خاصة بالمؤمنين، وهكذا المؤمنون بعضهم مع بعض: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]. هذه صفاته ﷺ.

[٣٨] شهادة أن محمدًا رسول اللَّه لها معنى ومقتضى ليست لفظًا يقال فقط. فمعناها: أن تعترف بلسانك وبقلبك أنه رسول اللَّه، تنطق بلسانك وتعتقد ذلك بقلبك، أنه رسول اللَّه ﷺ.

أما التلفظ باللسان والإنكار بالقلب فهذه طريقة المنافقين، كما أخبرنا اللَّه عنهم، بقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ١-٢]. جعلوا أيمانهم -أي: شهاداتهم- سترة يستترون بها، فصدوا عن سبيل اللَّه، فدل على أن النطق باللسان لا يكفي.

وكذلك اعتقاد القلب مع عدم النطق باللسان لمن يقدر على النطق أيضًا لا يكفي، فإن المشركين يعلمون أنه رسول اللَّه؛ لكنهم يعاندون، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. فهم بقلوبهم يعترفون بالرسالة، ويعرفون أنه رسول اللَّه، لكن منعهم الكبر ومنعهم العناد من الإقرار برسالته.

وكذلك منعهم الحسد، كما عند اليهود، وعند مشركي العرب، وكان أبو جهل عمرو بن هشام يعترف ويقول: كنا نحن وبنو هاشم متساوين في كل

الأمور؛ لكنهم قالوا: منا رسول، وليس منكم رسول من أين نأتي برسول؟ فلذلك أنكروا رسالته حسدًا لبني هاشم[١]، ويقول أبو طالب في قصيدته:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينَا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينَا

يعترف بقلبه برسالة محمد؛ لكن منعته الحمية الجاهلية لقومه، فلم يكفر بدين عبد المطلب الذي هو عبادة الأصنام، فهم يعترفون بنبوته بقلوبهم، فلا يكفي الاعتراف بالقلب أنه رسول الله؛ بل لابد أن ينطق بلسانه.

ثم لا يكفي النطق باللسان والاعتراف بالقلب؛ بل لابد من أمر ثالث، وهو الاتباع، قال الله تعالى فيه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. حتى لو نصره مثل أبي طالب وحامى دونه، وهو يعرف أنه رسول الله لكن لم يتبعه، فإنه ليس بمسلم حتى يتبعه، ولهذا قال الشيخ: ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألَّا يعبد الله إلا بما شرع.

فلابد من الاعتراف برسالته ظاهرًا وباطنًا واعتقادًا، ولابدَّ من اتباعه ﷺ، ويتلخص ذلك في هذه الأربع كلمات التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الأولى: طاعته فيما أمر، يقول الله -جل وعلا-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]. ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]. فقرن طاعة الرسول مع طاعته ﷻ، وقرن معصية الرسول مع معصيته: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]. وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور:٥٤]. وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]. فلابد من طاعته ﷺ، فالذي يشهد أنه رسول الله

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٢٥١) قصة استماع قريش إلى قراءة النبي ﷺ.

تلزمه طاعته فيما أمر لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. عن أمره، أي: عن أمر الرسول، فلابد من طاعة الرسول ﷺ.

الثانية: تصديقه فيما أخبر؛ لأن الرسول ﷺ أخبر عن أمور كثيرة مغيبة، أخبر عن الله، وعن الملائكة، وأخبر عن أمور غائبة، وأخبر عن أمور مستقبلة من قيام الساعة، وأشراط الساعة، والجنة والنار، وأخبر عن أمور ماضية عن أحوال الأمم السابقة، فلابد من تصديقه فيما أخبر، لأنه صدق لا كذب فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

الرسول ﷺ لا يتكلم بهذه الأخبار، أو هذه الأوامر والنواهي، لا يتكلم بشيء من عنده -عليه الصلاة والسلام-، إنما يتكلم بوحي من الله ﷻ فأخباره صدق، ومن لم يصدقه فيما أخبر فليس بمؤمن ولا صادق في شهادته أنه رسول الله، كيف يشهد أنه رسول الله ويكذبه في أخباره؟! كيف يشهد أنه رسول الله ولا يطيع أمره؟!

الثالثة: اجتناب ما نهى عنه وزجر: اجتنب ما نهاك عنه الرسول ﷺ. نهاك عن أقوال وأفعال وصفات كثيرة، ولا ينهى ﷺ إلا عن شيء فيه ضرر وفيه شر، ولا يأمر إلا بشيء فيه خير وفيه بر، فإذا لم يجتنب العبد ما نهى عنه رسول الله ﷺ لم يكن شاهدًا له بالرسالة؛ بل صار متناقضًا، كيف يشهد أنه رسول الله، ولا يجتنب ما نَهاه عنه الرسول ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

قال ﷺ: **«إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**[١]. فلابد من اجتناب ما نهى عنه ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الرابعة: ألَّا يُعبد اللَّه إلا بما شرع: تقيَّد في العبادات بما شرعه اللَّه لرسوله ﷺ فلا تأت بعبادة لم يشرعها الرسول ﷺ، وإن كان قصدك حسنًا، وإن كنت تريد الأجر، لكن هذا عمل باطل؛ لأنه لم يأت به الرسول ﷺ. النية لا تكفي؛ بل لابد من الاتباع.

فالعبادات توقيفية لا يجوز الإتيان بعبادات لم يشرعها رسول اللَّه ﷺ، قال رسول اللَّه ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1].

وقال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[2].

فالإتيان بعبادة لم يشرعها رسول اللَّه تعتبر بدعة منكرة منهيًّا عنها، وإن قال بها فلان أو فلان، أو فعلها من فعلها من الناس ما دامت خارجه عما جاء به الرسول ﷺ فإنها بدعة وضلالة، فلا يعبد اللَّه إلا بما شرع على لسان رسوله، والمحدثات والخرافات كلها عمل باطل، ونقص وضلال على من أتى بها، وإن كان يقصد بها الخير ويريد الأجر، فإن العبرة ليست بالمقاصد، وإنما العبرة بالاتباع والطاعة والانقياد، ولو كنا أحرارًا نأتي بما نشاء ونستكثر من العبادات ما نشاء لما احتجنا إلى بعثة الرسول ﷺ.

ولكن من رحمة اللَّه بنا لم يكلنا إلى عقولنا، ولم يكلنا إلى فلان وعلان من الناس؛ لأن هذه الأمور مردها إلى الشرع إلى اللَّه ورسوله، ولا ينفع منها إلا ما كان موافقًا لما شرعه اللَّه ورسوله، ففي هذا الابتعاد عن جميع البدع، ومن ابتدع شيئًا في الدين لم يأت به الرسول ﷺ فإنه لم يشهد أنه رسول اللَّه، لم

---

(١) سبق تخريجه (ص١٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣)، وأحمد (٢٨/ ٣٧٣) (١٧١٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] **[٣٩]**.

يشهد الشهادة الحقيقية؛ لأن الذي يشهد أنه رسول اللَّه ﷺ شهادة حقيقية يتقيد بما شرعه، ولا يحدث شيئًا من عنده أو يتبع شيئًا محدثًا ممن سبقه.

هذا معنى شهادة أن محمدًا رسول اللَّه ليست ألفاظًا تقال باللسان فقط من غير التزام، ومن غير عمل، ومن غير تقيد بما جاء به هذا الرسول ﷺ.

[٣٩] فالصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، والزكاة هي الركن الثالث، وهي قرينة الصلاة في كتاب اللَّه، الصلاة عمل بدني، والزكاة عمل مالي.

وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «واللَّه لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»[1] لما امتنع أناس من دفع الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه، وقال: «واللَّه لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، واللَّه لو منعوني عِقالًا -وفي رواية: عناقًا- كانوا يؤدونه لرسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم عليه».

فالزكاة حق واجب في الأموال، وهي ركن من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة في كتاب اللَّه عز وجل في كثير من الآيات، ومنها هذه الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾.

دليل التوحيد في أولها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا هو تفسير التوحيد، وهو عبادة اللَّه مع الإخلاص له، وترك عبادة ما سواه، فالدين والتوحيد والعبادة بمعنى واحد.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة، هذا تفسير التوحيد، لا كما يقوله علماء الكلام: إنه الإقرار بأن اللَّه هو الخالق الرازق المحيي المميت هذا توحيد الربوبية، والمطلوب هو توحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا يصير

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠).

المسلم مسلمًا إلا إذا جاء به.

أما من جاء بتوحيد الربوبية فقط، فهذا ليس مسلمًا بدليل أن المشركين يعتقدونه وينطقون به، ويعترفون به، ولم يدخلهم في الإسلام، ولم يمنع من قتلهم وسبي أموالهم توحيدهم هذا؛ لأنهم ليسوا موحدين لما أشركوا بالله ﷻ في العبادة؛ هذا هو تفسير التوحيد من كتاب الله لا من كتاب فلان وعلان، كتاب «الجوهرة»[1]، أو كتاب «المواقف»[2]، أو كتب علماء الكلام، لا يؤخذ تفسير التوحيد من هذه الكتب وإنما يؤخذ من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ، ومن كتب أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

ودليل الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والمعنى أن يأتوا بها كما أمر الله ﷻ بشروطها وأركانها وواجباتها، أما مجرد صورة الصلاة فإنها لا تكفي، ولهذا لم يقل: ويصلوا، بل قال: ويقيموا الصلاة، ولا تكون الصلاة قائمة إلا إذا أتى بها كما أمر الله ﷻ.

أما الذي يصلي مجرد صورة في أي وقت يشاء، أو بدون طهارة، وبدون طمأنينة، ولا يأتي بمتطلبات الصلاة، هذا لم يصل، ولهذا قال ﷺ للمسيء في صلاته الذي لا يطمئن في صلاته قال له: «**ارجع فصل، فإنك لم تصل**»[3].

ليس مقصودًا صورة الصلاة من قيام وركوع وسجود وجلوس فقط، ليس هذا المقصود؛ بل المقصود أن يؤتى بها كما شرع الله ﷻ مستوفية لكل متطلباتها الشرعية.

---

(١) كتاب «جوهرة التوحيد» كتاب يقرر مذهب الأشاعرة، وفيه مخالفات كثيرة لمذهب أهل السنة والجماعة.

(٢) كتاب «المواقف في علم الكلام» للإيجي.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة ﵁.

ودليل الصِّيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] [٤٠].

ثم ذكر دليل الزكاة بقوله تعالى: ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ أي: يدفعوا الزكاة للمستحقين لها، الذين ذكرهم اللّٰه تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

ذكر ثمانية مصارف وحصرها بـ: «إنما» فلا يكون صرفها في غير هذه المصارف الثمانية، فمن صرفها في غير مصارفها الثمانية لم يكن قد آتى الزكاة، ولو أنفق أموالًا طائلة ملايين أو مليارات وسماها زكاة، ولا تكون زكاة حتى توضع في مواضعها التي حصرها اللّٰه تعالى فيها، هذا معنى إيتاء الزكاة.

وأيضًا في وقتها أي: يخرجها وقت وجوبها، لا يتباطأ ويتأخر ويتكاسل، طيبة بها نفسه، أي: لا يعتبرها مغرمًا أو خسارة؛ وإنما يعتبرها مغنمًا له.

هذه الأمور الثلاثة هي: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ الدين: الملة، القيمة: صفة لموصوف محذوف تقديره دين الملة القيمة، أي: المستقيمة.

هذا دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد.

[٤٠] الصيام لا يجب إلا على المسلمين، أما الكفار لو فعلوه ما صح منهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّٰه، وأن محمدًا رسول اللّٰه ﷺ، ما داموا على الكفر فإنهم لا تنفعهم العبادات لا صيام ولا غير صيام؛ ولذلك خاطب به المؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يستجيبون، وهم الذين يصح منهم الصيام، ويقبل منهم الصيام.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ معنى كتب: فرض، مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]. يعني: فرض عليكم القتال، فالكتب في كتاب اللّٰه معناه الفرض.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: كما فرض على الذين من قبلكم من الأمم، فدل على أن الصيام كان معروفًا عند الأمم السابقة وفي الشرائع القديمة، ولم تختص به شريعة محمد ﷺ.

والنفس قد تتثاقل الصيام لما فيه من كبح جماحها ومنعها من الشهوات، واللَّه -جل وعلا- بيَّن أنه سُنته في خلقه وأنه على جميع الأمم، حتى في الجاهلية كان الصيام معروفًا، كانوا يصومون يوم عاشوراء.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذا بيان للحكمة من الصيام، فلعلكم تتقون: بيان للحكمة في مشروعية الصيام، وهو أنه يسبب التقوى؛ لأن الصيام يترك به الإنسان مألوفاته وشهواته ومرغوباته تقربًا إلى اللَّه ﷻ فيكسبه التقوى، كما أنه يكسر أيضًا شهوة النفس وحدتها؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فمع تناول الشهوات يتسلط الشيطان، ومع ترك الشهوات يضعف مجرى الدم فيطرد الشيطان عن المسلم ففي الصيام حصول التقوى التي هي جماع الخير كله.

فهذه فائدة الصيام أنه يسبب التقوى، تقوى اللَّه ﷻ، واتقاء المحارم والشهوات المحرمة؛ لأن الإنسان إذا ترك المباحات طاعة للَّه كان من باب أولى أن يترك المحرمات، الصيام يدربه على تجنب الحرام، ويدربه على التمكن من نفسه الأمارة بالسوء، ويطرد عنه الشيطان، ويليِّن قلبه للطاعة.

ولذلك تجد الصائم أقرب إلى الخير من المفطر، تجده يحرص على تلاوة القرآن وعلى الصلاة، ويذهب إلى المسجد مبكرًا، الصيام ليَّنه للطاعة وهذَّبه، كل هذا داخل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فالشاهد من الآية قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ هذا دليل على فرضية الصيام، وفسره بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. لأن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ مجمل فسره بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ودليل الحجِّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] [٤١].

---

[٤١] ادعى اليهود أنهم مسلمون، وأنهم على دين إبراهيم فامتحنهم اللَّه - جل وعلا- في هذه الآية، وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن كنتم مسلمين فحجوا؛ لأن اللَّه فرض حج البيت على المسلمين، فإذا لم تحجوا وأبيتم الحج، فهذا دليل على أنكم لستم مسلمين، ولستم على ملة إبراهيم ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وللَّه أي: هذا فرض وحق وواجب للَّه ﷻ على الناس.

حج: معناه في اللغة: القصد.

الحج شرعًا: قصد الكعبة المشرفة والمشاعر المقدسة في وقت مخصوص لأداء عبادات مخصوصة، وهي مناسك الحج.

حج البيت، أي: الكعبة، وما حولها من المشاعر تابع لها.

من استطاع إليه سبيلًا: هذا بيان شرط الوجوب، وهو الاستطاعة البدنية والاستطاعة المالية، الاستطاعة البدنية بأن يكون قادرًا على المشي والركوب والانتقال من بلده إلى مكة في أي مكان من الأرض، هذه البدنية، يخرج العاجز عجزًا مستمرًّا كالمريض مرضًا مزمنًا والكبير الهرم، فهذا ليس عنده استطاعة بدنية، فإن كانت عنده استطاعة مالية فإنه ينيب من يحج عنه حجة الإسلام.

أما الاستطاعة المالية فهي توفر المركب الذي ينقله، الراحلة، أو السيارة، أو الطيارة، أو الباخرة كل وقت بحسبه، ويكون عنده مال يستطيع أن يوفر له المركب الذي يمتطيه لأداء الحج، وأيضًا الزاد يكون عنده زاد ونفقة له في السفر ذهابًا وإيابًا، ولمن يمونهم يكون عندهم كفايتهم إلى أن يرجع إليهم، فالزاد معناه أن يكون عنده ما يكفيه في سفره، ويكفي من يمون من أولاده

ووالديه وزوجته، وكل من تلزمه نفقته يؤمِّن لهم ما يكفيهم حتى يرجع إليهم بعد تأمين سداد الديون إن كان عليه ديون، يكون هذا المال فاضلًا بعد سداد الديون، فإذا توفر هذا فيكون هذا هو السبيل، «**الزاد والراحلة**»[1]. كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن لم يستطع، أي: من ليس عنده زاد، ولا راحلة فليس عليه حج؛ لأنه غير مستطيع، فشرط وجوب الحج هو الاستطاعة.

ولما كان الحج يؤتَى إليه من بعيد من كل أقطار الأرض، من كل فج عميق، ويحتاج إلى مؤنة، وفيه مشقة وتعب، وقد يحصل فيه أخطار فمن رحمة اللَّه أن جعله في العمر مرة واحدة، وما زاد عليها فهو تطوع، هذا من رحمة اللَّه سبحانه وتعالى حيث لم يوجبه على المسلم كل سنة، كما قال النبي ﷺ: «**إن اللَّه فرض عليكم الحج فحجوا**. قال الأقرع بن حابس رضي الله عنه: أكل سنة يا رسول اللَّه؟ فسكت عنه الرسول ﷺ ثم أعاد السؤال، فسكت عنه النبي ﷺ ثم أعاد السؤال، فقال النبي ﷺ: **لو قلت: نعم، لوجبت ولما استطعتم، الحج مرة واحدة فما زاد فهو تطوع**»[2]. هذا من رحمة اللَّه.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه دليل على أن من امتنع عن الحج وهو يقدر ولم يحج فإنه كافر، لأن اللَّه قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: من أبى أن يحج وهو قادر على الحج، فإن هذا كفر، قد يكون كفرًا أصغر، فمن تركه جاحدًا لوجوبه هذا كفر أكبر بإجماع المسلمين.

أما من اعترف بوجوبه وتركه تكاسلًا فهذا كفر أصغر، ولكن إذا توفي،

---

(١) أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه ابن ماجه (٢٨٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٥١) (٢٣٠٤)، وأبو داود (١٧٢١)، والنسائي (٥/ ١١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

• المرتبة الثانية: الإيمان •

□ تعريف الإيمان :

المرتبة الثانية: الإيمان: وهو بضعٌ وسبعونَ شعبةً، فأعلاها: قولُ لا إله إلا اللَّه، وأدناها: إماطَةُ الأذَى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان [٤٢].

وكان له مال، فإنه يُحج من تركته؛ لأنه دَيْنٌ عليه للَّه ﷻ، وهذه الآية فيها وجوب الحج، وهو ركن من أركان الإسلام، وبيَّن الرسول ﷺ أنه ركن من أركان الإسلام في حديث جبريل[١]، وفي حديث ابن عمر[٢].

وقد فُرض الحج في السنة التاسعة على قول، ولم يحج النبي ﷺ في هذه السنة، وإنما حج في السنة التي بعدها في السنة العاشرة. لماذا؟ لأنه ﷺ أرسل عليًّا ينادي في الناس في الموسم: «**ألَّا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**»[٣]. فلما منع المشركون والعراة من الحج في العام العاشر حج النبي ﷺ حجة الوداع.

[٤٢] فالإيمان أعم من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فالإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله.

والإيمان في اللغة: التصديق، قال تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]. أي: بمصدق لنا.

وأما الإيمان في الشرع: فهو كما فسره أهل السنة والجماعة: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وهو بهذا التفسير يكون حقيقة شرعية؛ لأن الحقائق ثلاث:

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٦).

(٢) سبق تخريجه (ص١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عرفية.

فتفسير الإيمان بهذا التفسير هو حقيقة شرعية، فالإيمان نقل من المعنى اللغوي إلى المعنى الشرعي.

فالإيمان: قول باللسان، لابد من النطق والاعتراف باللسان، واعتقاد بالقلب، لابد من أن يكون ما ينطق به بلسانه معتقدًا له بقلبه وإلا كان مثل إيمان المنافقين الذين ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

ولا يكفي القول باللسان والاعتقاد بالقلب؛ بل لابد من العمل بالجوارح أيضًا، لابد من أداء الفرائض، وتجنب المحرمات، فيفعل الطاعات، ويتجنب المحرمات، كل هذا من الإيمان، وهو بهذا التعريف يشمل الدين كله، لكن هذه الطاعات والشرائع الكثيرة منها ما هو جزء من حقيقة الإيمان، ومنها ما هو مكملات للإيمان.

والإيمان له أركان، وله شُعَب، وقد بينها النبي ﷺ في حديثين، بيَّن أركان الإيمان في حديث جبريل، وبيَّن شعب الإيمان في حديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة». وهذا يأتي إن شاء اللَّه.

والإيمان والإسلام إذا ذُكِرَا جميعًا صار لكل واحد معنى، وإذا ذكر منهما واحد فقط دخل في الآخر، فإذا ذكرا جميعًا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، وهي أركان الإسلام الخمسة، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة، وهي الأركان الستة ومحلها القلب، ولابد من اجتماعها في المسلم، لابد أن يكون مسلمًا مؤمنًا يقيم أركان الإسلام، ويقيم أركان الإيمان لابد من اجتماعها.

قال ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة**». روايتان[1].

قوله: «**بضع**»: البضع هو ما بين الثلاثة إلى التسعة، فإذا قيل: بضعة عشر:

(١) أخرجه البخاري (٩) بلفظ: «وستون»، ومسلم (٣٥) بروايتيه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هو ما بين ثلاثة عشر إلى تسعة عشر، وإذا قيل: بضع فقط فهو ما بين الثلاثة إلى التسعة.

قوله: «**شعبة**»: الشعبة هي القطعة من الشيء، أي: أن الأركان بضع وسبعون قطعة أو جزءًا.

قوله: «**أعلاها**»؛ أي: أعلى هذه الشعب قول: لا إله إلا اللَّه، فهي رأس الإسلام، ورأس الإيمان، وهي الركن الأول، وهي مدخل الدين.

قوله: «**أدناها**»؛ أي: آخرها وأقلها.

قوله: «**إماطة الأذى عن الطريق**»؛ أي: إزالة الأذى عن الطريق المسلوك، والأذى كل ما يؤذي الناس من شوك، أو حجر، أو قاذورات أو مخلفات، كل ما يؤذي الناس في طريقهم، ووضع الأذى في الطريق محرم؛ لأن الطريق للمارة، فالأذى يعطل المارة أو يعرضهم للخطر، مثل أن يوقف سيارته في الطريق هذا من الأذى، إرسال الماء من البيت في الطريق هذا من الأذى، وضع القمامات في الطريق هذا من الأذى، سواء كان الطريق في البلد أو في البر، وضع الحجارة، وضع الأخشاب، وضع الحديد بطرقات الناس، حفر الحُفَر في طرقات الناس كل هذا من الأذى.

فإذا جاء مسلم وأزاح هذا الأذى، أخلى الطريق منه، فهذا دليل على إيمانه، فوضع الأذى في الطريق من شعب الكفر، وإزالة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان.

قوله: «**والحياء شعبة من الإيمان**»: الحياء خلق يجعله اللَّه في الإنسان يحمله على فعل ما يجمله ويزينه ويمنعه مما يدنسه ويشينه، والحياء الذي يحمل صاحبه على الخير ويبعده عن الشر هذا محمود.

أما الحياء الذي يمنع الإنسان من فعل الخير وطلب العلم، والسؤال عما أشكل عليه، فهذا حياء مذموم؛ لأنه خجل.

• أركان الإيمان •

قال: وأركانه ستةٌ: أن تؤمنَ بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وتؤمِن بالقدر خيره وشرِّه [٤٣].

وشعب الإيمان كثيرة كما عرفتم بضع وسبعون، وقد كتب الإمام البيهقي مؤلفًا كبيرًا بيَّن فيه شعبَ الإيمان، وله مختصر مطبوع.

ومن أدلة العلماء على أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، قوله ﷺ: «أعلاها لا إله إلا الله». هذا يدل على القول، وقوله ﷺ: «**أدناها إماطة الأذى عن الطريق**». هذا عمل، دل على أن الأعمال من الإيمان، وقوله ﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**». هذا في القلب، الحياء إنما يكون في القلب، فهذا دليل على أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

[٤٣] الإيمان يتكون من أركان وشعب فما الفرق بينهما؟

الفرق أن الأركان لابد منها، فإذا زال واحد منها زال الإيمان؛ لأن الشيء لا يقوم إلا على أركانه، فإذا فُقِد ركن من أركان الشيء لم يتحقق.

وأما الشعب فإنها مكملات، لا يزول الإيمان بزوال الشيء منها، لكنها مكملات إما واجبات أو مستحبات، فالواجبات لكمال الإيمان الواجب، والمستحبات لكمال الإيمان المستحب.

فإذا ترك المسلم شيئًا من الواجبات، أو فعل شيئًا من المحرمات، فإنه لا يزول إيمانه بالكلية عند أهل السنة والجماعة؛ ولكن يزول كماله الواجب.

فيكون ناقص الإيمان أو فاسقًا، كما لو شَرِبَ الخمر، أو سرق أو زنى، أو فعل شيئًا من الكبائر، هذا يكون فاعلًا لمحرم وكبيرة من كبائر الذنوب لكنه لا يكفر بذلك، ولا يخرج من الإيمان؛ بل يكون فاسقًا، ويقام عليه الحدُّ إن

كانت المعصية ذات حدٍّ.

وكذلك من ترك واجبًا كمن ترك بر الوالدين أو صلة القرابة هذه واجبات، فمن تركها نقص إيمانه، وكان عاصيًا بترك الواجب، فيكون عاصيًا إما بترك الواجب، وإما بفعل محرم، وعلى كل حال لا يخرج من الإيمان؛ وإنما يكون مؤمنًا ناقص الإيمان.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين يكفرون مرتكب الكبيرة.

فالخوارج يكفرونه ويخرجونه من الدين.

والمعتزلة يخرجونه من الدين، لكن لا يدخلونه في الكفر، وإنما يقولون: هو في منزلة بين منزلتين لا هو مؤمن ولا كافر.

هذا مذهبهم وهو مذهب مبتدَع، مخالف للأدلة، ومخالف لما هو عليه أهل السنة والجماعة، والسبب في ذلك تقصيرهم في الاستدلال، حيث أخذوا أدلة الوعيد، وتركوا أدلة الوعد مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]. هذه من أدلة الوعد، دلت على أن العاصي الذي لم يصل إلى حد الشرك والكفر أنه مرجوٌّ له المغفرة ومعرض للوعيد والعقوبة.

فإذا جمعت بين قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]. من أخذ بظاهرها كفَّر بالمعصية مطلقًا، وإن ردَّها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ تبين له الحق، وأنه لا يخرج من الدين؛ ولكنه متوعَّد بالنار، إن شاء اللّه غفر له، وإن شاء عذبه، فقد يأتي عليه مكفرات في الدنيا أو عذاب في القبر تكفر هذه السيئات.

والمكفرات كثيرة، يبتلى بمصائب، يبتلى بعقوبات في الدنيا أو يعذب في قبره أو يؤجل إلى يوم القيامة ويكون تحت المشيئة.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا هو الفرق بين الشعب والأركان،

فمن ترك شيئًا من الأركان فإنه يكفر، من جحد التوحيد وأشرك بالله ﷻ هذا يكفر لأنه ترك الركن الأول، ومن جحد أحد الرسل يكفر؛ لأنه ترك ركنًا من أركان الإسلام، ومن جحد الملائكة يكفر، ويخرج من الملة، من كفر بالبعث، أو جحد الجنة أو النار، أو الصراط، أو الميزان أو شيئًا مما ثبت من أمور الآخرة فإنه بذلك يكفر؛ لأنه أنكر ركنًا من أركان الإيمان.

كذلك من جحد القدر وقال: الأمر أُنُف، ولم يسبق قدر من الله إنما هي المصادفة، والأمور بالصدفة، وليس هناك قدر كما يقوله غلاة المعتزلة فإنه يكفر أيضًا؛ لأنه جحد القدر، أما من ترك شيئًا من الشعب فإن هذا ينقص إيمانه، إما أن يكون نقصًا لكماله الواجب، أو نقصًا لكماله المستحب؛ لكنه لا يكفر بذلك.

وما دليل الزيادة والنقصان في الإيمان؟

أما دليل الزيادة: فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. فدل على أن الإيمان يزيد بسماع القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

دل على أن الإيمان يزيد بنزول القرآن وسماعه وتدبره، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾ [المدثر: ٣١]. فدل على أن الإيمان يزيد بالطاعات والتصديق.

وأما النقصان: فإن كل شيء يزيد فإنه ينقص، كل شيء قابل للزيادة فإنه قابل للنقص هذا من ناحية.

ودل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله ﷻ يوم القيامة يقول:**

أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[١].

فدل على أن الإيمان ينقص حتى يكون على وزن حبة من خردل في القلب.

وكذلك قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. دل على أن الإيمان ينقص حتى يكون أقرب إلى الكفر، وفي قوله: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٢]. دل على أن الإيمان يضعف، أي: ينقص، فالإيمان إذن يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قوله: «وأركانه ستة» أي: دعائمه التي يقوم عليها، ويفقد بفقدها، أو بفقد واحد منها ستة أركان، وهي:

الأول: أن تؤمن بالله: فالركن الأول، وهو الإيمان بالله، ويشمل أنواع التوحيد الثلاثة: الإيمان بأن الله ﷻ واحد أحد فرد صمد لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته.

الثاني: الإيمان بالملائكة: والملائكة جمع مَلك، وأصله ملأك ثم سهل وقيل: ملك، والملائكة خلقٌ من خلقِ الله في عالم الغيب، خلقهم الله لعبادته ولتنفيذ أوامره ﷻ في ملكه، وهم أصناف كل صنف له عمل موكل به ويقوم به، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون: فمنهم: من هو موكل بالوحي وهو جبريل عليه السلام، وهو أشرف الملائكة، وهو الروح الأمين شديد القوى.

ومنهم: من هو موكل بحمل العرش: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٧]. قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

العرش هو أعظم المخلوقات، ولا يعلم عِظَمَهُ إلا اللَّه ﷻ يحمله الملائكة، وهذا دليل على عظم الملائكة، وعظم قواهم وخلقهم، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [فاطر: ١].

فمنهم: من له ستمائة جناح كجبريل -عليه الصلاة والسلام- فلا يعلم عظم خلقتهم إلا اللَّه ﷻ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

ومنهم: الموكل بالقطر والنبات وهو ميكائيل.

ومنهم: من هو موكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل ينفخ في الصور فيهلك كل شيء، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ﴾ ثم نفخ فيه مرة ثانية، فتطير الأرواح في أجسادها ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

تطير الأرواح من القرن، وهو الصور إلى أجسادها، وتدخل فيها فيحيون بإذن اللَّه، ثم يسيرون إلى المحشر.

ومنهم: من هو موكل بقبض الأرواح عند نهاية آجالها، وهو ملك الموت، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]. ومعه أعوان من الملائكة: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. يعني: أعوان ملك الموت.

ومنهم: من هو موكل بالأجنة في الأرحام؛ قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك**». الحديث[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

ومنهم: الموكلون بحفظ أعمال بني آدم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]. يلازمونكم بالليل والنهار.

قال ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار**»[١]. ويجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر، ويشهدون للمصلين عند الله ﷻ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. أي: يحضره الملائكة، ملائكة الليل وملائكة النهار.

ومنهم: من هو موكل بحفظ بني آدم من المكاره، يحفظونه من الآفات، ومن الأعداء، ومن الهوام، من السباع، ومن الأفاعي والحيات، ما دام له بقية حياة، فإن له ملائكة يحفظونه من الأخطار.

ينام بين السباع وبين الحيات في البر، من الذي يدفع عنه الحيات والسباع والهوام؟ معه ملائكة سخرهم الله ﷻ، قال الله فيهم: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. أي: بأمر الله هؤلاء يحفظون بني آدم من المكاره والأخطار إلى أن يحين الأجل، فإذا حان الأجل تخلوا عنه فوقع ما قدر الله له من الموت، أو الإصابة التي تفضي إلى الموت.

ومنهم: ملائكة موكلون بتنفيذ الأوامر في أقطار السموات والأرض لا يعلمهم إلا الله ﷻ.

منهم: ملائكة يطلبون مجالس الذكر ويحضرونها، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة**»[٢]. ملائكة سياحون في الأرض يطلبون حلق الذكر ويشهدونها.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يعلم الملائكة وأصنافهم وأوصافهم إلا اللَّه، لكن ما جاء في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أثبتناه واعتقدناه، وما لم يذكر لنا نمسك عنه، ولا نبحث فيه؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا ندخل فيه إلا بدليل.

فالإيمان بالملائكة ركن من أركان الإسلام، فمن جحد الملائكة، وقال: لا يوجد ملائكة لأننا لا نراهم؛ هذا يكون كافرًا ملحدًا زنديقًا والعياذ باللَّه؛ لأنه لم يؤمن بالغيب.

وكذلك الذي يؤول الملائكة فيقول: الملائكة إنما هي معانٍ وليست أجسامًا، وهي الهواجس التي تأتي على الإنسان، إن كانت هواجس خير فهي ملائكة، وإن كانت هواجس شر فهي شياطين، فهذا قولٌ إلحادي والعياذ باللَّه، ومع الأسف هو في «تفسير المنار» نقله محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده.

وهذا كلام الفلاسفة، وهو كلام باطل، من اعتقده فهو كافر، لكن نرجو أنه نقله ولم يعتقده، ولكن نقله من غير تعقيب فيه خطورة، وهذا كلام باطل وكفر بالملائكة، نسأل اللَّه العافية والسلامة.

فالإنسان لا يدخل بعقله وتفكيره، أو ينقل عن الفلاسفة، أو عن الزنادقة شيئًا من أمور الدين، وأمور الغيب، وإنما يعتمد على الكتاب والسنة هذا هو الواجب، ويذكر في «تفسير المنار» أنه منقول من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، واللَّه أعلم.

وكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي فيه طوام وفيه بلايا، وإن كان فيه شيء من الخير والفوائد؛ لكن فيه من المهلكات والسموم الشيء الكثير، وهو كتاب مختلط، شره أكثر من خيره، فلا يليق بالمبتدئ أو العامي أن يطالع فيه إلا إذا كان عنده علم وتمييز بين الحق والباطل.

والملائكة ليسوا معاني كما يقول؛ بل الملائكة أجسام وأشكال يتشكلون بأشكال أعطاهم اللَّه القدرة عليها، ولهذا كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي ﷺ

في صورة رجل، فأعطاهم اللَّه القدرة على التشكل في أشكال من أجل مصلحة بني آدم؛ لأن بني آدم لا يطيقون رؤية الملائكة على خلقتهم التي خلقهم اللَّه عليها.

وإنما يأتون إلى النبي ﷺ في صورة رجل رفقًا ببني آدم، ولا يرون على صورتهم وحقيقتهم إلا عند العذاب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]. وعند الموت يعاينهم الإنسان، يرى ملائكة الموت، لكن في الدنيا، وعلى قيد الحياة لا يراهم لأنه لا يطيق رؤيتهم، خلقهم اللَّه من نور، وخلق الشياطين من نار كما في القرآن وخلق آدم من تراب، فاللَّه على كل شيء قدير.

والكفار يعتقدون أن الملائكة بنات اللَّه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

الثالث: الإيمان بكتبه: وهي الكتب التي أنزلها اللَّه على الرسل لهداية البشر، نؤمن بأنها كلام اللَّه حقيقة، ونؤمن بما سمى اللَّه منها وما لم يسم، سمى اللَّه لنا منها: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم وصحف إبراهيم وموسى فنؤمن بها.

ونؤمن بما لم يسمه اللَّه منها، فالإيمان بالكتب السابقة يكون إيمانًا مجملًا، والإيمان بالقرآن يكون إيمانًا مفصلًا بكل ما فيه؛ لأنه كتابنا، وأنزل على نبينا محمد ﷺ، فمن جحد آية أو حرفًا من حروفه فهو كافر مرتد عن الإسلام.

وكذلك من آمن ببعض القرآن وكفر ببعض فهو كافر، وكذلك من آمن ببعض الكتب وكفر ببعض فهو كافر، ومن قال: أنا أومن بالقرآن ولا أومن بالتوراة والإنجيل فهو كافر، أو قال: أومن بالتوراة والإنجيل، ولا أومن بالزبور الذي أنزل على داود عليه السلام فهو كافر، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

أو أنكر صحف إبراهيم فهو كافر؛ لأنه مكذب للَّه ﷻ، ومكذب لرسله، فهو كافر؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان.

الرابع: الإيمان برسله: الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلى آخرهم من سمى اللَّه منهم ومن لم يسم، نؤمن بهم جميعًا وأنهم رسل اللَّه حقًّا جاءوا بالرسالة وبلغوها لأممهم.

فمن كفر بنبيٍّ واحد فهو كافر بجميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

فالكفر بنبيٍّ واحد أو برسول كفر بالجميع، ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. مع أنهم كذبوا نوحًا؛ فتكذيبهم لنوح صار تكذيبًا لبقية المرسلين، وكذلك من كفر بعيسى ومحمد كاليهود، أو كفر بمحمد كالنصارى، فإنه كافر بالجميع، لابد من الإيمان بجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من سمى اللَّه منهم ومن لم يسم.

وقد سمى اللَّه منهم، كما في سورة الأنعام: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦]. فذكر جملة منهم في هذه الآيات، وفي آيات أخرى، فنؤمن بمن سمى اللَّه منهم، ونؤمن بمن لم يسم اللَّه منهم.

الخامس: اليوم الآخر: الإيمان باليوم الآخر، هو الركن الخامس، واليوم

الآخر المراد به يوم القيامة سمي باليوم الآخر؛ لأنه بعد اليوم الأول وهو يوم الدنيا، الدنيا هي اليوم الأول والقيامة هي اليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر هو: الإيمان بما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين في القبر، وكل ما يكون بعد القبر فهو من الإيمان باليوم الآخر، وكذلك الإيمان بالبعث، والنشور، والمحشر، والحساب، ووزن الأعمال، والصراط، والميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات، والجنة والنار.

فتفاصيل ما يحصل في اليوم الآخر نؤمن بها جملة وتفصيلًا، بداية من الموت إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، كل ما صح من هذا نؤمن به، ولا نشك في شيء منه، فمَنْ شك في شيء منه فهو كافر مرتد عن الإسلام، كل هذا يطلق عليه اليوم الآخر وما فيه.

الركن السادس: تؤمن بالقدر خيره وشره: تؤمن بأن ما يجري في هذا الكون من خير أو شر، من كفر وإيمان، من نعمة ونقمة، من رخاء وشدة، من مرض وصحة، من حياة وموت، كل ما يجري في هذا الكون فإنه مقدر لم يكن صدفة أو يكن أمرًا مستأنفًا، أي: أنه مبتدأ لم يسبق أن قُدِّر، تؤمن بهذا كله بأنه بقضاء اللَّه وقدره، وتؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن هذا بقضاء اللَّه وقدره، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. هذا هو الإيمان بالقدر.

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات من لم يؤمن بها كلها فليس مؤمنًا بالقدر:

المرتبة الأولى: العلم: بأن اللَّه عَلِمَ كل شيء في الأزل، علم كل ما يجري، ما كان وما يكون إلى ما لا نهاية، فاللَّه قد علمه في الأزل قبل أن يكون، وقبل أن يقع، علمه ﷻ بعلمه القديم الأزلي الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، هذه مرتبة العلم فمن جحدها فهو كافر.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ: وهي أن اللَّه كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، فما يجري شيء إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ليس هناك شيء يجري وهو غير مكتوب.

ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد: ٢٢]. يعني: اللوح المحفوظ، كتب اللَّه فيه مقادير كل شيء، قال رسول اللَّه ﷺ: «**أول ما خلق اللَّه القلم، قال: اكتب. قال: وما أكتب قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1].

فمن جحد الكتابة وقال: اللَّه يعلم كل شيء لكنه لم يكتب في اللوح المحفوظ شيئًا، هذا كافر مرتد عن دين الإسلام.

المرتبة الثالثة: مشيئة اللَّه النافذة: وهي أن اللَّه سبحانه يشاء الشيء ويريده، فما من شيء يحدث إلا وقد شاءه اللَّه وأراده كما في اللوح المحفوظ، وكما علمه ﷻ، يشاء كل شيء في وقته، ويريد كل شيء في وقت حدوثه، لا يقع شيء بدون مشيئة اللَّه، أو بدون إرادة اللَّه، فمن قال: إن الأشياء تحدث بدون أن يشاءها اللَّه أو يريدها فهذا كافر.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق والإيجاد: اللَّه خالق كل شيء، إذا شاءه وأراده خلقه ﷻ وأوجده، فكل شيء هو مخلوق للَّه ﷻ، وهو من خَلْق اللَّه، وهو فعل العباد وكسب العباد.

فهذه المراتب الأربع لابد من الإيمان بها، وإلا لَمْ يكن الإنسان مؤمنًا بالقدر: مرتبة العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق والإيجاد، كل هذه لابد من الإيمان بها، فمن جحد شيئًا منها فإنه كافر مرتد عن دين الإسلام؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر.

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

• الدليل على أركان الإيمان •

والدليلُ على هذه الأركان السِّتة: قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] [٤٤].

---

[٤٤] لما ذكر الشيخ هذه الأركان ذكر دليلها من القرآن، ومن السنة؛ لأن أي شيء من أمور الدين والعبادة والعقيدة وأمور الأحكام الشرعية يحتاج إلى دليل، وإن لم يكن له دليل، لم يكن صحيحًا، لما ذكر الشيخ أركان الإيمان الستة ذكر دليلها من القرآن أولًا، ثم من السُّنة.

فمن القرآن: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾.

البر: هو فعل الخير الذي يقرب من اللَّه، ويوصل إلى جنته، فكل أفعال الخير هي من البر، فالبر لفظ عام يجمع جميع أنواع الخير، وأنواع الطاعات كلها داخلة تحت مسمى البر، وتحت مسمى التقوى.

فالبر والتقوى من الأسماء العامة التي تجمع كل خصال الخير، وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ هذا ردٌّ على اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، استنكروا هذا وجحدوه مع العلم أنهم يعلمون أنه حق، لكن جحدوه من باب العناد والمكابرة والحسد للنبي ﷺ ولهذه الأمة.

يقول اللَّه: ليس البر أن تولوا وجوهكم جهة من الجهات من غير أمر من اللَّه؛ ولكن البر طاعة اللَّه سبحانه وتعالى، إذا أمركم بأمر وجب عليكم امتثاله. هذا هو البر، فإذا أمركم باستقبال بيت المقدس، فالبر في ذاك الوقت هو استقبال بيت المقدس؛ لأنه طاعة للَّه عز وجل، ثم إذا أمركم أن تستقبلوا الكعبة، فالبر هو استقبال الكعبة، فالبر يدور مع أمر اللَّه سبحانه وتعالى.

ودليل القَدر: قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] [٤٥].

أنتم عبيد يجب عليكم الامتثال، إذا أمركم اللَّه أن تستقبلوا جهة من الجهات وجب عليكم الامتثال، أما أن تتعصبوا لجهة معينة وتقولوا: لا يصح إلا استقبالها، فهذا معناه اتباع الهوى والعصبية.

العبد الصادق يدور مع أوامر اللَّه حيث دارت، ولا يعترض على أمر اللَّه؛ لأن استقبال جهة بعد نسخ استقبالها لا يكون طاعة للَّه ﷻ، فالعمل بالمنسوخ وترك الناسخ ليس طاعة للَّه ﷻ وإنما هو طاعة للهوى والعصبية، فالبر متعلق بطاعة اللَّه، فحيث وجَّهك تتوجَّه إن كنت محقًّا في عبوديتك للَّه ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾.

[٤٥] دليل الركن السادس من أركان الإيمان: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: كل شيء خلقه اللَّه فإنه مقدر في علمه وكتابته ومشيئته وإرادته ﷻ، وليس هو عفويًّا أو صدفيًّا، إنما هو أمر سابق في علم اللَّه، ومكتوب في اللوح المحفوظ، وسابق في مشيئة اللَّه وإرادته ﷻ.

* * *

• المرتبة الثالثة: الإحسان •

□ تعريف الإحسان :

المرتبةُ الثالثة : الإحسان، ركنٌ واحدٌ، وهو : أن تعبد اللَّه كأنك تراهُ، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك [٤٦].

---

[٤٦] **الإحسان في اللغة**: إتقان الشيء وإتمامه، مأخوذ من الحسن، وهو الجمال ضد القبح. وهو ينقسم إلى أقسام:

أولًا: إحسان بين العبد وبين ربه وهذا هو المقصود.

ثانيًا: إحسان بين العبد وبين الناس.

ثالثًا: إحسان الصنعة وإتقانها، إذا صنع الإنسان شيئًا، أو عمل عملًا فإنه يجب عليه أن يتقنه ويتمه.

النوع الأول: وهو الإحسان بين العبد وربه، بيَّنه الرسول ﷺ لما سأله جبريل بحضرة الصحابة، كما يأتي، فقال: «**الإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فالإحسان بين العبد وبين ربه هو إتقانه العمل الذي كلفه اللَّه به بأن يأتي به صحيحًا خالصًا لوجه اللَّه ﷻ، عمل الإحسان بين العبد وربه ما توفر فيه الإخلاص للَّه ﷻ والمتابعة للرسول ﷺ، وقد بين النبي ﷺ أن الإحسان على مرتبتين، واحدة أعلى من الأخرى.

الأولى: أن تعبد اللَّه كأنك تراه، بأن يبلغ بك اليقين والإيمان باللَّه كأنك تشاهد اللَّه عيانًا، ليس عندك تردد، أو أي شك، بل كأن اللَّه أمامك ﷻ تراه عيانًا، فمن بلغ هذه المرتبة فقد بلغ غاية الإحسان، تعبد اللَّه كأنك تراه من كمال اليقين، وكمال الإخلاص، كأنك ترى اللَّه عيانًا، واللَّه -جل وعلا- لا يُرى في الدنيا؛ وإنما يُرى في الآخرة؛ ولكن تراه بقلبك حتى كأنك تراه

بعينيك، ولذلك يجازى أهل الإحسان بالآخرة بأن يروه ﷻ، لما عبدوه وكأنهم يرونه في الدنيا جازاهم اللَّه بأن أفسح لهم المجال بأن يروه بأبصارهم في دار النعيم.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. الزيادة هي النظر لوجه اللَّه، السبب أنهم أحسنوا في الدنيا فأعطاهم اللَّه الحسنى، وهي الجنة، وزادهم رؤية اللَّه ﷻ؛ تعبد اللَّه كأنك تراه على المشاهدة، والمحبة والشوق إلى لقائه ﷻ، تتلذذ بطاعته، وتطمئن إلى طاعته ﷻ، تشتاق إليها، هذه طريقة المحسنين.

المرتبة الثانية: إذا لم تبلغ هذه المرتبة العظيمة، فإنك تعبده على طريقة المراقبة بأن تعلم أن اللَّه يراك، ويعلم حالك، ويعلم ما في نفسك، فلا يليق بك أن تعصيه، وأن تخالف أمره، وهو يراك ويطلع عليك، وهذه حالة جيدة؛ ولكنها أقل من الأولى، وما دمت أنك تعلم أنه يراك فإنك تحسن عبادته وتتقنها؛ لأنك تعلم أن اللَّه يراك، وللَّه المثل الأعلى لو كنت أمام مخلوق له منزلة وأمرك بأمر، وأنت تنفذ هذا الأمر أمامه وينظر إليك، هل يليق بك أن يقع منك إخلال بهذا الفعل؟

الحاصل: أن الإحسان على مرتبتين:

مرتبة المشاهدة القلبية: وهي أن تعبد اللَّه كأنك تراه من شدة اليقين والإيمان، كأنك ترى اللَّه ﷻ عيانًا.

والمرتبة الثانية: وهي أقل منها، أن تعبد اللَّه، وأنت تعلم أنه يراك ويطلع عليك، فلا تعصيه ولا تخالف أمره ﷻ.

هذه مرتبة الإحسان وهي أعلى مراتب الدين، من بلغها فإنه بلغ أعلى مراتب الدين، وقبلها مرتبة الإيمان، وقبلها مرتبة الإسلام.

فالدين دوائر:

الدائرة الأولى: الإسلام، وهي واسعة حتى إنه يدخل فيها المنافق ويقال

• دليل الإحسان •

والدليل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] **[٤٧]**.

له: مسلم، ويعامل معاملة المسلمين؛ لأنه استسلم في الظاهر، فهو داخل في دائرة الإسلام، ويدخل فيها ضعيف الإيمان الذي ليس معه من الإيمان إلا مثقال حبة خردل.

الدائرة الثانية: وهي أضيق من الأولى وأخص، دائرة الإيمان، وهذه لا يدخل فيها المنافق النفاق الاعتقادي أبدًا، وإنما يدخل فيها أهل الإيمان، وهم على قسمين: إيمان كامل، وإيمان ناقص، فيدخل فيها مؤمن فاسق أو مؤمن تقي.

الدائرة الثالثة: وهي أضيق من الثانية، دائرة الإحسان وهي كما بينها النبي ﷺ، ولا يدخل فيها إلا أهل الإيمان الكامل.

[٤٧] هذا دليل المرتبة الأولى من الإحسان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ دلت الآية أن اللَّه مع المحسنين، وهم الذين عبدوا اللَّه كأنهم يرونه، فإن اللَّه معهم، معية خاصة، معية النصرة والتأييد والتوفيق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ هذا دليل المرتبة الثانية، هذا دليل قوله ﷺ: «**فإنه يراك**».

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ أي: فوّض أمورك.

﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾: وهو الله ﷻ.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾: تقوم للعبادة والصلاة.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: يراك وأنت راكع وأنت ساجد، يراك في جميع أحوال العبادة قائمًا وراكعًا وساجدًا فهو يراك ﷻ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: السميع لأقوالك، العليم بأقوالك ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ هذا دليل المرتبة الثانية.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾: هذا خطاب للرسول ﷺ، في أي شأن من أمورك، من أمور العبادة أو من غيرها، جميع أفعالك وتحركاتك ما تكون في شأن من الشئون.

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: من الله؛ لأن القرآن من عند الله ﷻ أو الضمير راجع إلى الشأن، أي: ومن الشأن الذي تكون فيه تلاوة القرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ هذا لجميع الأمة، للرسول ﷺ وغيره.

﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أي عمل من الأعمال خير أو شر.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ نراكم ونبصركم ونشاهدكم، هذا دليل لقوله ﷺ: «**فإنه يراك**».

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تباشرونه وتعملونه، فهذا يعطي دليلًا على المرتبة الثانية من مراتب الإحسان، وأنه -جل وعلا- شهيد على كل عامل بعمله يراه ﷻ ويعلمه ويبصره، ولا يغيب عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

وأما الإحسان بين العبد والخلق فمعناه: بذل المعروف لهم، وكف الأذى

عنهم، بأن تطعم الجائع، وتكسو العاري، وتعين بجاهك المحتاج، وتشفع لمن احتاج الشفاعة، تبذل المعروف، جميع وجوه المعروف: تكرم الضيف، تكرم الجار، لا يصدر منك إلا خير لجارك، وتكف أذاك عنه أيضًا، فلا يصدر منك أذى له ولا لغيره.

من الناس من لا يصدر منه إلا أذى، ومن الناس من يصدر منه أذى وخير، ومن الناس من لا يصدر منه إلا خير فهذا في أعلى الطبقات.

بذل الخير للناس، وكف الأذى عنهم هو الإحسان للناس: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. حتى البهائم يجب أن تحسن إليها بأن تهيئ لها ما تحتاج إليه، وتمنع الأذى عنها، وترفق بها، هذا من الإحسان إلى البهائم.

حتى المستحق للقتل لا تعذبه بل تقتله قتلة حسنة ومريحة، من وجب عليه القصاص، ومن وجب عليه الحدُّ، فإنه ينفذ فيه برفق لا تمثيل، ولا تعذيب، ولا صبر.

قال ﷺ: «**إن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح**»[١]. في القصاص أو غير ذلك مما يلزم الحد.

فإذا ذبحتم: أي ذبحتم الحيوانات المأكولة فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته، فتحسن حتى للبهائم، وقد غفر اللَّه للبغي من بني إسرائيل بسبب أنها سقت كلبًا رأته يلهث من العطش، فسقته فشكر اللَّه لها فغفر اللَّه لها ذنبها[٢]. وهو ذنب عظيم، وهو البغاء؛ أي: الزنا؛ فغفر اللَّه لها بسبب ذلك؛ لأنها أحسنت إلى هذا البهيم العطشان.

فكيف بغير الكلب إذا أحسنتَ إلى جائع من المسلمين أو حتى من بني آدم،

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) انظر: ما أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والدليل من السنة: حديثُ جبريلَ المشهورُ عن عُمَرَ ﵁، قال: «بينما نحنُ جلوسٌ عند رسول اللَّه ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر» [٤٨].

ولو كان كافرًا، إذا أحسنتَ إليه فإن اللَّه -جل وعلا- يشكر لك ذلك الإحسان، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

النوع الثالث: وهو إتقان العمل، أي عمل تعمله يجب عليك أن تتقنه، لا ليقال: إن فلانًا يحسن كذا، وقد جاء في الحديث: «**إن اللَّه يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»[1].

[٤٨] قد تقدم الكلام عن الإسلام والإيمان والإحسان، وأركان كل مرتبة، وذكر الشيخ ﵀ أدلة كل مرتبة من القرآن، وهذا كله تقدَّم وانتهى.

ثم ذكر الشيخ ﵀ دليل هذه المراتب من السنة، سنة الرسول ﷺ فذكر حديث جبريل، وأنه أتى النبي ﷺ وهو مع أصحابه، أتاهم في صورة رجل، وجلس إلى النبي ﷺ، وسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان.

ثم سأله عن الساعة، وسأله عن أماراتها، هذا ما يسمى بحديث جبريل أو حديث عمر، وهو حديث ورد من عدة طرق عن جماعة من الصحابة، فهو حديث صحيح.

وذكر الشيخ ﵀ رواية عمر بن الخطاب[2] في هذا الحديث مع اختلاف في ألفاظ الحديث في طرق أخرى ولكن المعنى واحد.

قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ» كان من عادتهم ﵃ أنهم يجتمعون عند النبي ﷺ في المسجد، ويتلقون عنه العلم، ويستمعون إلى أجوبته ﷺ على ما يرده من

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٣٤) (٥٣١٣ و٥٣١٤) من حديث عائشة ﵂.

(٢) أخرجها مسلم (٨)، وانظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٩٣) الحديث الثاني.

لا يُرى عليه أثرُ السَّفَر ولا يعرفُه منَّا أحدٌ، حتى جَلَس إلى النبي ﷺ فأسندَ رُكبَتَيه إلى رُكبتَيه، ووضَعَ كفَّيه على فَخِذَيه، وقال: يا محمدُ أخبرني عن الإسلام [٤٩].

الأسئلة؛ فبينما هم كذلك على عادتهم إذ دخل عليهم رجل من الباب، رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، أي: أن جبريل عليه السلام تمثل في صورة هذا الرجل، ولم يأتهم بصورته الملكية؛ لأنهم لا يطيقون النظر إليه في صورته الملكية.

[٤٩] لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا -أي: من الحاضرين- أحد: فهذا من العجائب، أنه ليس قادمًا من سفر حتى يقال: إنه من غير أهل المدينة وهم لا يعرفونه، وهو ليس من أهل البلد حتى يعرفوه، فتحيروا في شأنه، لا هو قادم، ولا هو من أهل البلد، لو كان قادمًا من سفر لظهر عليه أثر السفر في ثيابه، وفي لونه؛ لأن المسافر تظهر عليه آثار السفر، فلا يعرفه أحد من الحاضرين، فليس هو من أهل البلد، وليس هو قادم من سفر، فمن أين يكون هذا الرجل؟ هذا الذي استغربوه.

فجلس إلى النبي ﷺ: بين يديه جلوس المتعلِّم من معلِّمه.

وأسند ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ: أي: أنه قريب منه جدًّا.

ووضع يديه على فخذيه: أي: فخذي النبي ﷺ.

فقال يا محمد: خاطبه باسمه، ولم يقل: يا رسول اللَّه، ولعله فعل ذلك عليه السلام من أجل أن يظن الصحابة أنه من أهل البادية؛ لأن من عادة أهل البادية أنهم يخاطبون النبي ﷺ باسمه؛ لأن أهل البادية على طبيعتهم وعادتهم، وهو زيادة في الإغراب والتعمية حتى لا يعرفوه.

قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، أي: اشرح لي معنى الإسلام.

قال: أن تشهدَ أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه ﷺ، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاةَ، وتصومَ رمضان، وتَحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلًا. فقال: صدقت. فعجبنا له يسألُهُ ويُصَدِّقُهُ [٥٠].

قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه. قال: صدقت [٥١].

---

[٥٠] قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**». ذكر له النبي ﷺ أركان الإسلام، التي لابد منها، والتي إن تحققت ووُجِدت تحقق الإسلام، وما زاد عليها من الأمور الأخرى فهي مكملات.

فالرسول ﷺ اقتصر على بيان أركان الإسلام؛ لأن الجواب كلما كان مختصرًا كان أسهل على المتعلِّم والسامع، وسهل عليه حفظه ووعيه، بينما لو طوِّل الجوابُ تشعب على الحاضرين، وربما أن أكثرهم لا يستوعبه، فهذا دليل على أن المسئول ينبغي أن يتوخَّى الاختصار مهما استطاع، ويقتصر على الشيء الضروري، وإلا فالإسلام أكثر من ذلك. هذه أركانه ودعائمه التي يقوم عليها.

قال: «**صدقت**»: هذه عجيبة ثانية.

قال: «**فعجبنا له يسأله ويصدقه**». فدل على أنه عالمٌ، وأنه لا يسأل سؤال جاهل، وإنما يسأل وهو عالم، بدليل أنه قال: صدقت، فدل على أنه عالم، فلماذا يسأل؟!

[٥١] **قال: «أخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**. فذكر له ﷺ أركان الإيمان الستة بعدما ذكر له أركان الإسلام.

والإسلام والإيمان إذا ذكرا جميعًا فالإسلام معناه الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة، أعمال القلوب، وما يقوم به من التصديق

قال: أخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبُدَ اللَّه كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراهُ، فإنَّه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسئول عنها بأعلَمَ من السائل [٥٢].

والعلم، ولابد من الإسلام والإيمان جميعًا، الإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: الأعمال الباطنة؛ لقوله ﷺ: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**»[1].

فإن ذكرا جميعًا صار لكل واحد معنًى خاصٌّ به، وإذا ذكر واحد منهما دخل فيه الآخر، إذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وإذا ذكر الإسلام وحدَه دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يصح إسلام بدون إيمان، ولا يصح إيمان بدون إسلام لابد من الاثنين، فهما متلازمان، ولهذا يقولون: إن الإسلام والإيمان من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا انفردت اجتمعت، أي: يدخل بعضها في بعض لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فسأله عن الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، وبيَّن له ﷺ أركان كلٍّ من الإسلام والإيمان.

[٥٢] قال: «**فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد اللَّه**». سبق أن المحسن هو من يعبد اللَّه على المشاهدة واليقين كأنه يرى اللَّه، أو يعبده على المراقبة، وهو يعلم أن اللَّه يراه فيحسن العمل؛ لأن اللَّه مطلع عليه، فالمحسن يعبد اللَّه إما على المشاهدة في القلب وهذا أكمل، وإما على المراقبة، وأن يعلم أن اللَّه يراه في أي مكان، أو في أي عمل يعمله، هذا هو الإحسان.

قال: «**صدقت. فأخبرني عن الساعة**». أي: عن قيام الساعة متى؟ ولما كان هذا السؤال لا يعلم أحد الجواب عنه إلا اللَّه ﷻ؛ لأن قيام الساعة لا يعلم تحديده إلا اللَّه ﷻ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٩/ ٣٧٤) (١٢٣٨١) من حديث أنس رضي الله عنه.

قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تَلِدَ الأمةُ ربَّتَها [٥٣].

نحن نعلم أنها ستقوم الساعة لا نشك في هذا، من شكَّ في هذا فهو كافر، نعلم أنها ستقوم الساعة ولابد، ولكن الوقت الذي تقوم فيه الساعة اللَّه ﷻ لم يخبرنا عنه، ولم يبينه لنا، واستأثر بعلمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. هو الذي يعلمها سبحانه.

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ومنها وقت قيام الساعة.

قال ﷺ لجبريل: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**». أي: أنا وأنت سواء لا نعلم متى تقوم الساعة، اللَّه -جل وعلا- لم يُطلع على هذا لا الملائكة، ولا الرسل، ولا أحدًا؛ بل استأثر بعلمها ﷻ.

[٥٣] قال: «**أخبرني عن أماراتها**». **الأمارات**: جمع أمارة وهي العلامة، أما الإمارة -بالكسر- فهي: الولاية.

«**أخبرني عن أماراتها**». أي: العلامات التي تدل على قرب قيامها.

نعم؛ الساعة لها أمارات، وقد بينها اللَّه ﷻ، منها أمارات صغيرة، ومنها علامات كبيرة، ومنها متوسطة، ومنها علامات مقاربة للساعة، تكون عند قيام الساعة، تكون قريبًا من قيامها، أما العلامات الأخرى فإنها متقدمة.

العلماء يقولون: علامات الساعة على ثلاثة أنواع؛ هي: علامات صغيرة ومتقدمة، وعلامات متوسطة، وعلامات كبيرة.

العلامات الصغيرة، والعلامات المتوسطة كلها حصلت، أو حصل معظمها، أما العلامات الكبار، ظهور الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج

وأن تَرَى الحُفاةَ العراةَ العالَةَ رعاءَ الشاءِ يتطاولُونَ في البُنيان [٥٤].

الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج فهذه تكون عند قيام الساعة وتتتابع.

قال: «أخبرني عن أماراتها». ولما كانت أماراتها معلومة أجابه الرسول ﷺ قال: «**أن تلد الأمة ربتها**». هذا من علامات الساعة، الأمة هي المملوكة، وربتها: سيدتها.

[٥٤] **قال الشراح**: معناه، واللَّه أعلم، أنه في آخر الزمان يكثر التسري، يعني: يكثر وطء الإماء، أي: المملوكات فيلدن بناتٍ، تكون بنتها حرة، وتكون سيدة لأمها ومالكة لها، وقيل: معناه أنه يكثر العقوق فتكون البنت كأنها سيدة لأمها.

وأن ترى الحفاة: هذه علامة ثانية.

الحفاة: الذين ليس لهم نعال من الفقر والفاقة.

العراة: الذين ليس لهم لباس.

العالة: الفقراء.

رعاء الشاء: جمع راعٍ الذين يرعون الأغنام، هؤلاء كانوا في الأصل في البراري في بيوت ينتقلون من محل إلى آخر، وفي آخر الزمان يستوطنون في المدن، ويبنون القصور، والعمارات الشاهقة، هذا من علامات الساعة، إذا تحولت البادية إلى حاضرة، وصاروا يتطاولون في المباني، ويتباهون بها، وينمقونها، وهم ليس من عادتهم يتحولون إلى أغنياء إلى أصحاب ثروة وأصحاب مظاهر، هذا من علامات الساعة.

وكما تعلمون فإن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، كما تعلمون الآن كيف حال الناس، لقد تغيرت الأحوال وتحول الفقراء إلى أغنياء أصحاب ثروات، وتحضرت البادية، وبنوا وتطاولوا في البنيان، وهذا مصداق ما قاله رسول اللَّه ﷺ.

قال: فمضى، فلبثنا مليًّا. فقال: يا عُمَرُ أتدري مَنِ السائلُ؟ قلت: اللَّه ورسوله أعلمُ. قال: هذا جبريل أتاكُم يعلِّمكم أمر دينكم» [٥٥].

---

[٥٥] قال: «ثم خرج ولبثنا مليًّا»: يعني وقتًا قصيرًا.

فقال النبي ﷺ: «**يا عمر! أتدري من السائل؟**». أو«تدرون من السائل؟» وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «**علي بالرجل**»[١]. فطلبوه فلم يقدروا عليه.

قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم**». هذا الذي دخل وسأل هذه الأسئلة هو جبريل عليه السلام، وجاء في صورة رجل كما وصف لغرض تعليم الحاضرين أمور دينهم على طريق السؤال والجواب.

فدل هذا الحديث على مسائل عظيمة:

الأولى: أن الدين ينقسم إلى ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، كل مرتبة أعلى من التي قبلها، وأن كل مرتبة لها أركان، أركان الإسلام، وأركان الإيمان، والإحسان ركن واحد.

الثانية: فيه التعليم بطريق السؤال والجواب، وهذه طريقة تعليمية ناجحة؛ لأنها أدعى للانتباه وتلقي العلم كونه يسأل ويتهيأ ذهنه، يتطلب الجواب، ثم يلقى عليه الجواب، وهو يتطلع إليه، يكون هذا أثبت.

الثالثة: في الحديث دليل على أن من سأل عن علم وهو لا يدري، عليه أن يقول: اللَّه ورسوله أعلم، يكل العلم إلى عالمه فلا يتكلم بالجواب، وهو لا يعرفه ويتخرص، هذا لا يجوز، والرسول ﷺ لما سُئل عن الساعة قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**». ولما قال للصحابة: «**أتدرون من السائل؟**». وهم لا يعرفونه. قالوا: اللَّه ورسوله أعلم.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٣٨٠) (٥٨٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وابن حبان (١٧٣)، والدارقطني (٣/ ٣٤١) (٢٧٠٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فدل ذلك على أن مسائل الشرع ومسائل الدين لا يجوز التخرص فيها، لأن هذا من التكلف؛ ولكن من كان عنده علم فإنه يجيب، ومن ليس عنده علم يقول: اللَّه أعلم، ومن قال: لا أدري، فقد أجاب.

قد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عن أربعين مسالة فأجاب عن ستٍّ منها، وقال في الباقية: لا أدري. فقال له السائل: أنا جئت من كذا وكذا وسافرت وأتعبت راحلتي وتقول: لا أدري. قال: اركب راحلتك، واذهب إلى البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكًا فقال: لا أدري. هذا ليس عيبًا أن الإنسان إذا كان لا يعرف الجواب في الأمور الشرعية أنه يقول: لا أدري ولو كان عالمًا، الرسول ﷺ قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**».

وكان ﷺ إذا سئل في بعض الأسئلة، ولم يكن عنده وحي من اللَّه ﷻ انتظر حتى ينزل الوحي من اللَّه ﷻ ألستم تقرءون: يسألونك عن كذا، يسألونك عن كذا، قل: كذا.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

فالرسول ﷺ كان إذا سئل ولم يكن عنده جواب ينتظر حتى ينزل عليه الوحي من اللَّه، وكذلك غيره من باب أولى، ينتظر حتى يسأل غيره، أو يبحث عن المسألة في كتب أهل العلم؛ ليتحصل على جواب، أما أن يستعجل فهذا فيه خطورة عظيمة، وفيه سوء أدب مع اللَّه ﷻ؛ لأن الذي يجيب، يجيب عن شرع اللَّه، يقول: اللَّه أحل كذا أو حرم كذا، أو شرع كذا، فالأمر فيه خطورة جدًّا.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على آداب المتعلم، جبريل، وهو سيد الملائكة يجلس بين يدي الرسول ﷺ، وهو يسند ركبتيه إلى ركبتَي الرسول ﷺ، ويضع يديه على فخذيه يسأل بأدب، هذا من أجل أن يعلم الناس كيف يتأدبون مع العلماء.

هذا بعض ما يدل عليه الحديث وفيه:

مسألة خامسة: وهي بيان بعض علامات الساعة، ذكر علامتين: أن تلد الأمة ربتها، وبعض العلماء يقول: معنى أن تلد الأمة ربتها أنه يكثر العقوق في آخر الزمان حتى تصبح البنت كأنها سيدة على والدتها تأمرها وتنهاها وتغلظ عليها.

***

• الأصل الثالث: معرفة نبينا محمد ﷺ •

□ اسمه، ونسبه، ونشأته:

الأصل الثالث: معرفةُ نبيِّكُم محمد ﷺ [٥٦].

---

[٥٦] **قوله: «الأصل الثالث»**: أي: من الأصول الثلاثة، لأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في أول الرسالة أنه يجب على كل مسلم ومسلمة معرفة هذه الأصول الثلاثة، وهي: معرفة اللَّه، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة نبيه محمد ﷺ بالأدلة.

أما الأصل الأول والثاني؛ فقد تقدم شرحهما وبيان أدلتهما.

الأصل الثالث: وهو معرفة النبي ﷺ، لما كان النبي ﷺ واسطة بين اللَّه وبين خلقه في تبليغ دينه ورسالته، وجب معرفته -عليه الصلاة والسلام-، وإلا كيف تتبع شخصًا لا تعرفه فلابد أن تعرفه من حيث الاسم، ومن حيث البلد الذي ولد ونشأ فيه، والبلد الذي هاجر إليه، وتعرف مدة عمره -عليه الصلاة والسلام-.

وأقسام عمره -عليه الصلاة والسلام-، وأقسام المدة التي أقامها في هذه الدنيا، تعرفها أيضًا قبل النبوة وبعدها، وقبل الهجرة وبعد الهجرة، تعرف كيف ابتدئ بالوحي -عليه الصلاة والسلام- ومتى ابتدئ بالوحي، وما هي الآية التي تدل على نبوته، والآية التي تدل على رسالته، تأتي بالآيات التي تدل على نبوته، والآيات التي تدل على إرساله، فلابد أن تعرف هذا، تعرف نسبه من أي قبيلة؛ لأن العرب قبائل، وهو عربي بلا شك، فلابد من معرفة هذه الأشياء عن الرسول ﷺ بأن تدرس الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه المسائل، وتنظر في سيرة الرسول ﷺ ودعوته لأجل أن تعرف هذه الأمور عن نبيك الذي أنت مأمور باتباعه، والاقتداء به.

وهو محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم من قريش، وقريشٌ من العرب، والعرَبُ من ذُرِيَّة إسماعيل بن إبراهيمَ الخليل -عليه وعلى نبيِّنا أفضلُ الصلاة والسلام- [٥٧].

---

[٥٧] هذا اسمه، ونسبه، اسمه محمد -عليه الصلاة والسلام-، وله أسماء غير محمد، لكن أشهر أسمائه محمد، قد ذكر اللَّه ذلك في القرآن في عدة آيات: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢]. فذكر اللَّه اسمه محمدًا في عدة آيات.

ومن أسمائه: أحمد، قد ذكره اللَّه في قوله في بشارة المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فهو محمد، وأحمد، ومعنى ذلك أنه كثير المحامد -عليه الصلاة والسلام-، وكثير الصفات التي يُحمد عليها، ومن أسمائه نبي الرحمة، ونبي الملحمة، يعني الجهاد في سبيل اللَّه، والحاشر، والعاقب -عليه الصلاة والسلام- الذي يحشر الناس بعد بعثته؛ لأنه آخر الرسل ﷺ، فليس بعده إلا قيام الساعة.

فبعد رسالته تقوم الساعة، ويُحشر الناس للجزاء والحساب، ومن أراد أن يلم بهذه الأمور فليرجع إلى كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» للإمام ابن القيم رحمه الله.

وأما نسبه: فهو محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب.

وهو من قبيلة قريش التي هي أشرف القبائل، وقريش من ذرية إسماعيل -

عليه الصلاة والسلام-، والعرب على قسمين في المشهور:

العرب العاربة، وهم: القحطانية.

والعرب المستعربة، وهم: العدنانية من ذرية إسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم الخليل عليه السلام. سموا بالمستعربة؛ لأنهم تعلموا العربية من العرب العاربة، لما جاءت جُرْهم، ونزلوا في مكة عند هاجر أم إسماعيل، وابنها إسماعيل -وهو صغير-، لما وجدوا ماء زمزم نزلوا، واصطلحوا مع هاجر أن ينزلوا عندها، وأن تسمح لهم أن يستقوا من الماء.

فإسماعيل عليه السلام كان رضيعًا في ذلك الوقت، ثم إنه تربى ونشأ وأخذ العربية عن جُرْهُم وهي من العرب العاربة، وتزوج من جُرهم، وجاءه ذرية تعلموا العربية، ونشئوا مع العرب، فصاروا عربًا مستعربة وهي العدنانية.

أما العاربة، فهم القحطانية، أصلها من اليمن.

وبعض العلماء يقول: العرب العاربة على قسمين: عرب بائدة وعرب باقية، العرب البائدة هم الذين هلكوا، وهم قوم نوح، وعاد، وثمود، وشعيب.

أما العرب الباقية فهم الذين ينقسمون إلى عرب عاربة، وعرب مستعربة، وهي العرب الباقية، والنبي من بني هاشم، وهاشم من ذرية إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، واسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

وعبد المطلب ليس هذا اسمه، اسمه شيبة، ولكن سمي عبد المطلب؛ لأن عمه المطلب بن عبد مناف جاء به من المدينة وهو صغير من عند أخواله بني النجار، فلما رآه الناس أسود من السفر ظنوا أنه عبد مملوك للمطلب، فقالوا: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعبد مناف له أربعة أولاد: هاشم جد الرسول ﷺ، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل.

بنو هاشم يقال لهم: الهاشميون، وبنو المطلب يقال لهم: المطلبيون، وأما عبد شمس، فمنهم عثمان رضي الله عنه، ومنهم بنو أمية هؤلاء من بني عبد شمس.

ونوفل كذلك له ذرية منهم: جبير بن مطعم، وحكيم بن حزام.

وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- له إسماعيل وهو الأكبر، وهو جد العرب العدنانية، وإسحاق وهو جد بني إسرائيل، وجميع الأنبياء كلهم من ذرية إسحاق إلا نبينا -عليه الصلاة والسلام-، فهو من ذرية إسماعيل خاتم النبيين.

أما مولده: فقد ولد ﷺ عام الفيل، وهو العام الذي جاء فيه أبرهة ملك اليمن، انتدبه ملك الحبشة؛ ليهدم الكعبة، ومعه فيل عظيم، فلما وصل إلى مكان يقال له: المغمس، ولم يبق إلا أن يدخل مكة، ويهدم الكعبة، وتفرق أهل مكة، وصعدوا الجبال؛ لأنهم لا طاقة لهم به، فأراد أن يتوجه إلى الكعبة، فانحبس الفيل، وأبى أن يقوم من الأرض، حبسه اللَّه.

فإذا وجهه إلى غير جهة مكة قام وهرول، وإذا وجهه إلى جهة مكة انحبس ولم يستطع المشي! وبينما هم كذلك رأوا فِرْقَان طير من قِبَل البحر معها حجارة، كل طائر معه حجران: حجر في منقاره وحجر في رجليه، فرمتهم فصارت الحصاة تضرب هامة الرجل فتخرج من دبره وتشقه نصفين، فأهلكهم اللَّه ﷻ.

فأنزل اللَّه في ذلك يذكِّر قريشًا سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ من جهنم، والعياذ باللَّه ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥]. أصبحوا مثل التبن الذي أكلته الدواب وراثته.

هذه قصة الفيل حمى اللَّه بيته الحرام، وأهلك هذا الجبار، وفي هذا العام ولد محمد ﷺ، وظهر مع ولادته آيات، حيث ظهر معه نور أشرقت له قصور الشام، وفي ليلة ولادته ارتجت الأصنام، وارتج إيوان كسرى، وسقطت منه شرفات، في ليلة ولادة النبي ﷺ هذه إرهاصات لبعثة النبي ﷺ، والجن والشياطين حصل عندهم ضجة في الليلة العظيمة.

وله من العُمُر ثلاثٌ وستُّونَ سنة، أربُعونَ قبلَ النُّبُوةِ، وثلاثٌ وعشرونَ نبيًّا رسُولًا، نُبِّئَ بـ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [٥٨].

ولد في مكان يقال له: شعب على مقربة من الكعبة، ولد في مكة لكن لا يوجد تحديد ثابت لموضع الدار.

[٥٨] فهو ولد في مكة ﷺ، واستُرضع في بني سعد عند حليمة السعدية، ومات عبد اللَّه أبوه، وهو في بطن أمه، ثم ماتت أمه بعد ولادته بقليل، فحضنته أم أيمن الحبشية التي ورثها عن أبيه، وصار في كفالة جده عبد المطلب.

ثم مات عبد المطلب، وانتقلت كفالته إلى عمه أبي طالب، وعاش ﷺ أربعين سنة قبل النبوة معروفًا بالأمانة، والصدق، والكرم، وتجنب عبادة الأصنام، وتجنب شرب الخمر، ما كان يعمل ما يعمله أهل الجاهلية؛ بل كان -عليه الصلاة والسلام- يخرج إلى غار حراء، ويتعبد فيه الأيام ذات العدد، يعبد اللَّه على ملة إبراهيم على التوحيد.

ثم لما بلغ الأربعين من عمره -عليه الصلاة والسلام- نزل عليه الوحي بأن جاءه جبريل وهو في غار حراء وقال له: «اقرأ، قال: **ما أنا بقارئ**. -أي: لا أحسن القراءة-، فضمه ضمة شديدة ثم أرسله وقال: اقرأ. قال: **ما أنا بقارئ**، ثم ضمه مرة ثانية، ثم أرسله وقال له: اقرأ. قال: **ما أنا بقارئ**. فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢]».

هذه هي نبوته ﷺ نبأه اللَّه بـ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، أي: جعله نبيًّا بذلك، ثم ذهب إلى بيته يرتجف من الخوف؛ لأنه لقي شيئًا ما كان يعرفه من قبل، أمرًا هائلًا، فوجد زوجه خديجة رضي الله عنها فغطته وهدأته، وقالت له: كلا، واللَّه لا يخزيك اللَّه، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتعين على نوائب الدهر، فوطأته وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تحنث وقرأ في الكتب

• نزول الوحي عليه •

وأرسِلَ بـ: «المدثِّر»، وبلدُهُ مكَّة، وهاجَرَ إلى المدينة، بعثه اللَّه بالنِّذارة عن الشِّرك، ويدعو إلى التوحيد، والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧] **[٥٩]**.

السابقة تعبدًا للَّه ﷻ فلما أخبره بما رأى قال: هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى يعني: جبريل -عليه الصلاة والسلام-.

[٥٩] ثم نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ هذا هو الإرسال، وهذا معنى قول الشيخ: نبأه بـ: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأرسله بالمدثر.

والفرق بين النبي والرسول: أن النبي هو من أوحي إليه بشرع، ولم يؤمر بتبليغه، والرسول هو من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، وتوضيح ذلك أن الرسول تنزل عليه شريعة وكتاب، فهو نُبئ بـ: اقرأ، وأُرسل: بـ: المدثر على رأس الأربعين، وكذلك الأنبياء، والنبي يبعث بشرع من قبله وكتاب من قبله، ويوحى إليه ببعض المسائل كأنبياء بني إسرائيل من بعد موسى.

والمدثر معناه: الملتحف لأنه ﷺ أصابه شيء من الفزع فقال: «**دثروني دثروني**»، أي: غطوني، فأنزل اللَّه عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظِّمْهُ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي: طهِّرْ أعمالك من الشرك، فالأعمال تسمى الثياب، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. سمَّى التقوى لباسًا.

﴿وَٱلرُّجْزَ﴾: الرجز معناه الأصنام.

﴿فَٱهْجُرْ﴾ أي: اتركها وابتعد عنها.

فبعثه اللَّه على رأس الأربعين، وبقي في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس

إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، وحصلت مداولات بينه وبين المشركين، حصل عليه أذى وعلى من آمن به واتبعه، وحصلت مضايقات من المشركين في خلال ثلاث عشرة سنة، وقبل الهجرة بثلاث سنوات أسري به إلى بيت المقدس، وعُرج به إلى السماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس، فصلّى بمكة ثلاث سنين، ثم تآمرت قريش على قتله وعلى الفتك به، فأذن اللَّه له بالهجرة إلى المدينة، فهاجر إلى المدينة، بعدما التقى بالأنصار في بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية.

هاجر إلى المدينة، وأقام بها عشر سنوات، فالمجموع ثلاث وعشرون سنة، بعد النبوة عاش ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة ثلاث عشرة في مكة يؤسس دعوة التوحيد، وعشر سنوات في المدينة، ثم توفاه اللَّه على رأس الثالثة والستين من عمره -عليه الصلاة والسلام-، فمدة عمره في الرسالة ثلاث وعشرون سنة، وهذه البركة التي أنزلها اللَّه ﷻ عليه، وهذا العلم الغزير، وهذا الجهاد، وهذا التمكين في هذه المدة الوجيزة ثلاث وعشرين سنة هذا من آيات اللَّه ﷻ، ومن بركات هذا النبي ﷺ، وبركات دعوته، وبركات الوحي الذي أنزل إليه، وقبل هذا كله بإعانة اللَّه ﷻ، وهو الذي أعانه، وهو الذي حماه وأيده ونصره حتى بلغت دعوته المشارق والمغارب، والحمد للَّه رب العالمين.

قوله: «بعثه اللَّه بالنذارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد»: هذه دعوته ﷺ، النذارة عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد، وهذا الذي يجب أن يسير عليه الدعاة في دعوتهم أن يركزوا على الإنذار عن الشرك والدعوة إلى التوحيد قبل كل شيء، وإلا لم تكن دعوتهم على منهج الرسول ﷺ.

الرسول ﷺ بعثه اللَّه بالنذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد، فلابد من تأصيل هذا الشيء أولًا ثم بعد ذلك يتجه إلى بقية الأمور؛ لأنها لا تصلح الأمور إلا بوجود التوحيد، لو أن الناس تركوا الزنا، والخمر، والسرقة،

• مدة الدعوة في مكة •

أخذَ على هذا عشر سنين يدعُو إلى التوحيد [٦٠].

واتصفوا بكل فضيلة من الأعمال والأخلاق لكنهم لم يتركوا الشرك فلا فائدة من هذه الأمور، ولا تنفعهم، بينما لو سَلِمَ الإنسان من الشرك وعنده كبائر دون الشرك فهو مرجو أن يغفر اللَّه له أو يعذب بقدر ذنوبه؛ ولكن مآله إلى الجنة؛ لأنه موحد.

فالتوحيد هو الأصل والأساس، ولا نجاة إلا بوجود التوحيد أولًا؛ ولذلك يجب التركيز عليه، والعناية به دائمًا وأبدًا، ودعوة الناس إليه، وتعليم الناس إياه، وأن يبين لهم ما معنى التوحيد، وما معنى الشرك، لابد أن يعرف المسلم هذا الأمر ويتحقق منه، ويتفقد نفسه حتى لا يقع في شيء من الشرك أو يخل بالتوحيد، فلابد من هذا الأمر، ولابد أن تقوم الدعوة على هذا الأساس.

[٦٠] **قوله: «أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد»**؛ أي: أخذ على دعوة الناس إلى التوحيد والإنذار عن الشرك عشر سنين في مكة، وهو يدعو إلى التوحيد، وينهى عن الشرك؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، والحكمة أن اللَّه بعثه في مكة؛ لأن مكة هي أم القرى التي ترجع إليها القرى، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]. والأم هي المرجع الذي يُرجع إليه، والأصل الذي يُرجع إليه، هذا هو الأم.

قوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]. أي: الأصل الذي ترد إليه الآيات المتشابهات.

كذلك مكة -شرفها اللَّه- هي الأصل الذي يرجع إليه أهل الأرض، والمسلمون في أقطار الأرض يرجعون إلى مكة، فهي أم القرى؛ بمعنى هي المرجع، ولذلك بعث اللَّه نبيه ﷺ من مكة؛ لأنها أم القرى، ومكث فيها ثلاث

• الإسراء والمعراج •

وبعدَ العشر عُرِجَ به إلى السماء، وفُرضت عليه الصلوات الخمس، وصلَّى في مكَّة ثلاثَ سنين [٦١].

عشرة سنة، ينهى أهل مكة عن الشرك، ويأمرهم بالتوحيد؛ لأن أهل مكة هم القدوة لغيرهم، ولهذا يجب أن تبقى مكة إلى قيام الساعة دارًا للتوحيد، ومنارًا للدعوة إلى اللَّه، وأن يبعد عنها كل ما يخالف ذلك، يبعد عنها الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس ينظرون إليها دائمًا وأبدًا، ما يفعل فيها ينتشر في العالم، فإن كان ما يفعل فيها خير انتشر الخير، وإن كان على عكس ذلك انتشر الشر.

فيجب أن تطهر مكة دائمًا وأبدًا، ولهذا يقول -جل وعلا-: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. فيجب أن تطهر مكة من كل ما يخالف الإسلام حتى يصدر منها الدين والدعوة إلى مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن اللَّه بعث نبيه فيها، وبدأ دعوته فيها -عليه الصلاة والسلام-، مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة منها عشر يدعو إلى التوحيد، وينهى عن الشرك، ولم يؤمر بشيء غير ذلك، لم يؤمر بصلاة، ولا زكاة، ولا صيام، ولا حج؛ بل كانت دعوته مقتصرة على التحذير من الشرك والأمر بالتوحيد، يقول لهم: قولوا لا إله إلا اللَّه تفلحوا، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

[٦١] **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبعد العشر عرج به إلى السماء**» بقي ﷺ عشر سنين على هذا ينهى عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد، يؤسس هذا الأساس، ثم في السنة الحادية عشرة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ

ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]. بينما هو ﷺ نائم في بيت أم هانئ جاءه جبريل -عليه الصلاة والسلام-، ومعه دابة يقال لها: البراق، أقل من البغل، وفوق الحمار، ويقع خطوه عند مد بصره، فأُركب عليه السلام عليها، وذُهب به إلى بيت المقدس في الليل.

أسرى، من السرى، وهو السير بالليل، وهذا من خواصه ﷺ ومن معجزاته -عليه الصلاة والسلام-، فالتقى هناك مع الأنبياء في بيت المقدس، ثم إنه ﷺ عُرج إلى السماء يعني رُفع من بيت المقدس إلى السماء بصحبة جبريل، ومعنى العروج: الصعود.

فأسري به من مكة إلى بيت المقدس، وعُرج به من بيت المقدس إلى السماء، يعني صَعِدَ به جبريل عليه السلام ومر بأهل السموات، كل سماء يستفتح جبريل فيفتح له، ثم انتهى إلى السماء السابعة.

ثم صعد فوق السموات إلى سدرة المنتهى، وعندها كلمه اللَّه من وحيه بما شاء ففرض عليه الصلوات الخمس، فرضها في اليوم والليلة خمسين صلاة؛ ولكن موسى عليه السلام أشار على نبينا محمد ﷺ بأن يسأل ربه التخفيف، فإن أمته لا تطيق خمسين صلاة في اليوم والليلة، فما زال رسول اللَّه ﷺ يراجع ربه يسأله التخفيف حتى انتهت إلى خمس.

فقال اللَّه عز وجل، كما في حديث الإسراء والمعراج: «**أمضيت فريضتي، وخفَّفْتُ عن عبادي، وأجزي الحسنة عشرًا**»[(١)].

وفي رواية أنس عن أبي ذر فقال: «**هي خمس، وهي خمسون**»[(٢)]. أي: خمس في العمل، وخمسون في الميزان.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة، وهو حديث طويل فيه قصة المعراج.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩) من حديث أنس، عن أبي ذر رضي الله عنهما.

خمس صلوات في اليوم والليلة تعادل خمسين صلاة في الميزان؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فالصلاة الواحدة عن عشر صلوات، فالإسراء ذُكر أول سورة سبحان، سورة بني إسرائيل، والمعراج ذكر أول سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٨]. هذا في المعراج.

ثم إنه نزل من السماء إلى بيت المقدس، ثم إنه رجع إلى مكة في ليلته، فلما أصبح وأخبر الناس بذلك، المؤمنون زاد إيمانهم، وأما الكفار فزاد شرهم، وفرحوا بهذا، وراحوا يشهرون به، كيف يزعم صاحبكم أنه ذهب إلى بيت المقدس ورجع منه في ليلة واحدة، ونحن نضرب أكباد الإبل إليها شهرًا ذهابًا، وشهرًا إيابًا، يقيسون قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فكان الإسراء والمعراج امتحانًا من اللَّه ﷻ للناس، المشركون زاد تندرهم وشرهم وتنقصهم للرسول ﷺ، والمؤمنون زاد إيمانهم.

فلهذا لما قال المشركون لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: انظر إلى صاحبك ماذا قال؟

قال: وماذا قال؟

قالوا: يزعم أنه ذُهب به إلى بيت المقدس وعُرِجَ به إلى السماء، وإنه جاء في ليلة واحدة.

قال أبو بكر الصديق: إن كان قاله فهو كما قال. لقد صدق.

قالوا: كيف ذلك؟

قال: أنا أصدقه فيما هو أعظم من ذلك، أنا أصدقه في خبر السماء ينزل عليه، فكيف لا أصدقه في الإسراء إلى بيت المقدس؟![1].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٥) (٤٤٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهذا بقدرة اللَّه ﷻ لا بقدرة الرسول ﷺ، إنما هو بقدرة اللَّه ﷻ، وهذا من معجزات هذا الرسول ﷺ، ومن كرامته عند ربه ﷻ.

ولابد من الاعتقاد بأنه ﷺ أُسري وعُرج بروحه وجسمه معًا يقظة لا منامًا؛ لأن بعض الناس يقولون: أُسري بروحه، وأما جسده فلم يبرح مكة، وإنما أسري وعرج بروحه، وهذا كلام باطل؛ بل إنه أسري بروحه وجسده -عليه الصلاة والسلام-، وحُمل على البراق، وكان ذلك يقظة لا منامًا إذ لو كان بروحه فقط، أو كان منامًا فما الفرق بينه وبين الرؤيا، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

فالعبد يطلق على الروح والبدن جميعًا، لا يطلق على الروح وحدَها أنها عبد، ولا يطلق على البدن وحدَه أنه عبد، لا يطلق إلا على مجموع الروح والبدن، لم يقل: سبحان الذي أسرى بروح عبده؛ بل قال: أسرى بعبده، والعبد هو مجموع الروح والبدن، واللَّه -جل وعلا- لا يعجزه شيء، وهو القادر على كل شيء.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين».

وكان يصليها ركعتين ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت الرباعية إلى أربع إلا الفجر، فإنها تطول فيها القراءة فبقيت ركعتين كما هي، وإلا المغرب فإنه ثلاث من أول ما فرضت؛ لأنها وتر النهار، أما الظهر والعصر والعشاء، وكانت في مكة ركعتين ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت أربع ركعات.

كما في الحديث: «أول ما فرضت الصلاة ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت صلاة الحضر، وبقيت صلاة السفر»[1]. هذا بإجماع أهل العلم، أن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

• الهجرة إلى المدينة •

وبعدَها أُمِرَ بالهجرة إلى المدينة [٦٢].

الصلاة فرضت بمكة، وأن النبي ﷺ صلاها بمكة، لكن اختلفوا: هل هي فرضت قبل الهجرة بثلاث سنين؟

هذا هو الراجح، كما ذكر الشيخ هنا، وقيل: قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: قبل الهجرة بسنة واحدة، وقيل: بسنة ونصف؛ لكن الراجح هو ما ذكره الشيخ أنها قبل الهجرة بثلاث سنين.

وهل فرض مع الصلاة شيء آخر من أركان الإسلام؟ هذا محل خلاف بين العلماء، منهم من يرى أن الزكاة فرضت أيضًا بمكة؛ وإنما بينت أنصبتها ومقاديرها وأهل الزكاة في المدينة، أما أصل فرضيتها فهو في مكة.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]. والمراد بحقه هنا: الزكاة، والسورة مكية كلها، وكذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

أيضًا هذه السورة مكية، والمراد بالحق المعلوم: الزكاة، ففرض أصلها في مكة، لكن بينت تفاصيلها بالمدينة هذا قول.

والقول الثاني: وهو الذي يظهر من كلام الشيخ هنا أن الزكاة إنما فرضت في المدينة، ولم يفرض في مكة غير الركن الأول وهو التوحيد، والركن الثاني، وهو الصلاة، هذا ظاهر كلام الشيخ.

[٦٢] **قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة**»؛ لما اشتد أذى قريش، وزاد شرهم بالصد عن سبيل اللَّه، ومضايقة المسلمين، وتعذيب من ليس له جماعة تحميه من مستضعفي المسلمين، أذن اللَّه تَعَالَىٰ للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة، الهجرة الأولى؛ لأن فيها ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده، وكان

نصرانيًّا؛ ولكنه كان عادلًا، هاجر منهم نفر كثير، فلما علمت قريش بهجرتهم إلى الحبشة، أرسلوا في طلبهم مندوبَين من دهاة قريش أحدهما: عمرو بن العاص، ومعهما الهدايا للنجاشي، وقالوا: إن هؤلاء فروا منا، وهم أقاربنا نريد أن يرجعوا، وإنهم أشرار، لا يفسدون في بلدك . . . إلخ.

وأعطوه الهدايا التي معهم ليُغْرُوه؛ ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ استدعى المهاجرين، وسمع منهم، وخيَّرهم فاختاروا البقاء في الحبشة، فرجع المندوبان خائبين، وبقي من بقي في الحبشة من المهاجرين.

ثم إن اللَّه مَنَّ على النجاشي فأسلم، وحَسُنَ إسلامه، فلما توفي صَلَّى عليه الرسول ﷺ هو وأصحابه صلاةَ الغائب، فكان في هجرتهم إليه خير له أيضًا هداه اللَّه بسببهم فدخل في الإسلام.

ثم لقي النبي ﷺ نفرًا من الأنصار في منًى في موسم الحج، وكان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج، يذهب إلى منازل العرب في منى ويدعَوهم إلى اللَّه، وصادف أن لقي أناسًا من الأنصار فدعاهم إلى اللَّه فعرض عليهم ما عنده، فقبلوا من الرسول ﷺ دعوته، وبايعوه على الإسلام، ورجعوا إلى قومهم من موسم الحج فدعوهم إلى اللَّه ﷻ، فوافى في الموسم الذي بعده أكثر من الموسم الأول.

جاء ناس من الأنصار وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية، أي: عند جمرة العقبة، بايعوه على الإسلام، وعلى أن يناصروه إذا هاجر إليهم، وأن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم.

فعند ذلك -أي: بعد هذه البيعة المباركة- أمر النبي من كان في مكة من المسلمين بالهجرة إلى المدينة، وهاجر من هاجر إلى المدينة، وبقي الرسول وبعض أصحابه، ثم إن اللَّه أذن لنبيه ﷺ بالهجرة.

فلما علمت قريش بهجرة الصحابة إلى المدينة، وعلموا بالبيعة التي حصلت

والهجرة: الانتقالُ من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام [٦٣].

بينه وبين الأنصار، خافوا أن يلحق رسول اللَّه ﷺ بأصحابه في المدينة، ويتكون له قوة، وتكون لهم منعة.

ففي هذه الليلة التي أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى الهجرة جاءوا وحاصروا البيت، ووقفوا عند الباب معهم أسلحتهم يريدون الفتك برسول اللَّه ﷺ، فأخبر اللَّه نبيه ﷺ، فأمر النبي ﷺ عليًّا أن ينام على فراشه حتى يراه المشركون، ويظنون أنه النبي ﷺ، فنام علي رضي الله عنه على فراش رسول اللَّه ﷺ فتغطى بغطاء الرسول ﷺ، فصار المشركون ينتظرون خروجه على أنه الرسول ﷺ وخرج النبي ﷺ من بينهم، وهم لا يشعرون.

أعمى اللَّه بصائرهم عنه، وأخذ ترابًا وذرَّه على رءوسهم، وخرج من بينهم، وذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه، وخرجا فذهبا إلى غار ثور، فاختفيا فيه ثلاثة أيام، وقريش تطلب من الناس العثور عليه بأي وسيلة، حيًّا أو ميتًا.

فلما يئسوا من العثور عليه بعد البحث والتنقيب، أغروا بالجوائز من يأتي به ﷺ حيًّا أو ميتًا، فلما أيسوا خرج رسول اللَّه ﷺ وصاحبه من الغار، وركبوا الرواحل، وذهبوا إلى المدينة.

[٦٣] **الهجرة في اللغة**: ترك الشيء.

أما الهجرة في الشرع: -فهي كما عرفها الشيخ-: الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وهذه هي الهجرة الشرعية، والهجرة عمل جليل قرنه اللَّه بالجهاد في كثير من الآيات.

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة جاء المهاجرون الذين كانوا في الحبشة إلى المدينة، واجتمع المسلمون في المدينة، والحمد للَّه، وتكونت للمسلمين دولة في المدينة من المهاجرين والأنصار، ومن يسلم يأتي إليهم، عند ذلك شرع اللَّه بقية شرائع الدين، ففرض على نبيه ﷺ الصيام، والزكاة في السنة الثانية من

الهجرة، وفرض عليه الحج في السنة التاسعة من الهجرة على الصحيح، وبذلك تكاملت أركان الإسلام، أولها الشهادتان، وآخرها الحج إلى بيت اللّه الحرام.

والحاصل من هذا: أن نعلم أن التوحيد هو المهمة الأولى في الدعوة إلى اللّه ﷻ، وأنه يبدأ الداعية به قبل أن يبدأ بالصلاة، والصيام، أو الزكاة، أو الحج؛ لأن النبي ﷺ بقي عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وينهى عن الشرك، ولم يؤمر بصلاة، ولم يؤمر بزكاة، ولا بحج، ولا بصيام، وإنما فُرضت عليه هذه الفرائض بعد أن تقرر التوحيد.

فالنبي ﷺ كان إذا بعث الدعاة يأمرهم أن يدعوا الناس أول ما يدعون إلى التوحيد كما في حديث معاذ: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول اللّه، فإن هم أجابوا لذلك فأعلمهم أن اللّه افترض عليهم خمس صلوات ...**» إلخ الحديث[1].

فدل على أنه لا يؤمر بالصلاة، ولا الزكاة، ولا بالصيام إلا بعد تحقيق التوحيد، ووجود التوحيد، وأن من بدأ بغير التوحيد، فإن دعوته فاشلة، ومنهجه مخالف لمنهج الرسل كلهم عليهم السلام.

الرسل كلهم أول ما يبدءون به التوحيد وإصلاح العقيدة، وهذا منهج مهمٌّ معرفته للسالكين؛ لأنه كثر اليوم مَنْ يعكر على هذا المنهج فيغير هذا المنهج، ويختار منهجًا لنفسه من عنده، ومن عند غيره من الجهلة، لابد من الرجوع إلى منهج الرسول ﷺ، وهذه فائدة معرفة الرسول ﷺ وسيرته، وجعل ذلك من الأصول الثلاثة، تعرف كيف دعا الناس، وما منهجه ﷺ في دعوتهم؟ حتى تسير عليه؛ لأنه هو القدوة -عليه الصلاة والسلام-.

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والهجرةُ فريضةٌ على هذه الأمة من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام، وهي باقيةٌ إلى أن تقوم الساعةُ [٦٤].

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠] **[٦٥].**

---

[٦٤] الهجرة قرينة الجهاد في سبيل اللَّه، وهي فريضة باقية غير منسوخة، يجب على كل مسلم يحتاج إلى الهجرة أن يهاجر، ولا يجوز للمسلم أن يقيم في بلاد الكفر وهو لا يقدر على إظهار دينه، فيجب عليه أن يهاجر إلى بلاد المسلمين فهي فريضة باقية لقوله ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها**»(١).

[٦٥] هاتان الآيتان فيهما الوعيد على من ترك الهجرة وهو يقدر عليها، وأن مأواه جهنم وساءت مصيرًا، وإن كان لا يخرج من الإسلام، لكن هذه من نصوص الوعيد، وإن كان ترك الهجرة فقد ترك واجبًا، وكان عاصيًا ولكن لا يخرج من الإسلام بترك الهجرة؛ ولكن عليه وعيد شديد.

ثم بيَّن اللَّه بالآية التي بعدها العذر الذي يسقط وجوب الهجرة، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يعني الأطفال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ ما عندهم إمكانيات، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ما يعرفون الطريق إلى البلد -المدينة-

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٧٩)، وأحمد (٢٨/ ١١١) (١٦٩٠٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال البغوي رحمه الله: سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة ولم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان [٦٦].

؛ لأن الهجرة تحتاج إلى سفر، وإلا فإن الإنسان يهلك خلال الهجرة إذا كان لا يعرف الطريق، فعذرهم في أمرين:

الأول: لا يستطيعون حيلة.

الثاني: ولا يهتدون سبيلًا، حتى لو كان عندهم إمكانيات مادية؛ ولكنهم لا يعرفون الطريق الذي يسلكونه، من يدلهم، هذا هو العذر الصحيح.

أما الإنسان الذي عنده إمكانيات ويعرف الطريق فهذا لا عذر له.

[٦٦] هذه الآية من سورة العنكبوت، وفيها الأمر بالهجرة وأن أرض الله واسعة، إذا كنت في بلد لا تتمكن من إظهار دينك فيها، فهناك أرض الله واسعة، انتقل منها، لا تبقَ في هذه البقعة السيئة؛ بل اخرج منها إلى أرض الله الواسعة، قد وسع الله الأرض سبحانه وتعالى.

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة، حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»[1].

أما قوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»[2]. ظاهر هذا الحديث أن الهجرة انتهت بعد فتح مكة، وظن بعض الناس التعارض بين هذا الحديث، وبين قوله ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة، حتى تطلع الشمس من مغربها**».

---

(١) سبق تخريجه (ص١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) (٨٥) قبل الحديث (١٨٦٤) (٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم (١٨٦٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

• الاستقرار في المدينة ونزول باقي الشرائع وإكمال الدين •

فلما استقرَّ بالمدينة أُمِرَ ببقيَّة شرائع الإسلام، مثل الزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأذان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام. أخذ على هذا عشر سنين، وبعدها توفِّي -صلوات اللَّه وسلامُه عليه-، ودينُه باقٍ وهذا دينه، لا خيرَ إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شرَّ إلا حذَّرها منه، والخيرُ الذي دلَّها عليه: التوحيدُ، وجميعُ ما يُحبه اللَّه ويرضاه، والشرُّ الذي حذَّرَ منه: الشركُ وجميع ما يكرهُهُ اللَّه ويأباه، بعثه اللَّه إلى الناس كافَّة، وافترض اللَّه طاعتَهَ على جميع الثقلين الجنِّ والإنس.

والدليل: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] **[٦٧]**.

وأكمل اللَّه به الدِّين.

والدليل: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ

لكن أهل العلم أجابوا عن هذا الحديث، أن المراد: لا هجرة بعد الفتح، أي: من مكة؛ لأنها صارت بالفتح دار إسلام.

يظنون أن الهجرة باقية من مكة بعد الفتح، فيريدون تحصيل ثواب الهجرة، وأما الهجرة من بلاد الكفر فهي باقية إلى أن تقوم الساعة، والدليل الآيات السابقة، والحديث النبوي السابق، هذا هو الجواب على هذا الإشكال.

[٦٧] هذا كما سبق بيانه أن الشريعة نزلت بالتدريج حتى تكاملت -ولله الحمد- قبل وفاة النبي ﷺ، وأنزل اللَّه عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وبعد نزول هذه الآية بمدة يسيرة توفي النبي ﷺ ودينه باقٍ إلى أن تقوم الساعة.

لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] [٦٨].

---

[٦٨] فلم يُتوف ﷺ إلا بعد أن أكمل اللَّه به الدين، وأتم به النعمة، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ نزلت هذه الآية على رسول اللَّه ﷺ وهو واقف في عرفة في حجة الوداع من يوم الجمعة، وعاش بعدها ﷺ مدة يسيرة، وانتقل إلى الرفيق الأعلى، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وفي هذه الآية شهادة من اللَّه ﷻ على كمال هذا الدين، وشموله لمصالح العباد، وحل قضاياهم ومشاكلهم إلى أن تقوم الساعة، وهو صالح لكل زمان ومكان لا يحتاجون بعده إلى شريعة أخرى، أو إلى كتاب ينزل، أو إلى رسول يبعث بعد الرسول ﷺ فما من قضية تجدُّ، وما نازلة تنزل إلى يوم القيامة إلا وفي شريعة محمد ﷺ حلها والحكم فيها؛ ولكن الشأن فيمن يحسن الاستنباط والاستدلال في الأحكام والقضايا، فإذا توفر أهل العلم، وأهل الاجتهاد الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد، فإن هذه الشريعة كاملة، وفيها حل المشاكل كلها، وإنما يحصل النقص من ناحيتنا نحن، من ناحية قصور العلم، وعدم إدراك ما أنزل اللَّه ﷻ، أو من ناحية الهوى، بأن يكون هناك هوى يصرف عن الحق، وإلا فهذا الدين صالح، وشامل، وكامل، قد أغنى اللَّه به الأمة الإسلامية، إلى أن تقوم الساعة إذا ما عملت به حق العمل، ورجعت إليه في أمورها.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. الرد إلى اللَّه هو الرد إلى كتاب اللَّه، والرد إلى الرسول بعد وفاته هو الرد إلى سنته، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠].

فهذه الآية فيها رد على الذين يرمون الشريعة الإسلامية بالقصور، أو النقص، من الملاحدة والزنادقة، أو أنصاف المتعلمين الذين قصرت أفهامهم عن إدراك أسرار هذه الشريعة، فنسبوا القصور إلى الشريعة، ولم يعلموا أن

القصور من عندهم هم، ففيها رد على من اتهم الشريعة بالنقص، وأنها لم تتناول حاجات العباد، ومصالح العباد إلى أن تقوم الساعة.

أو قال: إنها مخصوصة بالزمان الأول؛ لأن كثيرًا من الجهال إذا قيل لهم: هذا الحكم الشرعي، قالوا: هذا زمان الرسول والزمان الأول، أما الآن تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور، والأحكام الشرعية هذه لأناس مضوا ولمشاكل انتهت، يقولون هذا، وهذا كفر بالله ﷻ، وتكذيب لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. أكمل الله الدين لهذه الأمة إلى أن تقوم الساعة لكل زمان، ولكل مكان ولكل جيل من الناس.

وفيها رد أيضًا على المبتدعة الذين يحدثون عبادة من عند أنفسهم وينسبونها إلى الدين، وليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما ابتدعوها باستحسانهم، أو بتقليدهم لمن يحسنون به الظن من المخرفين وأصحاب المطامع والشهوات، فيحدثون في الدين عبادة ما أنزل الله بها من سلطان، وقد قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[1]، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[2].

فالذي يحدث عبادات ليس لها دليل من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله، فإنه مُتَّهِم لهذا الدين بعدم التمام، وهو يريد أن يكمل الدين من عنده، ولا يعترف بتكميل الله له، فما لم يكن دينًا في عهد النبي ﷺ فإنه لا يكون من بعده دينًا أبدًا، فهذا رد على هذه الطوائف.

الطائفة التي تقول: إن الإسلام لا يصلح لكل زمان، أو الذين يبتدعون

(١) سلف تخريجه (ص١٦).

(٢) سلف تخريجه (ص١٢١).

والدَّليلُ على موتِهِ ﷺ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١] **[٦٩]**.

البدع المحدثات التي ليس لها دليل من كتاب اللَّه وسنة رسوله وينسبونها إلى الدين ففي هذه الآية ردٌّ عليهم؛ لأن الدين أكمله اللَّه ﷻ، فلا مجال للزيادة فيه، ولا النقصان، ولا مجال للتشكيك والتلبيس بأنه لا يصلح لأهل الزمان المتأخر: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هذا كلام اللَّه ﷻ، وهو أصدق القائلين وقال تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هذا آخر ما نزل على النبي ﷺ، وهو شهادة من رب العالمين لهذا الدين بالكمال والشمولية والصلاحية لكل زمان ومكان.

فقوله تعالى خطاب لهذه الأمة من أولها إلى آخرها وليس خطابًا للجيل الأول فقط إنما هو خطاب لكل الأمة إلى أن تقوم الساعة.

أما الإجماع: فقد أجمعت الأمة على وفاته ﷺ، لم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يقولون: إن الرسول ما مات، وينفون الموت عن الرسول ﷺ، هذا كلام ساقط، كلام مردود واضح، يرده الحس والواقع، فإن الرسول ﷺ توفي بين أصحابه وغُسل وكُفن وصُلي عليه، ودفن -عليه الصلاة والسلام- هل هذه الأعمال تُعمل مع إنسان حي؟! عومل ﷺ معاملة الأموات غُسل، وكُفن، وصُلي عليه ثم دفن ﷺ في قبره.

هذه سنة اللَّه ﷻ في خلقه، ثم أين الرسل الذين من قبله؟ سُنته سنة الرسل الذين من قبله، وقد ماتوا وهو واحد منهم يموت، هذا بإجماع أهل السنة والجماعة، ولم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يتعلقون على الرسول ﷺ ويستغيثون به من دون اللَّه، ويقولون: هو حي.

[٦٩] النبي ﷺ لما أكمل اللَّه به الدين، وأتم به النعمة توفاه إليه كما هي سنة اللَّه ﷻ في خلقه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. والأنبياء والرسل

داخلون في هذا العموم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فالنبي ﷺ قد توفي، وانتقل من هذه الدنيا إلى ربه ﷻ.

وهذا ثابت بالنص والإجماع والقياس، أما النص ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ هذا إخبار من اللَّه لرسوله ﷺ أنه سوف يموت، إنك مِّيتٌ، أي: تموت فيقال للذي يموت: هذا ميت، وأما الذي توفي بالفعل يقال له: ميْتٌ بالتخفيف لقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. الميت هو الذي فارقت روحه جسده، أما الميْتُ فهو الذي سيموت في المستقبل.

* * *

خاتمة

• الإيمان بالبعث •

والناسُ إذا ماتُوا يُبعَثونَ، والدَّليلُ قولُه: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] [٧٠].

---

[٧٠] انتقل إلى أصل آخر، وهو الإيمان بالبعث، أي: أنه ليس المراد موت فقط، نحن علمنا والكل يعلم حتى الكفار والملاحدة والزنادقة، كلهم يعلمون أنه لابد من الموت، لا أحد ينكر الموت؛ لأنه شيء محسوس؛ لكن الشأن في البعث بعد الموت، هذا هو محل النزاع بين المؤمنين والكفار، البعث بعد الموت، وهو إعادة الأجسام التي تفتتت وصارت رميمًا وترابًا وتفرقت في الأرض، تُعاد وتُبنى كما كانت؛ لأن القادر على إنشائها أول مرة قادر على إعادتها، ثم تنفخ فيها الأرواح، ثم تتحرك، وتسير من القبور إلى المحشر؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ [القمر: ٧-٨]. لا أحد يتخلف، فهذا البعث حق لا ريب فيه، ومن أنكره فهو كافر بالله ﷻ، والإيمان بالبعث هو أحد الأركان الستة للإيمان التي قال فيها النبي ﷺ: **«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**[١].

فمن لم يؤمن بالبعث واليوم الآخر، فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ، ولو شهد بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ولو صلَّى، وصام، وحج، وزكَّى،

---

(١) سلف تخريجه (ص١٠٦).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧-١٨] [٧١].

وفعل الطاعات، فإذا أنكر البعث أو شك فيه فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ.

وأدلة البعث كثيرة منها قوله تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ يعني: الأرض حينما خلق آدم عليه السلام أبا البشرية: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ يعني: بعد الموت في القبور، ﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ هذا هوا لبعث.

فهذه الآية تضمنت البدء والإعادة: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

[٧١] ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ حينما خلق منها آدم عليه السلام: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ أي: بالموت والقبور ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ هذا هو البعث، يخرجون من القبور، ويسيرون إلى المحشر، قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]. أي: تحيون على ظهرها، وفيها تموتون، ومنها تخرجون للبعث يوم القيامة.

هذه أدلة من القرآن على البعث، أيضًا يوجد دليل عقلي من القرآن نفسه وهو أن الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة من باب أولى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. الذي قدر على إيجاد الناس من عدم قادر على إعادتهم بعد الموت من باب أولى، هذا دليل سمعي عقلي.

ومن الأدلة على البعث: ما يحصل للأرض من الحياة بالنبات، أنت ترى الأرض ميتة ليس فيها نبات جرداء، ثم إن الله ﷻ ينزل عليها المطر، ثم ينبت النبات الذي كان هشيمًا ميتًا، كذلك الأجسام في الأرض كانت مخزنة في الأرض فينزل الله عليها مطرًا، ثم تنبت الأجسام، وتتكامل ثم تنفخ فيها الأرواح، فأنتم ترون الأرض كيف تكون قاحلة ثم تحيا بما نبت فيها.

اللَّه -جل وعلا- هو الذي يحيي الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. فالذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها؛ لأن الكل أحياء بعد الموت.

ومن الأدلة على البعث: أنه لو لم يكن هناك بعث للزم أن يكون خلق الناس عبثًا حيث إنهم يعيشون منهم المطيع المتقي المؤمن باللَّه ورسله، ومنهم الكافر الملحد والزنديق والجبار والمتكبر والعاصي، كلهم يعيشون ثم يموتون، دون أن ينال هذا المؤمن شيئًا من جزائه أو ينال هذا الكافر وهذا الزنديق، وهذا الملحد، وهذا الطاغية المتجبر على الناس دون أن ينال جزاءه.

فهل يليق باللَّه أن يترك الناس هكذا دون أن يجازي أهل الإيمان بإيمانهم، وأهل الإحسان بإحسانهم، وأهل الإجرام والكفر بإجرامهم وكفرهم؟! هذا لا يليق بحكمة اللَّه ﷻ، ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. هذا لا يكون إلا في يوم القيامة، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

ورد على الكافر الذي قال: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا

• الحساب والميزان •

وبعد البعث محاسبون ومجزون بأعمالهم، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] [٧٢].

ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٠]. الذي قدر على إخراج النار المحرقة من الشجر الأخضر الرطب الذي قدر على هذا أَلَا يقدر على إحياء الأموات؟!

ومن أدلة البعث: الاستدلال بخلق السموات والأرض فالذي خلق هذه المخلوقات الهائلة العظيمة الكبيرة قادر على أن يعيد الإنسان؛ لأن القادر على الشيء العظيم يقدر على ما دونه من باب أولى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فهذه أدلة البعث التي تثبت أن اللَّه ﷻ يبعث من في القبور، وأنه يجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فليكفر الكافر، وليفسق الفاسق، والزنديق والملحد، فإن أمامه البعثَ والنشورَ والجزاءَ والحسابَ.

أما المؤمن المتقي الذي يعبد اللَّه، ويتقرب إلى اللَّه، فإن عمله لن يضيع، فإن هناك موعدًا يوفيه اللَّه فيه عمله، ويضاعف له أجره، ويعطيه ما لم يقع في ظنه وحسبانه.

[٧٢] من أعمال يوم القيامة: الحساب والميزان، الحساب بمعنى مناقشة أهل المعاصي.

فالمسلمون على أقسام يوم القيامة:

القسم الأول منهم: من لا يحاسب، ويدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، كما في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب[1].

القسم الثاني من الناس: من يحاسب حسابًا يسيرًا، وهو العرض فقط، لا يحاسب حساب مناقشة؛ وإنما يحاسب حساب عرض فقط، وهذا أيضًا من السعداء، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩].

القسم الثالث: من يحاسب حساب مناقشة، وهذا تحت الخطر لقوله ﷺ: «**من نوقش الحساب عذب**»[2].

أما الكفار فقد اختلف العلماء فيهم هل يحاسبون أو لا يحاسبون؟ فمن العلماء من يقول: إن الكفار لا يحاسبون؛ لأنهم ليس لهم حسنات؛ وإنما يذهب بهم إلى النار؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ومن العلماء من يقول: إنهم يحاسبون حساب تقرير، أي: بأعمالهم، وكفرهم وإلحادهم، ثم يذهب بهم إلى النار.

والميزان: معناه الآلة التي توزن بها أعمال العباد توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]. فإذا ثقلت السيئات خسر الإنسان، وإذا ثقلت الحسنات ربح الإنسان.

هذا الميزان ميزان الأعمال، كذلك من أوتي كتابه بيمينه فحسابه يسير، ومن أوتي كتابه بشماله فحسابه عسير، وسيرى الأهوال والأخطار جسيمة،

---

(١) أخرجه ا لبخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومن كذَّب بالبعث كفَرَ، والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧] **[٧٣]**.

ومن خطر إلى خطر في مواقف القيامة، والحساب والحشر، هذه أمور هائلة لو فكرنا فيها.

[٧٣] قوله: «من كذب بالبعث كفر»؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان؛ ولأنه مكذب للَّه ولرسله ولكتبه؛ لأن اللَّه -جل وعلا- أخبر عن البعث، والرسل أخبرت عن البعث، والكتب أخبرت عن البعث، فمن أنكره فهو كافر، والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الزعم هو الكذب ﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾.

فدلت الآية على أن إنكار البعث كفر، يقولون: ليس بعد الموت بعث، المشركون وعبدة الأصنام في عهد النبي ﷺ كانوا يجادلون بالبعث ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ [النازعات: ١١-١٢]. وقالوا: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨].

ومن مجادلتهم: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٦]. إلى غير ذلك من مقالات الكفار من الأمم السابقة ومن المشركين في عهد النبي ﷺ فمن كذب بالبعث فهو مع هؤلاء الكفرة.

لا ينكر البعث إلا كافر، ولقد أمر اللَّه -جل وعلا- نبيه ﷺ أن يقسم به على البعث، قال: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ هذا قسم ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التغابن: ٧]. هذه الآية إحدى الآيات الثلاث التي أمر اللَّه نبيه فيها أن يقسم على البعث.

الآية الأولى: في سورة يونس: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

الثانية: في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: ٣-٤]. فاللَّه أمر نبيه أن يقسم به على البعث وعلى قيام الساعة.

الآية الثالثة: هي التي معنا في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. فالحكمة من البعث هي جزاء العباد على أعمالهم، وقوله تعالى: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أي: لتخبرن بأعمالكم وتجازون بها.

* * *

• الإيمان بالرسل •

وأرسَلَ اللَّه جميعَ الرسل مبشِّرين ومنذرين، والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] [٧٤].

وأولهم: نوحٌ عليه السلام، و آخرهم: محمد ﷺ، والدليل على أن أولهم نوحٌ عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] [٧٥].

---

[٧٤] الإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان الستة قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله**»[(١)].

فالإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان، فلابد من الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلى آخرهم، فمن جحد رسولًا واحدًا منهم، فهو كافر بالجميع كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فلابد من الإيمان بجميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، من سمى اللَّه منهم في كتابه ومن لم يسم، فإن الرسل كثيرون، ولهذا جاء في الحديث: أن عددهم: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا**»[(٢)].

فهم رسل كثيرون منهم من سمى اللَّه في كتابه، ومنهم من لم يسم، فيجب علينا الإيمان بجميعهم من أولهم إلى آخرهم.

[٧٥] الدليل على أن أولهم نوح، قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ هذا

---

(١) سلف تخريجه (ص١٠٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٦/ ٦١٧-٦١٩) (٢٢٢٨٧) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

خطاب للنبي ﷺ: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ذكر اللَّه جملة من أسمائهم في هذه الآية.

كما ذكر جملة من أسمائهم في آية الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ﴾ إلى آخر الآيات [الأنعام: ٨٤-٨٦].

فأولهم نوح -عليه الصلاة والسلام- بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ بعثه اللَّه إلى قومه لما غلوا في الصالحين بعد أن كان الناس على دين التوحيد منذ آدم عليه السلام إلى عشرة قرون، وهم على التوحيد.

فلما جاء قوم نوح كان فيهم رجال صالحون، فلما مات هؤلاء الصالحون حزنوا حزنًا شديدًا، فانتهز الشيطان هذه الفرصة، وقال لهم: صوروا صور هؤلاء الصالحين، وانصبوها على مجالسكم من أجل إذا رأيتم هذه الصور تتذكرون أحوالهم وتنشطون على العبادة، فقاموا وصوروا صور هؤلاء الموتى، ونصبوها على المجالس فلم تُعبد في أول الأمر، لوجود العلماء الذين يبينون للناس التوحيد، وينكرون الشرك.

فلما مات العلماء، وذهب الجيل الأول، جاء جيل متأخر، وقدمات العلماء، جاء الشيطان إليهم فقال لهم: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، فزين لهم عبادتها فعبدوها من دون اللَّه.

ومن ثَمَّ حدث الشرك في الأرض، فبعث اللَّه نبيه نوحًا -عليه الصلاة والسلام- يدعوهم إلى اللَّه ﷻ ويردهم إلى التوحيد الذي هو دين أبيهم آدم عليه السلام؛ لكنهم عاندوا واستكبروا: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قال ابن عباس: هذه أسماء رجال صالحين، صوروا صورهم ونصبوها على مجالسهم فآل بهم الأمر إلى أن عبدوها من دون اللَّه.

فلما جاءهم نوح -عليه الصلاة والسلام-، ونهاهم عن عبادتها وأمرهم بعبادة اللَّه، قالوا: لا تذرن آلهتكم، لا تطيعوا نوحًا، واستَمَرُّوا على كفرهم وطغيانهم وعنادهم.

هذا أول شرك حدث في الأرض، وسببه الصور؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن أشد الناس عذابًا عند اللَّه يوم القيامة المصورون**»[1].

وقال ﷺ: «**إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[2]. يؤمرون بنفخ الروح في هذه الصور من باب التعجيز والتعذيب لهم والعياذ باللَّه؛ لأن التصوير وسيلة من وسائل الشرك كما حصل لقوم نوح.

فأول الرسل نوح، وأما خاتم الرسل وآخرهم فهو محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ: «**وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**»[3].

فبه ﷺ ختمت الرسالات السماوية فلا يبعث بعده نبي إلى أن تقوم الساعة، ولكن

شريعته باقية إلى أن تقوم الساعة، ودينه باق إلى أن تقوم الساعة كما سبق، فمن ادعى النبوة بعد محمد ﷺ فهو كافر، ومن صدقه فهو كافر باللَّه؛ لأنه لا نبي بعده ﷺ.

وقد ادَّعى النبوة بعده خلق كثير، وفضحهم اللَّه، وأظهر كذبهم، ومن آخرهم -فيما نعلم- القادياني، غلام أحمد القادياني، الهندي، الذي كان في الأول يدعي العلم والعبادة، ثم ادعى أنه عيسى بن مريم ثم ادعى النبوة، والآن

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وكل أمة بعث اللَّه إليهم رسولًا من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة اللَّه وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] **[٧٦]**.

له أتباع يسمون بالقاديانية.

وقد كفرهم المسلمون ونابذوهم واعتبروهم فرقة كافرة خارجة عن الإسلام، وهم منابذون ومطاردون وللَّه الحمد من بلاد المسلمين، ولهم نشاط؛ لكن نشاطهم يبوء بالفشل.

الحاصل: أنه لا نبي بعد رسول اللَّه ﷺ، من ادعى النبوة فهو كذاب، كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون، قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول اللَّه**»(١).

[٧٦] المتنبئون كثيرون؛ ولكن اللَّه يفضح أمرهم، ويكشف سترهم، ويبين خزيهم للناس، ومَنْ صدَّقَهُم فهو كافر؛ لأنه مكذب للَّه ولرسوله ﷺ ولإجماع المسلمين على ختم النبوة بمحمد ﷺ.

قوله: «**وكل أمة بعث اللَّه إليهم رسولًا**»؛ أي: كل أمة من الناس يبعث اللَّه إليها رسولًا؛ ليقيم الحجة عليهم، لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فكل أمة من الأمم السابقة يبعث اللَّه إليها رسولًا كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

لكن يجب أن نعرف ما هي دعوة الرسل؟ **دعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم هي دعوة إلى التوحيد**؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ **فكل ما عُبد من دون اللَّه طاغوت، كما يأتي في**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم بإثر (٢٩٢٣) في كتاب الفتن (١٥٧) (٨٤).

أنواع الطواغيت أن من أنواعهم ما عبد من دون اللَّه وهو راض بذلك كما سيأتي.

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: اجتنبوا عبادة الأوثان والأصنام والقبور والأضرحة هذه هي الطواغيت، فدلت الآية الكريمة على أن دعوة الرسل كلها تتركز على التوحيد من أولهم إلى آخرهم.

كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

فدعوة الرسل كلهم إلى التوحيد، وإفراد اللَّه -جل وعلا- بالعبادة، والنهي عن الشرك هذه هي دعوة الرسل، ثم بعد التوحيد تأتي الشرائع من الحلال والحرام، وتفاصيل الشرائع تختلف باختلاف الأمم وحاجة الأمم، وينسخ اللَّه منها ما يشاء، ثم نسخت كلها بشريعة الإسلام، الحلال والحرام والأحكام والعبادات والأوامر والنواهي، أما الأصل وهو التوحيد فهذا لا اختلاف فيه ولا نسخ، هذا دين واحد، دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم دين واحد، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

ودين التوحيد هو عبادة اللَّه بما شرع في كل وقت بحسبه، فإذا نسخ هذا الشرع انتقل إلى الناسخ، فمن أصر وبقي على المنسوخ، وترك الناسخ، فإنه يكون كافرًا باللَّه ﷻ؛ لأن الدين المنسوخ لا يكون دينًا بعد نسخه؛ وإنما هو دين قبل أن ينسخ، فإذا نسخ فلا يكون دينًا، ويكون الدين هو الناسخ، فلهذا نسخت شريعة الإسلام ما قبلها من الشرائع، فمن بقي على اليهودية، أو النصرانية، بعد بعثة محمد ﷺ فهو كافر؛ لأنه يعمل بدين منسوخ انتهى وقته.

• الكفر بالطاغوت والإيمان بالله •

وافترضَ اللَّه على جميع العباد الكفرَ بالطاغوت والإيمان باللَّه [٧٧].

قال ابن القيِّم: معنى الطاغوت: ما تجاوز به العبد حدَّهُ من معبود، أو متبوع، أو مطاع [٧٨].

---

[٧٧] قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وافترض اللَّه على جميع العباد الكفر بالطاغوت، والإيمان باللَّه».

ثم ذكر تعريف الطاغوت، فالطاغوت ذكَرَه اللَّه -جل وعلا- في آيات كثيرة، منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٦-٢٥٧].

وفي سورة النساء، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. وهذه الآية في اليهود.

ويقول سبحانه في المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠].

وفي سورة النحل، يقول -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. الطاغوت: مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، يقال: طغى الماء إذا ارتفع منسوبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

[٧٨] أما معنى الطاغوت في الشرع، فهو كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، ونقله

عنه الشيخ هاهنا .

الطاغوت: ما تجاوز به العبد حدَّه، العبد له حد؛ لأنه عبد حدَّد اللَّه له حدودًا يجب عليه أن يقف عندها، فإذا تجاوزها فإنه يكون طاغوتًا، فمن تجاوز حدود اللَّه التي حددها لعباده وأمرهم ألَّا يتجاوزوها وألا يقربوها، فهو طاغوت، فإذا عصى اللَّه، وتجاوز حدوده وطغى فإنه يسمى طاغوتًا؛ لأنه طغى وتعدى حدود اللَّه .

فقوله: «ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع» .

هذا التعريف الشامل للطاغوت؛ لأن اللَّه -جل وعلا- أمر بعبادته وحدَه لا شريك له، وأمر باتباع رسوله ﷺ، وأمر بطاعته وطاعة رسوله فيما حلل وحرم، فمن تجاوز هذا الأمر فهو طاغوتٌ، من تجاوز حد العبادة التي أوجبها اللَّه، واختص بها، ونفاها عن غيره، فعبد مع اللَّه غيره فهو طاغوت، المشرك طاغوت؛ لأنه تجاوز الحد في العبادة وعبد مع اللَّه غيره، صرف العبادة لغير مستحقها .

وكذلك من عُبِدَ وهو راض، الذي يعبده الناس بهذا، ويفرح ويترأس بهذا الشيء ويتزعم، هذا طاغوت مثل: فرعون، والنمرود، ومشايخ الطرق الصوفية الغلاة الذين يعبدهم أتباعهم ويرضون بذلك، أو يدعون الناس إلى هذا، أي: إلى أن يعبدوهم كما سيأتي، فهذا طاغوت في العبادة .

قوله: «أو متبوع»: اللَّه -جل وعلا- أمر جميع الخلق أن يتبعوا محمدًا ﷺ، فلا يجوز لأحد أن يتبع غيره -عليه الصلاة والسلام-، فمن اتبع غير الرسول ﷺ وزعم أن هذا جائز فإنه يكون طاغوتًا؛ لأنه اتبع غير الرسول ﷺ الذي أُمر باتباعه .

فالاتباع خاص بالرسول ﷺ، أما غيره من العلماء والدعاة فهؤلاء يُتبعون إذا اتبعوا طريقة الرسول ﷺ .

فالمتبع هو الرسول ﷺ، أما هؤلاء فإنهم مبلغون فقط يتبعون للحق وما وافقوا فيه اتباع الرسول ﷺ، وما خالفوا فيه الرسول فلا يجوز اتباعه.

مثال ذلك مشايخ الطرق الصوفية، يتبعهم مريدوهم وعبيدهم في غير طاعة الرسول ﷺ بل يقولون: إننا لسنا بحاجة إلى الرسول ﷺ نحن نأخذ مما أخذ منه الرسول ﷺ، ونتلقى عن اللَّه مباشرة، الرسول ﷺ يتلقى عن اللَّه بالواسطة، بواسطة جبريل، ونحن نتلقى عن اللَّه مباشرة ويقولون: أنتم تروون دينكم عن ميت، ونحن نروي ديننا عن اللَّه ﷻ؛ لأنهم يزعمون أن شيوخهم يتصلون باللَّه، ويتلقون من اللَّه مباشرة.

بلغ بهم الحد إلى هذا الطغيان، والعياذ باللَّه، هذه طريقتهم لا شك أن هؤلاء هم رءوس الطواغيت والعياذ باللَّه؛ لأنه لا طريق إلى اللَّه -جل وعلا- إلا باتباع رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

فالذي يتبع غير الرسول هذا يعتبر طاغوتًا، وكذلك من يدعو إلى اتباعه ويقول للناس: أنا آتيكم بالأمر من اللَّه مباشرة، هذا أكبر الطواغيت في العالم، والعياذ باللَّه.

قوله: «أو مطاع»: الطاعة إنما هي للَّه، ولرسوله، بما حلل وحرم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فالحلال ما أحله اللَّه، والحرام ما حرمه اللَّه، وليس لأحد أن يشارك اللَّه في التحليل والتحريم؛ ولذلك حكم اللَّه على من حلل وحرم أو أطاع من فعل ذلك بأنه مشرك.

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ۝ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ۝ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١١٨-١٢١].

لأن أهل الجاهلية يقولون: الميتة حلال؛ لأن اللَّه هو الذي ذبحها، فهي أولى بالحل مما ذبحتم وذكيتم، فاللَّه -جل وعلا- يقول: لا تأكلوا إلا ما ذكي ذكاة شرعية، وحرم عليكم الميتة.

وهؤلاء يقولون: لا؛ الميتة حلال، هي أولى بالحل من المذكاة؛ لأن المذكاة ذكيتموها أنتم، وأما الميتة فاللَّه هو الذي ذبحها.

ولهذا رد على المشركين، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة اللَّه -سبحانه عز وجل-.

وقال بعدها: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يقولون: الميتة ذبحها اللَّه، والمذكاة أنتم ذبحتموها فكيف تستحلون ما ذبحتم، ولا تستحلون ما ذبحه اللَّه؟! هذه مجادلة بالباطل.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هذا من شرك الطاعة، التحليل والتحريم حق للَّه -جل وعلا-.

فلا يجوز لأحد أن يحلل أو يحرم من عند نفسه، أو يطيع من حلل أو حرم من عند نفسه، ومن فعل ذلك فإنه طاغوت ومطيع للطواغيت الذين يحللون ويحرمون من دون اللَّه هذا معنى قوله: أو مطاع، أي: مطاع في التحليل والتحريم؛ لأن التحليل والتحريم حق للَّه -جل وعلا-، والرسول ﷺ مبلغ عن اللَّه ما حلل وحرم.

• أنواع الطواغيت •

والطَّواغيت كثيرون، ورءوسهم خمسةٌ: إبليسُ لعنه اللَّه، ومن عُبِدَ وهو راضٍ [٧٩].

---

[٧٩] قوله: «والطواغيت كثيرون ورءوسهم خمسة»:

الطواغيت الذين ينطبق عليهم هذا التعريف: كل معبود، أو متبوع، أو مطاع كثيرون؛ ولكن رءوسهم خمسة يعني أكابرهم خمسة.

الأول: إبليس لعنه اللَّه، أي: طرده اللَّه وأبعده عن رحمته بسبب أنه امتنع عن السجود لآدم، وعصى اللَّه ﷻ وتكبر، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦]. فعصى أمر اللَّه، وتكبر فلعنه اللَّه، وطرده وأبعده، وسمي إبليس قيل: لأنه أُبلس من الرحمة يعني يئس من الرحمة، فالمُبْلِس هو اليائس من الشيء. فإبليس لعنه اللَّه رأس الطواغيت؛ لأنه هو الذي يأمر بعبادة غير اللَّه، وهو الذي يأمر باتباع غير رسول اللَّه ﷺ، وهو الذي يأمر بطاعة غير اللَّه بالتحليل والتحريم، فإبليس هو مصدر الشر، وهو رأس الطواغيت.

الثاني: من عُبِد وهو راض، أي: عُبد وهو راض بعبادة الناس له فهو طاغوت. أما من عُبِدَ وهو غيرُ راض بذلك فلا يدخل في هذا؛ لأن عيسى -عليه الصلاة والسلام- عُبِد من دون اللَّه؛ ولكنه غير راض بذلك، وأمه وعزير والأولياء والصالحون من عباد اللَّه لا يرضون بهذا؛ بل كانوا ينكرون هذا، ويحاربون من فعله، فمن عُبِد وهو غير راض بذلك، فإنه لا يسمى طاغوتًا.

ولذلك لما أنزل اللَّه قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. فرح المشركون، وقالوا: نحن نعبد المسيح ونعبد ونعبد، إذن هم معنا في النار، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا

ومَنْ دعا الناس إلى عبادة نفسه [٨٠].

ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢].

وفي الآية الأخرى، قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون عيسى عليه السلام ثم قال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٨-٥٩].

فهو عبد للَّه، ولا يرضى أن يُعبَد من دون اللَّه؛ بل بعثه اللَّه بإنكار ذلك: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. فالذي عُبِد وهو غير راض بذلك، لا يدخل في هذا الوعيد ولا يكون طاغوتًا؛ لأنه منكر لذلك؛ لأن الطاغوت هو الذي يرضى بأن يُعبَد من دون اللَّه عز وجل.

[٨٠] **والثالث: «من دعا الناس إلى عبادة نفسه»**: مثل رءوس المشركين الذين يدعون الناس إلى عبادة أنفسهم، مثل فرعون قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

ومثل النمرود، ومثل غلاة الصوفية الذين يدعون الناس إلى عبادتهم حتى إنهم يوصون الناس أن يعبدوهم بعدما يموتون فيقول أحدهم: إذا أعيتكم الأمور فأتوا إلى قبري، أي: إذا أعجزتكم الأمور فأتوا إلى قبري، ولا يحول بينكم وبيني حفنة من التراب.

يوصون الناس أن يأتوا إلى قبورهم، ويعدونهم أنهم سيقومون بحوائجهم، فمن دعا الناس إلى عبادة نفسه حيًّا وميتًا فهو من رءوس الطواغيت، وكذلك من دعا الناس إلى عبادة غيره من الطواغيت، وهم دعاة الشرك، هؤلاء طواغيت، الذين يزينون الشرك للناس، ويسمونه بغير اسمه، ويقولون هذا من باب التوسل، أو هذا من باب الشفاعة وهم كثير.

إن هؤلاء طواغيت؛ لأنهم يدعون إلى الشرك، فهم يدعون إلى عبادة غير اللَّه، ويسمون ذلك بغير اسمه، ويزينونه للناس بالشبهات وزخرف القول،

ومن ادَّعى شيئًا من الغيب [٨١].

ومن حكم بغير ما أنزل اللَّه [٨٢].

هؤلاء هم الطواغيت، دعاة الشرك طواغيت، وكل من عُبِد من دون اللَّه ورضي بذلك، أو دعا الناس إلى عبادة نفسه، أو دعا الناس إلى عبادة غير اللَّه، فإنه من الطواغيت؛ بل هو من رءوس الطواغيت، نسأل اللَّه العافية.

[٨١] **الرابع: «من ادعى شيئًا من علم الغيب»**: وهذا يدخل فيه: السحرة، والمنجمون، والكهان، والرمالون، وكل من يدعي أنه يعلم الغيب، ويقول للناس: سيحصل لكم كذا وكذا، أنت سيحصل لك سعادة، أو يحصل لك شيء من التعب، أو توفق في زواج، أو لا توفق، هؤلاء يدعون علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا اللَّه ﷻ، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾: هذا حصر فلا يعلم الغيب إلا اللَّه، أو من أطلعه اللَّه على شيء من الغيب من رسله لأجل مصلحة البشر ومعجزة للرسول، لكن لم يعلم الغيب من ذات نفسه وإنما علمه للغيب من تعليم اللَّه له، فلا يعلم الغيب إلا اللَّه، فمن ادعى علم الغيب فإنه يكون مشاركًا للَّه فيما اختص به سبحانه، فيكون مشركًا وطاغوتًا وكافرًا، وهذا من أعظم أنواع الردة عن الإسلام.

[٨٢] **الخامس: «من حكم بغير ما أنزل اللَّه»**: ودليله قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]. فالذي يحكم بغير ما أنزل اللَّه مستحلًا

لذلك يكون طاغوتًا، والذي يقول: إنه يجوز أن يتحاكم إلى القانون، أو إلى العوائد في الجاهلية، أو عوائد القبائل والبادية، ويتركوا الشرع، يقول: هذا حلال أو هذا يساوي ما أنزل اللَّه، فإذا قال: إنه أحسن مما أنزل اللَّه، أو يساوي ما أنزل اللَّه، أو قال: إنه حلال فقط، ولم يقل: إنه يساوي ولا أفضل، قال: حلال جائز، هذا يعتبر طاغوتًا، وهذا بنص القرآن.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ سمي طاغوتًا؛ لأنه تجاوز حده.

أما من حكم بغير ما أنزل اللَّه، وهو يقر أن ما أنزل اللَّه هو الواجب الاتباع والحق، وأن غيره باطل، وأنه يحكم بباطل، فهذا يعتبر كافرًا الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة؛ لكنه على خطر عظيم، على طريق قد يصل به إلى الكفر المخرج من الملة إذا تساهل في هذا الأمر.

وأما من حكم بغير ما أنزل اللَّه عن غير تعمد؛ بل عن اجتهاد، وهو من أهل الاجتهاد من الفقهاء، واجتهد؛ ولكن لم يصب حكم اللَّه، وأخطأ في اجتهاده فهذا مغفور له.

قال ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ فله أجر**»[1]؛ لأنه لم يتعمد الخطأ هو يريد الحق، ويريد موافقة حكم اللَّه ﷻ؛ لكنه لم يوفق له فهذا يعتبر معذورًا ومأجورًا؛ ولكن لا يجوز اتباعه على الخطأ، لا يجوز لنا أن نتبعه على الخطأ.

ومن هذا اجتهادات الفقهاء التي أخطئوا فيها، أو اجتهادات القضاة في المحاكم إذا اجتهدوا وبذلوا وسعهم في طلب الوصول إلى الحق؛ ولكن لم يوفقوا فخطؤهم مغفور.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] **[٨٣]**.

---

[٨٣] قال ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ معناه أن أحدًا لا يُكرَه على الدخول في الإسلام؛ لأن الدخول في الإسلام لابد أن يكون عن اقتناع، واعتقاد بالقلب، ولا يكره عليه أحد، لا يمكن هذا؛ لأن القلوب لا يتصرف فيها إلا اللَّه ﷻ، لا يكرَه أحد على الإسلام؛ لأننا لا نملك القلوب؛ وإنما اللَّه -جل وعلا- هو الذي يملكها، ويتصرف فيها، ولكن نحن ندعو للإسلام ونرغب فيه.

نجاهد في سبيل اللَّه من كفر لأجل نشر الإسلام، وإتاحة الفرصة لمن يريد أن يسلم، ولأجل قمع أعداء اللَّه، أما الهداية فهي بيد اللَّه ﷻ لا أحد يكرَه على الإيمان والإسلام، وإنما هذا شيء راجع إليه هو.

ثم قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ فالإسلام، ولله الحمد ليس فيه ما يكره؛ بل كله محبوب ومرغوب، والكفر والشرك كله شر وكله مكروه، قد تبين هذا من هذا، تميز الرشد، وهو الحق من الغي، وهو الباطل، والإنسان عنده عقل وعنده تفكير يوازن بين الحق والباطل، سيهديه تفكيره إن كان سليمًا وسالمًا من الهوى والدوافع، سيهديه تفكيره السليم إلى قبول الحق بدون أن يكره، **هذا قول في الآية.**

والقول الثاني: أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، وأن أهل الكتاب لا يجبرون على الدخول في الإسلام، بل إذا أرادوا البقاء على دينهم مُكِّنوا من ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية للمسلمين وهم صاغرون، أما غيرهم من الكفرة فلا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل؛ لأنهم ليس لهم دين والوثنية دين باطل.

وهذا هو معنى لا إله إلا اللَّه، وفي الحديث: «رأس الأمرِ الإسلام، وعمودُهُ الصلاةُ، وذروَةُ سنامه الجهادُ في سبيل اللَّه»(١) [٨٤].

والقول الثالث: أن هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، هذه في أول الأمر قبل أن يشرع الجهاد ثم شرع الجهاد فنسخت هذه الآية.

ولكن القول الأول هو الصحيح أن الآية غير منسوخة وأن الدين لا يدخل في القلوب بالإكراه، وإنما يدخل بالاختيار، لكن من لم يقبل الدين يعامل المعاملة اللائقة به من قتل، أو أخذ جزية مما شرع اللَّه ﷻ في حقه.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ الطاغوت: المراد جميع الطواغيت في العبادة، أو الاتباع أو في الطاعة؛ لأن كلمة الطاغوت هنا عامة.

قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان باللَّه؛ لأن الإيمان باللَّه لا ينفع إلا بعد الكفر بالطاغوت، فمن آمن باللَّه، ولم يكفر بالطاغوت، فإنه لا ينفعه إيمانه.

فالذي يقول: أنه مؤمن، ويصلي ويصوم، ويزكي، ويحج، ويفعل الطاعات؛ لكنه لا يتبرأ من الشرك ولا المشركين ويقول: لا دخل لي فيهم، هذا لا يعتبر مسلمًا لأنه لم يكفر بالطاغوت؛ فلابد من الكفر بالطاغوت، وهو رفض الطاغوت واعتقاد بطلانه، والابتعاد عنه وعن أهله، لابد من هذا، فلا يصح إيمان إلا بعد الكفر بالطاغوت.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فلا تصح عبادة اللَّه إلا باجتناب الطاغوت، لا يجتمع ضدان، لا يجتمع الإيمان والكفر في القلب. الإيمان والكفر الأكبر لا يجتمعان في قلب، أما الكفر الأصغر فقد يجتمع.

[٨٤] قال الشيخ: «**وهذا معنى لا إله إلا اللَّه**»، يعني: الكفر بالطاغوت

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٢١٤-٢١٥) (١١٣٣٠) من حديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه.

والإيمان بالله.

الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله، هذا هو رأس أمر الدين، الشهادتان هما رأس الإسلام وهما أصل الإسلام، فلا يدخل الإنسان في الإسلام إلا إذا أتى بالشهادتين نطقًا وعلمًا وعملًا واعتقادًا، لا يكون الإنسان مسلمًا إلا بذلك، شبه الدين بالجسم الذي له رأس وعمود وسنام، فإذا قطع الرأس أو لم يكن هناك رأس فإنه لا بقاء للحياة، كذلك بدون التوحيد لا بقاء للدين، لأنه هو الرأس الذي إذا قطع أو زال زالت الحياة وفسد البدن.

وعموده الذي يقوم عليه هو الصلاة، فبدون عمود لا يقوم الإسلام، مثل بيت الشعر، أو الخيمة إذا لم يكن هناك عمود تقوم عليها فإنها لا تقوم، فلا يقوم بيت إلا بعمود فإذا فُقد العمود لا يقوم البيت، كذلك الصلاة إذا فُقدت فإن الإسلام لا يقوم.

ولذلك قال العلماء: إن من ترك الصلاة تكاسلًا فإنه يكفر على الصحيح، ولو كان يعترف بوجوبها؛ لأنه لا فائدة من الاعتراف بالوجوب مع عدم التطبيق وعدم العمل، لا فائدة من ذلك، ولذلك حكم المحققون من أهل العلم بكفر من ترك الصلاة متعمدًا ولو كان يقر بوجوبها، أما من كان يجحد وجوبها، فهذا كافر بإجماع المسلمين.

«وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»: ذروة سنام الأمر، وهو الدين، الجهاد في سبيل الله فالجهاد دليل على قوة الإسلام، إذا وجد الجهاد في سبيل الله فهذا دليل على قوة الإسلام؛ لأن الجهاد لا يكون إلا من قوة إيمان وقوة مادة.

فالنبي ﷺ جعل ثلاثة أشياء للدين: الرأس والعمود والسنام، فبعدم الرأس لا وجود للدين أصلًا، فالذي لا يحقق الرأس -وهو التوحيد- لا دين له.

والذي لا يصلي لا يقوم له دين، وإن شهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه؛ لأنه يحتاج إلى عمود يقيم عليه الدين، وهو لا يوجد إلا بالصلاة.

وإذا فُقد الجهاد فُقدت القوة في الإسلام، وصار إسلامًا ضعيفًا، وصار المسلمون مستضعفين، فلا قوة للإسلام والمسلمين إلا بالجهاد في سبيل اللَّه ﷻ، فهو علامة القوة، وفقده علامة الضعف.

هذا وجه تشبيه الرسول ﷺ لهذه الأمور الثلاثة بالنسبة للدين: رأس وعمود وسنام، كما أن البعير إذا صار له سنام هذا يدل على أنه قوي وإذا لم يكن له سنام فهذا يدل على أنه هزيل ضعيف.

كذلك المسلمون اليوم مستضعفون في الأرض، ولهذا في الحديث: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد سلط اللَّه عليكم ذلًّا لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»[1]. فترك الجهاد ذل وضعف للمسلمين، ووجوده دليل القوة والسِّمَن، كالسنام للحيوان.

واللَّه أعلم، وصلى اللَّه على نبينا محمد.

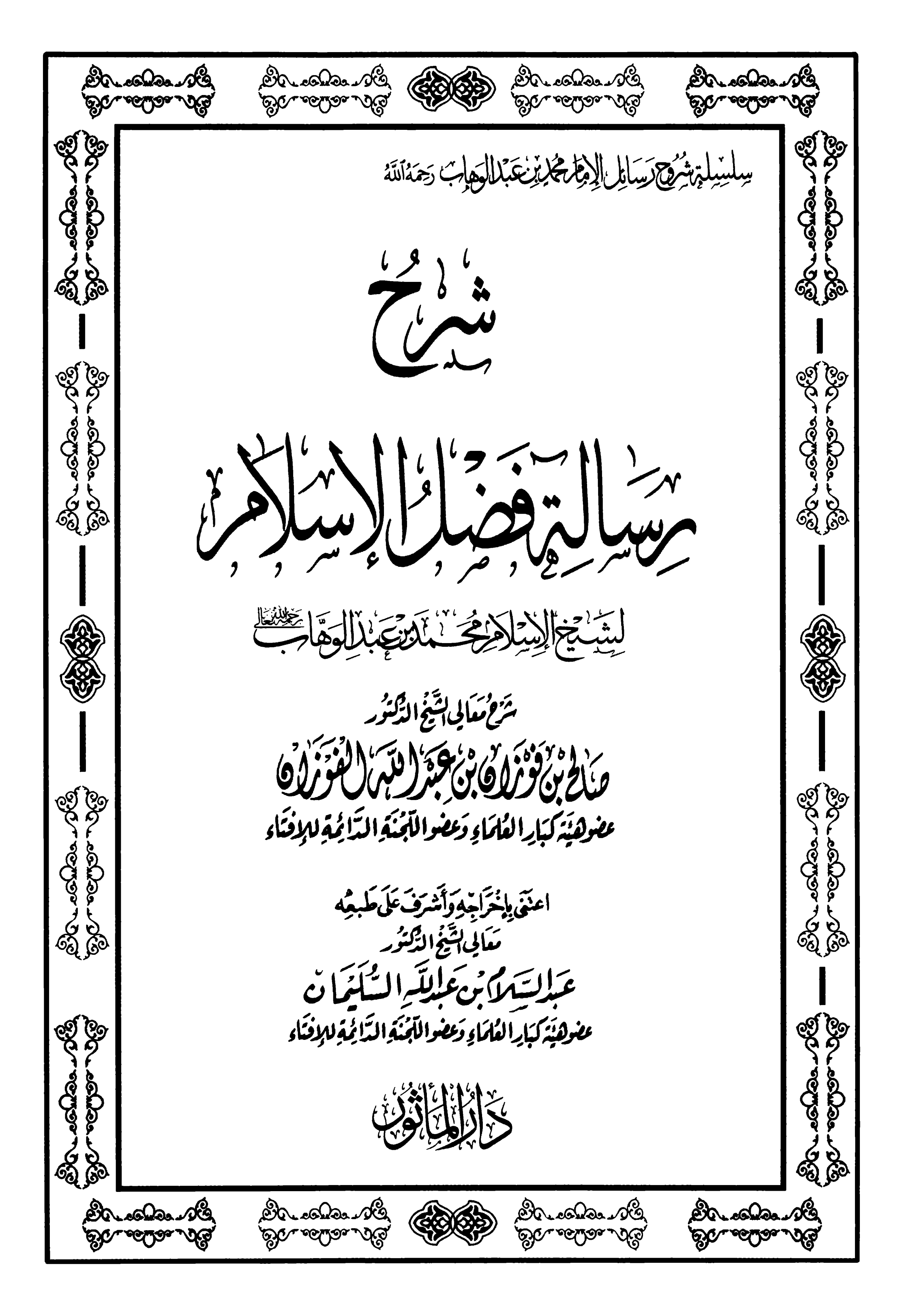
وبهذا انتهى شرح هذا الكتاب المبارك ثلاثة الأصول.

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فهرس الموضوعات

* * *



سلسلة شروح رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح
رسالة فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

شرح معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه

معالي الشيخ الدكتور

عبد السلام بن عبد الله السليمان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

دار المأثور

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

باب فضل الإسلام [١]

[١] الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب التوحيد»، وكتاب «أصول الإيمان»، وكتاب «فضل الإسلام»، وكتاب «الكبائر» دَرَج على ما دَرَج عليه المُحَدِّثون، في أنه في هذه الكتب يأتي بالتراجم ويسوق بعدها الآيات والأحاديث، فهو يأتي بالترجمة التي تتضمن ما تفيده النصوص التي يسوقها بعدها. وهذه طريقة المُحَدِّثين كالإمام البخاري وغيره.

فهو لا يأتي بكلام من عنده، وإنما يأتي بما دل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، لا كما يقوله أعداؤه: «إنه أتى بمذهب خامس» يسمونه المذهب الوهابي؛ تنفيرًا عنه وعن دعوته.

وقد كان عالم من علماء الهند كلما فرغ من درسه، رَفَع يديه وجَعَل يدعو على الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

فسَمِعه بعض الناصحين، فجاء على مُؤلَّف الشيخ: «كتاب التوحيد» ونَزَع غلافه الذي فيه اسم الشيخ، وقَدَّمه إليه يسأله: مَن هو مؤلف هذا

الكتاب؟ فتأمله ذلك العالم، وجاء من الغد وقال للرجل الذي قَدَّمه إليه: هذا من مؤلفات الإمام البخاري!! فردَّ الرجل غلافه عليه وقال له: هذا هو ابن عبدالوهاب الذي تدعو عليه!!

فندم العالم وجعل يدعو للشيخ محمد بعد كل درس.

وهو في هذا الكتاب بَيَّن أولًا أصول الإيمان، ثم فضل الإسلام؛ **وذلك لأن الدين يتكون من ثلاث مراتب:**

المرتبة الأولى: الإسلام.

المرتبة الثانية: الإيمان.

المرتبة الثالثة: الإحسان.

كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ**». قَالَ: مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ» قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** . . .» إلى آخر الحديث[1].

فهذه مراتب الدين، المرتبة الأولى: الإسلام، ثم فوقها الإيمان، ثم فوقها الإحسان.

فهو رحمه الله **أراد أن يبين الإسلام والإيمان في هذا الكتاب: «أصول الإيمان».**

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٩).

وقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. [٢]

والباب الأول من أبواب هذا الكتاب هو: «باب فضل الإسلام»، ثم أتبعه بأبواب أخرى؛ مثل: باب وجوب الإسلام، وباب تفسير الإسلام، وما يُخرِج من الإسلام... إلخ.

[٢] لما كان النبي ﷺ واقفًا في عرفة في حجة الوداع، نزلت عليه هذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ﴾ الآية، وهي من آخر ما نزل على الرسول ﷺ من القرآن الكريم، أو هي آخر ما نزل؛ لأنه عاش بعدها مدة يسيرة، بعد أن رجع إلى المدينة بعد الحج.

فدل هذا على أن الرسول ﷺ ما تُوفي حتى أكمل الله به الدين.

وفي هذا ردٌّ على المبتدعة الذين يُحْدِثون أشياء وينسبونها إلى الدين، وهي ليست منه.

فأيما إنسان يأتي بزيادة في الدين فهي مردودة، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

وفيه ردٌّ على الذين ينتقصون الإسلام، ويقولون: إنه لا يصلح لكل زمان ومكان.

مثل ما ينادي به الآن الذين يقولون: إن الإسلام لأجيال مضت، ولفترة مضت، فلا يصلح لآخر الزمان!!

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).

مع أن قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يدل على أنه صالح لكل زمان ومكان.

وإذا قَصُرَتْ أفهام بعض الناس عن فَهْم الإسلام، فالعيب ليس في الإسلام؛ إنما العيب في فَهْمهم له.

وإلا فالدين كامل وشامل لمصالح العباد إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بهذا الدين. فهذا الدين هو أعظم نعمة أنعم الله بها على البشرية. لكن مَن قَبِل هذه النعمة استفاد منها. ومَن لم يقبلها فإثمه وضرره عليه؛ لأنه هو الذي رفض هذه النعمة.

ثم قال ﷻ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ الإسلام: هو الدين الذي قال الله فيه أول هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فالله سبحانه أكمله، ورضيه لنفسه ورضيه لعباده، ولا يرضى دينًا سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

فسائر الأديان بعد مجيء دين محمد؛ كالنصرانية واليهودية - كلها باطلة لا يرضاها الله ﷻ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ففي هاتين الآيتين رد على الذين يقولون من أهل زماننا: إن الأديان الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام كلها حق، وكلها توصل إلى الله.

فهذا كذب وافتراء! فليس هناك دين حق بعد مجيء هذا الدين إلَّا الإسلام، فبعد بعثة الرسول ﷺ ومجيء الإسلام نُسِخت اليهودية والنصرانية. فسائر الأديان إما مُحرَّف ومُبدَّل، وإما منسوخ ومُنتهٍ أجله، فلم يَبْقَ دين يرضاه الله إلَّا الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]. **[٣]**

فمَن أراد دخول الجنة فليتمسك بهذا الإسلام. ومَن أراد دينًا غيره فليس له إلَّا النار؛ لأنه رفض دين الله الذي رضيه الله ﷻ لعباده.

فاليهودية غير المحرفة التي هي دين موسى عليه السلام - كانت في وقتها دينًا صحيحًا مقبولًا. وكذلك النصرانية غير المحرفة. لكن بعد مجيء الإسلام نُسِخت، ولم يَبْقَ إلَّا الإسلام.

والواجب اتباع ما أمر الله به في كل زمان وفي كل مكان، وقد أَمَر الله باتباع الإسلام ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢].

[٣] الآية الأولى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] خطاب للمؤمنين.

والآية الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب للمشركين، ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميع البشرية ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ فهذا هو دين الرسول ﷺ: عبادة الله وترك عبادة ما سواه ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ عند نهاية آجالكم، وينقلكم من هذه الدار إلى دار الجزاء.

فالله هو المستحق للعبادة لأنه إليه المرجع والمصير.

أما هذه الأصنام فليس لها من الأمر شيء، لا تحيي ولا تميت ولا تجازي أحدًا؛ لأنها مخلوقات لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، فكيف تملك لغيرها؟! هذا من العجائب واستخفاف العقول.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، فهذا مخاطبة للعقول.

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ [يونس: ١٠٤] فالعبادة حق لله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤] فالرسول ﷺ مأمور، وهو يتمثل أمر الله ﷻ، ويُبلِّغه للناس.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٥- ١٠٩].

آيات عظيمة، فيها مفاصلة بين الحق والباطل، ليس فيها لبس ولا غموض، الرسول ﷺ يعبد الله، وهؤلاء يعبدون غير الله، بل يعبدون مخلوقات ليس بيدها شيء، ولا تملك شيئًا. فهذه مفاصلة بين التوحيد والشرك، الرسول ﷺ ما جاء بشيء جديد، ولا دعا إلى عبادة نفسه، وإنما دعا إلى عبادة الله ﷻ.

إذن فالإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ هو أن يُعبَد الله وتُترَك عبادة ما سواه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]. [٤]

---

[٤] الآية الأولى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] خطاب للمؤمنين.

والآية الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ [يونس: ١٠٤] خطاب للمشركين والوثنيين.

وهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحديد: ٢٨] خطاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨] يعني محمدًا ﷺ.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨] أجر الإيمان بالرسل السابقين، وأجر الإيمان بمحمد ﷺ. فالمؤمن من أهل الكتاب يُؤتى أجره مرتين: أجر الإيمان بالكتاب السابق، وأجر الإيمان بالكتاب المتأخر. وهذا فضل عظيم!! قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ [الحديد: ٢٨] نور البصيرة ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨] تُميِّزون به بين الحق والباطل، والهدى والضلال؛ لأن هذا الدين نور، فالقرآن نور، والسُّنة نور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

فالذي يمشي على هدي القرآن يمشي على النور. والذي يمشي على غير هدي القرآن يمشي في ظُلمة وضلال - والعياذ بالله - وإن زُيِّن وزُخرِف له ما هو عليه، فهو باطل وضلال.

والإيمان بالرسول ﷺ سبب لهذا النور الحقيقي الذي يسير عليه الإنسان.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]. مزايا عظيمة يُرغِّب فيها أهلَ الكتاب في أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، الذي جاء بما جاء به إخوانه النبيون، ودعا إلى ما دَعَوا إليه، وهو إخلاص العبادة لله ﷻ، وتَرْك عبادة ما سواه.

فكان من العجيب أن يعصوه ويخالفوه، مع أنه ما جاء بشيءٍ يخالف ما عليه أنبياؤهم ورسلهم!

فدل على أن الإسلام هو الإيمان بهذا الرسول ﷺ بعد بعثته، وأن مَن لم يؤمن بهذا الرسول فليس على الإسلام، وإنما هو على الكفر.

ودلت هذه الآية على فضل مؤمني أهل الكتاب الذين مَنَّ الله عليهم فقَبِلوا الحقَّ، وأن الله سيعطيهم الأجر مرتين ويعطيهم مزايا عظيمة.

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ صَلَاةِ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ، فَغَضِبَ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ أَجْرًا؟ قَالَ: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»(١). [٥]

---

[٥] هذا الحديث فيه فضل الإسلام، وأن أهله أعظم أجرًا عند الله عز وجل من أهل الأديان السابقة.

وهذا مَثَلٌ ضربه النبي ﷺ يوضح ذلك.

«فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ» لا حَجْر على الله سبحانه وتعالى، فَضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، لكنه لا يظلم أحدًا، ولا يبخسه من حقه شيئًا.

لأن الله حَكَمٌ عادل، يجازي على العمل الصالح ويَزيد.

وهذه الزيادة فضل من الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. فهذا فضل الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٢٦٨).

وفيه أيضًا عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَلِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١). [٦]

فلا اعتراض على الله في تفضيله هذه الأمة على غيرها من الأمم؛ لأنه أعلم ﷻ بمواقع فضله ومَن يستحق الفضل، وأعلم بخلقه ﷻ. فالجزاء على العمل عَدْلٌ، والزيادة على الجزاء فَضْلٌ.

وهذا الحديث فيه فضل الإسلام على غيره من الأديان.

[٦] وهذا أيضًا فيه فضل الإسلام، وأن أهله أفضل الأمم يوم القيامة.

والنبي ﷺ وضَّح ذلك بيوم الجمعة، فالله ﷻ جعل للأمم يومًا من الأسبوع يتفرغون فيه للعبادة:

فاليهود اختاروا يوم السبت، وقالوا: إنه اليوم الذي استراح الله فيه - بزعمهم - بعدما تَعِب من خلق السماوات والأرض، حيث خلقها في ستة أيام، بدايتها يوم الأحد، ونهايتها يوم الجمعة. قالوا: ويوم السبت تفرغ الله فيه واستراح. فاعتبروه يومًا لعبادتهم.

وقد كذبوا على الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، أي: مِن تعب. وفي هذا ردٌّ على زعمهم الباطل بأن الله استراح يوم السبت.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٨٥٦).

وفيه تعليقًا عن النبي ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»(١) انتهى. [٧]

أما النصارى فاختاروا يوم الأحد. قالوا: لأنه اليوم الذي ابتدأ الله ﷻ فيه الخلق، فهو اليوم الأول من الأيام الستة. فاختاروه لهذا السبب.

وأما هذه الأمة، فالله ﷻ هو الذي اختار لها يوم الجمعة؛ لأنه أفضل الأيام، فيه تكامل الخَلْق، وفيه خُلِق آدم ؑ، وفيه أُخْرِج من الجنة، وفيه تقوم الساعة. فهو يوم عظيم، فاختاره الله لهذه الأمة.

فاليهود والنصارى حسدوا المسلمين على هذا، ولم يحسدوهم على شيء مثلما حسدوهم على يوم الجمعة الذي اختص الله به المسلمين وأضل عنه اليهود والنصارى.

فهذا فيه فضل هذه الأمة، وفيه فضل يوم الجمعة، وأن الله تعالى اختار لهم يوم الجمعة لعلمه ﷻ أن هذا اليوم هو أفضل الأيام.

[٧] **قوله:** «وفيه» أي: في «صحيح البخاري».

«**تعليقًا**» المُعلَّق: هو الذي يذكره البخاري بدون سند. وهو على قسمين: مُعلَّق مجزوم به، أي: على سبيل الجزم. ومعلق غير مجزوم به.

وقد حَصَر الإمام ابن حجر رحمه الله المعلقات التي في «البخاري»، وذَكَر أسانيدها في كتاب سماه: «تغليق التعليق» أي: ذِكْر الأسانيد التي عَلَّقها البخاري ولم يذكرها.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٦) معلقا.

«**عن النبي ﷺ أنه قال**» هذا من التعليق المجزوم به.

«**الحنيفية السمحة**» الحنيفية يعني: ملة إبراهيم. والسمحة يعني: السهلة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. فالحنيف: هو المقبل على الله، المُعْرِض عما سواه، فإبراهيم عليه السلام كان مقبلًا على الله، مُعْرِضًا عما سواه من الخلق.

والحنيفية: ملة إبراهيم عليه السلام، وهي ملة محمد ﷺ.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

اليهود ادعَوا أن إبراهيم يهودي. مع أن التوراة ما أُنزلت إلَّا من بعده، فقد أُنزِلت على موسى عليه السلام، وبينه وبين إبراهيم مدة طويلة.

وكذلك النصارى، قالوا: إن إبراهيم كان نصرانيًّا. وما جاءت اليهودية والنصرانية إلَّا من بعده.

فالله سبحانه وتعالى رد عليهم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

فالحنيفية ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي أَحَبُّ الأديان إلى الله، فدل على أن الإسلام هو أحب الأديان إلى الله سبحانه وتعالى.

وعن أُبَي بن كعب ﵁ قال: عَلَيْكُمْ بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ عَلَى سَبِيلٍ، وَسُنَّةٍ ذَكَرَ الله فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فَمَسَّتْهُ النَّارُ أَبَدًا، وَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ عَلَى سَبِيلٍ، وَسُنَّةٍ ذَكَرَ الرَّحْمَنَ فَاقْشَعَرَّ جِلْدُهُ مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ إِلَّا كَانَ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ يَبِسَ وَرَقُهَا، إِلَّا تَحَاتَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحَاتَّ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا، وَإِنَّ اقْتِصَادًا فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنَ اجْتِهَادٍ فِي خِلَافِ سَبِيلِ اللهِ وَسُنَّتِهِ، فَانْظُرُوا أَعْمَالَكُمْ، فَإِنْ كَانَتِ اجْتِهَادًا أَوِ اقْتِصَادًا أَنْ تَكُونَ عَلَى مِنْهَاجِ الْأَنْبِيَاءِ وَسُنَّتِهِمْ[(١)]. [٨]

---

[٨] هذا الأثر عن أُبي بن كعب في فضل الإسلام.

يقول: إن الإنسان إذا كان على سبيل صحيح وعلى سُنة ثابتة عن النبي ﷺ، فهذا إذا بكى من خشية الله فإنه لا تمسه النار؛ لأنه خَشِي الله ﷻ. وهو على سبيل وسُنة، أي: على طريق صحيح.

أما لو خَشِي الله وهو على غير سُنة، أي: على بدعة، فهذا لا ينفعه بكاؤه ولا خشوعه ولا خشيته.

وكثير من النصارى يبكون ويخشعون، لكنهم على غير هدى، بل على ضلال.

وكثير من القبوريين والمبتدعة يبكون بكاء شديدًا، ولكن لا يُؤجَرون على هذا البكاء، ولا ينفعهم عند الله؛ لأنهم ليسوا على سُنة.

فليست العبرة أن يبكي الإنسان ويخشع، وإنما العبرة بما هو عليه.

---

(١) أخرجه: أبو داود في الزهد رقم (١٨٩)، وابن أبي شيبة رقم (٣٥٥٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: يَا حَبَّذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ كَيْفَ يَعِيبُونَ سَهَرَ الْحَمْقَى وَصِيَامَهُمْ؟ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ بِرٍّ مع تَقْوَى وَيَقِينٍ أَعْظَمُ وَأَفْضَلُ وَأَرْجَحُ مِنْ عِبَادَةِ الْمُغْتَرِّينَ(١). [٩]

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

ثم قال أُبَي بن كعب في آخر الكلمة: «وَإِنَّ اقْتِصَادًا فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنَ اجْتِهَادٍ فِي خِلَافِ سَبِيلِ اللهِ وَسُنَّتِهِ» هذا كلام عظيم، فالعمل اليسير وهو على سُنة فيه خير كثير. أما الاجتهاد الكثير وهو على بدعة، فهذا لا ينفع صاحبه، ولو اجتهد الليل والنهار؛ لأنه على غير طريق السُّنة.

فليست العبرة بكثرة العمل، ولا بكثرة البكاء؛ وإنما العبرة في الطريق الذي عليه الإنسان، العبرة باتباع الكتاب والسُّنة، ولو كان العمل قليلًا، فهذا يكون على خير كثير، وعلى سبيل نجاة. وبكاؤه وخشوعه وخشيته تكون نجاة له من النار.

[٩] أثر أبي الدرداء يُشْبِه أثر أُبَي بن كعب في معناه تمامًا، أن صاحب العقيدة الصحيحة وإن كان نائمًا، فهو خير من صاحب العقيدة الفاسدة وإن كان قائمًا يصلي النافلة. وصاحب السُّنة في نومه وفي إفطاره هو على خير، وصاحب البدعة في سهره وفي صومه هو على شر لأنه يسير على غير هدى.



---

(١) أخرجه: أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١١).

باب الدخول في الإسلام

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. **[١٠]**

---

[١٠] **قال** ﷺ: «**باب الدخول في الإسلام**»، لما ذَكَر فَضْل الإسلام ذَكَر الترغيب في الدخول فيه.

فالإسلام الذي هذه مزاياه وهذه فضائله - لا يليق بعاقل أن يرفضه وأن لا يدخل فيه إذا كان يريد النجاة لنفسه.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالذين يقولون: إنهم على دين، وإنهم يعرفون الله، ويعبدون الله، من اليهود والنصارى، ويأبون الدخول في الإسلام - ليسوا على دين؛ لأنهم على دين منسوخ انتهى العمل به، فلا يفيدهم شيئًا، لا يفيدهم إلَّا الدخول في الإسلام.

فقد قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١).

وقال ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**»، قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»(٢).

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٥٣).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٧٢٨٠).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال مجاهد: السُّبُل: البِدَع والشبهات. [١١]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

أما غيره فليس دينًا عند الله؛ لأنه بعد مجيء الإسلام لم يَبْقَ دين يقبله الله ﷻ من عباده؛ لأن الإنسان عَبْد، والعبد يطيع ربه ﷻ فيما أَمَرَه به. والله أَمَرك أن تَدخل في الإسلام، فيجب عليك الدخول في الإسلام طاعة لله ﷻ؛ لأن الواجب اتباع الأمر لا اتباع الهوى!!

فهذا عمر بن الخطاب ﷺ، عندما قَبَّل الحَجَر الأسود، قال: «**والله إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ**»(١).

فتقبيل الحجر ليس عبادة للحجر، وإنما هو عبادة لله تعالى. والطواف بالكعبة ليس عبادة للكعبة، وإنما هو امتثال لأمر الله ﷻ وعبادة له.

فالشأن يدور مع أمر الله وشرعه. ولا اعتراض على ذلك، فقد اعترض إبليس على أمر الله، فكان مصيره الطرد والإبعاد واللعنة والغضب، والعياذ بالله.

[١١] ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ **الصراط**: هو الطريق. **والمراد به هنا**: الإسلام، فهو صراط الله ﷻ. وهو مستقيم، ليس فيه اعوجاج ولا انحراف، وإنما هو معتدل، لا إفراط ولا تفريط.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٥٩٧)، ومسلم رقم (١٢٧٠).

وعن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(١). أخرجاه.

وفي لفظ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢). [١٢]

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لا تتبعوا دِينًا غير هذا الدين، ولا تتبعوا سُنة غير سُنة الرسول ﷺ؛ فإن هذا صراطي، وهو سبيلي.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تأملْ، سبيلُ الله واحدة، وصراط واحد. وأما غير سبيل الله فهي سُبُل كثيرة، حُب الأهواء، وحُب الشهوات، كلٌّ له طريق، كلٌّ له سبيل، كلٌّ له مذهب. والنهاية الخسارة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

أما مَن سار على هذا الطريق الواحد، فإنه ينجو عند الله ﷻ.

فهذا فيه الأمر بسلوك سبيل الإسلام، وتَرْك ما سواه من النِّحَل والبِدع والمذاهب والفِرق، فكلها تؤدي إلى الهلاك.

«**قال مجاهد: السُّبل: البِدع والشبهات**» البدع والشبهات هي من السبل التي تتفرق بأصحابها ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وهذا من تمام العقوبة، أن الإنسان يفرح بالباطل، فإذا فرح بالباطل فلن يتركه. أما الذي يسير على باطل ولم يفرح به، فهذا ربما يبحث عن الحق ويهتدي إليه. لكن إذا سار مقتنعًا وفرح بالباطل، فهذا لا يهتدي أبدًا.

[١٢] «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٣) يعني: مردودًا عليه، لا يُقبل عند الله.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (١٧١٨).

(٣) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).

وللبخاري عَن أبي هُريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قِيلَ: وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»(١). [١٣]

وقوله: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا**» أي: أضاف إلى الدين إضافة جديدة لم يأتِ بها الرسول ﷺ، وقال: «إن هذا خير» نقول له: بل هذا باطل؛ لأن الدين كامل، كما قال ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فلا تُقبَل في الإسلام الإضافات والزيادات والاستحسانات؛ لأن الدين توقيفي.

إذن البدع كلها ليست من الإسلام، وإن كان أصحابها يتقربون بها إلى الله، ويظنون أن فيها أجرًا، لكنها ليس فيها أجر ولا تُقَرِّب من الله، بل تُبْعِد عن الله ﷻ.

[١٣] وهذا فيه الحث على الدخول في الإسلام، فالذي يريد الجنة يدخل في الإسلام. والذي لا يريد الجنة لا يدخل في الإسلام، بأن يتبع المذاهب الأخرى والأديان الأخرى، ومآله إلى النار. فليس للجنة طريق إلَّا الإسلام الذي جاء به هذا الرسول ﷺ.

ومعلوم أن الذي يتمسك بالإسلام يلقى أذى ومشقة من الناس، لكن عليه أن يصبر، وخصوصًا في آخر الزمان إذا كثرت الفتن، فالمتمسك بالدين يكون كالقابض على الجمر؛ لشدة ما يَلْقَى في سبيل ذلك من المشقة والأذى.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧٢٨٠).

وفي الصحيح: عن ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ». رواه البخاري(١).

قال ابن تيمية: قوله: «سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» يندرج فيها كل جاهلية، مطلقة أو مقيدة، أي: في شخص دون شخص، كتابية أو وثنية أو غيرهما، من كل مخالف لما جاء به المرسلون. [١٤]

أما البِدع فليس فيها تعب؛ لأنها توافق الأهواء والشهوات، ولأن الناس لا يعترضون عليه. وصاحبها ولو تعب فإنه يتلذذ؛ لأن الشيطان يزين له هذا الشيء، لكن مآلها إلى النار.

[١٤] قوله: «أَبْغَضُ النَّاسِ» فيه إثبات البُغض لله ﷻ، فهو ﷻ يُبغض أهل الشر وأهل الكفر. ويحب أهل الخير وأهل الإيمان.

«مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ» الإلحاد: هو الميل. والمراد به الميل عن طاعة الله إلى معصيته.

والإلحاد محرم في كل وقت وفي كل مكان، ولكن الإلحاد في الحرم أشد؛ فهو حرم الله ﷻ، الذي أَمَر الله ﷻ أن يُحترَم، وأن يُؤَمَّن الناس فيه، ولا يُعتدَى على أحد. حتى الطيور والصيد لا تُنفَّر. وحتى الخلا - الذي هو العشب - لا يُقطَع. وكذلك الشجر لا يُقطَع في الحرم. فكيف بدماء الآدميين والاعتداء عليهم؟! وأشد من ذلك الشركُ في الحرم، ودعاء غير الله ﷻ، والبدعُ والمحدثات في الحرم.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٨٨٢).

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، فمجرد الإرادة، لو نوى في قلبه أنه يريد أن يُنفِّذ شيئًا في الحرم؛ فإن الله يذيقه العذاب الأليم، حتى ولو ما نَفَّذ، فكيف إذا نَفَّذ؟! فالأمر أشد والعياذُ بالله؛ لأن الحرم أمره عظيم.

والمراد بالحرم: ما كان داخل الأميال المحيطة بمكة من جميع الجوانب. وهو الذي لا يُنفَّر صيده، ولا يُختلَى خلاؤه، ولا تُلتقَط لُقْطته إلَّا لمُنشِد، ولا يُعتدَى فيه على أحد: لا في عِرْضه، ولا في دمه، ولا في ماله؛ لأن مَن دخله كان آمنًا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

كان الناس في الجاهلية - وهم أهل شر وأهل قتال وغارات ونَهْب وسَلْب - كانوا إذا دخلوا الحرم أَمِنوا، حتى إن أحدهم كان يَلْقَى قاتل أبيه فلا يهيجه حتى يخرج من الحرم.

هذا وهم أهل جاهلية، فكيف بأهل الإسلام؟!

فمَن اعتدى في الحرم، فإن الله ﷻ توعده بالعذاب الأليم.

«**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**» وهذا هو محل الشاهد، فالذي يأتي بعادات الجاهلية ويجعلها من الإسلام - هذا يُبغضه الله أشد البُغض.

والمراد بالجاهلية: ما قبل الإسلام، وهو زمن الفترة من الرسل. سُمِّي بالجاهلية لأنه ليس فيه كتاب ولا رسول.

« **وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ مُسْلِم بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ** » هذه هي الجريمة الثالثة التي يُبغض الله أصحابها، وهي جريمة الاعتداء على الأبرياء. الذين يعتدون على الأبرياء ليقتلوهم، سواء كان هؤلاء الأبرياء مسلمين أو مُعاهَدين من الذين عَصَم الله دماءهم.

فمَن أراد أن يَقتل معصوم الدم الذي أَمَّنه الإسلام وأعطاه الأمان، واعتدى عليه؛ فإن الله يبغضه أشد البغض، وعقوبته عند الله أشد؛ لأن الله حَرَّم قتل الأنفس بغير حق، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٣]، وقال رسول الله ﷺ: « **مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ** »(١).

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

قوله: « **قال ابن تيمية . . .** » يعني شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، فَسَّر سُنة الجاهلية، فبَيَّن أن هذا عامٌّ، في الجاهلية العامة والجاهلية الفردية؛ لأن الجاهلية قد تكون في مجتمعٍ وقبيلة، وقد تكون في فردٍ من الأفراد. فلما عَيَّر رجل من الصحابةِ رجلًا آخر منهم بسواده، وأنه ابن سوداء أو ابن مملوكة، فقال له: يا بن السوداء! فقال له رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣١٦٦).

وفي الصحيح عن حذيفة ﷺ قال: يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا(١). [١٥]

« **عَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ** »(٢). مع أن هذا الرجل الذي قال ذلك هو أبو ذر، من أفاضل الصحابة، لكن لما قال هذه الكلمة عدها النبي ﷺ من أمور الجاهلية؛ لأن المسلمين إخوة « **لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى** »(٣).

قوله: « سُنة الجاهلية، يندرج فيها كل جاهلية، مطلقة أو مقيدة » مطلقة، يعني عامة في قبيلة أو في بلد، أو مقيدة بشخص.

« **كتابية، أو وثنية، أو غيرهما** » هذا تفسير للجاهلية، أنها كل ما عليه الكفار قبل البعثة، سواء كانوا من اليهود، أو من النصارى، أو من المجوس، أو من الوثنيين.

[١٥] هذا الأثر عن حذيفة بن اليمان ﷺ، أنه كان يَدخل المسجد، ويقف على حِلَق التدريس - أي: على الذين يتعلمون القرآن في المسجد - فيقول لهم: « **إن استقمتم فقد سَبقتم سبقًا بعيدًا** » أي: إن استقمتم على القرآن الذي تدرسونه بالعمل به. لأن المقصود هو التمسك بالقرآن والعمل به. أما الذي يقرأ القرآن ولكنه لا يتخلق به،

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧٢٨٢).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٣٠)، ومسلم رقم (١٦٦١).

(٣) أخرجه: أحمد رقم (٢٣٤٨٩).

وعن محمد بن وضاح: أنه كان يدخل المسجد، فيقف على الحِلَق، فيقول... فذَكَره، وقال: أنبأنا ابن عيينة، عن مجالد، عن الشعبي، عن مسروق، قال عبدالله - يعني ابن مسعود -: لَيْسَ عَامٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، لَا أَقُولُ: عَامٌ أَمْطَرُ مِنْ عَامٍ، وَلَا عَامٌ أَخْصَبُ مِنْ عَامٍ، وَلَا أَمِيرٌ خَيْرٌ مِنْ أَمِيرٍ، لَكِنْ ذَهَابُ عُلَمَائِكُمْ وَخِيَارِكُمْ، ثُمَّ يَحْدُثُ أَقْوَامٌ يَقِيسُونَ الْأُمُورَ بِآرَائِهِمْ؛ فَيُهْدَمُ الْإِسْلَامُ وَيُثْلَمُ(١). [١٦]

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

فهذا قد انحرف عن القرآن؛ فالقرآن هو الصراط المستقيم الذي مَن تمسك به نجا، ومَن حاد عنه هلك وضل.

وهذا الأثر فيه التذكير من حذيفة ﷺ للقراء، أنهم لا يقتصرون في قراءة القرآن على جودة التلاوة وحسن الصوت، دون نظر إلى تدبره والعمل به والتخلق بأخلاقه؛ فمَن فَعَل ذلك لا يُعتبر من أهل القرآن. أما الذي يتخلق بالقرآن ويتأدب بآدابه، فهو من أهل القرآن ولو كان عاميًّا لا يقرأ القرآن.

[١٦] «**محمد بن وضاح**» من العلماء الذين صنفوا في بيان البدع، فله كتاب مطبوع في البدع، اسمه: «البدع والنهي عنها».

وهذا الأثر عن ابن مسعود ﷺ من رواية محمد بن وضاح، أنه أخبر أن الناس لا يزالون في نقص، كل علم يكون أنقص من الذي قبله، وهذا كما جاء في حديث أنس ﷺ لما جاءوا يَشْكُون إليه الحَجاج،

---

(١) أخرجه: الدارمي رقم (١٩٤)، والطبراني في الكبير رقم (٨٥٥١)، وابن وضاح في البدع رقم (٧٨).

وما يَلْقَون من الظلم، قال: «**اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَامٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ**» سمعتُه من نبيكم ﷺ(١).

فكلما تأخر الوقت زاد الشر، وهذا يقتضي أن يكون الإنسان على حذر من الفتن والشرور.

ثم أخبر في آخر الأثر أنه إذا مات العلماء والأخيار، يأتي مِن بعدهم أناس جهال يُحَكِّمون عقولهم ومقاييسهم؛ لأنه ليس عندهم علم.

وهذا يضلل الأمة ويسبب هلاكها؛ لأن هؤلاء الجهال لا يُحْسِنون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ إذ هما الأساس في التشريع، وكما جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(٢).

فوجود العلماء علامة خير، وفقدانهم علامة شر.

ووجود أناس في هذا الزمان يَزهدون بالعلماء ويحقرونهم ويتكلمون في أعراضهم - هذا من علامات الساعة، ومن علامات النقص من الإسلام.



---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧٠٦٨).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (١٠٠)، ومسلم رقم (٢٦٧٣).

باب تفسير الإسلام

وقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٠]. **[١٧]**

---

[١٧] «**باب تفسير الإسلام**» بعدما أورد الأبواب السابقة في الحث على الإسلام، والدخول فيه، والتمسك به؛ أراد أن يبين ما هو الإسلام؛ لأن كونك تمدح الشيء ولا تبينه لا يُحصِّل المقصود، فلابد أن يبين ما هو الإسلام؛ لكي لا يَدَّعِي أحد أن ما هو عليه هو الإسلام، وهو مخالف للإسلام، فكل الفِرق تَدَّعِي كل واحدة منها أنها على الإسلام، وأن غيرها ليس هو على الإسلام. ولو تركنا الأمر لهؤلاء لهلكت الأمة.

لكن مِن فضل الله سبحانه أن جعل الإسلام واضحًا بينًا، فليس الإسلام بالدعوى والانتماء والانتساب. ولكن المسلم مَن تمسك بالإسلام الحقيقي، فلابد أن تَعْرِف الإسلام مما جاء في كتاب الله ﷻ وسُنة نبيه ﷺ، لا من غيرهما.

«**وقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾** الآية» أي: النصارى.

وهذا فيه بيان لمعنى الإسلام، أنه إسلام الوجه لله، وإخلاص النية له سبحانه، والبراءة من الشرك.

أما من كان عنده شيء من الشرك؛ كدعوة الأموات والقبور، ويقول: أنا مسلم! فهذا ليس بمسلم لأنه ما أسلم وجهه لله، بل أسلم وجهه لغير الله، يدعو غير الله، يذبح لغير الله، ينذر لغير الله ﴿بَلَىٰ مَنْ

وفي الصحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»[1]. [١٨]

أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] فقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ هذا التوحيد، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للرسول ﷺ؛ لأن متابعة الرسول ﷺ بها يتحقق الإسلام.

فالإسلام: هو الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ.

[١٨] ذَكَر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث عن رسول الله ﷺ؛ لأنه يُفسِّر فيه الإسلام بأنه الإتيان بهذه الأركان الخمسة.

«الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»، وليس معنى ذلك التلفظ فقط، لا، بل باللفظ وبالنية وبالعمل. فلابد من التلفظ بالشهادة، ومن العلم بمعناها، والعمل بمقتضاها؛ حتى تكون شهادة صحيحة.

فشهادة أن لا إله إلّا الله تعني: الإخلاص لله، وتَرْك الشرك. وشهادة أن محمدًا رسول الله تعني: المتابعة للرسول ﷺ، وتَرْك البدع والمحدثات؛ فالرسول ﷺ هو القدوة، فلا يُتبع غيره ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

أما المنافقون فهم يشهدون أن محمدًا رسول الله بألسنتهم، لكن يكفرون به في قلوبهم وأفعالهم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٨).

ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١ - ٢]، ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ [المنافقون: ٢] يعني الشهادة، فسماها يمينًا، ﴿جُنَّةٗ﴾ [المنافقون: ٢] أي: سُترة يتسترون بها، وهم لا يؤمنون بأنه رسول الله في قلوبهم، وإن كانوا يتلفظون بذلك في ألسنتهم، فدل على أن المطلوب ليس هو اللفظ فقط، بل اللفظ والاعتقاد والعمل.

« **وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ** » الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، فالذي يشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، لكن لا يقيم الصلاة، بل هو تارك لها متعمدًا، فهذا ليس بمسلم.

« **وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ** » كذلك لابد مع الصلاة من أداء الزكاة؛ لأن الزكاة قرينة الصلاة، فمَن فرَّق بين الصلاة والزكاة - أي: أنه يصلي، لكنه لا يؤدي الزكاة - هذا أيضًا ليس بمسلم، فقد قاتَل أبو بكرٍ الصديق ﷺ مانعي الزكاة، وقال: « **وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ** »[1].

« **وَتَصُومَ رَمَضَانَ** » هذا هو الركن الرابع، وهو صيام شهر رمضان. فالذي يترك الصيام ويقول: « إنه ليس بلازم » فهذا ليس بمسلم.

« **وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** » فمَن كان عنده استطاعة للحج ولم يحج، ويقول: « إنه ليس بلازم » فهذا يكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، أما إذا اعترف بوجوب الحج، ولكنه لم يحج تكاسلًا، فهذا يُلزمه ولي الأمر بالحج.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٣٩٩)، ومسلم رقم (٢٠).

وفيه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»(١). [١٩]

---

[١٩] أي: ليس الإسلام مقصورًا على هذه الأركان. بل هذه الأركان هي الأساسات.

فالإسلام هو كل الطاعات التي أَمَرَ الله بها، أو أَمَر بها رسوله ﷺ.

وهذه الأوامر منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب، فكلها من الإسلام، منها ما يزول الإسلام بتركه، ومنها ما لا يزول الإسلام بتركه. وإنما ينقص، يعني: منها ما يكمل الإسلام الكمال الواجب، ومنها ما يكمل الإسلام الكمال المستحب. فالواجبات من الطاعات تُكمل الإسلام الكمال الواجب، والمستحبات تُكمل الإسلام الكمال المستحب؛ ولهذا قال: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**».

فالذي يَكُف أذاه عن الناس فهو مسلم كامل الإسلام.

أما الذي يؤذي الناس بلسانه وبيده، فلا نقول: «إنه كافر» ولكنه مسلم ناقص الإسلام.

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٢٧)، والنسائي رقم (٤٩٩٥)، وأحمد رقم (٨٩٣١)، أما حديث الصحيح فهو عن عبد الله بن عمرو أخرجه: البخاري رقم (١٠)، ومسلم رقم (٤٠).

وعن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جَده: أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام، فقال: «أَنْ يُسْلِمَ قَلْبَكَ لِلهِ، وَأَنْ تُوَلِّي وَجْهَكَ لِلهِ، وَأَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ». رواه أحمد[1]. [٢٠]

---

[٢٠] هذا معقول من قوله ﷺ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ**»[2]، فذكَر هنا أهم أركان الإسلام، وهي الشهادتان وإقام الصلاة. وكما جاء في حديث معاذ بن جبل، لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قال له: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ. فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ**»[3]، فذكَر أهم أركان الإسلام الخمسة، وهي هذه الثلاثة.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٢٠٠٢٢).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٨).

(٣) أخرجه: البخاري رقم (١٤٥٨)، ومسلم رقم (١٩).

وعن أبي قِلابة، عن عمرو بن عَبَسة، عن رجل من أهل الشام، عن أبيه، أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإسلام؟ قال: «أَنْ تُسْلِمَ قَلْبَكَ لِلَّهِ ﷻ، وَيَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ» قَالَ: أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ» قَالَ: وَمَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ»(١). [٢١]

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

[٢١] **قوله: «أَنْ تُسْلِمَ قَلْبَكَ لِلَّهِ»** هذا كما في الآية ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وكما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢].

وهذا فيه إخلاص العبادة لله، وتَرْك عبادة ما سواه، وهذا هو أساس الإسلام.

«**وَيَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ**» كما مر في الحديث: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»(٢).

«**قال: أي الإسلام أفضل؟ قال: «الْإِيمَانُ»**» لأن الرسول ﷺ في حديث جبريل جعل الإيمان فوق الإسلام وأخص.

«**قال: وما الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ»**» الحديث، وهذه كما في حديث جبريل المتقدم تُسمَّى أركان الإيمان. فكما أن الإسلام له أركان، فكذلك الإيمان له أركان، والإيمان أوسع من الإيمان،

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٧٠٢٧)، وعبد بن حميد رقم (٣٠١).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (١٠)، ومسلم رقم (٤٠).

والإيمان له مكملات واجبة ومستحبة؛ ولهذا قال ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، أَعْلَاهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[١].

فالطاعات كلها من الإيمان، القولية منها والفعلية.

وليس الإيمان هو التصديق بالقلب فقط - كما يقول المرجئة - بل الإيمان: نُطْق باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح.

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

(١) أخرجه: مسلم رقم (٣٥).

باب قول الله تعالى:
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾
[آل عمران: ٨٥]. **[٢٢]**

---

[٢٢] هذا الباب فيه بيان أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يَقبل الله من أحد سواه.

والإسلام: هو ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، في كل وقت بحَسَبه، لكن لما بُعِث محمد ﷺ صار الإسلام هو ما جاء به محمد ﷺ.

فالإسلام معناه: الانقياد لله بالطاعة، والبراءة من الشرك وعبادته، حَسَب ما شُرِع في كل وقت.

أما بعد بعثة محمد ﷺ، فإنه صار الإسلام هو ما جاء به محمد ﷺ.

ولا يسع أحدًا أن يَخرج عن طاعته ﷺ.

حتى الأنبياء السابقون، لو وُجد أحد منهم بعد بعثة محمد ﷺ، فإنه لا يسعه أن يَخرج عن طاعة محمد ﷺ.

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ٨١] عني محمدًا ﷺ.

فبعد بعثة محمد ﷺ انتهت الأديان السابقة، وانتهى العمل بها. ووجب العمل بما جاء به محمد ﷺ؛ لأن الأمر لله ﷻ، وليس الأمر لشخص معين، ولا للأهواء والشهوات والرغبات، فالله أَمَركم وأَمَر الأنبياء كلهم أن يطيعوا محمدًا ﷺ إذا بُعِث. حتى عيسى ﵇، إذا نزل

في آخر الزمان، فإنه سيتبع محمدًا ﷺ ويَحكم بشريعة محمد ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: «**لَوْ كَانَ أَخِي مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»[1].

فالذين يَدَّعون في هذا الزمان أن اليهودية والنصرانية والإسلام كلها أديان صحيحة، وينكرون علينا تكفير اليهود والنصارى؛ لأنهم عندهم على أديان صحيحة ويتبعون الأنبياء - هؤلاء نقول لهم: كذبتم، هم الآن لا يتبعون الأنبياء، فلو كانوا يتبعون الأنبياء لاتبعوا محمدًا ﷺ؛ لأن الذي يَكفر بمحمد ﷺ فإنه كافر بجميع الأنبياء، ولم يَبْقَ معه دين، وليس تابعًا لأحد من الأنبياء. فاليهود الآن ليسوا أتباعًا لموسى، ولا النصارى أتباعًا لعيسى؛ لأن فترة الأنبياء انتهت ببعثة محمد ﷺ. **فالذي يبقى على اليهودية أو النصرانية فإنه كافر**؛ لأنه عصى موسى، وعصى عيسى، وعصى محمدًا، عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن يكون على الحق؛ لأن موسى وعيسى عليهما السلام يأمرانه باتباع محمد ﷺ، ولم يفعل.

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٥١٥٦)، وابن أبي شيبة رقم (٢٦٤٢١)، والبيهقي في الشعب رقم (١٧٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلَاةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عز وجل: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْتَ السَّلَامُ، وَأَنَا الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ، وَبِكَ أُعْطِي».

قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. رواه أحمد[1].

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» رواه أحمد[2]. [٢٣]

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

[٢٣] حديث أبي هريرة واضح بأنه لا يُحتسب عند الله يوم القيامة إلَّا الإسلام، وما عداه من الأديان فهو باطل مردود، ولا ينفع أصحابه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

فالذين ماتوا قبل بعثة محمد ﷺ وهم يتبعون أنبياءهم، فهم على الإسلام.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٨٧٤٢)، وأبو يعلى رقم (٦٢٣١)، والطبراني في الأوسط رقم (٧٦١١).
(٢) أخرجه: أحمد رقم (٢٥٤٧٢)، وهو عند مسلم رقم (١٧١٨).

لكن بعد بعث محمد ﷺ فليس الإسلام إلَّا ما جاء به ﷺ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وكذلك حديث عائشة «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)] فإنه يبين أنه لا دين إلَّا ما جاء به الرسول ﷺ، فهو مردود.

فالذي يعمل على اليهوديةِ، أو يعمل على النصرانيةِ، أو يُحْدث أشياء وبِدعًا من عنده ويعمل بها على أنها قربات وطاعات، دون دليل من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ - فهو

مردود على صاحبه كائنًا من كان، يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مبتدعًا مسلمًا.

فالإسلام فقط هو ما جاء به محمد ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فدل على أن الذين لا يتبعون محمدًا ﷺ لا يفلحون أبدًا، وأنهم خاسرون.

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٧١٨).

باب وجوب الاستغناء بمتابعته عن كل ما سواه

وقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. **[٢٤]**

---

[٢٤] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن والسنة. والخطاب للرسول ﷺ.

وهذا فيه أن القرآن كلام الله مُنزَّل، وليس مخلوقًا كما تقوله الجهمية، فهو لم يقل: «ما خَلَقنا لك الكتاب» بل قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن.

﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فالله ﷻ بَيَّن فيه الدين الذي يقبله من عباده ولا يَقبل سواه. كما أنه بَيَّن فيه أيضًا الدين الذي لا يقبله ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]فهو هدى ورحمة للمؤمنين. أما الذين لا يؤمنون، فليس هو رحمة لهم، وإنما هو حُجة عليهم.

روى النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه رأى في يد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة، فقال: «أَمُتَهَوِّكُونَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا، وَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي؛ ضَلَلْتُمْ»(١).

وفي رواية: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي».

فقال عمر: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا(٢). [٢٥]

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

[٢٥] يقول ﷺ لأمته: لو كان موسى عليه السلام حيًّا واتبعتموه، مع أنه رسول الله وكليمه، لكن فترته انتهت عليه السلام، فلو اتبعتموه بعد بعثة محمد ﷺ؛ لضللتم.

سبحان الله! يَضلون وهم متبعون رسولًا؟!

نعم؛ لأن هذا الرسول قد انتهت فترته، وجاءت فترة رسول آخر وهو محمد ﷺ.

والإنسان يدور مع أمر الله عز وجل حيثما كان، فالله عز وجل نَسَخ الشرائع السابقة بشريعة رسوله محمد ﷺ. فيجب العمل بالناسخ، ولا يجوز العمل بالمنسوخ.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٥١٥٦)، وابن أبي شيبة رقم (٢٦٤٢١)، والبيهقي في الشعب رقم (١٧٤).

(٢) أخرجه: أحمد رقم (١٨٣٣٥)، وعبد الرزاق رقم (١٩٢١٣).

فلو أن واحدًا الآن صلى إلى بيت المقدس وقال: بيت المقدس قبلة، والكعبة قبلة، وكلها مساجد.

فإننا نقول له: صلاتك هذه باطلة لا تصح؛ لأن استقبال بيت المقدس نُسِخ، وأُمِرت باستقبال الكعبة.

فعليك أن تدور مع أمر الله، ولا تَدُر مع هواك؛ فإن الشيء إذا نُسِخ لا يجوز العمل به.

وكذلك بقية الدين، فلا يجوز لأحد أن يقول: «أنا أعمل بالتوراة» مع أن التوراة نُسِخت، وقد حُرِّفت. لكن لو قُدِّر أنه ليس فيها تحريف، فلا يجوز العمل بها لأنها منسوخة، فالتوراة إما محرفة وإما منسوخة، فلا يجوز العمل بها. وكذلك الإنجيل، إما محرف وإما منسوخ. ولم يَبْقَ إلَّا العمل بالقرآن الذي جاء به محمد ﷺ.

والدين لله وما هو بالأهواء والشهوات والرغبات.

نعم، «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا**» وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو كليم الله، لو كان حيًّا وقت بعثة محمد ﷺ، ما وسعه إلَّا اتباع الرسول، ولا يبقى على شريعته؛ لأنها نُسِخت وانتهت، والأمر لله ﷻ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

«**فقال عمر: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا**» هذا هو الواجب:

أن الإنسان إذا تبين له الحق أن لا يجادل فيه ولا يماطل.

فهذا عمر ﷺ كان يدور مع الحق، فهو ظَنَّ أن هذه الورقة من التوراة فيها حق فأعجبته. ولكن لما بَيَّن له الرسول ﷺ هذا البيان، اقتنع فقال: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا.

هذا هو الواجب: أن الإنسان إذا تبين له الحق يجب عليه المبادرة إلى قَبوله. فإن تأخر عن قبوله فحريٌّ أن يزيغ قلبه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فهذا فيه بطلان اتباع غير القرآن من الكتب السابقة؛ لأنها منسوخة بالقرآن.



باب ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام

وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]. **[٢٦]**

---

[٢٦] هذا الباب فيه أن هناك مَن يتسمى بالإسلام، ولكنه يَخرج منه بسبب أنه يرتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، فيظن أنه مسلم، وهو غير مسلم.

مثال ذلك: الذي يشهد أَنْ لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، ويصلي ويصوم. هذا مسلم، لكنه إذا دعا غير الله أو استغاث بغير الله أو ذبح لغير الله، فقد أشرك بالله وخرج من الإسلام؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله. هذا هو الإسلام.

فإذا عَمِل عملًا، أو قال قولًا، أو اعتقد اعتقادًا - يخالف الإسلام فإنه لا يكون مسلمًا، ولو كان ينتسب إلى الإسلام. وما أكثرَ ما يحصل هذا!!

وهذا مما يجب على المسلم أن يحذره، وأن يتعلم ما هو الإسلام الصحيح، وما هي مبطلات الإسلام ونواقضه؛ حتى يتجنبها. أما إذا كان يجهل هذا فإنه قد يقع فيه ويخرج من الإسلام وهو لا يَشعر.

يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

عن الحارث الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ، أنه قال: «آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ، السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالجِهَادُ وَالهِجْرَةُ وَالجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ خَالَفَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللَّهِ».

رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح(١). [٢٧]

ما هي ملة أبينا إبراهيم؟ هي التوحيد والإخلاص لله ﷻ، والبراءة من الشرك وأهله، هذه ملة أبينا إبراهيم، وما خالفها فإنه كفر وشرك بالله ﷻ.

هذه دعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، يدعون إلى الانقياد لله بالعبادة وتَرْك عبادة ما سواه.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

[٢٧] هذا الحديث فيه أن النبي ﷺ قال: «**آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ**»:

الأولى: السمع والطاعة لولي أمر المسلمين؛ لأنه لا يستقيم الأمر إلَّا بالسمع والطاعة لولي أمر المسلمين، فالمسلمون لا يَصلح أن يَبقَوا

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٨٦٣)، وأحمد رقم (٢٢٩١٠).

متفرقين مختلفين، لابد أن يجتمعوا ويتوحدوا. ولا يجتمعون إلَّا على إمام أو ولي أمر. ولا تحصل الإمامة وولاية الأمر إلَّا بالسمع والطاعة، لكن في غير المعصية كما قال ﷺ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»(١).

فيجب السمع والطاعة لولي الأمر، وإلا لا يتم اجتماع المسلمين، ولا تتوحد كلمتهم، ولا يكون لهم جماعة ينضوون تحتها.

فالذي لا يسمع لولي الأمر ولا يطيع، هذا ليس من الجماعة، هذا خرج من الجماعة، ومَن خرج من الجماعة فقد خلع رِبقة الإسلام من عنقه.

هذا وعيد شديد، الأمر ليس بالهين، أن ينعزل الإنسان عن المسلمين، ويتخلف عن المسلمين باجتهاده ورأيه، فلابد من الاجتماع من أجل أن تتوحد كلمة المسلمين، وتتم مصالحهم، ويقوم أمرهم.

الثانية: الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فالله ﷻ أَمَر بالدعوة أولًا، دعوة الكفار والمشركين إلى الإسلام؛ لأنه هو دين الله ﷻ، وما عداه فهو باطل. فلابد من الدعوة إلى هذا الدين. ثم مَن استجاب وقَبِلَ الدعوة فالحمد لله، ومَن أبي فلابد من الجهاد، وهو القتال لإعلاء كلمة الله ﷻ، ومحو الشرك من الأرض.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٠٦٥٣)، والطبراني في الكبير رقم (٣٨١).

فلا ينبغي أن يكون الدين بعضه لله وبعضه لغير الله؛ لأن الله هو الخالق الرزاق المحيي المميت المُدبِّر، هو المستحق للعبادة، ولا دين إلَّا دين الله ﷻ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣] أي: انقاد ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، فجميع المخلوقات منقادة لله إما طوعًا باتباع الشرع وطاعة الرسل، وهؤلاء هم المسلمون في كل زمان ومكان، أو كرهًا، أي: ينقاد كرهًا لقدر الله وقضائه، فإنَّ قَدَر الله وقضاءه يقعان على الكفار والمسلمين، ويخضع العبد الكافر لله كرهًا لا طوعًا.

فالدين هو دين الله ﷻ لا دين سواه، ولا يَقبل الله من أحد سواه يوم القيامة.

وما دام الأمر كذلك. فلا مجال لبقاء دين غير دين الإسلام. فلابد من الجهاد لتوحيد العبادة لله ﷻ التي خَلَق الله الخلق من أجلها، وأرسل الرسل لبيانها، وأَمَر العباد بها.

الجهاد في سبيل الله هو القتال، أي: قتال المشركين إذا أبَوا أن يقبلوا الإسلام.

والجهاد فرض على المسلمين حَسَب الاستطاعة، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالجهاد فرض ولكن على حَسَب الاستطاعة.

فإذا كان عند المسلمين قوة وقدرة على تكوين الجيوش وغزو الكفار، فإنه يجب عليهم ذلك، ولابد من وجود الجهاد، فوجوده فرض كفاية، إذا قام به مَن يكفي سقط الإثم عن الباقين، وبقي في حق البقية سُنة من أفضل العبادات. وإذا لم يقم به مَن يكفي أَثِم الجميع، فالجهاد فرض كفاية لابد منه.

أما إذا كان المسلمون ليس عندهم استطاعة، فإنهم ينتظرون إلى أن يصبح عندهم قوة، فالنبي ﷺ مكث في مكة بعد البعثة ثلاث عَشْرة سنة مقتصرًا على الدعوة إلى الله ﷻ، ولم يؤمر بالجهاد؛ لأن المسلمين لا يقدرون في تلك الفترة على الجهاد. ولما هاجر ﷺ إلى المدينة وصار له أنصار وأعوان، فَرَض الله عليهم الجهاد؛ لأنهم صاروا يقدرون عليه. هذه هي المسألة الثانية.

الثالثة: الهجرة، والهجرة مأخوذة من الهَجْر، وهو الترك، ترك الشيء، قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥] والرُّجْز: هو الأصنام، وهَجْرها: تَرْكها.

هذا في اللغة. وأما في الشرع، فالهجرة: هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فرارًا بالدين.

فالمسلم لا يَبقى مع الكفار وهو يقدر على الهجرة إلى بلاد المسلمين؛ لأنه إذا بقي عند الكفار فإنهم يُؤثِّرون عليه فيتأثر بهم، أو يمنعونه من عبادة الله ﷻ ويُجبرونه على الكفر. فلابد من الهجرة عند القدرة.

والله تَوَعَّد الذين لم يهاجروا وهم يقدرون على الهجرة شُحًّا بوطنهم أو بأموالهم - بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. أي: إذا كنتم مستضعفين في هذه الأرض، لا تَقدرون على إظهار دينكم، فلماذا لم تنتقلوا إلى أرض تكونوا أقوياء فيها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧- ١٠٠] بدلًا من أن يكون مُضيَّقًا عليه في هذه البقعة، فإنه يجد أرضًا واسعة.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] فإذا مات وهو في الطريق، فقد كَتَب الله له أجر الهجرة. وهذا فضل عظيم.

والحاصل: أن الهجرة لابد منها، وهي قرينة الجهاد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢] فالهجرة قرينة الجهاد في سبيل الله وفيها فضل عظيم.

الرابعة: الجماعة: وهي أن تَلزم جماعة المسلمين، لا تشذ عنهم؛ لأن الجماعة عصمة. ولأن كونك مع الجماعة فيه قوة وعصمة لك. أما

كونك تنعزل، فهذا فيه خطر عليك وعلى دينك. فكن مع جماعة المسلمين ومع إمام المسلمين، ولا تشذ عنهم.

أما الذي يخرج عن الجماعة وعن السمع والطاعة، فهذا قد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه كما في الحديث، وفي الحديث الآخر: «**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا، فَمَاتَ، فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**»(١).

فيجب على المسلم أن يكون مع المسلمين ولا يشذ عنهم، وأن يكون معهم ببدنه، ويكون معهم برأيه وقوله وفعله.

أما أن يكون معهم ببدنه، ولكنه يخالفهم في رأيه، بأن يكون له رأي آخر؛ فهذا لا يجوز.

وأشد من ذلك إذا حَمَل السلاح على المسلمين!! فإنه إذا حَمَل السلاح فقد نقض البيعة وخرج عن جماعة المسلمين، أي: صار من الخوارج، فيجب قتاله والأخذ على يده.

أما إذا رأى رأي الخوارج وصَوَّبه، لكنه لم يحمل السلاح؛ فهذا يُكَف عنه، ولكنه يُعتبر من الخوارج.

«**فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ**»(٢) أي: إلَّا أن يتوب إلى الله. هذا فَتْح مجال لمن سَوَّلت له نفسه، أو زَيَّن له دعاة الضلال الخروج عن الجماعة. فالله جَعَل له فرصة أن يتوب ويرجع، ومَن تاب تاب الله عليه.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧٠٥٤)، ومسلم رقم (١٨٤٩).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٨٦٣)، وأحمد رقم (٢٢٩١٠).

الخامسة: « **وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ** »[١].

الواجب على المسلم أن يتبرأ من أمور الجاهلية، ولا يتشبه بأهل الجاهلية؛ لأن الجاهلية كُفْر وضلال، فلا يتخلق بأخلاق أهل الجاهلية.

والجاهلية: هي ما كان قبل بَعثة النبي ﷺ.

فمَن حَمَلَتْه النخوة والعصبية على مفارقة الجماعة، فهو على خَصلة من خصال الجاهلية.

هذه هي الجاهلية، ثم لما بُعث رسول الله ﷺ زالت الجاهلية العامة، وجاء العلم والقرآن والسنة، فزالت الجاهلية العامة، ولله الحمد.

لكن قد يبقى هناك جاهليات في بعض الأشخاص، أو في بعض البلدان، أو في بعض القبائل.

فالجاهلية العامة زالت بالإسلام، ولله الحمد؛ ولهذا قال ﷺ: « **أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ بِالْأَنْسَابِ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ** »[٢] فمَن فَعَل شيئًا من هذه الخصال، فقد فَعَل شيئًا من الجاهلية، أي: يكون فيه جاهلية.

ولما عَيَّر أحد الصحابة أخًا له بأُمه، فقال له: يا ابن السوداء؛ قال له رسول الله ﷺ: « **أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ** »[٣]، يعني: فيك صفة من صفات الجاهلية.

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٨٦٣)، وأحمد رقم (٢٢٩١٠).
(٢) أخرجه: مسلم رقم (٩٣٤).
(٣) أخرجه: البخاري رقم (٣٠)، ومسلم رقم (١٦٦١).

فالفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت - هذه كلها من أمور الجاهلية.

فيجب على المسلمين أن يتركوها.

وكذلك العصبية القبلية، أن يتعصب الإنسان لقبيلته، فالمسلمون كالجسد الواحد، ليس هناك فرق بين مسلم وآخَر، ولا يتميز بعضهم عن بعض بنسب ولا بحسب، كلهم مسلمون، وهم يد واحدة وبنيان واحد، وحَسَبهم واحد.

فلا يتعصب أحد لقبيلته أو لرئيسه أو لشيخه؛ هذه من أمور الجاهلية.

أما المؤمن فإنه يرجع إلى الحق مهما كان، ويَقبل الحق مع مَن كان، وينقاد له، سواء كان الحق مع رئيسه، أو مع قبيلته، أو مع جماعته، أو مع غيرهم من المسلمين.

وفي إحدى الغزوات تشاجر شخص من الأنصار مع شخص من المهاجرين، فاقتتلا - يعني: تضاربا - فقال المهاجري: يا لَلمهاجرين!! وقال الأنصاري: يا لَلأنصار!! فسمع النبي ﷺ ذلك، فقال: «**أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟! دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ!!**»[1].

فلا يجوز للإنسان أن يتعصب لقبيلته أو يحتمي بقبيلته خاصة، بل يحتمي بالمسلمين عمومًا، فالنبي ﷺ عَدَّ هذه الدعوى من أمر الجاهلية.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٩٠٥)، ومسلم رقم (٢٥٨٤).

والله ﷻ يقول لنساء الرسول ﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ويقول ﷻ: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ويقول ﷻ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

حمية الجاهلية وتبرج الجاهلية ودعوى الجاهلية والقومية العربية وحكم الجاهلية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. كلها مرفوضة.

نحن مسلمون، أعزنا الله بالإسلام كما قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «**نَحْنُ أُمَّةٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا ابْتَغَيْنَا الْعِزَّةَ بِغَيْرِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ**»(١).

فالعزة إنما هي بالإسلام ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

هذه هي أمور الجاهلية، فالواجب رفضها وتركها والابتعاد عنها.

والشيخ - كما تعلمون - له رسالة اسمها «مسائل الجاهلية» ذكر فيها عدة أمور من أمور الجاهلية للتحذير منها، ففيها أكثر من مئة مسألة أو أكثر من مئة وعشرين مسألة، كلها من مسائل الجاهلية، يجب على المسلم أن يتجنبها ويتجنب غيرها من أمور الجاهلية.

قال: «وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ»(٢).

---

(١) أخرجه: الحاكم رقم (٤٤٨١)، وأبو داود في الزهد رقم (٦٦).
(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٨٦٣)، وأحمد رقم (٢٢٩١٠).

وفي الصحيح: «مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَمَاتَ، فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ» [١] **[٢٨]**

هذا وعيد شديد؛ لأنه يكون من أهل النار بسبب أنه دعا بدعوى الجاهلية. والواجب أن المسلم يدعو بالإسلام، لا بدعوى الجاهلية.

«فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللَّهِ» [٢].

يعني: يكون من جُثا جهنم وإن صلى وصام، أي: يُعذَّب بهذه الخَصلة. والمؤمن قد يُعذَّب في النار وإن لم يَكفر، فإنه يُعذَّب بكبيرة في النار ويَخرج منها بعد ذلك.

[٢٨] هذا أيضًا في الحث على لزوم الجماعة، «**مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ**» أي: ولو قليلًا، أو أدنى مفارقة للجماعة؛ مات على هذا ولم يتب.

وهذا فيه فَتْح مجال لمن ابتُلي بشيء من الشذوذات والمخالفات، بأن يتوب قبل الموت. أما إذا مات قبل أن يتوب فإنه يموت ميتة جاهلية، يعني يموت ومعه خَصلة من خصال الجاهلية.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧٠٥٤)، ومسلم رقم (١٨٤٩).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٨٦٣)، وأحمد رقم (٢٢٩١٠).

وفيه: «أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!»[1]. [٢٩]

وقال أبو العباس: كل ما خَرَج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة، فهو من عزاء الجاهلية [٣٠]

---

[٢٩] هذا في القصة التي ذُكرت سابقًا في إحدى الغزوات، لما اقتتل شابان، أحدهما من المهاجرين، والآخر من الأنصار، وكل منهما دعا جماعته، فالمهاجري دعا المهاجرين، والأنصاري دعا الأنصار. وهذا من دعوى الجاهلية، وهؤلاء مسلمون لا يجوز أن يَدعوا بدعوى الجاهلية.

[٣٠] قال أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا ما هي الجاهلية: الجاهلية: كل ما خرج عن الإسلام والقرآن.

فالواجب على المسلم أن ينتسب إلى الإسلام والقرآن. ولا ينتسب إلى القبيلة أو البلد من باب الحمية والافتخار.

فلا يجوز أن يعتز بالقبيلة، بل يعتز بالإسلام.

ولا يعتز بالبلد؛ فبلاد المسلمين كلها سواء، لا مزية لبعضها على بعض، إلَّا ما مَيَّزها الله عن غيرها كمكة والمدينة. أما بقية بلاد المسلمين فكلها سواء، سواء كانت في المشرق أو في المغرب.

وكذلك لا يَعتد المسلم بالنسب أو بالبلد أو بالجنس، فيقول: أنا عربي وأنت أعجمي. هذا لا يجوز، ما دام الآخَر مسلمًا فهو أخوك ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] عرب وعجم، جن وإنس، كلهم إخوة بالإيمان والإسلام.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٩٠٥)، ومسلم رقم (٢٥٨٤).

« **أو مذهب** » من مذاهب العلماء؛ كالحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والظاهري. . . وغيرها. لا يجوز أن نتعصب لها، إنما نأخذ بالدليل، ما وافق الدليل أخذنا به، سواء كان قول إمامنا أو قول غيره. وكل العلماء أئمة ولله الحمد، كل علماء أهل السنة أئمة، فأبو حنيفة إمام لنا، والشافعي ومالك وأحمد أئمة لنا. لا نتفرق: أنا حنفي وأنت حنبلي وكذا وكذا!!

نحن نتبع الدليل، إذا لاح لنا الدليل سواء كان مع إمامي أو إمامك فهو المُتبَع، ولا نتعصب لرأي إمام أو مذهب إمام، بل نتمسك بالحق.

« **أو طريقة** » من طرق الصوفية، فالصوفية لهم طرق، كل طائفة لها طريقة ولها شيخ، وهم يتعصبون لهذه الأشياء؛ كالنقشبندي، التيجاني، البرهاني، القادري. . . إلى غير ذلك، لهم طرق كثيرة.

والإسلام ليس فيه انقسامات، الإسلام هو إسلام واحد، والمسلمون إخوة، ليس هناك نقشبندي وقادري وبرهاني. . . وغير ذلك. كل هذه من كيد الشيطان للمسلمين.

الواجب على المسلمين أن يكونوا جماعة واحدة، وأن يعملوا بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما عليه سلفهم الصالح.

« **فهو من عزاء الجاهلية** » كل هذه الأمور يقول شيخ الإسلام: إنها من عزاء الجاهلية، و« **مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَعِضُّوهُ بِهَنِ أَبِيهِ، وَلَا تَكْنُوا** »[1].

(١) أخرجه: النسائي في الكبرى رقم (٨٨١٣)، وأحمد رقم (٢١٢٣٦)، وابن أبي شيبة رقم (٣٧١٨٢).

بل لما اختصم مهاجري وأنصاري، فقال المهاجري: يا لَلمهاجرين! وقال الأنصاري: يا لَلأنصار! قال ﷺ: «أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!»[1] وغَضِب لذلك غَضَبًا شديدًا. [٣١]

---

[٣١] مع أن لفظ المهاجرين لفظ شرعي، ولفظ الأنصار لفظ شرعي أيضًا، لكن لا يجوز أن نتعزى بالأنصار والمهاجرين، فالمهاجرون والأنصار إخوة، وهم جماعة واحدة، لا نفرق بينهم، فننتسب لبعضهم ونترك الآخر، كلهم إخواننا.



---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٤٩٠٥)، ومسلم رقم (٢٥٨٤).

باب وجوب الدخول في الإسلام كله وتَرْك ما سواه

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]. **[٣٢]**

---

[٣٢] «**باب الدخول في الإسلام كله**» بمعنى أنك تَقبل الإسلام كله، فلا تأخذ بعضه وتترك بعضه، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨] أي: في الإسلام، اقبلوه كله، ولا تأخذوا بعضه وتتركوا البعض الآخر؛ فإنَّ مَن فَعَل ذلك فإنه كافر بالإسلام، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

الذي يؤمن ببعض الرسل أو ببعض الكتاب أو ببعض الإسلام ويكفر بالبعض الآخر - فهو كافر بالجميع ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فالواجب على المسلم أن يقبل الإسلام كله، فيعمل بما يستطيع منه، لكن يؤمن به كله.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠] **[٣٣]**

أما أن يؤمن ببعض ويكفر بالبعض الآخر، فهذا لا يجوز ولا يكفي. أو أن يأخذ من الإسلام ما وافق هواه، وما خالف هواه تَركه، فهذا أيضًا لا يجوز ولا يكفي.

فيجب أن يَقبل الإسلام جميعه، ويؤمن بالإسلام كله.

« **وقول الله تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] » ﴿كَآفَّةً﴾ يعني جميع الإسلام، فلا تأخذ بعضه وتترك بعضه، حَسَب هواك ورغبتك، أو تأخذ الذي يرضيك. الإسلام كله وحدة متكاملة.

[٣٣] ومن الدخول في الإسلام كافة تحكيم الشريعة، فهذه من أمور الإسلام، فالذي يَدَّعِي أنه مسلم، ولكنه يعزل الشريعة عن الحكم ويُحكِّم القوانين - فهذا ليس مسلمًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠] قال: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ والزعم أكذب الحديث. فدل على أن دعواهم ليست صحيحة ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] فلابد من الحكم بما أنزل الله.

أما الذي يُقصي الحكم بما أنزل الله نهائيًّا ويجعل محل ذلك القوانين، فهذا ليس بمسلم، ولو كان يزعم أنه مسلم.

وهذا في القرآن ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. **[٣٤]**

انظر: ﴿يُرِيدُونَ﴾ وهو عبارة عن نية في القلب فقط. فكيف إذا نَفَّذ؟! فالأمر أشد، إذا نوى بقلبه فهو ليس بمؤمن، فكيف إذا نَفَّذ؟!

[٣٤] هذا فيه النهي عن التفرق في الدين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] أي: أحزابًا وجماعات.

هذا ذمٌّ وتحذير!! فالمسلمون جماعة واحدة وحزب واحد، هم حزب الله وجند الله، فلا يتقسمون إلى أحزاب وجماعات، وكلٌّ يدعو إلى حزبه أو إلى جماعته، ويضلل الآخرين وينتقص الآخرين. هذا لا يجوز بين المسلمين، هذا من أمور الجاهلية.

المسلمون يد واحدة وجماعة واحدة وحزب واحد. وإذا اختلفوا يرجعون إلى الكتاب والسنة ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

فالواجب على المسلمين أن يكونوا جماعة واحدة وحزبًا واحدًا. وإذا اختلفوا يتحاكمون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فلا يقول كل واحد منهم: نبقى على ما نحن عليه، ولا نرجع عما نحن عليه!! هذا من أمور الجاهلية.

وقوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. هذه براءة، بَرَّأَ الله رسوله ﷺ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، يعني: جماعات.

فالمسلمون جماعة واحدة، لا انقسام ولا تفرق. والنزاع والخلاف سيَحْصُل، ولكن يُحسَم بالتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]: تَبْيَضُّ وجوه أهل السُّنة والائتلاف، وتَسوَدُّ وجوه أهل البدع والاختلاف. [٣٥]

فمَن كان معه الصواب رجعنا إليه، ومَن كان على خطأ يرجع عن خطئه ولا يتعصب لرأيه أو حزبه أو جماعته. هذا شأن المسلمين.

[٣٥] هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٠- ١٠٣].

ثم قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] حبل الله: هو القرآن والإسلام والرسول ﷺ ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلى جماعات وأحزاب، نَهى عن التفرق ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٣- ١٠٥].

نهى عن التفرق في أول الآيات، ثم قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

ثم نهى عن التشبه بالأمم السابقة الذين تفرقوا في دينهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] اختلفوا وتفرقوا، وعندهم الوحي المنزل، ولم يتحاكموا إليه، بل كلٌّ يتعصب لرأيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] الذين اختلفوا وتفرقوا وتركوا ما أنزل الله، لم يرجعوا لحسم الخلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل كلٌّ بقي على مذهبه، وتركوا الكتاب المنزل واكتفوا بمناهجهم ومذاهبهم وأقوالهم ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٦]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبيضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل الفُرقة والاختلاف. هذا مآلهم يوم القيامة.

فالذين يَبقَون على اختلافهم ويتعصبون لآرائهم تَسْوَدُّ وجوههم يوم القيامة.

والذين اجتمعوا على الحق وحسموا نزاعهم بالدليل - هؤلاء تَبْيَضُّ وجوههم يوم القيامة.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً كَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً».

وتمام الحديث قوله: «وَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» رواه الترمذي(١). [٣٦]

---

[٣٦] هذا تحذير من هذا الذي سيقع في آخر الزمان، تحذير للأمة.

وهذا من حرصه ﷺ على أمته وشفقته عليهم، أنه أخبرهم عما سيحصل، وبَيَّن لهم كيف النجاة منه.

فبنو إسرائيل تفرقوا واختلفوا ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

هذا في بني إسرائيل، فما دام أن هذا حدث في بني إسرائيل فسيَحْدُث في هذه الأمة عند مَن يقلدهم، وقد حدث، لكن عند حدوثه يجب على المسلم أن لا يتعصب، وإنما يحرص على الدليل واتباع الكتاب والسنة حتى ينجو من هذه الفتنة وهذا الشر وهذا الاختلاف.

فهذا خبر معناه التحذير، وهو من معجزاته ﷺ، أخبر أنه سيوجد مَن يتشبه باليهود والنصارى، حتى في أتفه الأشياء أو أقبحها وأشنعها.

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٤١).

حتى لو كان في اليهود والنصارى مَن يأتي أمه - يعني يجامع أمه - لوُجد في هذه الأمة مَن يفعل ذلك تقليدًا لهم؛ لأنه يَعتبر ما هم عليه هو الكمال، ولو كان أقبح الأشياء وأشنعها!! فالزنى عمومًا فاحشة وساء سبيلًا. والزنى بالأم أقبح أنواع الزنى، ولو فعله الكفار صار عند بعض المسلمين مستحسنًا.

وفي الحديث الآخر: «**حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»(١).

هذا فيه التحذير من التشبه باليهود والنصارى، وأنه خطر عظيم على المسلمين.

«**وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»(٢).

أخبر ﷺ أن في هذه الأمة مَن يتشبه باليهود والنصارى، وأن اليهود والنصارى افترقوا، فاليهود افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على ثنتين وسبعين. وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة تقليدًا لهم، وكلها في النار إلَّا واحدة، وهي التي بقيت على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

فلا نجاة من النار إلَّا باتباع الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح. ومَن لم يكن كذلك فهو في النار؛ إما لكفره وإما لضلاله.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٧٣٢٠)، ومسلم رقم (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٤١).

فليتأمل المؤمن الذي يرجو لقاء الله كلام الصادق المصدوق في هذا المقام، خصوصًا قوله: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»(١). [٣٧]

يا لهذه الموعظة لو وافقت من القلوب حياة. [٣٨]

فليست كل الفِرق كافرة؛ بعضها كافر، وبعضها دون الكفر، لكنها كلها مُتوعَّدة بالنار لكفرها أو لضلالها.

[٣٧] ليتأمل المسلم الناصح لنفسه كلام الصادق المصدوق، وهو الرسول ﷺ، فهو الصادق فيما أخبر به ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، المصدوق: أي: المُصَدَّق من الله تعالى، فالله هو الذي أخبره بذلك، فهو صادق وهو مصدوق، صادق فيما أخبر به، ومصدوق فيما أُخبِر به من قِبل الله ﷻ.

وليتأمل المسلم اللبيب العاقل هذا الأمر، وأنه لابد أن يحدث. ولا نجاة منه إلَّا بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

وهذا يَستدعي منا أن نتعلم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

أما أن كُلًّا يدعي أنه على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وهو جاهل بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه. أو يدري ولكنه تَعَمَّد الخطأ؛ فهذا لا يصح أبدًا ولا يجوز.

فلابد أن نتعلم ونعرف ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه؛ حتى نتمسك به ولا نلتفت إلى سواه.

[٣٨] هذه موعظة الرسول ﷺ، لو وافقت من القلوب حياة لكان للقلوب معها شأن، بالاعتبار والامتثال والحرص على معرفة الحق

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٤١).

والعمل به، وأن لا يكون الإنسان إمعة، يكون مع الناس أينما كانوا. بل يكون مع الحق دائمًا وأبدًا، ولو خالفه الناس. ولا يقلد بغير هدى تقليد الأعمى، عليه أن يعرف الحق أولًا، ثم يعمل به ويدعو إليه.

هذا هو الواجب على كل مسلم.

أما أن تقول: «دَعُوا الناس على ما هم عليه» عملًا بمقولة: «حرية الرأي»، «الرأي والرأي الآخر»، «لا تُحجِّروا على الناس وتضيقوا عليهم» فهذا كلام باطل، هذا كلام أهل الضلال والعياذ بالله، هذا مخالف لقول الرسول ﷺ.

فالواجب أن ندعو الناس إلى الصواب وإلى الحق، ولا نُقرهم على ضلالهم، ولا على ما هم عليه، ونقول: «حرية الرأي».

ليس هناك شيء اسمه حرية الرأي، وإنما الواجب اتباع الكتاب والسنة. لو كان هناك حرية رأي لم نَحْتَجْ إلى الرسل ولا إلى الكتب، بل كُلٌّ يتبع رأيه وعقله.

فالرأي إذا خالف الوحي يجب أن يُترك. أما إذا وافق الوحي فالحمد لله.

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَلُ الْخُفِّ أَوْلَى بِالْمَسْحِ مِنْ أَعْلَاهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَمْسَحُ عَلَى أَعْلَى الْخُفِّ**»(١).

فالدين ليس بالرأي وإنما بالاتباع.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (١٦٢)، والدارقطني رقم (٧٨٣)، والبيهقي رقم (١٣٨٦).

ويقول سهل بن حُنَيْف ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ لَرَدَدْتُهُ**»[1].

وهذا في قصة الحديبية، لما تم الصلح بين النبي ﷺ والمشركين.

وكان من بنوده: «**أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلمًا، يَرُده المسلمون إليهم. ومَن ذهب من المسلمين إلى الكفار، لا يَرُدونه**».

فشَقَّ هذا على سهل لأنه لا يعرف العواقب، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ، فَلَا خَيْرَ فِيهِ**» يعني: مَن ذهب من المسلمين إلى الكفار لا خير فيه فلا يرجع. ومن جاء من المشركين إلى المسلمين ورَدُّوه، فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

ثم بعد ذلك تبين الحق وأن هذا الصلح في غاية المصلحة للمسلمين؛ لأنه كَفَّ أذى الكفار عن المسلمين، وسمحوا للمسلمين بالهجرة، وكَثُر المهاجرون، ووضعت الحرب أوزارها، وصار المسلمون يَدْعون إلى الله ﷻ، لا يعترضهم أحد، فسماه الله فتحًا مبينًا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. هذا هو صلح الحديبية.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣١٨١)، ومسلم رقم (١٧٨٥).

ورواه أيضًا من حديث أبي هريرة وصححه، ولكن ليس فيه ذكر النار(١).

وهو في حديث معاوية عند أحمد وأبي داود، وفيه: «سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ»(٢).

وقد تقدم قوله: «وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ»(٣). [٣٩]

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

[٣٩] الله ﷻ نهى عن اتباع الأهواء، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]. وقال تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] فالذي يَبْلُغه الحق ولا يقبله يكون متبعًا لهواه، ويُعاقَب بأن الله يختم على قلبه، فلا يَقبل الحق بعد ذلك - والعياذ بالله - عقوبةً له، فاتباع الهوى شر!

والواجب على المسلم أن يتبع الحق، سواء وافق هواه أو خالفه، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] فاتباع الهوى شر.

وفي آخر الزمان تَكثر الأهواء في الناس، وتتجارى بهم - بمعنى أنها تدخل في عروقهم - كما يتجارى الكَلَبُ - وهو مرض يصيب

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٤٠).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٥٩٧)، وأحمد رقم (١٦٩٣٧).

(٣) أخرجه: البخاري رقم (٦٨٨٢).

الإنسان من عضة الكلب المصاب بالسُّعَار - بصاحبه، إذا عض الكلب الإنسان فإن ريقه يدخل في جسم الإنسان وفي عروقه وفي جسمه كله، ويتجارى في جسمه كله. والأهواء تتجارى في الناس مثل داء الكَلَب.



باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر [٤٠]

[٤٠] **البدعة لغة**: هي الشيء المُحْدَث على غير مثال سابق. ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] أي: أن الله ﷻ خلق السماوات والأرض وأوجدهما من عدم.

فالبدعة: هي الشيء المحدث. هذا في اللغة.

وأما البدعة في الشرع: فهي إحداث شيء في الدين ليس له أصل من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ.

كإحداث عبادة ليس لها أصل؛ لأن العبادات توقيفية، فلابد لها من دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وما ليس عليه دليل فإنه بدعة مذمومة مردودة؛ لأن الله أكمل هذا الدين، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣].

فأخبر سبحانه أنه أكمل الدين قبل وفاة النبي ﷺ، فما تُوفي رسول الله ﷺ إلَّا وقد أكمل الله الدين للأمة.

فأي شيء بعد ذلك يحدث فإنه مردود، كما قال ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢) مردود عليه.

فمَن أحدث في أمر النبي ﷺ، أو عمل عملًا ليس عليه أمر الرسول ﷺ فإنه لا يُقبل عند الله، وهو مردود على صاحبه. وإن كان صاحبه حسن النية ويريد الأجر، فهذا لا يُسوِّغ البدعة، ولو حَسُن قصد

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (١٧١٨).

صاحبها، أو نوى بها التقرب إلى الله، وقال: «هذه زيادة خير» نقول له: هذه زيادة شر، وليست خيرًا!!

الخير فيما جاء به رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: «**إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**»(١)، هذا دليل على أن البدعة شر، وإن كان صاحبها يظن أنها خير «**وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**»(٢) كل بدعة ضلالة، ليس هناك بدعة حسنة كما يقول مَن يقوله مِن المبتدعة الذين يُروجون البدع بأنها بدع حسنة وليست بدعًا سيئة.

فالرسول ﷺ أخبر أن كل بدعة فهي ضلالة. وليس هناك بدعة هداية أو خير.

فلو كانت هذه الأعمال خيرًا لشرعها الله ﷻ لعباده، فإن الله ﷻ لم يَترك شيئًا فيه خير للعباد إلَّا شرعه لهم.

والرسول ﷺ لم يَترك شيئًا من الدين إلَّا بَيَّنه، ولم يكتم منه شيئًا، فقد بَلَّغ البلاغ المبين، ﷺ.

وقال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ**» هذا فيه تحذير «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٣) فليس في البدع شيء حسن، بل كلها ضلالة بشهادة الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٨٦٧).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٨٦٧).

(٣) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، وابن ماجه رقم (٤٢)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

فالذي يأتي بعبادة أو عمل يتقرب به إلى الله، ولم يكن عليه دليل من كتاب الله ولا سُنة رسوله - فإنه بدعة، وهو ضلالة وشر، وليس فيه خير. كما يزعم المبتدعة الذين يُحْدِثون أشياء من الأذكار أو العبادات أو الصيام أو الصلوات أو الأدعية أو الأعياد. . . أو غير ذلك، ويظنون أنه يقربهم إلى الله، وأنه مشروع.

هذا باطل مردود على صاحبه، فالبدع لا خير فيها، ولا حدثت بدعة إلَّا رُفِع مثلها من السُّنة.

والدين كامل ولله الحمد، والباب مفتوح لكل من يريد الخير على طريقة الرسول ﷺ.

أما أن يأتي بأشياء ليس لها أصل في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فهذه مردودة.

ولهذا اهتم العلماء ﷭ بالتحذير من البدع، وأَلَّفوا في ذلك مؤلفات كثيرة، مطولة ومختصرة.

ومن ذلك: كتاب «الاعتصام» للإمام الشاطبي. و«اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية. و«البدع والنهي عنها» لمحمد بن وضاح. و«الباعث على إنكار البدع والحوادث» لأبي شامة. . . وغير ذلك من الكتب المطولة والمختصرة.

وكما جاء في شروح الأحاديث النبوية بيانُ البدع والتحذير منها.

فالبدع شر، وأهلها أهل ضلال، وهي تحارب السنن.

ولذلك تجد المبتدعة يُبغضون السنن ويحبون البدع، وينشطون في إحياء البدع، وإذا جاءت السُّنة تكاسلوا وثَقُلت عليهم السنن.

هذا شيء معروف عن المبتدعة، أنهم لا ينشطون إلَّا في البدع ومواسم البدع. أما السنن فإنهم من أكسل الناس عنها. وهذا عقوبة لهم من الله ﷻ لأن مَن تَرَكَ الحق ابتُلي بالباطل!!

فالبدع لا يُتساهل في شأنها أبدًا؛ لأنها خطر على الدين وخطر على المسلمين، وبها يزول الدين شيئًا فشيئًا، وتحل محله البدع!

وهذا ما يريده الشيطان لبني آدم، يريد أن يزحزحهم عن الشريعة إلى البدع؟

وهذا ما يريده شياطين الإنس والجن، أن يزحزحوا الناس عن السنن إلى البدع.

ثم إن بعضهم أو كثيرًا منهم له مطامع في هذه الأمور؛ لأنه يعيش من ورائها ويأكل بها، لهم مطامع دنيوية، ولهم بها رئاسة يترأسون بها على الناس.

قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، لأعزهم الله ولأغناهم الله.

فلا شك أن العز والرفعة في الدنيا والآخرة هي بالتمسك بالسنن وترك البدع. هذا باب عظيم، ينبغي العناية به.

ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر**».

الكبائر: هي الذنوب الكبار؛ لأن الذنوب تنقسم إلى قسمين: كبائر وصغائر.

فالكبائر ضابطها: كل معصية أوجب الله عليها حدًّا في الدنيا؛ كحد الزنى، وحد السرقة، والقصاص، وحد الشرب. هذه كبائر.

يعني: ما عليه حدٌّ في الدنيا يقام على من ارتكبه، فهو من الكبائر. أو ما عليه وعيد في الآخرة؛ كالتوعد بالنار على مَن فعل كذا، أو باللعنة، أو بالغضب.

هذا ضابط الكبيرة، ما رُتِّب عليه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو خُتِم بغضب أو لعنة، أو تَبرأ الرسول ﷺ من فاعله؛ مثل: ليس منا مَن فعل كذا.

أما ما جاء النهي عنه، ولم يرتب عليه شيء من ذلك، وإنما هو نهي فقط، فهذه ذنوب صغائر.

وأكبر الكبائر الشرك بالله ﷻ؛ لأن الله أخبر أنه لا يَغفر لصاحبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] وأما الكبائر التي دون الشرك فهذه تحت المشيئة: إن شاء الله غفر لصاحبها، وإن شاء عذبه بها، قال تعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

ومرتكب الكبيرة دون الشرك لا يَكفر عند أهل السنة والجماعة، وإنما يكون ناقص الإيمان فيكون فاسقًا.

أما الخوارج والمعتزلة فيرَون أن مرتكب الكبيرة خارج من الإسلام.

والجهمية والمرجئة لا تضر عندهم المعاصي.

فالخوارج يُكفرون صاحبها ويخلدونه في النار.

والمعتزلة يقولون: هو في المنزلة بين المنزلتين، لا هو بمسلم ولا بكافر، فإن مات ولم يتب فهو مخلد في النار. كما تقوله الخوارج.

والمرجئة يقولون: الإيمان بالقلب، ولا تضر معه معصية.

أما أهل السنة والجماعة فيقولون: مرتكب الكبيرة التي دون الشرك ناقص الإيمان، وهو تحت المشيئة، ليس بكافر ولكنه ناقص الإيمان، أو فاسق، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، لكنه لا يَخرج من الإسلام، وهو مُتعرِض للوعيد الذي توعد الله به.

فالبدعة أشد من الكبائر من وجة أن البدعة إحداث في الدين لم يشرعه الله، فصاحبها يظن أنها من الدين. أما مرتكب الكبيرة فلا يدعي أن ما فعله من الدين، بل يعترف أنه عاصٍ وأنه مخالف، ولكن قادته الشهوة فوقع في المعصية، ولا يدعي أن هذا دين. بخلاف المبتدع، فهو يظن أن هذا من الدين. فلذلك صارت البدعة أشد من الكبيرة.

وكذلك صاحب الكبيرة يعرف أنه مخطئ ويريد أن يتوب. بخلاف صاحب البدعة، فإنه لا يعترف أنه مخطئ، بل يرى أنه مصيب وأن عمله هذا صحيح؛ ولذلك قَلَّ أن يتوب المبتدع لأنه يرى أنه على حق. بخلاف العاصي وإن كان مرتكبًا لكبيرة، فإنه يرى أنه مخطئ ويخاف من العقوبة، وكثيرًا ما يتوب أصحاب الكبائر.

هذا وجه كون البدعة أشد من الكبيرة.

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]. **[٤١]**

وقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [الأنعام: ١٤٤]. **[٤٢]**

---

[٤١] البدعة قد تكون شركًا، وقد تكون دون ذلك. وهي أقسام:

منها: بدعة شركية تُخرج من الدين؛ كدعاء غير الله، والاستغاثة بالأموات، والذبح للقبور.

فهذه بدعة شركية، لا يغفرها الله إلَّا بالتوبة، فإذا مات الإنسان عليها فهو مخلد في النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] والشرك ابتداع؛ لأن الله ﷻ خلق الخلق لعبادته، فإذا عبدوا معه غيره فقد أحدثوا في دين الله ما ليس منه. وهذا أعظم البدع. فالشرك أعظم البدع - والعياذ بالله - لأنه شَرْع دينٍ لم يأذن الله به، ولا يرضى به.

[٤٢] ومن وجوه كون البدعة شرًّا من الكبيرة أن المبتدع يفتري على الله الكذب ويقول: هذا شرع، هذا دين، وهذا فيه أجر وثواب. فهو يفتري على الله الكذب، بخلاف العاصي فإنه لا يَدعي أن هذا دين؛ لأنه يعرف أنه عاصٍ. أما المبتدع فهو يفتري على الله الكذب حيث يقول: إن هذا من الدين، وإن هذا يقرب من الله ﷾.

ثم إن العاصي لا يُقتدى به، بل الناس يذمونه. بخلاف المبتدع فإنه يَقتدي به الناس ويتعبدون ببدعته. فهو شر من مرتكب الكبيرة ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [الأنعام: ١٤٤] لأنهم يتبعونه، خصوصًا إذا كان له نصيب من العلم أو عنده عبادة وتقى

وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. [٤٣]

وورع، فالناس يغترون به ويقتدون به في بدعه. بخلاف الزاني وشارب الخمر، فهذه كبائر، والناس لا يقتدون بفاعلها، بل يمقتونه ويذمونه.

فهذا أيضًا من وجوه كون البدعة شرًّا من الكبيرة.

[٤٣] وكذلك المبتدع يَتحمل وزره ووزر مَن اقتدى به يوم القيامة؛ لأنه قدوة يَقتدي به الناس، يظنون أنه على حق، وأن فِعله عمل طيب، خصوصًا إذا كان يدعو إلى البدعة ويُحَسِّنها، فإنه يتحمل وزره ووزر مَن اقتدى به واتبعه.

وهذا خطر عظيم، وهو خطر البدع والمحدثات!

وكم من بدعة انتشرت في الناس وتوارثوها جيلًا بعد جيل بسبب المبتدع الأول الذي اخترعها، فيكون عليه نصيب من آثام كل من اتبعه، أي: عليه مثل أوزارهم.

فالمبتدعة يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون! نسأل الله العافية.

فهذا فيه التحذير من البدع، وأنه يَلحق صاحبها إثم كبير، أكبر من إثمه في نفسه. بل كل مَن عَمِل بهذه البدعة، فإنه يَلحق صاحبها الأول إثم مَن عَمِل بها.

ولهذا جاء في الحديث: «**مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا**»[1] لأنه أول مَن سَنَّ القتل؛ لأنه قَتَل أخاه ظلمًا

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٣٣٥)، ومسلم رقم (١٦٧٧).

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج: «أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»[1]. [٤٤]

وعدوانًا، فهو أول مَن سَن القتل؛ لذلك كل مَن قتل نفسًا بغير حق يَلحق ابنَ آدم الأول كِفْل - أي: نصيب كبير - من دمها. والعياذ بالله.

[٤٤] ومن البدع المستقبحة بدعة الخوارج.

والخوارج: هم الذين يَخرجون على ولاة أمور المسلمين، فيخلعون السمع والطاعة، ويَخرجون عليهم بالسيف، ويُكفرون المسلمين بالكبائر التي دون الشرك. هؤلاء هم الخوارج.

وقد أَمَر النبي ﷺ بقتلهم؛ لكَفِّ شرهم والقضاء على بدعتهم؛ لأن السُّنة والشريعة يَحثان على السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين لما يترتب على ذلك من المصالح العظيمة، واجتماع الكلمة، وحقن الدماء، والحكم بالشريعة، وإقامة الحدود والجهاد. . . وغير ذلك من المصالح العظيمة.

فإذا انتقض الأمر ضاعت هذه المصالح، وانتشرت الفوضى، وسُفكت الدماء، ونُهبت الأموال، وانتُهكت الأعراض، وعُطلت الحدود. . . إلى غير ذلك من الأمور.

فالاجتماع والسمع والطاعة لولاة أمور المسلمين فَرْض على المسلمين؛ من أجل قيام مصالح الدنيا ومصالح الدين.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠٥٧)، ومسلم رقم (١٠٦٦).

أما من خرج عن هذا، فقد ابتدع في دين الله ما ليس منه، وإن كانوا يظنون أنهم ينكرون المنكر، ويجاهدون في سبيل الله؛ فإنهم في الحقيقة مبتدعة وخارجون عن شرع الله ﷻ. والذي ارتكبوه من المنكر أشد من المنكر الذي يزعمون أن ولي الأمر فَعَله، أو الذي وقع منه بالفعل!! فإنه حتى لو كان فَعَله فالخروج عليه أشدُّ مفسدةً من مفسدة ترك الإنكار عليه علانية، فيجب السمع والطاعة.

وأول بذرة الخوارج كانت في عهد النبي ﷺ، حينما قال ذو الخويصرة للرسول ﷺ: «**اعْدِلْ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ!!**» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!**» فلما ذهب الرجل قال: «**يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ، وَعِبَادَتَكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِمُ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**»(١)، وفي رواية: «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»(٢).

«**عاد**»: الأمة المعروفة، وهم قوم هود ﷺ، وقد قتلهم الله شر قتلة، بأن سَلَّط عليهم الريح العقيم ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠]، تنزع الناس: أي: تحمل الناس إلى عَنان السماء، ثم تَنكُسهم على رءوسهم، فتندق أعناقهم. ولكِبَر أجسامهم كأنهم أعجاز نخل، أي: جذوع النخل المجتث لأن لهم أجسادًا كبيرة طويلة.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٣٤٤، ٣٦١٠)، ومسلم رقم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٣٣٤٤)، ومسلم رقم (١٠٦٤).

فالخوارج أَمَر النبي ﷺ بإيقاع العقوبة الرادعة عليهم؛ كعقوبة قوم عاد؛ لشرهم وفسادهم، ونشرهم الشر بسبب مذهبهم وخروجهم.

فهم فئة ضالة، وفيها خطر على الأمة، وليس الخطر على ولاة الأمور فقط، بل على الأمة عمومًا.

ولذلك يجب على ولي أمر المسلمين وعلى المسلمين معه أن يقتلوهم كفًّا لشرهم.

ولذلك قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وقَتَل منهم مقتلة عظيمة في النهروان، ونَصَره الله عليهم، وخَفَض شوكتهم.

وما زال ولاة الأمور والمسلمون يقاتلونهم كلما خرج منهم طائفة، وفي الحديث: «**كُلَّمَا ظَهَرَ مِنْهُمْ، قَرْنٌ قُطِعَ**»(١) والحمد لله.

فهم فئة خطيرة على المسلمين، مذهبهم أنهم يرون خلع السمع والطاعة، والخروج على ولي الأمر بالسلاح، وتكفير ولي الأمر وتكفير المسلمين، ويستحلون دماءهم. وفي الحديث: «**أَنَّهُم يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ**»(٢).

هذا تاريخ الخوارج، لم يُذكر أنهم قاتلوا الكفار أبدًا! وإنما يَقتلون المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم. نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٦٨٧١)، والحاكم رقم (٨٤٩٧).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٣٣٤٤)، ومسلم رقم (١٠٦٤).

وفيه أنه ﷺ نَهَى عن قتل أمراء الجَوْر ما صَلَّوْا. [٤٥]

[٤٥] **قوله**: «**وفيه**» أي: في الصحيح. وهذا في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ نهى عن قتل أمراء الجور[1]؛ يعني: الأمراء العصاة، الذين يجورون في الحكم ويظلمون الناس، ولو كانوا فساقًا، فإنها لا تنخلع طاعتهم، وفسقهم ضرره عليهم. وأما فِعْل الخروج فضرره على المسلمين.

وهذا من ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، لاشك أن المعصية ضرر، ولكن الخروج على ولي الأمر من أجلها وشق عصا الطاعة - فيه ضرر أكثر.

وفي قوله ﷺ: «**مَا صَلَّوْا**»[2] دليل على مكانة الصلاة في الإسلام، وأن مَن تَرَكَ الصلاة فقد كفر. بخلاف الذين يقولون: الدين ليس هو الصلاة، وإن الإنسان مسلم ولو لم يُصَلِّ.

فالرسول ﷺ مَنَع من القتل، ومَنَع من الخروج على ولي الأمر ما دام يصلي. وإن كان عنده مخالفات ومعاصٍ دون الكفر، فإنه يُصْبَر عليه لما في ذلك من المصلحة العظيمة التي تربو على مفسدة معصيته في نفسه، فإن معصيته ضررها قاصر عليه هو، أما شَقُّ عصا الطاعة والخروج فضرره على الإسلام والمسلمين.

والحديث أصله أن النبي ﷺ قال: «**خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ**

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٨٥٥).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (١٨٥٤).

وعن جرير بن عبدالله ﷺ: أن رجلًا تَصَدَّق بصدقة، ثم تتابع الناس، فقال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» رواه مسلم[1]. [٤٦]

تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نُنَابِذُهُمْ؟ قَالَ: «**لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ**»[2]

[٤٦] سبب هذا الحديث أنه جاء قوم من مُضَرَ إلى النبي ﷺ، بدا عليهم الفقر والحاجة، وملابسهم رَثَّة؛ فرَقَّ النبي ﷺ لهم؛ لأنه كان ﷺ نبي الرحمة.

فلما رأى حالهم وبؤسهم وفقرهم، رق لهم ﷺ، فنادى بالصلاة، ثم اجتمع الناس، ثم خطب ﷺ وحث على الصدقة ورَغَّب فيها، فجعل الناس يتصدقون، هذا يتصدق بالقبضة من الطعام، وهذا يتصدق بكذا وكذا. حتى جاء رجل معه صُرة من الذهب، كادت يده أن تَعجِز عنها، ووَضَعها بين يدي الرسول ﷺ، فتهلل وجه الرسول ﷺ وسُر بذلك سرورًا عظيمًا! وتتابع الناسُ لما رأَوا هذا الرجل فنشطوا على الصدقة، وتتابعوا عليها، حتى اجتمع شيء كثير من الصدقات عند الرسول ﷺ، فقال: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**»[3] لأن هذا الرجل سَن سنة حسنة واقتدى به الناس وتصدقوا.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٠١٧).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (١٨٥٥).

(٣) أخرجه: مسلم رقم (١٠١٧).

ومعنى «**سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**» أحيا سُنة؛ لأن الصدقة سُنة، فهذا الرجل أحياها، وأتى بمال كثير، فتشجع الناس وتتابعوا للصدقة، فكان هو السبب في هذا، فله أجرها وأجر مَن عَمِل بها. وهذا عامٌّ، وأما سبب الحديث فهو هذه القصة، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فهذا الحديث عامٌّ في كل مَن فَعَل خيرًا واقتدى به الناس في ذلك الخير، أيًّا كان هذا الخير، إذا اقتدى الناس به فيه، أصبح قدوة حسنة، فله أجر عمله وأجر مَن اقتدى به.

«**ومَن سَنَّ في الإسلام سُنة سيئة**» هذه هي البدعة، أي: أحدث بدعة ليس لها أصل «**فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»(١).

فهذا فيه التحذير من البدع، وفيه الحث على إحياء السُّنن؛ لأن الرسول ﷺ أثنى على هذا الذي أحيا هذه السنة.

وفيه التحذير من إحياء البدع، وإحداث البدع، وأن شرها لا يقتصر على مَن فَعَلها، بل يذهب قسط منه إلى مَن أحدث هذه البدعة، طال الزمن أم قَصُر.

فهذا فيه التحذير من البدع، وأنها سنن سيئة.

والمراد بالسنة في اللغة: الطريقة.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٠١٧).

وله من حديث أبي هريرة ﷺ، ولفظه: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى» ثم قال: «مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ»[1]. [٤٧]

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

[٤٧] في هذا الحديث أن «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»[2].

هذا فيه: فضل الدعوة إلى الله ﷻ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأن الأجر لمن فَعَل ذلك أنه يحصل له أجره، ويحصل له مثل أجور من اقتدَوا به، وساروا على منهجه إلى يوم القيامة.

فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

فالدعوة إلى الله فضلها عظيم، وخيرها كثير. وهي سُنة الرسول ﷺ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أما الذي يدعو إلى الضلال والبدع والمحدثات؛ كالذي يدعو إلى عبادة القبور والأضرحة، فإنه يدعو إلى ما يخالف الدين، مثلما هو حاصل الآن من الترغيب في البدع والمعاصي والمخالفات. فمَن فَعَل ذلك فعليه إثمه، وإثم من اقتدى به وسلك منهجه إلى يوم القيامة.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٧٤).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٧٤).

وهذا فيه: التحذير من دعاة الضلال. ويَدخل في هذا الدعاة إلى البدعة؛ لأن البدعة ضلالة كما قال النبي ﷺ: «**فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

فالذي يدعو إلى البدع يدعو إلى الضلال، ويكون عليه إثمه وإثم مَن اقتدى به.



(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، وابن ماجه رقم (٤٢)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

باب ما جاء أن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة [٤٨]

هذا مروي من حديث أنس ومن مراسيل الحسن [٤٩]

---

[٤٨] هذا في بيان الوجوه التي تكون فيها البدعة شرًّا من الكبيرة.

فمن الوجوه: أن صاحبها لا يُوفَّق للتوبة ويُصر على بدعته. هذا هو الغالب؛ لأنه يرى أنه على حق، وأنه مصيب، وأن ما عمله من الدين، وأنه خير؛ فلا يفكر أن يترك البدعة. بخلاف العاصي، فإنه يَعرف أنه مخطئ وأنه مخالف، ويخاف من الله ويتوقع العقوبة؛ فلذلك سرعان ما يتوب العاصي ويخجل. بخلاف المبتدع فإنه لا تظهر عليه الندامة، ولكنه مسرور ببدعته، ويدعو إليها. فهذا من مساوئ البدع، أن صاحبها يقع فيها ويدعو إليها. ومن مساوئ البدع أن صاحبها لا يُوفَّق للتوبة. بخلاف مرتكب الكبيرة فإنه كثيرًا ما يُوفَّق للتوبة.

[٤٩] يعني هذا الأثر: «**إِنَّ اللهَ احْتَجَزَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ الْبِدْعَةِ**»[١] هذا مروي عن الرسول ﷺ مرفوعًا، ومرسلًا عن الحسن.

---

(١) أخرجه: ابن أبي عاصم في السنة رقم (٣٧)، والطبراني في الأوسط رقم (٤٢٠٢)، والبيهقي في الشعب رقم (٦٨٤٦).

وذَكَر ابن وضاح عن أيوب قال: كان عندنا رجل يرى رأيًا فتركه، فأتيتُ محمد بن سيرين فقلت: أشعرتَ أن فلانًا ترك رأيه؟ قال: انظر إلى ماذا يتحول، إنَّ آخر الحديث أشد عليهم من أوله: «يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ»[1]. [٥٠]

---

[٥٠] هذا رجل كان على بدعة الخوارج فتركها، فسُرَّ الذي رآه وفَرِح، وذهب لمحمد بن سيرين - وهو من أئمة التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وبَشَّره أن فلانًا تحول عن رأيه، فما سُر ابن سيرين بذلك، بل قال له: انظر إلى ماذا يتحول؛ لأنه ليس بتارك البدعة إلى السُّنة، ولكن إلى بدعة ثانية.

هذا من فقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لماذا؟ لأن الرسول ﷺ قال: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ**»[2].

فابن سيرين لم يتوقع منه التوبة من البدعة، ولكن توقع منه أن يَخرج من بدعته إلى بدعةٍ شر منها؛ لقوله ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ**». وهذا هو الغالب عليهم.

وهذا مشاهد في خوارج اليوم، لو تنذرهم ليلًا ونهارًا، وتحذرهم وتنذرهم، ما تحولوا عن بدعتهم أبدًا.

هذا شيء مشاهد؛ لأنهم يَرَون أنهم على حق وعلى صواب، ويزين لهم الشيطان هذا، فلا يرون أنهم إلَّا على حق! فالإنسان إذا لم يعترف بالخطأ، فإنه يُبتلى بما هو أشد. وهذا شأن المبتدعة!!

---

(١) أخرجه: ابن وضاح في البدع رقم (١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٥٦٢).

وسُئِل أحمد بن حنبل عن معنى ذلك، فقال: لا يُوفَّق للتوبة. [٥١]

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

وهذا من فقه الإمام محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يتوقع أن الخارجي يتوب من البدعة، لكن توقع منه أن يذهب إلى بدعة أشد، وذلك أخذًا من قول الرسول ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ**»، فالرسول لا ينطق عن الهوى، ولابد أن يقع ما أخبر به ﷺ.

[٥١] سُئِل عن قوله ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ**»[١] يعني: لا يُوفَّقون للتوبة؛ لأن التوبة هي الرجوع، يقال: تاب: إذا رجع. تاب أو أناب: إذا رجع عن خطئه. فهم لا يتوبون.

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٥٦٢).

باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥- ٦٧]. **[٥٢]**

---

[٥٢] أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الأعراف: ١٥٨] قالوا: لا نتبعك، نحن على دين إبراهيم. فالله ﷻ رد عليهم وقال: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] ثم قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

يعني: أن كلًّا منكم يَدعي أن إبراهيم على دينه: فاليهود يقولون: إن إبراهيم كان يهوديًّا. والنصارى تقول: إن إبراهيم كان نصرانيًّا.

يا سبحان الله! التوراة والإنجيل متى أُنزلت؟ لم تُنزل إلَّا بعد إبراهيم بمدة طويلة، فكيف يكون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا؟! هذا يكذبه الواقع ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

هذا لا يقوله عاقل، أن المتقدم يتبع المتأخر. بل العكس هو الصحيح: المتأخر يتبع المتقدم.

فليس إبراهيم بيهودي لأن التوراة ما أُنزلت إلَّا بعده، ولا بنصراني فالإنجيل نزل بعده على عيسى عليه السلام. فهذا من العبث بالعقول والتضليل المكشوف.

وقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]. [٥٣]

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٦٧] أي: مخلصًا لله ﷻ في العبادة ﴿مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] يعني: موحدًا. فالإسلام هو التوحيد، وهو دين جميع الأنبياء، وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة، وإن اختلفت شرائعهم، فكل شريعة كانت لحاجة تلك الأمة، حَسَب مصلحتها.

فالإسلام هو: عبادة الله وحده لا شريك له، بما شرعه في كل وقت بحَسَبه.

فالذين آمنوا بالتوراة وعَمِلوا بها في وقت العمل بها - كانوا مسلمين. والذين آمنوا بالإنجيل وعَمِلوا به في وقت العمل به - كانوا مسلمين. والذين آمنوا بالقرآن وعَمِلوا به في وقته - هم مسلمون؛ لأن الجميع موحدون.

فالتوحيد هو دين جميع الرسل، والإسلام هو دين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

[٥٣] قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ يعني: مَن يتركها. فالرغبة عن الشيء: تركه. أما الرغبة في الشيء فإنها طلبه. وملة إبراهيم هي التوحيد والإخلاص لله ﷻ.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ والسفه هو: الخفة في العقل. فهو سفيه في نفسه، وهو يزعم أنه عاقل وأنه حكيم ومدرك للأمور، ولكنه في الحقيقة سفيه، فالذي يترك ملة إبراهيم سفيه.

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ يعني: اخترنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

وفيه حديث الخوارج، وقد تقدم. [٥٤]

وفيه أنه ﷺ قال: «إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ»(١). [٥٥]

أَخْلَص دينه لله ﷻ، وتَرَك عبادة الأوثان والأصنام، وكَسَّرها وحَطَّمها، وتبرأ من أهلها، وحصل له ما حصل من الإيذاء على ذلك ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]أَسْلِمْ: يعني انْقَدْ لرب العالمين ﷻ ولا تَنْقَدْ لغيره.

[٥٤] أي: في هذا الباب الحديث الذي في أول الباب الذي قبله: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ**»(٢) هذه بدعة الخوارج.

[٥٥] «**لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ**» من الوَلاية: وهي المحبة. أما الوِلاية - بالكسر -: فهي المُلْك والسلطة.

فالرسول ﷺ يتبرأ ممن ليس على دين التوحيد، ولو كان من أقاربه في النسب، فإنه لا يحبه، وليسوا له بأولياء، يعني لا يحبهم ما داموا على غير دينه ﷺ.

ولكن أولياء الرسول ﷺ هم المتقون، سواء كانوا من أقاربه أو من غيرهم.

فسلمان الفارسي وبلال بن رباح الحبشي وصهيب الرومي - هؤلاء ليسوا من أقاربه، وإنما هم من الموالي، ومع هذا صاروا أقرب الناس إلى الرسول ﷺ وأحبهم إليه؛ لأنهم مؤمنون.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٩٩٠)، ومسلم رقم (٢١٥).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٧٥٦٢).

وفيه أيضًا عن أنس: أن رسول الله ﷺ ذُكِر له أن بعض الصحابة قال: أَمَّا أنا فلا آكل اللحم. وقال آخر: أما أنا فأقوم ولا أنام. وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال آخر: وأما أنا فأصوم ولا أفطر. أما أنا فأصوم ولا أفطر. فقال ﷺ: «لَكِنِّي أَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَآكُلُ اللَّحْمِ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١). [٥٦]

بينما أبو لهب عدو له ﷺ، وهو عمه أخو أبيه! ومع هذا فقد تبرأ منه ﷺ.

فليست المسألة مسألة قرابة. فلا شرف للقرابة من الرسول ﷺ بدون الدين.

أما إذا كان على دين الرسول ﷺ، فله شرف القرابة وشرف الدين، فيجتمع له الشرفان. أما إذا لم يكن عنده دين، فلا تنفعه صلة القرابة أبدًا مع مخالفة الدين؛ ولهذا تبرأ ﷺ من آل أبي فلانٍ فقال: «**لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ**» فإن أولياءه المتقون، من أي جنسٍ كانوا.

فهذا فيه البراءة من المشركين ولو كانوا من قرابة الرسول ﷺ وفي الحديث: «**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»(٢).

[٥٦] هذا الحديث في الصحيح، هؤلاء جماعة من الصحابة يَرغبون في الخير والعبادة والطاعة، فجاءوا يسألون عن عبادة الرسول ﷺ لأجل أن يقتدوا به، فلما أُخبِروا عن عبادته ﷺ فكأنهم تقالُّوها، ثم قالوا:

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠٦٣)، ومسلم رقم (١٤٠١).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٩٩).

الرسول ﷺ ليس مِثلنا، فالرسول غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر،فهو ليس بحاجة إلى العبادة!!

فلما بَلَغ ذلك الرسول ﷺ، غَضِب واشتد غضبه، وقال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا، أَمَا إِنِّي أَخْوَفَكُم لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ وَإِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَآكُلُ اللَّحْمِ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

فهذا فيه: التحذير من الغلو في العبادة، وهو الزيادة والتشديد على النفس، فالدين وسط - ولله الحمد - واعتدال!!

فلا تَشُقَّ على نفسك وتحملها ما لا تطيق. والرسول ﷺ حَذَّر من الغلو في أحاديث كثيرة، وهي الزيادة في العبادة، بل عليك أن تَرفق بنفسك.

والإنسان إذا اقتصد في العبادة وتوسط فيها، فإنه يداوم عليها. أما إذا اشتد في العبادة، فإنه يَمَل ويتركها. هذا شيء معروف.

قال ﷺ: «**إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»[1].

والإنسان بشر لا يتحمل، فإذا شدد على نفسه لم يستطع، وفي النهاية يترك العمل. وهذا مشاهد معروف.

فهناك أناس رأيناهم يتشددون، ثم في النهاية انحلوا من الدين. كان هؤلاء عُرِف عنهم التشدد والغلو، وفي النهاية أصبحوا منحرفين عن الدين. هذه آفة الغلو - والعياذ بالله -.

(١) أخرجه: البيهقي رقم (٤٧٤٤).

أما الاعتدال والتوسط فهذا سبيل إلى الاستمرار والثبات، وهذه هي سُنة الرسول ﷺ.

وهذا فيه: الحث على الاقتصاد في العبادة والاقتداء بالرسول ﷺ، وتَرْك الغلو والتشدد؛ لأن هذا بدعة مُخالِفة لسُنة الرسول ﷺ.

وقوله ﷺ: «**مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1] هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] وقد تبرأ الرسول ﷺ منه.

فهذا فيه: التحذير من بدعة الغلو وبدعة التشدد، والحث على الاعتدال والتوسط في الأمور كلها، والدين وسط ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] هذا هو السبيل الصحيح، وهو طريقة الرسول ﷺ.

فلا يتقالّ الإنسانُ المسلم عمل الرسول ﷺ؛ لأنه ﷺ هو القُدوة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فهذا ليس تساهلًا ولا غلوًّا، ولكنه توسط، لا إفراط ولا تفريط، ودين الله بين الغالي والجافي، الغالي المتشدد، والجافي المنحل الذي يقول: إن الدين ليس بالصلاة والعبادة، الدين بالقلب. ويترك الأعمال، هذا جافٍ. وكذلك الذي يتشدد في العبادات ويشق على نفسه، فهو غالٍ.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٥٠٦٣)، ومسلم رقم (١٤٠١).

فتأملْ، إذا كان بعض الصحابة لما أرادوا التبتل للعبادة، قيل فيه هذا الكلام الغليظ، فسُمِّي فِعله رُغُوبًا عن السُّنة، فما ظنك بغير هذا من البدع، وما ظنك بغير الصحابة؟! [٥٧]

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

والدين هو الوسط والاعتدال، قال الله ﷻ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ﴾ [هود: ١١٢] الطغيان هنا التشدد والغلو، والعياذ بالله.

[٥٧] إذا كان هؤلاء صحابة، والصحابة هم خير القرون، ولمّا هموا بهذه الهَمة، أنكر عليهم النبي ﷺ، وغَلَّظ عليهم وهم صحابة، فكيف بغيرهم من متأخري القرون الذين تجاوزوا الحدود في الغلو والتطرف، أو في التساهل والميوعة؟!

فدين الله ﷻ وسط واعتدال وصراط مستقيم، ليس فيه مشقة على النفوس، وليس فيه تساهل وضياع، وإنما هو دين سمح ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨] فالله ﷻ لا يريد أن يجعل عليكم من حرج.

فالدين ليس فيه حرج ولا تشدد ولا غلو، كما أنه ليس فيه تساهل.

وإنما هو وسط بين الطرفين، هذه ملة محمد ﷺ، الاعتدال دائمًا وأبدًا.

ولا يبقى الإنسان على الدين إلَّا بهذه الطريقة؛ لأنه إذا تساهل خرج من الدين، وإذا تشدد خرج من الدين أيضًا، ولا يَثبت إلَّا إذا كان على الوسطية والاعتدال.

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

باب قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. [٥٨]

[٥٨] باب قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠- ٣٢].

يأمر الله ﷻ نبيه بهذه الأمور في هذه الآية الكريمة. والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يريد بذلك أن يَذكر ما جاء في تفسير هذه الآية الكريمة من الأحاديث النبوية والآثار المروية.

يأمر الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [الروم: ٣٠] أي: أَخْلِصْ عملك. فإقامة الوجه وإسلام الوجه معناه: إخلاص العمل، كما قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، يعني: أَخْلَصَ عمله من الشرك ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للرسول ﷺ، وأَخْلَصَ عمله أيضًا من البدع والمحدثات. فإذا اجتمع هذان الشرطان - الإخلاص لله بالنية، والاتباع للرسول ﷺ في العمل - انتفى عن العمل الشرك، وانتفى عنه الابتداع في الدين.

هذا هو الذي يقبله الله ﷻ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾ [الروم: ٣٠]. الدِّين الذي أمرك الله به، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والدين هو التوحيد، وهو العمل، وهو الصلاة والصيام، وجميع ما شرعه الله من العبادات، فهذا هو الدين. ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ هذا وصف للدين، أي: المعتدل، الذي ليس فيه غلو، وليس فيه تساهل، بل هو دين قَيِّم معتدل بين طرفي الإفراط والتفريط، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] مستقيمًا، يعني: معتدلًا بين الإفراط والتفريط، وبين الغلو والجفاء. هذا هو الدين الذي بَعث الله به رسله، وخاتمهم محمد ﷺ.

فقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] والحنيف معناه: المقبل على الله، المعرض عمّا سواه، وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]. والحنيف والقيِّم معناهما واحد، وهو المقبل على الله، المُعْرِض عما سواه، فلا يدعو أحدًا مع الله.

ثم قال ﷻ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] أي: أن هذا الدين وهذا الإسلام هو الفطرة التي خَلَق الله الناس عليها، فالفطرة هي دين الإسلام، كما قال ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١).

فالأصل في الإنسان أنه مسلم، وأنه مفطور على الإسلام، وهو إخلاص الدين لله ﷻ. هذا هو الأصل فيه.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٣٥٩)، ومسلم رقم (٢٦٥٨).

فإذا انحرف، فالانحراف طارئ عليه بسبب التربية السيئة التي يربيه عليها والداه.

« **يُهَوِّدَانِهِ** »: يجعلانه يهوديًّا، « **أَوْ يُنَصِّرَانِهِ** »: يجعلانه نصرانيًّا، « **أَوْ يُمَجِّسَانِهِ** »: يجعلانه مجوسيًّا. فوالداه يغيران فطرته التي فطره الله عليها. ويدل هذا على أن الإنسان مفطور على الإسلام في الأصل، وهو إخلاص العمل والعبودية لله ﷻ. ولو سَلِم من التربية السيئة والوالدين الكافرَين لاتجه إلى دين الإسلام واتبع الرسل، ولكنه ينحرف بسبب الدعاة إلى الضلال.

ثم قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] لا أحد يخلق إنسانًا على الشرك أبدًا، ولا يستطيع أحد أن يخلق إنسانًا على الشرك، بل الله خلقه على التوحيد، ولا أحد يستطيع أن يغير هذا الخلق. وإنما يُغيِّر المخلوق، ليس هناك إنسان يَخلق إلَّا على دين الإسلام.

ولهذا جاء في الحديث: « **فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟** »(١) أي: كالشاة التي تولد، تولد كاملة الخلقة، سليمة الأطراف، سليمة من العيوب، لها أُذُنان، ثم أهلها يجدعونها، يعني: يشقون أذنها، فلا توجد شاة تولد مشقوقة الأذن، بل تُخلق كاملة الخلقة، ثم أهلها يجدعونها، أي يشقون أذنيها، يُغيِّرونها بعد الخلق، يغيرون المخلوق، ولا يغيرون الخلق أبدًا، فخلق الله لا يتغير.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٣٨٥)، ومسلم رقم (٢٦٥٨).

فالشاة تولد كاملة بآذانها وقرونها وأظلافها وأطرافها، فإن حصل لها عَرَج أو جَدَع في قرنها أو أذنها، فإن هذا من تصرف الإنسان، هكذا ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] التبديل إنما هو للمخلوق، وأما الخلق فخاص بالله ﷿، لا أحد يتدخل في ذلك.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] ذلك الذي أوحاه الله إليك، وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة، وترك عبادة ما سواه ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]

أي: المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه، لا غلو ولا جفاء، لا إفراط ولا تفريط.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] يجهلون هذا الدين؛ ولذلك يقعون فيما يقعون فيه من الضلال والانحراف، وإلا فالدين قَيِّم مستقيم، وإن حصل انحراف فهو من تصرف الناس.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٣٠] انظر إلى قوله: ﴿أَكْثَرَ﴾ [الروم: ٣٠] فهو يفيد أنه لا يُحتج بالكثرة إذا كانت على ضلال وعلى خطأ. وإنما يُحتج بمن كان على الحق ولو كان قليلًا، ولا يُحتج بمن كان على الباطل ولو كان عددهم كثيرًا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] لا يعلمون الدين القيم؛ ولذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من الإخلال بهذا الدين والانحراف عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. **[٥٩]**

---

[٥٩] ووَصَّى بها - أي: بكلمة التوحيد - إبراهيمُ عليه السلام بنيه إسماعيل وإسحاق. ويعقوبُ - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، الذي هو إسرائيل - وَصَّى بها بنيه أيضًا، وصاهم بكلمة التوحيد، كلمة الإخلاص لله عز وجل.

والتوصية معناها: أن المُوصِي عند موته يوصي ذريته أو مَن حوله بتقوى الله عز وجل.

والوصية عند الفقهاء: الإذن بالتصرف بعد الموت. هذه الوصية.

وتكون بالأموال. وتكون في الدين، وذلك بالحث على التمسك بالدين، فإبراهيم ويعقوب - إبراهيم الذي هو أبو الأنبياء، ويعقوب الذي هو أبو بني إسرائيل - كلاهما أوصى ذريته بكلمة التوحيد، والإخلاص لله عز وجل والدين الحق.

وهكذا يجب على الوالد أن يربي أولاده على طاعة الله، وأن يوصيهم - إذا حضره الموت - بالثبات على الدين والبقاء على التوحيد. وهذا من حرص الأبوين الكريمين - إبراهيم ويعقوب - على ذريتهما.

﴿يَٰبَنِيَّ﴾ [البقرة: ١٣٢] هذا نداء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي: اختار التوحيد لكم؛ لأنهم أولاد الأنبياء ومن ذرية الأنبياء، فهم أَوْلى أن يتمسكوا بهذا الدين، وأن يكونوا قدوة للناس ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. هذه وصية بالتمسك بالدين إلى الممات،

وذلك بالعمل به، والثبات عليه، والحذر مما يخالفه من البدع والشرك والدعوة إلى الضلال. فما دام الإنسان على قيد الحياة فإنه عُرضة للانحراف، واتباع دعاة الضلال إن لم يثبته الله ﷻ. **وهذا فيه دليل على**: أن العبرة بالخاتمة ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مسلمون لله بالتوحيد.

فالإسلام يراد به التوحيد، وهو دين جميع الرسل، وكل الرسل جاءوا بالتوحيد، وهو إسلام الوجه لله ﷻ والإخلاص، والابتعاد عن الشرك.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا حث على الثبات على هذا الدين، وعدم الالتفات إلى ما خالفه. وفيه أن العبرة بالخواتيم، وأن الإنسان بحَسَب ما يُختم له من خير أو شر.

وفي الحديث الصحيح: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا**»(١).

العبرة بالخاتمة التي يموت الإنسان عليها، ولكن على الإنسان أن يعمل أعمالًا تكون سببًا لحسن الخاتمة،

ويبتعد عن الأعمال التي تكون سببًا لسوء الخاتمة. والأعمال كثيرة.

والإنسان ما دام على قيد الحياة فهو مُعرَّض للانحراف والفتنة، وقد ينحرف ويموت على غير الإسلام.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٥٩٤)، ومسلم رقم (٢٦٤٣).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. **[٦٠]**

هذا الحديث فيه الحث على دين الإسلام والثبات عليه، وسؤال الله ﷻ حسن الخاتمة.

[٦٠] ذكر الله ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠- ١٢١].

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ يعني قدوة ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ القنوت: المراد به المداومة على طاعة الله، أي: مداومًا على طاعة الله ﴿حَنِيفًا﴾ يعني: مقبلًا على الله في عبادته، مُعْرِضًا عن عبادة ما سواه ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كان بريئًا من المشركين، أي: تبرَّأ منهم، كما تَبرَّأ من أبيه وقومه ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾ شاكرًا لأنعم ربه ﷻ؛ لأن الله ذَكَر في هذه السورة «سورة النحل» النِّعم وعَدَّدها؛ ولذلك تُسمَّى سورة النحل بسورة النِّعم؛ لأن الله عَدَّد فيها النعم ليشكرها العباد، وذَكَر عن إبراهيم عليه السلام أنه كان شاكرًا لأنعم الله ﷻ.

وشُكْر النعمة: هو التحدث بها ظاهرًا، والاعتراف بها باطنًا، وصَرْفها في طاعة مُسْديها ومُولِيها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ هذا خطاب لنبينا محمد ﷺ ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ [النحل: ١٢٣] ولما وَصَف الله إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات العظيمة التي ذُكِرت، أَمَر نبيه محمدًا ﷺ أن يتبع ملته.

أي: دينه، ودين محمد ﷺ هو دين إبراهيم، وهو دين الحنيفية السمحة، دين التوحيد والعبادة والإخلاص لله ﷻ.

وعن ابن مسعود ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وَلِيِّي أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَخَلِيلُ رَبِّي» ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] **رواه الترمذي(١). [٦١]**

---

[٦١] فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتولى بعضهم بعضًا بالمحبة والاقتداء والاتباع، فهم سلسلة واحدة من أولهم إلى آخرهم، يُبشِّر أولهم بآخرهم، ويقتدي آخرهم بأولهم، ويَتَّبع بعضهم بعضًا. هكذا هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونبينا محمد ﷺ هو أَوْلى الناس بإبراهيم.

وهذا رَدٌّ على اليهود والنصارى، فاليهود يقولون: كان إبراهيم يهوديًّا. والنصارى يقولون: كان إبراهيم نصرانيًّا. والله رد عليهم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧ - ٦٨] وأنتم أيها النصارى، لم تتبعوه، فأنتم بعيدون عنه. فالنصارى يعبدون الصليب. واليهود يعبدون عُزَيْرًا، ويقولون: عُزير ابن الله. ويعبدون العجل كما ذكر الله تعالى عنهم، ويعبدون شهواتهم. هكذا هو دين اليهود.

فإبراهيم بريء منهم، بريء من اليهود والنصارى، وهو لم يتبعوا إبراهيم ﷺ، فهم بعيدون عنه، إنما أقرب الناس إلى إبراهيم ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]من اليهود والنصارى لا الذين خالفوه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨] وهو محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢٩٩٥).

فالله وليهم، ينصرهم ويؤيدهم ويحبهم ويتولاهم، فهو ولي المؤمنين خاصة، ولاية نصر وتأييد وحفظ وإعانة. وهناك ولاية عامة لجميع الخلق، قال تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [يونس: ٣٠]يعني ربهم ومالكهم، والمتصرف فيهم، هذه ولاية عامة، لجميع الخلق، بمعنى المِلْك والتدبير والرزق. أما الولاية الخاصة، فهي للمؤمنين الذين اتبعوا إبراهيم ﷺ، وأولاهم بذلك هذا النبي محمد ﷺ وأمته.

فهذا فيه: رَدٌّ على اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم على دين إبراهيم! وهم كذبة، ليسوا على دين إبراهيم ﷺ، وإنما هم على الشرك ودين الانحراف والتغيير والتبديل.

هذا فيه دليل على: أنه لا يكون وليًّا للنبي ﷺ إلَّا مَن اتبعه، ليس هناك وليٌّ للنبي ﷺ ولا لإبراهيم إلَّا مَن اتبعهما.

والذين يزعمون أنهم يحبون محمدًا ﷺ، وهم يخالفونه ويُحْدِثون البدع والمحدثات، ويزعمون أنهم يحبون النبي ﷺ، هذا كذب!!

لو كانوا يحبون النبي ﷺ، لاتبعوه وتركوا البدع والمحدثات والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان!

فالذي يحب النبي ﷺ حقيقة هو الذي يتبعه، وهم الذين ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

العبرة بالاتباع وليست بالدعوى! والدعوى إذا لم يكن عليها دليل فهي باطلة.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»(١). [٦٢].

ولهما عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، وَلَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ، حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمْ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي، يَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»(٢). [٦٣]

---

[٦٢] **هذا فيه**: أن العبرة ليست بالمظاهر وصور الأجسام وجمالها، ولا في كثرة الأموال والثروات والغنى؛ وإنما النظر إلى شيئين، هما: القلوب والأعمال.

فإذا كانت القلوب صحيحة سليمة مخلصة لله ﷻ، وكانت الأعمال مستقيمة على شرع الله ودينه، فهذا الذي ينظر الله إليه ويتقبله ويثيب عليه.

أما مجرد جمال الصورة وكثرة الثروة، فهذا ليس عند الله له اعتبار، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

فهؤلاء هم الذين يَنظر الله إليهم نظر اعتبار وقَبول ورحمة.

[٦٣] في هذا الحديث يقول ﷺ: **«أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ»** **الفَرَط**: هو الذي يَسبق إلى الماء ليسقي قومه.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٧٠٤٩)، ومسلم رقم (٢٢٩٧).

فالنبي ﷺ يوم القيامة يكون على حوض، طوله مسافة شهر، وعرضه مسافة شهر، ماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل، وآنيته عدد نجوم السماء، مَن يشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا.

تَرِد الأمة يوم القيامة على حوض النبي ﷺ، وهو عِطاش من شدة الحر وطول المُقام، وهم بحاجة إلى الماء.

فيسقيهم ﷺ بيده، إلَّا مَن كان قد غَيَّر دينه، فإنه يُصْرَف عن الحوض، فيقول النبي ﷺ: «**أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي**»، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك! يعني: ما غَيَّروا.

فهذا فيه دليل على: أن مَن ابتدع في دين الله وغَيَّر، فإنه لا يَرِد الحوض على النبي ﷺ.

ولا يَرِده إلَّا أهل التوحيد والاتباع، أهل التوحيد لله ﷻ، والاتباع للرسول ﷺ، الذين لم يبدلوا ولم يُغيِّروا، بل كانوا كما تركهم ﷺ على البيضاء، ليلها كنهارها، وهؤلاء هم الذين يَرِدون الحوض، ويشربون منه، يسقيهم رسول الله ﷺ منه.

وأما مَن غَيَّر وبَدَّل فإنه وإن انتسب إلى الإسلام وإلى اتباع الرسول ﷺ، فإنه في هذا الموقف يُصرف عن الحوض.

فهذا فيه: التحذير من البدع والانحراف والتغيير في دين الله والضلال.

وفيه: الحث على التمسك بالدين الصحيح، والثبات عليه والصبر عليه إلى الموت، حتى يَرِد على النبي ﷺ، وحتى يشرب من حوضه.

والاختلاج: الأخذ بسرعة والمنع والطرد. يُطْرَدون عن الورود.

وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ» قَالُوا: فَكَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ فَأُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا»[1]. [٦٤]

---

[٦٤] هذا مِثْل الحديث الذي قبله، في أن أمة محمد ﷺ هم الذين لم يُبدِّلوا ولم يُغيِّروا.

يأتون ولهم سمات وعلامات بارزة، يعرفهم بها رسول الله ﷺ من بين الخلائق، وهي آثار الوضوء. وهذا من فضل الوضوء للصلاة وفضل الطهارة، وأن آثاره تبقى نورًا يتلألأ يوم القيامة، على أطراف المسلمين، يعرفهم النبي ﷺ من بين الخلق.

فهذا فيه: فضل الوضوء، وفيه علامة هذه الأمة يوم القيامة من بين الأمم.

وفيه: أن أناسًا يذادون عن الحوض، يأتون مع الوُرَّاد إلى الحوض بصفة أنهم يَدَّعون الإسلام، لكنهم يُمنعون ويذادون كما يذاد البعير الضال، يُمنعون من الوصول إلى الحوض، فيسأل النبي ﷺ: لماذا؟

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٢٤٩).

فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك! فيقول ﷺ: «**سُحْقًا سُحْقًا**» لمن بَدَّل وغَيَّر، أو كما قال ﷺ.

هذا مِثْل الحديث الأول، إلَّا أن فيه زيادة أن النبي ﷺ يعرف أمته بسِيما الغُرَّة والتحجيل من آثار الوضوء.

وأول الحديث فيه أن النبي ﷺ، قال: «**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**» يتمنى ﷺ أن يرى إخوانه من المؤمنين الذين يأتون من بعده. قال الصحابة رضوان الله عليهم: أوَلسنا إخوانك؟! قال: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي**».

هذه خاصة في الذين صَحِبوا النبي ﷺ، الذين لَقُوا النبي ﷺ وآمنوا به، هؤلاء يقال لهم: الصحابة. ولهم فضل عظيم، وهم خير القرون.

والإخوان هم الذين يأتون في آخر الزمان، ويَتَّبعون هذا الرسول ﷺ، مع ما بينهما من طول الزمان.

فهذا فيه: الفضل العظيم في آخر هذه الأمة التي تتمسك بدين الرسول ﷺ وهي لم تره. الصحابة رأوا النبي ﷺ، وجالسوه وجاهدوا معه. لكن يأتي أناس لم يَرَوا النبي ﷺ، ولكنهم يؤمنون به وهم لم يروه، يؤمنون به بموجب كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يصدقون به. وهذه فضيلة عظيمة.

فالصحابة لهم فضل الصحبة، وهؤلاء لهم فضل التمسك والاتباع وهم لم يروا النبي ﷺ. كلٌّ له فضيلة خاصة به.

وللبخاري: «بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ، فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى. ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ» فذَكَر مثله، قال: «فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ»(١). [٦٥]

---

[٦٥] هذا مِثْل الحديث السابق، أنه ﷺ يكون في خلق كثير يوم القيامة، ثم يُنادَون إلى النار من عند الرسول ﷺ، فيَسأل الرسول: لماذا؟ قالوا: إنهم لا يزالون مرتدين من بعدك.

هذا فيه: أن مَن ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، فإنه سيَلقى هذا المصير، إلَّا إذا تاب إلى الله قبل الموت.

فهذا مما يؤكد على الإنسان أن يَعرف نواقض الإسلام ويتجنبها؛ لئلا يكون مع هؤلاء الناس يوم القيامة، وهو يزعم أنه مسلم.

قد يعيش الإنسان مرتدًّا ويزعم أنه مسلم، لماذا؟ لأنه يعيش على ناقض من نواقض الإسلام. ونواقض الإسلام كثيرة، وأسباب الردة كثيرة، يجب العناية بمعرفتها، وسؤال الله الثبات على الدين.

فلا يكفي مجرد الانتساب، أو أن يكون الإنسان إِمَّعة مع الناس، أساءوا أو أحسنوا. بل لا بد أن يَعرف الحق لأجل أن يعمل به، ويسأل الله الثبات.

فهذا فيه: أن مَن ارتد عن دين الإسلام فإنه يكون من أهل النار، ولو كان في أول أمره من هذه الأمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٥٨٧).

ولهما(١) **من حديث ابن عباس** رضي الله عنهما: «**فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ**: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧ - ١١٨]». **[٦٦]**

مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

لذلك يجب علينا أن نعرف ما هي أنواع الردة، وما هي نواقض الإسلام حتى نتجنبها.

وأكثر الناس هَمَلٌ، لا يدرون ولا يَعرفون نواقض الإسلام، ويقعون فيها وهم لا يدرون؛ بسبب الجهل الذي لا يُعذَرون به؛ لأنه لا يُعذَر في الجهل مَن كان يعيش بين العلماء وفي بلاد الإسلام؛ لأنه بإمكانه أن يَسأل وأن يتعلم، ويحرص على التعلم. أما الذي لا يبالي، فإنه لا يهتم بالعلم ولا بالتعلم، ويكتفي بمسمى الإسلام فقط، ويجاري الناس على ما هم عليه، ثم يوم القيامة يصبح مع الخاسرين.

فهذا فيه: الحث على معرفة نواقض الإسلام حتى يتجنبها المسلم؛ لئلا يكون مع هؤلاء يوم القيامة.

[٦٦] يقول ﷺ عند ذلك - أي: عند هذا المشهد الهائل، حينما يذادون إلى النار - من عند الرسول ﷺ كما قال العبد الصالح - وهو عيسى ابن مريم عليه السلام - يوم القيامة إذا قال الله له: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٥٢٦)، ومسلم رقم (٢٨٦٠).

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

هذا فيه: فضح للنصارى الذين يقولون: إن المسيح ابن الله. أو: ثالث ثلاثة. أو يقولون: إن المسيح هو الله. أو: إن الله هو المسيح ابن مريم.

يقول الله له يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] هذا تنزيه لله ﷻ من القول ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] لأن العبادة حق لله، ليست حقًّا للمسيح ولا لأمه ولا لغيرهما من المخلوقين، العبادة حق لله ﷻ: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]لأن هذا حق الله ﷻ، الألوهية والعبادة حق لله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

هذا برهان آخر على: أنه عليه السلام لم يقل هذه المقالة، أنه لو قال هذا لعلمه الله ﷻ؛ لأن الله يعلم كل شيء. فهذا دليل على أنه لم يقل هذا لهم، لأنه لو قاله لعلمه الله سبحانه وتعالى.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾ [المائدة: ١١٧]. **هذا فيه:** أن الرسول مُبلِّغ عن الله، لا يأتي بشيء من عنده، وإنما هو مبلغ عن الله ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. فصار المسيح عبدًا وليس ربًّا كما تقوله النصارى.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. في حياته عليه السلام كان يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك، لم يأمرهم بالشرك أبدًا،

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩] لا أحد يقول هذا من الأنبياء ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧٩] هذا الذي يقوله النبي ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠] من دون الله، ليس هناك نبي يأمر بهذا أبدًا ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فالنبي لا يأمر بالكفر أبدًا، ولا يُتصوَّر هذا أن النبي يدعو إلى الشرك وإلى الكفر.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] فالمسيح عليه السلام تُوفي حين رُفع.

والوفاة هنا هي القبض، فقُبِض وهو حي ﷺ، لم تفارق روحه جسده، وإنما قُبِض ﷺ بروحه وجسده ورُفِع إلى السماء ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ثم في آخر الزمان يُتوفى الوفاة الكبرى، وهي مفارقة الروح للجسد ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] هذا آخر الزمان، يموت ﷺ، ويُدفَن كما دُفن الأنبياء في القبر، في آخر الزمان.

ولهما عنه مرفوعًا: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا؟».

ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] **متفق عليه**(١)**. [٦٧]**

---

[٦٧] هذا الحديث يفسر الآية السابقة التي في أول الباب، في أن الله فَطَر الناس على الإسلام، أي: فَطَرهم على التوحيد.

فلو أنهم سَلموا من دعاة الضلال، لبقيت فطرتهم قابلة للحق ولاتبعوا الرسل. فالفطرة وحدها لا تكفي، لا بد من اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ففطرتهم صالحة، مثل التربة الطيبة الصالحة للنبات، فالتربة إذا بقيت ولم تُلوَّث تبقى صالحة. وإذا غُيِّرت وسَبِخت وعَلَتْها الملوحة والماء، فسدت وصارت غير صالحة للإنبات. كذلك الإنسان، إذا غُيِّرت فطرته فإنها لا تقبل الخير؛ لأنها انحرفت وتغيرت؛ كالتربة إذا فسدت.

وضَرَب النبي ﷺ لذلك مثلًا بالشاة الجدعاء التي قُطِعت أُذنها وكُسِر قرنها، تولد جمعاء، أي: سليمة ليست مجدوعة، كاملة القرنين والأُذنين، ثم إن أهلها هم الذين يَجْدَعونها.

وكذلك المولود، يولد على الفطرة كاملًا. فإن غُيِّرت الفطرة، فهذا من تصرف المربين الذين يحرفون الفطرة ويغيرونها؛ مثل الذين يُفسدون التربة الصالحة للبذر فلا تُنبت.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٦٥٩٩)، ومسلم رقم (٢٦٥٨).

وعن حذيفة ﵁ قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ، وَدُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» أخرجاه[1]. [٦٨]

---

[٦٨] هذا لا شك أنه مطلوب، أن تسأل عن الخير وأن تتعلم ما فيه الخير والصلاح، لكن لا تقتصر عليه، بل عليك أن تعرف ضده، عليك أن تعرف الشر، وهو ضد الخير؛ لئلا تقع فيه.

فيجب عليك: أن تتعلم الأمرين: الخير والأعمال الصالحة، وكل ما يؤدي إلى الخير من الأعمال والأقوال والعقائد. . . وغير ذلك، ولا بد أن تعرف ما يضاد ذلك وما يخالفه؛ حتى يَسْلَم لك هذا الخير؛ لأنك إذا اقتصرت على تعلم الخير، ولم تتعلم ما يخالفه ويضاده فربما أنك تقع في أشياء تذهب بهذا الخير وأنت لا تدري.

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٦٠٦)، ومسلم رقم (١٨٤٧).

فمثلًا: إذا تعلمتَ التوحيد وإفراد الله بالعبادة، فلا بد أن تتعلم ما هو الشرك الذي هو ضد التوحيد، وهو عبادة غير الله، وكيف تكون عبادة غير الله؛ لأن الإنسان قد يعبد الله ويُكثر من العبادة، ولكن لا يتجنب الشرك، خصوصًا وأن كثيرًا من الناس يقعون في الشرك، وهناك دعاة إلى الشرك، فربما أنه يقع في شيء من الشرك يظنه خيرًا لأنه لُبِّس عليه، فهذا الشرك يُبطل عمله وهو لا يدري.

فلا بد أن تتعلم الخير، وإلى جانبه تتعلم ما يضاده ويخالفه.

وهذا بخلاف ما ينادي به اليوم الكثير من الجهال والمضللين والمغرضين، الذين يقولون: عَلِّموا الناس التوحيد، وعَلِّموهم الصلاة، وأفعال الخير، لكن لماذا تعلّمونهم نواقض الإسلام، والشرك، وتعلمونهم عقائد الجهمية والمعتزلة ومَن نحا نحوهم؟! لماذا لا تقتصرون على العقائد الصحيحة، وتتركون بيان العقائد الفاسدة؟!

وهذا جهل أو تضليل؛ لأنه لا يكفي تَعَلُّم العقائد الصحيحة، بل لا بد أن نعرف أيضًا العقائد الفاسدة والباطلة من أجل أن نتجنبها ونجنبها أولادنا وإخواننا. ولذلك رَدَّ العلماء على الجهمية والمعتزلة والمخالفين، وهذا شيء موجود، فلو أنهم سكتوا عن أهل الضلال ولم يَرُدوا عليهم، لراجت أفكارهم وشبهاتهم. لم يقل العلماء: نقتصر على معرفة الخير فقط. بل وعَرِّفوا الناس الشر من أجل أن يجتنبوه.

وتجد الآن في كتب العقائد - خصوصًا المُوسَّعة - بيان العقيدة الصحيحة، وبيان ما يضادها، وإيراد الشبهات التي يُدلي بها أهل الشر

من أجل الرد عليها؛ لئلا يَغتر بها مَن لا يعرفها وإن كان من أهل الخير؛ لأن الذي يجهل الشيء يوشك أن يقع فيه.

ولهذا يقول الشاعر:

عَرَفتُ الشر لا للشر لكن لِتَوَقِّيهِ ومَن لا يَعرف الشر من الخير يقعْ فيهِ

فلا بد من هذا الأمر.

وهذا حذيفة ﵁ وهو صحابي جليل، كان يسأل النبي ﷺ عن الشر، ولم ينهه الرسول ﷺ، لم يقل له: اجتنبْ هذا، ولا تسأل عنه، بل أقره الرسول ﷺ، وبَيَّن له عما سأله من الفتن، بَيَّن له ﷺ الفتن، وأن الدنيا دول: تارةً يأتي خير، وتارة يأتي شر، ويتعاقب هذا وهذا على الناس للابتلاء والامتحان.

فلا بد أن يكون المسلمون على استعداد لمقاومة الشر لئلا يَروج الشر عليهم؛ لأن الشر له دعاة حريصون على رواجه، ويزينونه بزخرف القول وبالعبارات الرنانة، ويسمونه بأسماء مغرية.

فلو لم تَعرفوا هذه الشبهات وهذه الدعوات الضالة، لأوشك أن يَروج هذا عليكم، فتَقبلونه.

فهذه هي الحكمة من أننا نتعلم الخير ونتعلم الشر، يعني نتعلم ما يضاد الخير ويخالفه حتى نَسْلَم منه.

وهذا حذيفة ﵁ في هذا الحديث الصحيح، وأقره النبي ﷺ، ولم يقل له: لماذا تسأل عن الشر؟!

فالإنسان على خطر، لا يزكي نفسه، ولا يقول: أنا عَرَفت الخير

ويكفي! بل لا بد أن يعرف هذه الأمور لخطرها ولتكررها على الناس.

والدعوة إلى الانحراف والضلال مستمرة لا تنقطع، الآن هناك من يدعو إلى مذهب الجهمية، وإلى مذهب المعتزلة، وإلى القبورية، وإلى الصوفية... وإلى غير ذلك من الدعوة إلى الانحراف.

فلو لم نتعلم الرد على هؤلاء ونعرف شبهاتهم، لراجت هذه الأمور، ولذهبت السُّنة. فلا بد من المقاومة، ولا بد من معرفة المرض، ومعرفة علاجه.

فالنبي ﷺ أخبر حذيفة رضي الله عنه بما يكون، وهذا من علامات النبوة، حيث إنه ﷺ يخبر عن الشيء قبل وقوعه؛ لأن الله أطلع رسوله على ما يكون في المستقبل؛ من أجل أن يُنبِّه الناس ويُحذِّر الناس من هذه الأمور إذا حدثت.

وقد قال ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

وقال ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»(٢).

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، وابن ماجه رقم (٤٢)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (٢٦٧٤).

كل ذلك من أجل أن يكون الناس على معرفة وبصيرة إذا حدثت هذه الأمور، فيكون عندهم استعداد لمقاومتها والتحذير منها وألا يغتروا بها.

فحذيفة ﵁ في النهاية سأل الرسول ﷺ إذا أدركه هذا، ماذا يفعل؟ قال له: «أَنْ تَلْزَم جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» هذه هي العصمة من الفتن، أي: أن تكون مع الجماعة. والنبي ﷺ يوصي بالتزام جماعة المسلمين، ويقول: «**يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ**»(١) ويقول ﷺ: «**مَنْ خَالَفَ الجَمَاعَةَ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِه**»(٢)، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وقال ﵊: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي**»(٣)، وسيأتي في الأحاديث حالة الغرباء في آخر الزمان، وما لهم من الأجر.

فملازمة جماعة المسلمين فيها العصمة. وأما مَن شذ عن جماعة المسلمين، فهو على خطأ وعلى شفير الهلاك.

عليك أن تلزم جماعة المسلمين وإمام المسلمين، يعني بالسمع والطاعة لولي أمر المسلمين. والجماعة لا تكون إلَّا بإمام، لا بد من الإمام، ولا تكون جماعة بدون إمام يقودهم ويحميهم ويدير شئونهم، فلا بد من إمام يرجعون إليه.

---

(١) أخرجه: الترمذي رقم (٢١٦٧)، والحاكم رقم (٣٩٣).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٧٥٨)، وأحمد رقم (٢١٥٦٠).

(٣) أخرجه: الحاكم رقم (٣١٩)، والبيهقي رقم (٤٦٠٦).

عليك أن تلزم جماعة المسلمين وإمام المسلمين، هذا فيه نجاة من الفتن. وهذا إذا تأملته وجدته مطابقًا لزماننا هذا، والله أعلم بما يأتي بعده.

الآن الفتن كثيرة وشديدة، والدعايات المضلة كثيرة، ووسائل نشر الشر توفرت ونَشِطت، وصار الشر يُروَّج، ويُدعى إليه، ودعاة الضلال على قدم وساق، في الفضائيات وعلى الإنترنت وفي الكتب، يروجون الشر والضلال ويحرضون على الفُرْقة والاختلاف، ويَدْعون إلى حرية الرأي، وحرية الكلمة... وما أشبه ذلك؛ يريدون أن يفككوا أوصال المسلمين. فإذا لم يكن عندك خبرة في هذا الأمر، وقعت في الهلاك إلَّا مَن رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فعليك أن تلزم جماعة المسلمين.

والحمد لله أنت في هذه البلاد السعودية في دولة مسلمة ومع جماعة من المسلمين لهم إمام، هذا من نعم الله ﷻ، فنحن في نعمة عظيمة.

لكن لا تنسَوا أن الأعداء يحفرون لهذه الدولة ولهذه الجماعة، يريدون أن يزيلوها من الوجود حتى تكون مثل البلاد الأخرى، فلا يبقى أمامهم شيء يمنعهم.

فلنكن على حذر من هذا! ألم يجندوا من أبنائنا مَن يُفجِّرون؟ مَن ينتحرون؟ فما الغرض من هذا؟ الغرض من هذا إشعال نار الفتنة وتفريق هذه الجماعة، وإزالة هذه النعمة، هذا هو الغرض الذي يريدونه، يُسمون هذا بالجهاد، يُسمُّونه استشهادًا في سبيل الله. هذا من زخرف القول والترويج للباطل.

فهذه أمور عَلَّمَنا النبي ﷺ وحَذَّرنا منها قبل وقوعها، كلما حدث شيء من هذا يكون عندنا منه خبر ومعرفة، وكيف نقاومه وكيف نَسْلَم من شره.

فالرسول ﷺ أرشد إلى أن السلامة من الفتن إذا حدثت تكون بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وما دام المسلمون على طريقة صحيحة وعلى سبيل الهدى فكن معهم. فإذا خرجت عن ذلك، فأنت متوعَّد بأن يُصْلِيك الله جهنم وساءت مصيرًا.

قال حذيفة: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ ماذا أفعل؟ إلى أين ألجأ، أين أذهب؟ قَالَ «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا**»[1] لا تدخل مع هذه الفِرَق ومع هذه الجماعات الضالة، لا تنخدع بها، ابْقَ وحدك، وتمسكْ بكتاب ربك وسُنة نبيك ولو أنك وحدك، اعتزل تلك الفِرَق كلها «**وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[2].

الحاصل أن هذا فيه التحذير من اتباع الفِرَق الضالة المنحرفة. فإن وَجْدَتَ جماعة للمسلمين وإمامًا لهم فكن معهم، فإن لم تجد فعليك أن تعتزل هذه الفِرَق كلها.

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٦٠٦)، ومسلم رقم (١٨٤٧).
(٢) أخرجه: البخاري رقم (٣٦٠٦)، ومسلم رقم (١٨٤٧).

وذكر ﷺ **فيما ذكر** أنه تكون فتنة عمياء، شديدة - والعياذ بالله - مُظْلِمة، ودعاة على أبواب جهنم، من أطاعهم قذفوه فيها، لا يقولون لهم: تعالَوا إلى جهنم، تعالَوا إلى النار. يقولون: تعالَوا إلى الجنة وإلى الخير، نحن مجاهدون، نحن ندعو إلى الله. لكنهم في الواقع دعاة إلى جهنم، مَن أطاعهم قذفوه فيها.

قال حذيفة رضي الله عنه: صِفْهُمْ لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»(١)، لا يأتون من الخارج أو من الدول الأجنبية، هم من أبنائنا، ويتكلمون بألسنتنا، أي باللغة العربية لأنهم منا. وهذا أشد! لو كان الداعية إلى الضلال قادمًا من الخارج أو من دول كافرة، عرفه الناس ولم يثقوا به. ولكن المشكلة إذا كان من أبناء المسلمين، ويتكلم باللغة الفصحى، لغة العرب! فعند ذلك تعظم المصيبة.

هذا تفصيل من الرسول ﷺ واضح، وفيه تحذير من هذه الفتن وهذه الشرور، وأن تلزم ما عليه جماعة المسلمين وإمامَهم، ولا تَلتفت إلى هذه الفتن ودعاتها، ولكن احذر منها، فإذا كان هناك جماعات متعددة وهنا جماعة على الحق، فكن مع الجماعة التي على الحق؛ ولهذا قال ﷺ: «**تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قِيلَ: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»(٢) هذه الفرقة الناجية، واثنتان وسبعون فرقة كلها في النار،

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٣٦٠٦)، ومسلم رقم (١٨٤٧).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٤١)، والحاكم رقم (٤٤٤)، والطبراني في الكبير رقم (٦٢).

وزاد أبو داود: قلت: ثم ماذا؟ قال: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ، فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ، وَجَبَ أَجْرُهُ، وَحُطَّ وِزْرُهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ، وَجَبَ وِزْرُهُ، وَحُطَّ أَجْرُهُ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ»(١). [٦٩]

وواحدة هي الناجية، وهي الثالثة والسبعون، واحدة فقط، وهذه الواحدة هي ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، هي الناجية. فإذا كنت تريد النجاة فابْقَ مع هذه الفرقة ولا تغتر ببقية الفِرَق.

[٦٩] من الفتن الشديدة ظهور المسيح الدجال في آخر الزمان، وخروجه من علامات الساعة الكبرى.

وسُمي بالدجال، من الدَّجَل وهو الكذب؛ لكثرة كذبه.

وهذا الرجل يَظهر في اليهود، وهو المهدي الذي ينتظره اليهود، يخرج فيهم ومعه فتنة عظيمة، معه صورة جنة وصورة نار، فالنار التي معه هي الجنة، والجنة التي معه هي النار.

هذا دليل على: أن الإنسان يجب عليه أن لا يغتر بالزخرف! فهذا الدجال يُصوِّر أن ما معه جنة وهو في الحقيقة نار، ويُصوِّر ما معه بأنه نار وهو جنة.

فهذا فيه التحذير من السحرة المشعوذين الذين يسمون سحرهم السيرك أو الفن، وهو السِّحر التخييلي المسمى بـ «القمرة».

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٢٤٤).

قال أبو العالية: تَعَلَّموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا تَرْغَبوا عنه. وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تتحرفوا عن الصراط يمينًا ولا شمالًا. وعليكم بسُنة نبيكم، وإياكم وهذه الأهواءَ. [٧٠]

وفيه التحذير من الدعايات المضللة، وأن لا يزهد الإنسان في الحق، ولو أن الحق لُبِّس عليه ووُصف بالتأخر والرجعية والجمود وكذا وكذا. الحق هو الحق، والباطل هو الباطل ولو وُصف بالتقدم والحضارة والرقي، هو باطل.

الدجال يأتي في آخر الزمان، معه فتن عظيمة، ويغتر به كثير من الناس وينخدعون بما معه من الفتن، ولا يَسْلَم من شره إلَّا القليل.

ولهذا كان النبي ﷺ والأنبياء كلهم يُحذِّرون من المسيح الدجال، وأشدهم تحذيرًا نبينا محمد ﷺ لقرب زمان خروجه؛ ولذلك أَمَرنا ﷺ أن نستعيذ بالله من أربع في كل صلاة، في التشهد الأخير، بأن نقول: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(١).

[٧٠] أبو العالية الرِّياحي، هو رُفَيْع بن مِهْران الرِّياحي، من أئمة التابعين، يوصي بوصايا عظيمة:

أولها - تَعَلَّموا الإسلام، أي: اعرفوا الإسلام ما هو؟ ولا يكفي أن تقول: أنا مسلم. وأنت لا تعرف الإسلام، لا بد أن تعرف ما هو الإسلام؟ وما هي أركانه؟ وما هي نواقض الإسلام؟ حتى تكون على بصيرة، أن تعرف معناه وتعريفه، وتعرف أركانه، وتعرف مكملاته

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (١٣٧٧)، ومسلم رقم (٥٨٨).

ومناقضاته ومنقصاته؛ حتى تكون على بصيرة.

وهذا فيه الحث على تعلم العلم النافع؛ لأنه هو الحياة وهو النجاة بإذن الله. **هذه واحدة.**

الثانية - فإذا تعلمتموه وعرفتموه فعليكم بالتمسك به، لا يكفي أن يكون الإنسان عالمًا، بل يجب عليه أن يعمل بعلمه. وإلا فالكثير من العلماء أهل ضلال، أي: ضَلُّوا وهم عندهم علم، فاليهود عندهم علم وقد ضَلُّوا وكفروا. فلا يكفي مجرد العلم، لا بد من التمسك بالحق والثبات والصبر عليه مع العلم، فهو «علم وعمل».

أوصى أولًا بالعلم، ثم أوصى بالعلم والثبات عليه.

الثالثة - أن تلزم الصراط المستقيم، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. فالصراط هو الطريق. والمستقيم هو المعتدل الذي ليس فيه مَيَلان وانحراف. هذا هو الصراط المستقيم، أَمَرنا الله بأن نتبعه، وأَمَرنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط، أن يعرفنا به، وأن يثبتنا عليه

أما الوصية الرابعة: فهي أنك إذا وفقك الله لمعرفة الصراط المستقيم وسِرت عليه، فلا تنسَ دعاة الضلال الذين يريدون أن يحرفوك عن الصراط المستقيم؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. والرسول ﷺ ضَرَب لهذا مثلًا.

تأَمَّلْ كلام أبي العالية هذا، ما أَجَلَّه! واعرف زمانه الذي يُحذِّر فيه من الأهواءِ التي مَن اتبعها فقد رَغِب عن الإسلام، وتفسير الإسلام بالسُّنة، وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب؛ يتبين لك معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، **وقوله:** ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، **وقوله تعالى:** ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول، والناس عنها في غفلة. [٧١]

---

[٧١] يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تأمل كلام أبي العالية هذا، وما فيه من الفوائد العظيمة!!

وزمان أبي العالية متى؟ إنه زمان التابعين، فكيف بزماننا هذا؟! أبو العالية خاف على التابعين فكيف بزماننا هذا؟! إنه أشد خطرًا.

« **وتفسير الإسلام بالسُّنة** » أي: السُّنة التي كان عليها رسول الله ﷺ.

« **وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السُّنة والكتاب** » إذا كان قد خاف على أعلام التابعين، فكيف بنا نحن؟! الخوف علينا أشد.

« **يتبين لك معنى قوله تعالى:** ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] **قال تعالى:** ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣١] ».

استجاب ﷺ لأمر الله ﷻ، وأَسْلَم نيته وقَصْده وعِلْمه لله ﷻ.

هذا هو الإسلام، الإخلاص لله ﷻ، والانقياد لله ﷻ.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، ونَقَله عنه الشيخ محمد بن عبدالوهاب في «الثلاثة الأصول»: الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

«**وقوله تعالى**: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]» وهذه وصية إبراهيم ﷺ ووصية يعقوب ﷺ، كل منهما وصى ذريته بالتمسك بالإسلام. وأنتم من ذرية إبراهيم ﷺ، فالوصية شاملة لكم ولمن يأتي بعدكم إلى أن تقوم الساعة. ووصى بها يعقوب بني إسرائيل الذين هم اليهود. فالله وصى بهذا العرب والعجم، وصّاهم جميعًا على لسان إبراهيم ويعقوب ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي: اختاره لكم، هذه نعمة عظيمة، بينما أكثر البشر على الضلال، وأنتم أَنْعَمَ الله عليكم بهذا الدين العظيم، وبَعَث إليكم هذا الرسول الكريم محمدًا ﷺ، أفضل الرسل، ودينكم أفضل الأديان، هذه نعمة عظيمة.

﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] هذه هي المهمة، ومعناه أن تَثبت على هذا الدين حتى يأتيك الموت، فإذا جاءك الموت وأنت على هذا الدين فأنت من السعداء. أما إن جاءك الموت وأنت منحرف عن هذا الدين، فأنت من الأشقياء، فالعبرة بالخاتمة التي تموت عليها ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي: اثبتوا.

هذا فيه الحث على الثبات على الدين حتى يأتيك الموت وأنت عليه، لا تتركه أبدًا.

«**وقوله تعالى**: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]».

﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾: استفهام إنكار، أي: لا يَرغب أحد، يعني لا يترك أحد ملة إبراهيم، إن كان يريد النجاة لنفسه فلا يَترك ملة إبراهيم التي بُعث بها نبينا محمد ﷺ.

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] **السَّفَه** معناه: خفة العقل وضياعه. فمَن تَرَك ملة إبراهيم فقد خسر نفسه وأهلكها. وأَعَزُّ شيء عند الإنسان نفسُه، فإذا خسر نفسه خسر أعز شيء عنده ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥] فكيف يخسر الإنسان نفسه؟ إذا ترك ملة إبراهيم خسر نفسه.

«**وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول، والناس عنها في غفلة**» أشباه هذه النصوص وهذه الآثار التي فيها هذه الوصايا العظيمة. وأكثر الناس في غفلة عنها، لا يقرءونها ولا يتعلمونها، وإذا تَعَلَّموها فقليل مَن يعمل بها، وإذا عَمِلوا بها فقليلٌ مَن يَثبت عليها.

فالأمر يحتاج إلى استعانة بالله ﷻ وإلى اهتمام، ولا يثق الإنسان بنفسه ويأمن من الفتن، بل يخاف من الفتن ويتجنبها، ولا يكون إمعة مع الناس، بل يكون مع الحق دائمًا وأبدًا، فإذا بلغه شيء فإنه يَعرضه على الحق: فإن وافقه فالحمد لله، وإن خالفه فإنه يتركه.

وبمعرفته تَبَيَّن معنى الأحاديث في هذا الباب وأمثالها، وأن الإنسان الذي يقرؤها وأشباهها وهو آمنٌ مطمئن أنها لا تناله ويظنها في قوم كانوا فبادوا ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. **[٧٢]**

---

[٧٢] الذي يقرأ هذه النصوص وأمثالها ويتفقه بها ويعمل بها يكون على طريق النجاة، طريق السلامة.

وأما الذي لا يلتفت إليها، أو يقرؤها ولكن لا يتأملها ولا يتفقه فيها، أو يأمن على نفسه من الفتن والانحراف؛ فهذا حَرِيٌّ أن يكون مع الهالكين؛ لأنه لم يأخذ بأسباب النجاة.

وعلى الإنسان أن لا يغتر بنفسه، ولا بعلمه، ولا يغتر بدينه؛ لأن الإنسان بشر، وهو عُرضة للفتن، والإنسان ضعيف؛ ولهذا كان نبينا ﷺ يُكثر من قوله: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١).

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧ - ٨] الراسخون في العلم يخافون من الزيغ؛ لذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٢٦١٣٣)، والآجري في الشريعة رقم (٧٣٣).

فالإنسان يكون على خوف، وإذا خاف فإنه يبحث عن النجاة. أما إذا أَمِن فإنه يقع في الهلاك وهو لا يدري.

قال الله ﷻ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] فالله ﷻ يمكر بأهل الشر، بمعنى أنه يستدرجهم عقوبة لهم، فمَكْره ﷻ بحق، وهو إيصال العقوبة إلى من يستحقها بطريق خفي لا يتنبه له. وهو من الله محمود؛ لأنه جزاء وعدل، لا يمكر بأحد إلَّا وهو يستحق، لا يمكر بالصالحين، إنما يمكر بأهل الشر ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والجزاء من جنس العمل، فلما مكروا بعباد الله، ومكروا بالرسول ﷺ، يريدون قتله أو سَجْنه أو طرده؛ مَكَر الله لرسوله، وأخرجه من بينهم وهم لا يشعرون، وخرج ﷺ إلى الغار واختفى فيه. ولما انقطع الطلب، ذهب إلى المدينة، ووجد الأنصار والمسلمين، وقامت دولة الإسلام. فالله مَكَر بالكفرة من حيث لا يشعرون.

وعن ابن مسعود ﷺ، قال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] **رواه أحمد والنسائي[١]. [٧٣]**

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

[٧٣] يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

وقد فَسَّر الرسول ﷺ هذا بمثال محسوس، بأن خَطَّ خطًّا مستقيمًا، وخَطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، فقال عن المستقيم: «**هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ**»، وقال عن بقية الخطوط: «**هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**».

وهذا يُذَكِّرنا بالدعاة الذين مر ذكرهم في حديث حذيفة «**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ**»[٢] هم هؤلاء، على كل سبيل شيطان منهم يدعو إليه، ليُخرج الناس من الصراط المستقيم إلى هذه السبل، هؤلاء هم دعاة الضلال، هم الذين من جِلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا.

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٤١٤٢)، والنسائي في الكبرى (١١١٠٩).

(٢) أخرجه: البخاري رقم (٣٦٠٦)، ومسلم رقم (١٨٤٧).

باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ﴾ الآية [هود: ١١٦]. **[٧٤]**

---

[٧٤] بدأ الإسلام غريبًا، فأول ما قام الرسول ﷺ بمكة لما بعثه الله وقال له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢] قام وحده ﷺ، ثم انضم إليه أبو بكر الصِّديق، وبلال؛ ولهذا لما سُئل ﷺ: «**مَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ؟**» قال ﷺ: «**حُرٌّ، وَعَبْدٌ**»[(١)] ما معه إلَّا اثنان فقط، ثم تتابع المسلمون واحدًا واحدًا، وهو على خوف وامتحان وابتلاء، وتَكوَّن معه ﷺ جماعة في مكة، وهم يؤذَون ويُبتلَون، إلى أن أَذِن الله لهم بالهجرة إلى المدينة.

هذا معنى قوله: «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا**»[(٢)]، والغريب هو النادر، وهو الإنسان الذي يكون في بلد غير بلده، أو يكون مع أناس ليسوا من جنسه، كما قال ﷺ لابن عمر: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[(٣)] فالغربة: هي الشيء النادر، وكذلك الغريب الشيء النادر القليل.

فالإسلام بدأ أول الأمر غريبًا، يعني قليلًا أهله، ثم تكاثروا، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٨٣٢).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (١٤٥).

(٣) أخرجه: البخاري رقم (٦٤١٦).

عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ [الفتح: ٢٩] فالزرع أول ما يظهر يكون ضعيفًا قليلًا، ثم ينمو ويصبح له فراخ، والحبة الواحدة يتكون منها عدة قصبات، كقوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة: ٢٦١] ﴿ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ [الفتح: ٢٩] يعني فراخه ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ [الفتح: ٢٩] يعني: قَوَّاه، فالزرعة إذا فَرَّخت تَقْوى أي: يصبح للنبتة جذع وغصون فتقوى، فمن قصبة واحدة أصبحت عدة قصبات متجاورة قوية ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: كان ضعيفًا فقوِي ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: ارتفع عليها، و «السُّوق»: جمع ساق وهي القصبات. هذا مثل الصحابة ﷺ، ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩] يغيظ بالصحابة الكفار. ومن هنا أَخَذ بعض العلماء أن مَن يَسب الصحابة يكفر؛ لقوله: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩] فقالوا: هذا دليل على أن مَن أبغض الصحابة وسبهم وتَنَقَّصهم، أنه كافر.

نعم، بدأ الإسلام غريبًا، فأول ما نشأ الإسلام كان غريبًا، وفي آخر الزمان يعود غريبًا، ويكون المتمسكون به غرباء مثلما كانوا في مكة في أول البعثة. «وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ ﴾ الآية [هود: ١١٦]» ﴿ فَلَوْلَا ﴾ معناه هَلَّا؟ أي: هَلَّا كان من القرون، يعني من الأمم من قبلكم.

لما ذَكَر سبحانه هلاك الأمم في سورة هود، قال: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [هود: ١١٦] فما هلكت هذه الأمم إلَّا لأنها لم يكن فيها مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦].

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ» رواه مسلم[(١)]. ورواه أحمد من حديث ابن مسعود ﷺ، وفيه: قيل: مَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ»[(٢)]. وفي رواية: «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»[(٣)]. ورواه أحمد من طريق سعد بن أبي وقاص، وفيه: «فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»[(٤)].

وللترمذي من حديث كَثِير بن عبد الله، عن أبيه، عن جده: «فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي»[(٥)]. [٧٥]

دل هذا على: أن مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ينجو إذا جاء العذاب. وأما الذي لا يأمر ولا ينهى، فإنه يهلك ولو كان من الصالحين، لكن يبعثه الله يوم القيامة على نيته كما جاء في الحديث[(٦)] فإذا وقع العذاب لا ينجو إلَّا الذين يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر.

فقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ [هود: ١١٦] هؤلاء هم الغرباء. هذا وجه سياق المصنف للآية في غربة الإسلام.

[٧٥] هذا خبر من الرسول ﷺ، معناه: التحذير من الضلال، والحث على التمسك بالإسلام ولو كان أهله قليلين.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٤٥).

(٢) أخرجه: أحمد رقم (٣٧٨٤).

(٣) أخرجه: أحمد رقم (١٦٦٩٠).

(٤) أخرجه: أحمد رقم (١٦٠٤).

(٥) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٣٠).

(٦) أخرجه: أحمد رقم (٢٦٧٠٢).

وقوله ﷺ: «**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**» هذا ترغيب في أن يكون المسلم مع الغرباء في آخر الزمان، ولا يُزهِّده في الإسلام قلة أهله.

و«**طُوبى**»: قيل: هي شجرة في الجنة. وقيل: هي الجنة نفسها، يقال لها: طوبى. وقيل: هي كلمة طيبة، ومنه قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

ورواه أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفيه قيل: مَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «**النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ**»(١).

«**النُّزَّاع**» جمع نَزيع ونازع، وهو الغريب الذي نَزَع عن أهله وعشيرته.

أي: الذين يخرجون عن الأوطان لإقامة سُنن الدين. والقليل مِن الناس مَن يهجر وطنه وعشيرته من أجل إعلاء كلمة الحق، ومن أجل نشر دين الله الحق - وهو الإسلام - في أرجاء المعمورة.

وفي رواية: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»(٢).

❁ يعني جاء في وصفهم ثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: النُّزَّاع من القبائل، يعني: الأفراد الذين يهجرون أوطانهم في سبيل إقامة سنن الدين. وهذا دليل على أن الإسلام في آخر الزمان سيصير غريبًا.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (٣٧٨٤).

(٢) أخرجه: أحمد رقم (١٦٦٩٠).

الوصف الثاني: الذين يَصلحون إذا فَسَد الناس. «يَصلحون» أي: يصبرون على الدين، ولا ينظرون لفساد الناس، ولا يقولون: «نحن مثل الناس، لا نصبح بين الناس منفردين، نتابع الناس، نتابع المجتمع، نتابع البلد....» لا، هؤلاء يصبرون ولو كانوا قليلين ولو خالفهم الناس، يَصلحون إذا فسد الناس، ولا يَفسدون مع الناس.

ولكن كونهم يَصلحون بين الناس هذا يحتاج إلى صبر وثبات وثقة ومعرفة.

الوصف الثالث: يُصلحون ما أفسد الناس. يعني: يكونون صالحين في أنفسهم، ويُصلحون ما أفسد الناس بالدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الخير، يُصلحون ما باستطاعتهم ولا يسكتون.

ورواه أحمد من طريق سعد بن أبي وقاص، وفيه: «**فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»[١] أي: إذا فَسَد الناس، لا يَثبت على الحق إلَّا مَن كان عنده إيمان ويقين وقوة، وإلا فإنه ينحرف مع الناس، فضعيف الإيمان أو مزعزع الإيمان أو قليل الفقه والعلم - ينجرف مع الناس.

وللترمذي من حديث كَثِير بن عبدالله، عن أبيه، عن جده: «**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي**»[٢] يُصلحون ما أفسد

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٦٠٤).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٣٠).

وعن أبي أُمية قال: سألت أبا ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه: كيف تقول في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]؟

قال: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ العَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ القَبْضِ عَلَى الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ، قِيلَ: مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ. قَالَ: بَلْ مِنْكُمْ». رواه أبو داود والترمذي[(١)]. [٧٦].

الناس، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] لم يقل: «صالحون» بل قال: ﴿مُصۡلِحُونَ﴾ يأمرون بالمعروف وينهوَن عن المنكر، وينشرون الخير.

أما إذا كانوا صالحين في أنفسهم وساكتين، فإنهم يهلكون مع الهالكين، تعمهم العقوبة في الدنيا، لكن يوم القيامة يبعثهم الله على نياتهم.

[٧٦] هذا حديث عظيم، يفسر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥].

لأنه قد يَفهم منها بعض الناس أو كثير من الناس - أنك إذا كنت صالحًا في نفسك، فلا تأمر بالمعروف ولا تَنْهَ عن المنكر. فيَفهم من

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٣٤١)، والترمذي رقم (٣٠٥٨).

الآية أن معناها: تَرْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تعتني بنفسك فقط.

وهذا خطأ، ليس هذا هو تفسير الآية، وإنما تفسير الآية هو أنه إذا فَسَد الناس فلا تفسد أنت. هذا هو المقصود من الآية، ولا تقلد الناس.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو باقٍ لا يسقط، قال ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ**»[1] فلا بد من إنكار المنكر في كل زمان إلى أن تقوم الساعة.

فليس معنى الآية تَرْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لكن معناها أنك تَصلح أنت ولا تنظر إلى فساد الناس، ومع صلاحك تأمر بالمعروف وتَنهى عن المنكر.

ولهذا يقول أبو بكر رضي الله عنه: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، **وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ**: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ**»[2].

فليس معناها إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثر الشر؛ وإنما معناها: أن على الإنسان أن لا ينجرف مع الناس.

---

(١) أخرجه: مسلم رقم (٤٩).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٣٣٨)، والترمذي رقم (٢١٦٨)، وأحمد رقم (١).

وقوله ﷺ: «**فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ القَبْضِ عَلَى الجَمْرِ**»(١) هذا في آخر الزمان، عند غربة الإسلام، يحتاج المسلم إلى الصبر، وإلا فإنه سيَلقى من الناس التعب والمشقة؛ لأنه يعيش بين أناس يخالفونه في كل شيء، فعليه بالصبر وأن لا يَزهد في الحق، ولا ينجرف مع الناس. وهذا يحتاج إلى صبر؛ لأنهم سيذمونه ويعيرونه، أو ربما يؤذونه ويضربونه أو يهددونه. ولكن عليه أن يصبر؛ حتى ولو قتلوه؛ لأنه على حق، فالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ سُحِب في الأسواق وضُرِب حتى أُغمِي عليه وسُجِن، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولم يعبأ بهذه الأمور.

وقوله ﷺ: «**لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ**»(٢).

هذه مسألة مشكلة!! فالرسول ﷺ قال: إن الذي يتمسك بالدين في آخر الزمان عند الفتن - له أجر خمسين رجلًا من الصحابة. قالوا: منا أو منهم؟ قال: «**بَلْ مِنْكُمْ**» لماذا؟ لأن الصحابة مع الرسول ﷺ، والدين عزيز في ذلك الوقت، والمسلمون كثيرون. أما هذا فهو غريب، ومع هذا تَمَسَّك بالدين ودافع عن الدين، مع أنه ليس له أنصار ولا أعوان؛ ولذلك حاز على هذا الأجر، وأصبح في هذه المسألة أفضل من الصحابة.

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٣٤١)، والترمذي رقم (٣٠٥٨).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٣٤١)، والترمذي رقم (٣٠٥٨).

وهي مسألة خاصة، والصحابة أفضل منه في أمور أخرى: في الصحبة، والجهاد في سبيل الله مع رسول الله ﷺ، وفي الهجرة، هو أفضل منهم في خصلة واحدة، وهم أفضل منه في خصال كثيرة.

فليس معنى هذا أنه يأتي في آخر الزمان مَن هو أفضل من الصحابة مطلقًا. لا، بل أفضل من الصحابة في نقطة واحدة فقط، والصحابة عندهم فضائل كثيرة، ليست عند هذا، ويقولون: «إن الفضيلة الخاصة لا تقضي على الفضيلة العامة» ينبغي معرفة هذا، فالصحابة لا أحد أفضل منهم أبدًا.

وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إِنَّ مِنْ بَعْدِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهَا الْمُتَمَسِّكُ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ - أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»(١).

ثم قال: أنبأنا محمد بن سعيد، أنبأنا أسد، قال: أنبأنا سفيان بن عيينة، عن أسلم البصري، عن سعيد بن أبي الحسن - قال: قلت لسفيان: عن النبي ﷺ؟ قال: نعم - قال: «إِنَّكُمُ الْيَوْمَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ، وَلَمْ تَظْهَرْ فِيكُمُ السَّكْرَتَانِ: سَكْرَةُ الْجَهْلِ، وَسَكْرَةُ حُبِّ الْعَيْشِ، وَسَتُحَوَّلُونَ عَنْ ذَلِكَ، فَلَا تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا تُجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ، وَتَظْهَرُ فِيكُمُ السَّكْرَتَانِ، فَالْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ» قِيلَ: مِنْهُمْ؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ»(٢). [٧٧].

---

[٧٧] ابن وضاح هو الإمام الحافظ، مُحَدِّث الأندلس، محمد بن وضاح بن بَزيع، له كتاب اسمه «الحوادث والبدع» مطبوع.

رَوَى ابن وضاح معنى حديث أبي ثعلبة الخُشَني، ولكن من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: **«إِنَّ مِنْ بَعْدِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهَا الْمُتَمَسِّكُ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ - أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»**(٣).

---

(١) أخرجه: ابن وضاح في البدع رقم (١٨٩).

(٢) أخرجه: ابن وضاح في البدع رقم (١٩٠).

(٣) أخرجه: ابن وضاح في البدع رقم (١٨٩).

هذه الأيام التي تشتد فيها غربة الإسلام، وقلة الأنصار والأعوان، وكثرة الأعداء والمُخَذِّلين والمرجفين، كما تعلمون الآن، والله أعلم يأتي زمان أشد من هذا.

فالذي يَثبت على دينه ويَثبت على جهاده ودعوته، فهذا يكون كالقابض على الجمرة. ومن شدة ما يَلقى من الناس يحتاج إلى صبر شديد.

«إِنَّ مِنْ بَعْدِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهَا الْمُتَمَسِّكُ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ - أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»(١):

«**بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**» يعني الصحابة. الذي يَثبت على الدين وعلى طريقة الرسول ﷺ وأصحابه - يكون من الفرقة الناجية. هذا معناه؛ لأنه يصبر حينما يتزلزل كثير من الناس، حينما ينجرف كثير من الناس، يصبر هو على الحق، ويصبر على مخالفة الناس ولوم الناس وذمهم، بل يصبر على ما يناله منهم في نفسه وفي جسمه، فقد يُضرب، وقد يُسجن، وقد يُقتل! يصبر؛ لأنه على الدين، فما دام على الدين وعلى الحق، فلا يهمه ما يصيبه في هذه الدنيا لأنه لحظة وينتهي.

ثم قال: أنبأنا محمد بن سعيد، أنبأنا أسد، قال: أنبأنا سفيان بن عيينة، عن أسلم البصري، عن سعيد بن أبي الحسن يرفعه: فقال: قلت لسفيان: عن النبي ﷺ؟ قال: «نعم».

---

(١) أخرجه: ابن وضاح في البدع رقم (١٨٩).

يعني: هل هذا الذي ترويه ورد عن النبي ﷺ؟ قال: نعم. يعني: ليس أثرًا عن غير النبي ﷺ، وإنما هو مرفوع للنبي ﷺ.

والسكرتان: سكرة الجهل، وسكرة حب الحياة. والجهل داء قاتل، وليت الجاهل يسكت على جهله، ولكنه جاهل يتكلم في أمور الدين ويفتي، هذه المصيبة!! أما الجاهل الذي يعترف بجهله ويَقصر شره عن الناس، فهذا أخف من الجاهل الذي يتكلم في أمور الدين ويحلل ويحرم، ويفتي، وهو على جهل.

فهذا يَحْدُث في آخر الزمان، حينما يَقِلُّ الفقهاء ويَكثر القراء، ويَتخذ الناس رؤوساء جهالًا يُفتون بغير علم، ويَضلون ويُضلون.

هذه سكرة الجهل، والثانية: حب العيش وحب الدنيا، فإذا أحب الدنيا، نَسِي الآخرة، وصار يعمل للدنيا، فالذي يحب شيئًا يعمل له، فيعمل للدنيا ولا يعمل للآخرة.

هذا يصيب كثيرًا من الناس في آخر الزمان، جَهْل وتَعَلُّق بالدنيا ونسيان للآخرة.

الآن يقولون: لا تَذكروا الجنة والنار في الخُطَب وتخوفون الناس، هذا إرهاب، وأنتم أناس متزمتون، عندكم قنوط.

يقولون هذا الآن؛ لحبهم الدنيا، ولا يريدون ذكر الجنة والنار والقبر وعذاب القبر.

يقولون: أنتم تُكدرون على الناس عيشهم ولذتهم، فالناس يريدون أن يسرحوا ويمرحوا، وأنتم تقولون لهم: هناك جنة ونار وعذاب قبر وحساب!!

وله بإسناد عن المَعافري قال: قال رسول الله ﷺ: «طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ حِينَ يُتْرَكُ، وَيَعْمَلُونَ بِسُنَّتِي يَوْمٌ تُتْرَكُ». [٧٨].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

يقولون: لا تَعرضوا هذا في الخُطَب.

فهذا من الفتن والعياذ بالله، وهذا ظهر في الناس، وكتبوه في الصحف، وقالوه في مجالسهم، وذموا الخطيب الذي يعظ الناس ويُذكرهم بالله، ويقولون: هذا تيئيس للناس وتكدير لهم. فسبحان الله!!

[٧٨] هذا كما سبق أنه ﷺ سئل: مَن الغرباء؟ فقال: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»(١)، وفي رواية: «**يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ**»(٢).

وهذا الحديث يقول فيه: «**طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ**» هم يتمسكون بأنفسهم، ويُمسكون غيرهم بكتاب الله، ويأمرون بالمعروف ويَنْهَون عن المنكر، ويعلمون دين الله، ويدعون إلى الله، ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. فلا شك أن الذي يَثبت على الدين عند الفتن والشرور

فلا شك أن الذي يَثبت على الدين عند الفتن والشرور وانقلاب الناس ضده - أن هذا يُرجى له خير كثير. لكن هذا نادر، فأكثر الناس لا يصبرون، ولو أنهم يحبون الخير لصبروا.

---

(١) أخرجه: أحمد رقم (١٦٦٩٠).

(٢) أخرجه: الترمذي رقم (٢٦٣٠).

والشيخ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ له رسالة قَيِّمة في هذا الموضوع، في مسألة الغربة، عنوانها: «كشف الكُرْبة في وصف حال أهل الغُرْبة» مطبوعة، شَرَح فيها حديث «**بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ**»[1].

✿ ✿ ✿ ✿ ✿

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٤٥).

باب التحذير من البدع [٧٩]

[٧٩] **البِدَع**: جمع بدعة، وهي: ما أُحْدِث في الدين مما ليس منه، عبادة أو ذِكر... أو غير ذلك من أمور الدين.

فالدين كامل ولله الحمد؛ لأنه ما تُوفي الرسول ﷺ إلَّا والدين كامل، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فلا يحتاج إلى أحد يأتي ويضيف إلى الدين شيئًا جديدًا، ولو كانت نيته صالحة، فلا يجوز هذا، فهذا مبتدع، ولو كانت نيته صالحة، فالدين لا يَقبل الزيادة والإضافة؛ لأن الله أكمله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

فهذه هي البدعة.

وقد قال ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢).

وقال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ**»(٣) كما سيأتي في حديث العِرْباض: «**تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»(٤)

---

(١) أخرجه: البخاري رقم (٢٦٩٧)، ومسلم رقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه: مسلم رقم (١٧١٨).

(٣) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، وابن ماجه رقم (٤٢)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

(٤) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، وابن ماجه رقم (٤٢)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

عن العرباض بن سارية ﷺ قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح. [٨٠].

ولما حث على التمسك بالسنة نهى عن البدع، فقال: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢).

وقال ﷺ: «**إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**»(٣).

فالواجب: الاتباع، وتَرْك الإحداث والاستحسانات والتقليد الأعمى للمبتدعة.

[٨٠] أَمَر الله رسوله ﷺ أن يعظ الناس، فقال: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

---

(١) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، وابن ماجه رقم (٤٢)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

(٢) أخرجه: أبو داود رقم (٤٦٠٧)، وابن ماجه رقم (٤٢)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وأحمد رقم (١٧١٤٤).

(٣) أخرجه: مسلم رقم (٨٦٧).

فاليوم لو أَتَى أحد ليعظ، يقولون: هذا مُعَقَّد، متشائم. . . لا يَفتح للناس البسمة والسرور والفرح!!

فالرسول ﷺ وَعَظ أصحابه، وفي هذا دليل على أن العالِم يعظ الناس، فقد كان ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة، يعني: يعظهم يومًا بعد يوم، لا يداوم على الوعظ، إنما يتخولهم يومًا بعد يوم، أو بعد يومين أو ما شاء الله، لا يداوم على ذلك، فيمل الناس، إنما يتخولهم.

وفي هذا الحديث قال العرباض بن سارية: « **وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ** ».

فهذا رسول الله ﷺ، وهو أعلم الخلق بالله ﷻ وبما يُرضي الله ﷻ، وبما يُنقذ الناس من الشر، هو أعلم الخلق ﷺ، وهو يعظ، وليست موعظة يسيرة، ولكنها موعظة بليغة، وَجِلت منها القلوب، وذَرَفت منها العيون. وقد ذكروا أن هذا بعد صلاة الفجر.

وقالوا: « **يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ** ». فهموا منها أنها وصية من الرسول ﷺ وأن حياته على وشك النهاية، كأنها وصية مودع.

ومن عادة المُودِّع الذي يريد أن يسافر أو حضره الموت - أن يوصي أولاده أو مَن حوله ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ [البقرة: ١٣٣] هذه سُنة الأنبياء، أنهم يوصون أممهم وذراريهم.

قَالَ: « **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ** ».

أوصيكم بتقوى الله، هذه كلمة جامعة لخصال الخير، يدخل فيها فعل الواجبات وترك المحرمات؛ لأن هذا هو الذي يقي من عذاب الله، فأتى بكلمة جامعة.

ثم فَصَّل ﷺ فقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**» ومِن تقوى الله السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين؛ لأنه بالسمع والطاعة يحصل لهم اجتماع الكلمة، وقوة الأمة، وتمام الأمر، واندفاع الشرور والفتن، وإقامة الحدود، وإنصاف المظلومين من الظلمة . . .» إلى آخر المصالح التي في الولاية.

فهذا فيه: وجوب نصب الوالي ووجوب طاعته -بالسمع والطاعة- إلَّا إذا أَمَر بمعصية، فلا يطاع في تلك المعصية، قال ﷺ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ**»(١) أما ما عدا المعصية فيطاع فيه.

الأعداء الآن يريدون أن يُضعفوا المسلمين، وأن لا تبقى لهم ولاية، ولا يبقى سمع ولا طاعة، وإنما يُعْطُون الناس الحرية بما يريدون من الشرور والشهوات وأن ينحل الأمر.

فالإسلام لا يصلح إلَّا بجماعة، والجماعة لا تقوم إلَّا بالولاية، والولاية لا تقوم إلَّا بالسمع والطاعة. لابد من هذا، فالأعداء يريدون أن لا يبقى للمسلمين جماعة ولا إمامة حتى يسهل انقيادهم.

قال: «**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ**» يعني: ولي الأمر يطاع لمنصبه ولمكانته، ولا يُنظر إلى شخصه وهيئته، وإنما يُنظر إلى منصبه العظيم الذي يتولاه،

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٠٦٥٣)، والطبراني في الكبير رقم (٣٨١).

لا يُنظر إلى أُبَّهته وإلى جماله. هذا من باب الحث والتأكيد، فليست المسألة مسألة منظر أو أُبَّهة، المسألة مسألة منصب ومقام، فلا يطاع لأجل رغبته هو أو منفعته هو، وإنما يطاع لمنفعة المسلمين ومصلحة المسلمين.

«فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا».

هذا خبر معناه التحذير، فإن من طالت حياته فسيرى اختلافًا. هذا في عصر الصحابة، فكيف بعد تطاول الزمن؟! فإنه يَكثر الاختلاف والفِرَق والأحزاب.

فالواجب عند ذلك التمسك بسنة الرسول ﷺ. فالعصمة من الاختلاف والعصمة من الخطر في التمسك بسنة الرسول ﷺ. ولو كلفك هذا ثمنًا باهظًا فاصبر.

والمراد بـ«سُنَّتِي»: طريقته ﷺ.

«وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ».

والخلفاء الراشدون هم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. هؤلاء هم الخلفاء الراشدون؛ لأن عملهم توطيد لسنة الرسول ﷺ وتثبيت لها.

وقوله ﷺ: **«عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»** هذا من شدة الحرص، شَبَّه الواقع في الفتن بالواقع في اللجة لا ينجو منها إلَّا بحبل يعتصم به ويمسك الحبل، فلو أن الحبل انفلت منه غرق، فهو من حرصه على الحبل يَعَض عليه بأضراسه، لا يكتفي بإمساكه بيديه، بل يعض عليه

بأضراسه، هذا من شدة الخطر وشدة الحرص على النجاة.

« وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ».

« وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ »، فما خالف سُنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء، فإنه من محدثات الأمور.

حَذَّر منه الرسول ﷺ. وإن كان أصحابه يُحَسِّنونه ويقولون: هذا طاعة لله وتَقَرُّب إليه. فإنه لا ينفع، ولا تتقرب إلى الله إلَّا بما شَرَع. أتتقرب إلى الله بشيء لم يشرعه؟! هذا بدعة، لا تتقرب إلى الله إلَّا بما شَرَع.

فالعمل له شرطان: الأول: الإخلاص لله. **والثاني**: العمل بالسُّنة وتَجَنُّب البدع. فإن كان العمل فيه شرك فلا يُقبل. وإن كان مبتدعًا لا يُقبل أيضًا.

« فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ».

هذا فيه: رَدٌّ على من يُقَسِّمون البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة. قالوا: إن الرسول ﷺ قال: **« مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً »**(١).

نقول: لم يقل ﷺ: **« مَن ابتدع في الإسلام بدعة حسنة »** حتى تقولوا: هناك بدعة حسنة.

ومعنى **« سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً »** أي: عَمِل بالسنة عند ترك الناس لها؛ لأن سبب الحديث في الذي بادر بالصدقة، فاقتدى به

(١) أخرجه: مسلم رقم (١٠١٧).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعبّدهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَا تَعَبَّدُوهَا؛ فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدَعْ لِلْآخَرِ مَقَالًا، فَاتَّقُوااللَّهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. رواه أبو داود(1). [٨١].

الناس وقَدَّموا صدقاتهم. والصدقة سُنة وليست بدعة. فيقتدون به إذا عَمِل بالسُّنة، وله أجرها وأجر مَن عَمِل بها. وهذا فيه الدعوة إلى السُّنة إذا تركها الناس.

[٨١] الأصل سُنة الرسول ﷺ؟

ومَن هم أعرف الناس بسنة الرسول ﷺ؟

هم صحابته، هم الذين يبينون سُنة الرسول ﷺ، يروونها ويعملون بها، فالأخذ بما يَعمل به الصحابة أَخْذ بسُنة الرسول ﷺ؛ لأنهم أقرب الناس إلى الرسول ﷺ، وهم تلاميذه وتَعَلَّموا منه، وهم يحبون سنته عليه السلام، والله ﷻ أمر بذلك بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] يعني بإتقان، من غير إفراط ولا تفريط ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

الصحابة رضي الله عنهم إجماعهم حجة، فإذا عملوا عملًا، فهو من سُنة الرسول ﷺ. وأما مَن جاء بعدهم فإنه يخطئ ويصيب.

«**فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**».

«**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ**» يريد العلماء؛ لأنه في ذلك الوقتِ القراءُ هم العلماء، وليس المراد مجرد مَن يحفظون القرآن بالتجويد.

---

(١) أخرجه: أبو داود في الزهد رقم (٢٦٧).

لا، فالمراد بالقراء في الزمان الأول العلماءُ؛ لأنهم ما كانوا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا معانيهن ويعملوا بهن، لم يكونوا يحفظون فقط.

أما القراء الذين في آخر الزمان فأولئك ليسوا فقهاء، مجرد قراء، يقرءون القرآن ولكن لا يتفقهونه، ويقرءون في الأحاديث ولا يتفقهون فيها أو يفسرونها بفَهْمهم القاصر أو بأهوائهم الضالة.

وقال الدارمي: أَخْبَرَنَا الْحَكَمُ بْنُ الْمُبَارَكِ، أَنبأَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ، مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لَا. فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ، قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنِّي رَأَيْتُ آنِفًا فِي الْمَسْجِدِ أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ وَلَمْ أَرَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - إِلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ. قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حصًا، فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ أَمْرِكَ أَوِ انْتظارَ رَأْيِكَ. قَالَ: «أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شَيء»، ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟» قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حصًا نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: «فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوْ مُفْتَتِحُو بَابِ ضَلَالَةٍ». قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ: «وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ

اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ «قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»، وَايْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ. فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ(١). [٨٢].

---

[٨٢] هذه قصة عظيمة وعجيبة حصلت من ابن مسعود رضي الله عنه، تدل على فقهه وقوته في الحق.

وهذا فيه: تقدير السلف لأهل العلم، كانوا يحرصون على أخذ العلم عنهم والمشي معهم ومجالستهم، خلافًا للذين يقولون الآن: العلماء متحجرون، والعلماء نفعيون، والعلماء أصحاب وظائف. ويُحذِّرون من العلماء.

قال: «**فَإِذَا خَرَجَ، مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ** رضي الله عنه».

ابن مسعود كان مفتيًا في الكوفة ومعلمًا، وأبو موسى كان أميرًا على الكوفة، فهما صحابيان جليلان، أحدهما كان أميرًا، والآخر كان مفتيًا ومعلمًا.

«**فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لَا. فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ، قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنِّي رَأَيْتُ آنِفًا فِي الْمَسْجِدِ أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ وَلَمْ أَرَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - إِلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ. قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ،**

---

(١) أخرجه الدارمي رقم (٢١٠).

وَفِي أَيْدِيهِمْ حصًا، فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ أَمْرِكَ أَوِ انْتظارَ رَأْيِكَ».

أصل التسبيح والتهليل والتكبير مشروع، لكن جَعْله على هذه الصفة، يتحلقون حِلَقًا، ومعهم رجل ومعهم حصى، يقول لهم: «كَبِّروا مئة» فيكبرون ويُعددون مئة بالحصى، ثم يقول: «هَلِّلوا مئة» فيهللون بالحصى... إلى آخره، هذه الصورة فيها بدعة. أما التسبيح والتهليل والتكبير فهذا مشروع، أما هذه الصورة فهي بدعة، ما أَمَر بها رسول الله ﷺ ولا فَعَلها. وهذه تَؤُول إلى شر، كما سيأتي في آخر القصة.

«قَالَ: أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شَيء».

يقول: عليك أن تَعُد سيئاتك وتتوب منها، أما الحسنات فاعملها ولا تَعُدها، تقول: أنا سبحتُ مئة وألفًا أو عشرين ألفًا... وما أشبه ذلك، هذا من الرياء، وهذه بدعة.

«ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟» قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حصًا نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: «فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ

مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوْ مُفْتَتِحُو بَابِ ضَلَالَةٍ». قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ».

فمجرد النية وإرادة الخير لا تَسوغ البدعة، فالبدعة بدعة، وهي شر وإن كانت نية صاحبها حسنة وقصده حسنًا.

قَالَ: «**وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا: «أَنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»**» أتى بحديث الخوارج الذين يَغْلُون في الدين، ويعملون من غير دليل وفقه؛ وإنما يقرءون القرآن من غير فَهْم له، ويجتهدون من عند أنفسهم وبآرائهم، من غير أن يتفقهوا في دين الله.

هذه طريقة الخوارج، فتَوَقَّع رضي الله عنه أنهم سيكونون من الخوارج؛ لأن البدعة تجر إلى الشر، وأما السُّنة فتجر إلى الخير.

«**وَايْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ. فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ**».

كما توقع ابن مسعود رضي الله عنه!! رآهم مع الخوارج، يقتلون المسلمين في النهروان. والنهروان موقعة جرت بين علي رضي الله عنه والخوارج، فنَصَر الله أمير المؤمنين عليهم وقَتَل منهم مقتلة عظيمة! وكانت وقعة النهروان في العراق.

فهؤلاء الذين أَخَذوا هذه البدعة جرتهم إلى الخوارج وصاروا معهم، وقاتلوا معهم - والعياذ بالله -.

والله المستعان وعليه التُّكلان، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. [٨٣].

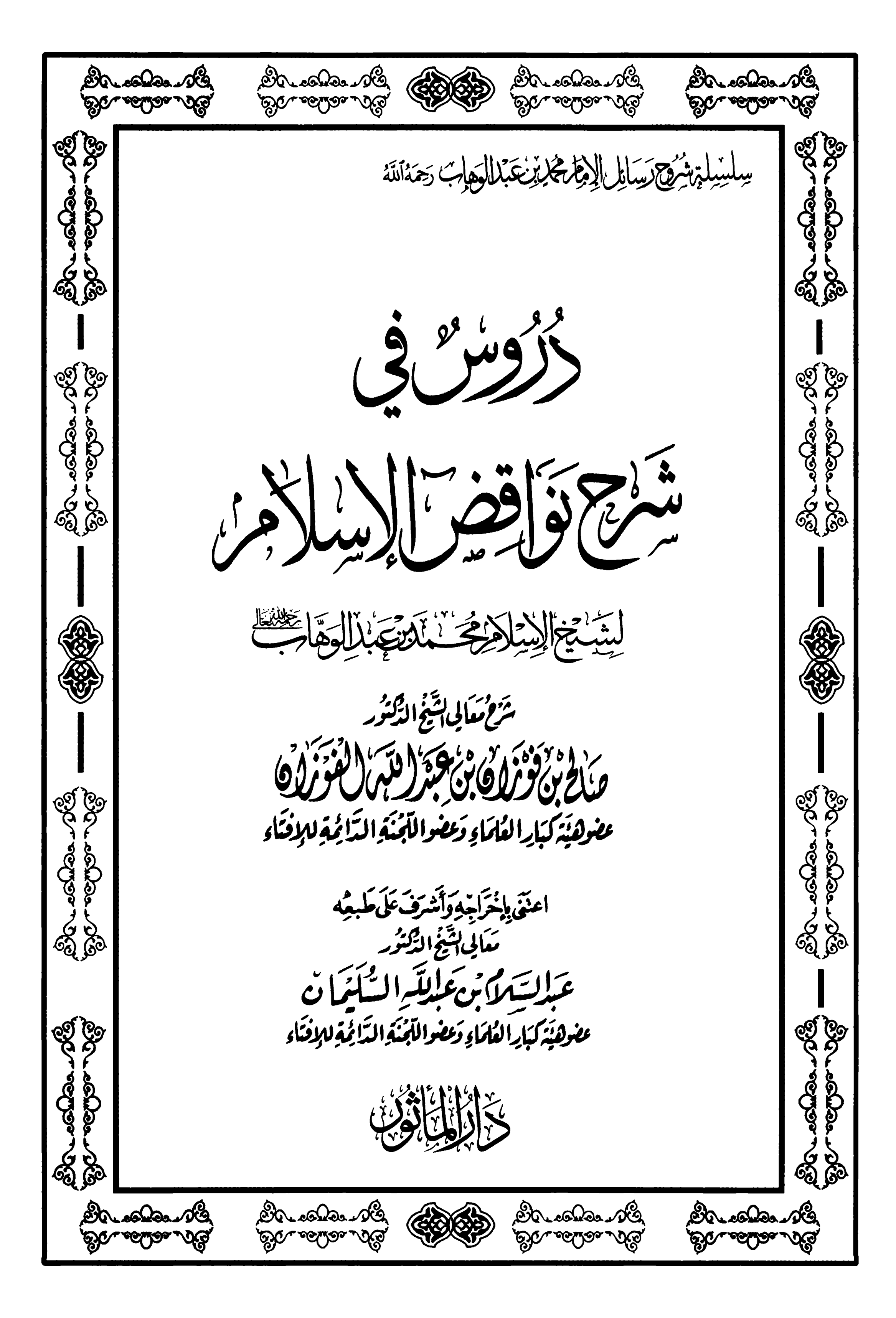
فهذا فيه التحذير من البدع، وأنها تجر إلى شر، ولو كانت نية أصحابها حسنة أو مقاصدهم طيبة؛ لأنه ليس المدار على النية والقصد، وإنما المدار على الدليل من كتاب الله أو من سنة الرسول ﷺ، فالدين كامل ولله الحمد ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يأمر به الرسول ﷺ، ولم يفعله ولم يُقِر أحدًا عليه؛ فإنه ليس من الدين، وإنما من البدع.

[٨٣] خَتَم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتاب بهذا الدعاء، والله المستعان وعليه التكلان، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



فهرس الموضوعات

❁ ❁ ❁ ❁ ❁



سلسلة شرح رسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

دروس في شرح نواقض الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

شرح معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه

معالي الشيخ الدكتور

عبد السلام بن عبد الله السليمان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

دار المأثور



غَفَرَ الله لهُ ولوالديْه والمُسْلمين





مقدمة الشارح

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وهذا شرح لرسالة «نواقض الإسلام العشرة» لشيخ الإسلام الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كنت قد ألقيته دروسًا في المسجد؛ فرأى بعض الإخوان تفريغه من الأشرطة وطباعته واستأذنني في ذلك فأذنت له، عسى أن يكون فيه شيء من الفائدة.

حيث قام الشيخ الفاضل الأخ: محمد بن فهد الحصين بهذا العمل؛ فجزاه اللَّه خيرًا ونفع به، وقد أذنت له بطباعته ونشره.

وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان بن عبد اللَّه الفوزان

في ٥/ ١١/ ١٤٢٤هـ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) وهذا شرح لرسالة نواقض الإسلام العشرة لشيخ الإسلام الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كنت قد ألقيته دروساً في المسجد فرأى بعض الإخوان تفريغه من الأشرطة وطباعته واستأذنني في ذلك فأذنت له عسى أن يكون فيه شيء من الفائدة.

حيث قام الشيخ الفاضل الأخ محمد بن فهد الحصين بهذا العمل فجزاه الله خيراً ونفع به. وقد أذنت له بطباعته ونشره. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان بن عبد الله

الفوزان

[توقيع]

في ١٤٢٤/١١/٥هـ

ترجمة مؤلف المتن

□ نسبه:

هو الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد ابن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر، من وهبة بني تميم.

□ مولده:

ولد الإمام المجدد رَحِمَهُ اللَّهُ في بلدة العيينة سنة ١١١٥هجرية، في بيت علم وشرف ودين، فأبوه عالم كبير وجده سليمان عالم نجد في زمانه.

□ نشأته:

نشأ في بيت علم وشرف ودين، وحفظ القرآن قبل بلوغه عشر سنين، ودرس الفقه حتى نال حظًّا وافرًا من العلم، وكان موضع الإعجاب من والده لقوة حفظه، وكان كثير المطالعة في كتب التفاسير والحديث، وجدَّ في طلب العلم ليلًا ونهارًا فكان يحفظ المتون العلمية في شتى الفنون، ورحل في طلب العلم إلى الأحساء وإلى مكة والمدينة.

وقرأ على علماء المدينة، ومنهم: العلامة الشيخ عبد اللَّه بن إبراهيم الشمري النجدي المدني، كما قرأ على ابنه الفرضي الشهير إبراهيم الشمري النجدي المدني، مؤلف كتاب «العذب الفائض في شرح ألفية الفرائض»، وعرَّفاه بالمحدث الشهير محمد حياة السندي؛ فقرأ عليه في علم الحديث ورجاله، وأجازه بالأمهات.

ثم رحل إلى العراق وقرأ على علمائها في البصرة، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ قد وهبه اللَّه فهمًا ثاقبًا، وذكاءً مفرطًا، وأكبَّ على

المطالعة والبحث والتأليف، وكان يُثبت ما يمر عليه من الفوائد أثناء القراءة والبحث، وكان لا يسأم من الكتابة، وقد خطَّ كتبًا كثيرة من مؤلفات ابن تيمية وابن القيم -رحمهما اللَّه-، ولا تزال بعض المخطوطات الثمينة بقلمه السيال موجودة بالمتاحف.

□ **مؤلفاته:**

ألَّف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤلفات كثيرة مفيدة منها:

- كتاب التوحيد.
- كشف الشبهات.
- الأصول الثلاثة.
- نواقض الإسلام.
- مسائل الجاهلية.
- مختصر زاد المعاد.
- القواعد الأربع.
- مختصر الإنصاف والشرح الكبير.
- الكبائر، وغيرها.

□ **وفاته:**

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عام١٢٠٦ للهجرة، بعد عُمر يقارب٩١ سنة، عمرها بالدعوة إلى اللَّه تعالى والجهاد والعلم والتعليم، رحمه اللَّه ورضي عنه، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة[١].

(١) انظر: «علماء الدعوة»، عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد اللَّه بن عبد اللطيف آل الشيخ و«الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته»، لسماحة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الدرس الأول في بيان مقدمة نافعة - إن شاء اللَّه- قبل الشروع في شرح نواقض الإسلام

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه.

وبعد:

النواقض: جمع ناقض، اسم فاعل من نقض الشيء إذا حله وهدمه وأفسده، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢].

والإسلام: «هو الاستسلام للَّه بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله» هذا تعريف الإسلام.

وأسلم: معناه استسلم، فهو الاستسلام للَّه -جل وعلا- بتوحيده وإخلاص العبادة له دون سواه، فمن لم يستسلم للَّه فهو مستكبر، ومن استسلم للَّه وغيره فهو مشرك، وأما من استسلم للَّه وحده فهو الموحد، ولهذا قال: «هو الاستسلام للَّه بالتوحيد».

والتوحيد: هو إفراد اللَّه -جل وعلا- بالعبادة، بأن يجعل المعبود واحدًا بدل أن يكون المعبود آلهة متفرقة يكون إلهًا واحدًا وهو اللَّه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

هذا هو الإسلام وهو الدين القيم، ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠] هذا هو الإسلام.

وأما قوله: **«الانقياد له بالطاعة»**.

فيعني أنه مع التوحيد تنقاد لأوامر اللَّه -جل وعلا-، فتفعلها وتترك ما نهى اللَّه عنه وتجتنبه، والطاعة تشمل فعل المأمورات وترك المنهيات فلا يكفي اعتقاد الوحدانية بدون العمل.

«والبراءة من الشرك وأهله»: فلا يكفي أن الإنسان لا يعبد إلا اللَّه؛ فلابد أن يتبرأ من الشرك وأهله ويعتقد بطلانه وكفر المشركين وأن يبغضهم ويعاديهم في الله ﷻ، يجب عليك أن تعادي أعداء اللَّه وأن تحب أولياء اللَّه، فتحب ما يحبه اللَّه ومن يحبه اللَّه، وتبغض ما يبغضه اللَّه ومن يبغضه اللَّه.

هذا معنى قوله: «والبراءة من الشرك وأهله»، كما تبرأ إبراهيم عليه السلام والذين معه من المشركين كما قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تبرءوا منهم ومن معبوداتهم، ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

هذا هو التوحيد الذي أمر اللَّه ﷻ به وبموالاة أهله وأمر بالبراءة من الشرك وأهله؛ لأنه يناقض التوحيد.

والإسلام له نواقض؛ فقد يدخل الإنسان الإسلام لكن يرتكب أشياء تخرجه من الإسلام وهو يدري أو لا يدري، فيجب على الإنسان معرفة هذه النواقض.

وهذا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- خاف على نفسه من الشرك مع أنه هو الذي كسر الأصنام وأُوذي في اللَّه مع هذا لم يأمن على نفسه وقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]. لما رأى كثرة الشرك وكثرة المفتونين خشي على نفسه.

والإنسان بشر والذين وقعوا في الشرك بشر، والإنسان لا يزكي نفسه ولا يأمن على دينه، بل عليه الخوف على دينه أكثر مما يخاف على نفسه وعلى ماله وعلى حرمه ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وهذا الموضوع -نواقض الإسلام- قد اهتم به العلماء قديمًا وحديثًا، وهو جدير بالاهتمام، فألفوا فيه مؤلفات مستقلة وجعلوا له بابًا في كتب الفقه يسمونه: (باب حكم المرتد)، وذكروا في هذا الباب نواقض الإسلام، وحكم من وقع في شيء منها.

ذكروا أنواعًا كثيرة من النواقض التي لا تخطر على بال الإنسان لكنهم -رحمهم الله- أحصوها وبيَّنوها وبينوا حكم من وقع في شيء منها؛ لأن الدين هو أول الضرورات الخمس التي تجب المحافظة عليها، فيحافظ على الدين ويجب أن يطبق الحكم على المرتدين الخارجين عن الإسلام.

قال ﷺ: **«من بدل دينه فاقتلوه»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧)، والنسائي (٤٠٥٩)، والترمذي (١٤٥٨)، وأحمد في «مسنده» (١٨٧١) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(١).

والشاهد قوله: «والتارك لدينه المفارق للجماعة».

والثاني من الضرورات: النفس: ولهذا شرع الله القصاص؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩].

وأمر بحفظ الأنفس المؤمنة، ولذا شرع القصاص لحفظ الأنفس من الاعتداء ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾؛ لأن القصاص وإن كان قتلًا للجاني؛ فإنه يسبب الحياة للناس لأنه يمنع القتل، فيأمن الناس على دمائهم.

فإذا عَلِمَ القاتل أو علم من يريد القتل أنه سيُقتَل؛ فإنه يكف عن القتل فينجي نفسه وينجي من همَّ بقتله، وبذلك تحقن الدماء وتحفظ.

الثالث من الضرورات الخمس: العقل: الله -جل وعلا- خلق هذا الإنسان وميَّزه عن غيره من المخلوقات؛ لأنه أعطاه العقل ليميز به بين النافع والضار والطيب والخبيث والكفر والإيمان ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

فالله -جل وعلا- ميَّز الإنسان بهذا العقل؛ فإذا جنى الإنسان على عقله بأن تعاطى شيئًا من المسكرات والمخدرات؛ فإن الله أوجب إقامة الحد عليه بالجلد حفظًا للعقول لئلا يتلاعب بها.

الرابع من الضرورات الخمس: حفظ الأموال: لأن الناس لابد لهم من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، وأبو داود (٤٣٥٢)، والترمذي (١٤٠٢)، والنسائي (٤٠١٦)، وابن ماجه (٢٥٣٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

المال الذي تقوم به مصالحهم، المال عصب الحياة -كما يقولون-، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

فمن اعتدى على أموال الناس بالسرقة فإنها تقطع يده حتى يأمن الناس على أموالهم، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

فإذا قُطعت يدٌ واحدة حُفظت أموال الناس، ولذلك تجدون البلاد التي تقام فيها الحدود آمنة مطمئنة على دينها وأنفسها وأموالها وأعراضها، بينما البلاد التي لا تقام فيها الحدود تسودها الفوضى والاضطراب والخوف والبهيمية كما هو معلوم.

الخامس من الضرورات الخمس: حفظ الأنساب والأعراض: وذلك بتحريم الزنا وإقامة الحد على الزاني بأن يجلد مائة إذا كان بكرًا ويرجم بالحجارة حتى يموت إذا كان ثيبًا؛ لأجل حفظ الأنساب من الاختلاط.

فإذا أُقيم الحد على الزناة فإن الأنساب تُحفظ، وأما إذا عُطل إقامة الحد على الزناة اختلطت الأنساب فلا يدرى هذا الشخص من هو ابنه لاختلاط الأنساب؛ لأن هذه المرأة يعتريها رجالٌ كثير فلا يُدرى ممن حملت.

ولذلك تضيع الأنساب التي جعلها اللَّه مميزة بين الناس بأن يعرف هذا الشخص ممن هو، وتترتب على ذلك الأحكام الشرعية مثل: المحرمية والميراث وغير ذلك من الأحكام الشرعية المترتبة على النسب وتعارف الناس فيما بينهم هذا يعرف أن هذا أبوه، هذا أخوه، هذا عمه، هذا خاله، فيحصل التواصل بين الناس، فهذا هو حفظ الأنساب.

وأما حفظ الأعراض فهو يحصل بإقامة حد القذف، فالذي يقذف الناس بالفاحشة فيقول: فلانٌ زان، فلان لوطي. يُجلد بعد أن يطالب إذا قذف أحدًا بالفاحشة بأن يقيم أربعة شهود يشهدون على ما قال، وإلا فإنه يجلد وتسقط

عدالته ويصبح فاسقًا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤-٥].

فهذه هي الضرورات الخمس التي أمر اللَّه بحفظها ورتب العقوبات عليها وأولها حفظ الدين، وحفظ الدين يكون بتجنب النواقض التي تنقض هذا الدين وتحصل بها الردة، ويكون أيضًا بقتل المرتد.

والردة هي: الرجوع، فالمرتد هو الذي يرجع عن دينه إما بقول أو باعتقاد أو بفعل أو بشكٍّ.

هذه أصول أنواع الردة: القول والاعتقاد والفعل والشك، وينشأ عن هذه الأصول أنواع كثيرة من نواقض الإسلام، وبعض الجهال أو المُغرضين يستنكرون الكلام في بيان أسباب الردة عن الإسلام ويصفون من يتكلم في ذلك بأنه تكفيريٌّ ويحذرون منه.

فالردة بالقول: كأن يتكلم بلفظ الكفر والشرك غير مكرهٍ، سواء كان جادًّا أو هازلًا أو مازحًا، فإذا تكلم بكلام الكفر فإنه يُحكم عليه بالردة إلا إذا كان مكرهًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال تعالى في الذين قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أكذب ألسنًا وأرغب بطونًا وأجبن عند اللقاء -يعنون رسول اللَّه ﷺ وأصحابه-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فهم كفروا بعد إيمانهم بسبب أنهم قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، وأكذب ألسنًا، وأجبن عند اللقاء -يعنون رسول اللَّه ﷺ وأصحابه-، فلما علموا أن اللَّه أوحى إلى رسوله ﷺ بمقالتهم جاءوا يعتذرون ويقولون: إنما كنا نخوض ونلعب، نتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق،

والرسول ﷺ لا يلتفت إليهم ولا يزيد عن أن يتلو هذه الآية: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[1].

فدل أن الذي يتلفظ بكلام الكفر غير مكره فإنه يكفر ولو زعم أنه يمزح ويلعب.

وفي هذا رد على مرجئة العصر الذين يقولون: لا يرتد من قال كلام الكفر حتى يعتقد بقلبه ما قاله لسانه.

وكذلك الذي يدعو غير اللَّه ويستغيث بغير اللَّه فيقول لأحد الأموات: يا فلان أغثني، يا فلان أنقذني، ينادي الموتى والمقبورين، أو ينادي الشياطين والجن، أو ينادي الغائبين ويستنجد بهم، إذا دعا غير اللَّه واستغاث بغير اللَّه من الأموات والغائبين فإنه يكفر بذلك.

فمن تلفظ بالكفر كَفَرَ إلا أن يكون مكرهًا؛ قال اللَّه سبحانه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]. هذا هو المكره.

فإذا تلفظ الإنسان بكلمة الكفر وأجبر بأن يتلفظ بها أو يقتل أو يعذب فلا

---

(١) أخرجه هذه القصة ابن أبي حاتم (١٠٠٤٦)، وابن جرير في تفسيره (١٠/ ١٩٥-١٩٦) خرجها من طرقٍ موصولة ومرسلةٍ يقوي بعضها بعضًا.
وحسَّنها الوادعي في «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص٧٧).
وانظر: تسع فوائد عظيمة ومهمة من هذه القصة ذكرها شيخنا العلامة الفوزان في كتابه «إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد» (٢/ ١٩٠-١٩٢).

بأس بأن يقول ما يتخلص به من الإكراه مع اطمئنان قلبه بالإيمان، وقد رخَّص اللَّه في أن يتكلم بكلمة الكفر تخلصًا من الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان، وإنما يتلفظ باللسان فقط، أما القلب فلا أحد يستطيع أن يتصرف فيه إلا اللَّه ﷻ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر رضي الله عنه كان المشركون يعذبونه ويكرهونه على أن يسب الرسول ﷺ فتلفظ بكلام فيه مسبة للرسول ﷺ يريد التخلص من الكفار، ولم يكن في قلبه بغض لرسول اللَّه ﷺ، ولا كراهية لدين الإسلام، بل هو مطمئن بالإيمان، فلما قال مقالته جاء نادمًا إلى الرسول ﷺ وذكر له ما وقع.

قال: «**كيف تجد قلبك؟**

قال: أجده مطمئنًا بالإيمان.

قال: **إن عادوا فعُدْ**»[(١)].

والكفر بالاعتقاد: هو أن يعتقد الإنسان بقلبه ما يناقض الإسلام، كأن يعتقد أن الصلاة غير واجبة وليس لها قيمة وإنما هي من باب المجاراة مثل ما عليه المنافقون، فيأتي بالأعمال في الظاهر ولكنه من قلبه لا يؤمن بها وإنما يتظاهر بها ويتكلم بالشهادتين وقلبه كافر.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ١-٢]؛ أي: سترة يتسترون بها ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٢١٦)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٧٠-١٧١)، وخرَّجه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٢/ ٣٢٧) عند البيهقي وابن المنذر، والفاكهي، وعبد بن حميد من طرقٍ مرسلة ثم قال: «وهذه المراسيل تقوي بعضها بعضًا».

فإذا اعتقد بقلبه الكفر صار كافرًا ولو لم يفعل أو يتكلم، ولو كان بظاهره يفعل الأعمال الطيبة من صلاة وجهاد وصدقة أو يقول الكلام الطيب بأن يقول: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، ولكنه بقلبه يكذب بذلك فهذا كافر وهذا دين ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين هم: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ مع كونهم يصلون ويصومون ويجاهدون لكن لما كانوا بقلوبهم كافرين صاروا: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنهم لا يعتقدون بقلوبهم ما تنطق به ألسنتهم أو ما تفعله جوارحهم من الأعمال المشروعة.

والكفر بالفعل: كأن يذبح لغير اللَّه، فإذا ذبح لغير اللَّه خرج عن دين الإسلام وارتد؛ لأنه عبد غير اللَّه؛ لأن الذبح عبادة، فإذا ذبح لشيء يعظمه كالصنم والقبر وغير ذلك من معبودات المشركين ولو لم يتكلم، بل إذا ذبح للصنم أو سجد للصنم أو القبر الذي هو من أوثان المشركين اليوم؛ فإذا ذبح أو سجد للقبور صار مشركًا ولو كان يصلي ويصوم ويحج ويقرأ القرآن فإنه نقض دينه بهذا الفعل الشركي والعياذ باللَّه.

وأما الكفر بالشك: فالشك هو: التردد، فإذا شك في قلبه هل ما جاء به الرسول ﷺ صحيح أو غير صحيح؟ هل هناك بعث أو لا؟ هل هناك جنة ونار أو لا؟

فهذا يكفر بشكه ولو كان يصلي ويصوم ويعمل ما يعمل؛ فإذا لم يكن جازمًا بالإيمان، وكان لديه شك وتردد بصحة ما جاءت به الرسل ويقول: يمكن أن يكون هذا صحيحًا أو ليس بصحيح، فهذا يكون مرتدًّا عن الإسلام ولو كان يشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه من غير اعتقاد لمعناها، ولكن نحن ما لنا إلا الظواهر وأما ما في القلوب من اليقين والشك ومن الإيمان والكفر فهذا لا يعلمه إلا اللَّه ﷻ.

فهذه أصول الردة:

١- قول الكفر والشرك، من غير إكراه.

٢- أو اعتقاد الكفر والشرك.

٣- أو فعل الكفر والشرك.

٤- أو الشك في الدين وما جاء به الرسول ﷺ.

فهذه أمور يجب على المسلمين عمومًا، وعلى طلبة العلم خصوصًا أن يعتنوا بها لكثرة الفتن والشرور في هذه الأيام، ولكثرة الشبهات ودعاة السوء والضلال، فعلى المسلم أن يهتم بهذا الأمر لئلا يخرج من دينه بشيء منها.

والناس في هذه النواقض ثلاثة أقسام: طرفان ووسط:

الطرف الأول: الذين يغالون في التكفير والحكم على الناس بالكفر، ويكفِّرون الناس من غير روية أو فقه أو معرفة، وهذا مبدأ الخوارج الذين خرجوا في عهد النبي ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين وفي العهود المتأخرة يكفِّرون المسلمين ويغالون في الكفر، فكل من خالفهم كفروه واستحلوا دمه.

فالخوارج عندهم ثلاثة مبادئ:

المبدأ الأول: تكفير الناس بالذنوب الكبائر التي دون الشرك.

المبدأ الثاني: الخروج على ولاة أمور المسلمين وشق عصا الطاعة.

المبدأ الثالث: استحلال دماء المسلمين.

وهذا سببه أخذ النصوص التي تدل بظاهرها على الكفر أو على الشرك أخذوها على ظاهرها دون أن يجمعوا بينها وبين النصوص الأخرى التي تفسرها وتوضحها.

فإن الكفر ينقسم إلى قسمين:

كفر أكبر، وكفر أصغر.

والشرك ينقسم إلى قسمين:

شرك أكبر وشرك أصغر.

الشرك الأكبر والكفر الأكبر: يخرجان من الدين وينقضان الإسلام.

والشرك الأصغر والكفر الأصغر: لا يخرجان من الدين لكنهما ينقصان الإسلام والإيمان.

فهم -أي: الخوارج- لا يفرقون بين هذا وذاك، وليس عندهم كفر أصغر ولا شرك أصغر، وإنما الكفر والشرك عندهم شيء واحد وهو الخروج من الدين، وأخذوا بظواهر النصوص وتركوا النصوص الأخرى التي تفصِّل هذه الأمور وتقسمها إلى قسمين، لعدم فقههم وعدم معرفتهم بالدين وعدم تمكنهم من العلم، فصاروا يكفِّرون الناس ويبالغون في التكفير من غير فقه ولا روية، ويطبقون النصوص على غير محلها؛ لأنهم ليس عندهم فقه، فهم مجرد قرَّاء يقرءون اللفظ ولا يفهمون المعنى ثم يطبقونه على الناس.

فهؤلاء هم الخوارج ولهم ورثة الآن -مع الأسف- ممن يكفرون الناس ويغالون في التكفير ويستحلون الدماء بحجة أن هؤلاء كفار، فلهم ورثة الآن من شبابنا ومن جهالنا ومن متعالمينا.

الطرف الثاني: المرجئة الذين يقولون الإيمان بالقلب ولم يدخلوا فيه العمل وبعضهم يقول: لا يدخل فيه القول وإنما هو الإيمان بالقلب وأما العمل فلا يدخل، فلو عَمِل ما عمل فإنه لا يكفر، ويقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، ولا ينفع مع الكفر طاعة، هذا مبدؤهم، وأخذوا بنصوص الوعد التي فيها وعد اللّٰه بالمغفرة والرحمة ولم يجمعوا بينها وبين نصوص الوعيد التي فيها التحذير من الكفر والشرك والذنوب والمعاصي.

فهم أخذوا بنصوص الوعد واعتمدوا على الرجاء فقط، وأولئك الخوارج أخذوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد والرحمة والرجاء،

فأخذوا بجانب الخوف واشتد بهم الخوف، وغلَّبوا جانب التكفير على الناس واستحلوا دماءهم وأموالهم بهذا المذهب الفاسد.

الطرف الثالث: أهل السنة والجماعة وهم وسط بين المذهبين مذهب المرجئة ومذهب الخوارج، فيجمعون بين النصوص ويقولون: إن الكفر في القرآن والسنة ينقسمان إلى قسمين، كفر أكبر وكفر أصغر، وشرك أكبر وشرك أصغر والذنوب التي دون الشرك لا يكفر صاحبها.

فالشرك الأكبر والكفر الأكبر يخرجان من الملة، والشرك الأصغر والكفر الأصغر لا يخرجان من الملة خلافًا للخوارج ولكنهما ينقصان الإيمان خلافًا للمرجئة، فهم في طرفي نقيض؛ وأهل السنة والجماعة -ولله الحمد- وسط، جمعوا بين نصوص الوعيد ونصوص الوعد، وجمعوا بين الخوف والرجاء، فلم يأخذوا الرجاء فقط كما أخذته المرجئة، ولم يأخذوا الخوف فقط كما أخذته الخوارج.

فمن عَبدَ اللَّه بالخوف فقط فهو خارجي، ومن عبد اللَّه بالرجاء فقط فهو مرجئ، ومن عبد اللَّه بالحب فقط فهو صوفي، ومن عبد اللَّه بالخوف والرجاء والحب والرغبة والرهبة فهو موحد سني، فهذا هو التفصيل في هذه المسألة العظيمة.

فمعرفة هذه النواقض لها أهمية كبرى حتى يكون الإنسان على بصيرة، ولا يكون مع الخوارج، ولا يكون مع المرجئة، وإنما يكون مع أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين النصوص عملًا بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

الذين في قلوبهم زيغ منهم الخوارج والمرجئة، الخوارج أخذوا بالمتشابه والمرجئة أخذوا بالمتشابه ولم يردوا المتشابه إلى المحكم؛ لأن

القرآن يفسر بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، وأما أهل السنة الراسخون في العلم فأخذوا بالأمرين؛ ردوا المتشابه إلى المحكم وفسروا المتشابه بالمحكم، فاهتدوا إلى الحق ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه، وكلام اللَّه لا يتناقض، وكلام رسول اللَّه ﷺ لا يتناقض، فجمعوا بين هذا وهذا، وفسروا هذا بهذا، وقيدوا هذا بهذا، هذه طريقة الراسخين في العلم، وأما أهل الضلال فهم يقولون بطرف وهو المتشابه.

فالمتشابه من آيات الوعيد أخذ به الخوارج، والمتشابه من آيات الوعد أخذ به المرجئة، وضلوا عن سواء السبيل.

فالخوف على المسلمين من ناحيتين:

الناحية الأولى: الجهل بهذه الأمور وعدم تعلمها، وعدم التمييز بين الحق والباطل.

والناحية الثانية: القول على اللَّه بغير علم؛ فإن كثيرًا من المتعالمين اليوم تجرءوا على مسائل كبار عظيمة من مسائل العقيدة، وصاروا يتكلمون فيها ويفتون ويحكمون على الناس بجهل وضلال -والعياذ بالله-.

فالواجب على المسلم: أن يسلك طريق أهل الحق، ولكن هذا لا يمكن إلا بالتعلم والتفقه في دين اللَّه، فلا يكفي حفظ النصوص؛ لأن بعضهم يحفظ صحيح البخاري ومسلم والسنن ولكنه لا يفقه معناها، ولا يدري ما تفسيرها بل يفسرها من عنده، أو يتلقى تفسيرها من أهل الضلال من الخوارج أو المرجئة وهذا هو الخطر.

فليس العلم بالحفظ فقط، وإنما العلم بالحفظ مع الفقه ومعرفة المعاني، والحفظ لا يحصل إلا بالتعلم وتلقي العلم عن العلماء ومدارسته معهم، هذا هو العلم الصحيح والفقه الصحيح.

فيجب علينا أن نهتم بهذا الأمر اهتمامًا بالغًا عظيمًا، لئلا نقع فيما وقعت فيه هذه الطوائف الضالة التي أصبح شغلها الشاغل الآن التناحر والتراشق بالكلام والتضليل والتبديع والتفسيق من غير بصيرة ومن غير علم ولا فقه، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

فهذا جانب عظيم يجب علينا أن نهتم به وأن نتنبه له، وألا نقتصر على المطالعة في الكتب أو حفظ المتون والنصوص بدون فقه لمعانيها وتبصر لأحكامها وتفاصيلها على أيدي العلماء، والخوارج ما ضلوا إلا بهذه الطريقة وهي الحفظ بدون فهم، ولهذا يقول الإمام ابن القيم فيهم:

ولهم نصوص قصروا في فهمها فأتوا من التقصير في العرفان

عندهم نصوص وعندهم حفظ، يقرءون القرآن الليل والنهار ويصلون الليل كله ويصومون الدهر ولكن ما عندهم من الفقه ميزان حبة خردل، ولذلك وقعوا فيما وقعوا فيه.

فالفقه أمره عظيم، **والفقه**: هو فهم النصوص، لابد أن تعرف مركبات الدواء أولًا، ثم تعرف العلة التي في المريض وتعطيه من الدواء ما يناسبها، فإذا وافق الدواء الداءَ نفع بإذن اللَّه، وإذا لم يوافق الداء الدواء ضر.

فالعالم بمنزلة الطبيب مع المرضى لابد من أمرين: أن يعرف الدواء، ومواقع الدواء، ويعطي كل مريض ما يناسبه من الدواء.

وهذا تمثيل صحيح إذا تأملته ولكن هذا يحتاج إلى فقه وبصيرة، إخواننا الآن يرون أنهم هم أفهم من العلماء؛ لهذا وقعوا فيما وقعوا فيه، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

هذه طريقة الخوارج، فالخوارج كفَّروا الصحابة ﷺ ورأوا أن الصحابة ليسوا على حق وأنهم لا يفهمون، وأنهم لا يغارون للَّه تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله:

والجهل داءٌ قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان

نصٌّ من القرآن أو من سُنَّة ... وطبيب ذاك العالم الرباني

إن الخطر اليوم عظيم جدًّا، نقول: الحمد لله، الشباب عندهم إقبال على الدين، وعندهم صحوة كما يقولون[1]، ولكن إن لم ترشد هذه الصحوة وهذا الإقبال صار ذلك ضلالًا، فلابد من ترشيدها وتصحيحها وتثقيفها بدين اللَّه حتى تكون صحوة على بصيرة وعلى علم وفقه، وإلا فإن هذه الصحوة ستضر المسلمين إن لم يتنبهوا لها ويرشدوا شبابهم وإخوانهم في دين اللَّه.

والحمد لله، وصلى اللَّه على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) انظر: تعليق شيخنا على مصطلح الصحوة الإسلامية في كتاب «الإجابات المهمة في المشاكل الملمة» (١/ ١٩٤).

الأسئلة

سؤال: هل هناك فرق بين نواقض الإسلام ونواقض الإيمان؟

جواب: لا فرق بينهما، نواقض الإسلام الصحيح هي نواقض الإيمان لكن قد يكون الإنسان مسلمًا بلسانه فقط وهو المنافق كما قال تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال في المؤمنين: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

سؤال: هل يعذر من جهل هذه النواقض؟

جواب: الجهل يختلف، إذا كان الجاهل لا يمكنه أن يتعلم فإنه يعذر حتى يجد من يعلِّمه كالذي يعيش في بلاد منقطعة عن بلاد المسلمين، ما فيها إلا كفار، فهذا يعذر بالجهل، وأما الذي يعيش بين المسلمين وفي بلاد المسلمين ويسمع القرآن ويسمع الأحاديث وكلام أهل العلم فهذا لا يعذر بالجهل؛ لأنه بلغته الحجة ولكنه لم يهتم بها، بل قد يقول: هذا دين الوهابية، أو دين أهل نجد، أو دين فلان أو فلان، كما يقولون عن التوحيد إنه دين ابن عبد الوهاب مع أنه دين الرسول ﷺ، وابن عبد الوهاب لم يأتِ بشيء وإنما دعا إلى دين الرسول ﷺ.

ونسبوا الدين إليه وقالوا: هذا دين الوهابية، هذا دين ابن عبد الوهاب، أو يقولون هذا دين الخوارج، يسمون الموحدين خوارج، أهؤلاء يعذرون بالجهل؟!!

هؤلاء مكابرون لا يعذرون بالجهل.

سؤال: من فعل ناقضًا من نواقض الإسلام ثم تاب بعد ذلك هل له توبة؟

جواب: نعم، إذا تاب تاب اللَّه عليه، اللَّه يقبل التوبة من جميع المذنبين،

من المرتدين وغيرهم، قال ﷻ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

يعني من ارتد ولم يتب حتى مات فهذا ازداد كفرًا، بكونه استمر على الكفر، وأما لو تاب قبل الموت فيتوب اللَّه عليه.

فقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾؛ دل على أنه لو مات مسلمًا وتائبًا فاللَّه يتوب عليه؛ لأن اللَّه يقبل التوبة من المرتد ومن غيره إذا تاب إلى اللَّه ﷻ.

سؤال: هل يدخل الشك في الاعتقاد؟

جواب: هناك فرق بين الشك والاعتقاد، الاعتقاد ليس فيه تردد، والشك فيه تردد.

سؤال: أورد العلماء -رحمهم الله- أكثر من هذه النواقض العشرة، فلماذا خصص شيخ الإسلام هذه العشرة؟

جواب: الشيخ ذكر أهمها ولم يقل: إنه لا نواقض غير هذه، بل قال هي أهم ما فيها، وإلا فالنواقض كثيرة.

سؤال: هل هناك فرق بين الكفر والشرك؟

جواب: نعم، الكفر أعم من الشرك، لأن الكفر قد يكون جاحدًا للرب ﷻ، لا يؤمن بربٍّ، مثل فرعون والمعطلة والدهرية، وأما المشرك فإنه يؤمن

بالرب ولكنه يشرك معه غيره، فبين الكفر والشرك عموم وخصوص.

سؤال: ما أهمية معرفة موانع التكفير؟ وما أفضل كتاب في هذا الموضوع؟

جواب: على الإنسان أن يعرف المكفرات فإذا عرفها فإنه يمتنع عن التكفير بغيرها، وأفضل كتاب في هذا هذه الرسالة التي كتبها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي نحن بصدد شرحها؛ لأنها رسالة مختصرة جامعة، وهناك أبواب في كتب الفقه من كل مذهب مخصصة لبيان النواقض.

سؤال: ما الحكم في نقل الكفر على سبيل التندر؟

جواب: لا يجوز ذكر الكفر على سبيل التندر، وأما على سبيل النقل فناقل الكفر ليس بكافر وحاكي الكفر لا يكفر، وأما إذا نقله على سبيل التندر والضحك فهذا أمر خطير فقد كفَّر اللَّه الذين تكلموا على وجه المزح واللعب كما سبق.

سؤال: هل من ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام يكفره كل من رآه وعلم به، أم لا يكفره إلا العلماء؟

جواب: من ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام فينبغي أن يتثبت من أمره، فربما يكون جاهلًا يعذر بالجهل، وربما يكون مكرهًا، وربما يكون له عذر، فإذا تبين أن ليس له عذر أو ليس بجاهل فإنه يحكم عليه بما صدر منه.

سؤال: ما حد الإكراه الذي لا يكون من وقع فيه مرتدًّا؟ وهل هناك أنواع للإكراه؟

جواب: الإكراه يختلف باختلاف الأحوال قد يكون إكراهًا في شيء ولا يكون إكراهًا في شيء آخر، فالإكراه يختلف باختلاف مواقعه، ولكن الإكراه الذي يعذر به هو الذي لا يمكن التخلص منه ولا يمكن السلامة من

القتل أو من الضرب أو من التهديد إلا بالتلفظ بما يطلب منه، كتلفظه بكلمة الكفر مثلًا، إذا كان لا يمكنه أن يتخلص من بطش الظالم إلا أن يتلفظ به بشرط أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

سؤال: يقول العلماء: لا يُكَفَّر المعين إذا وقع في الكفر إلا إذا وُجدت الشروط وانتفت الموانع، وأُقيمت الحجة عليه؟ فهل هذا صحيح؟

جواب: نعم هذا صحيح، ولكن قيام الحجة يحصل ببلوغ القرآن إليه على وجه يفهمه لو أراد الفهم.

سؤال: نسمع في هذا العصر دعوى العلمانية وهي فصل الدين عن الدولة، فهل أصحاب هؤلاء مرتدون؟

جواب: لا شك أن أصحاب المذاهب المعاصرة الإلحادية مرتدون مثل: العلمانية، والحداثية، والقومية، والشيوعية؛ لأنها مخالفة للإسلام.

سؤال: إذا قال شخص لآخر: أنت تعلم الغيب، من باب المزاح فهل قوله هذا ردة؟ وهل يحكم عليه بالردة؟

جواب: إذا كان قصده المزح أو أنه يقصد بذلك أنك صاحب فطنة هذا لا يضر وليس بردة؛ لأنه لا يعتقد أنه يعلم الغيب، ولكن إذا اعتقد أنه يعلم الغيب صار مرتدًا.

سؤال: من سب دين اللَّه أو عمل عملًا مكفرًا عند الغضب الشديد فهل يكفر؟

جواب: إذا بلغ الإنسان الغضب الذي يخرجه عن الشعور فإنه لا يؤاخذ؛ لأنه أصبح مثل المجنون، وأما إذا كان غضبه لا يصل إلى حد زوال الإدراك فإنه

يؤاخذ، فإذا طلق زوجته أو تكلم بالكفر أو الشرك في هذه يحكم عليه بما تكلم به، إذا كان يدري ويعقل ما يقول.

سؤال: من تكلم بكلمة الكفر ثم تاب من حينه فهل عليه أن يغتسل؟

جواب: ليس عليه أن يغتسل، إذا تاب إلى اللَّه واستغفر وتاب توبة صحيحة ليس عليه اغتسال، لكن الكافر الأصلي إذا تاب، فبعض العلماء يرى أنه يغتسل؛ ولكن الجمهور أنه إذا أسلم الكافر الأصلي لا يؤمر بالاغتسال؛ لأنه أسلم أناس كثير على عهد النبي ﷺ ولم يأمرهم بالاغتسال.

وبعضهم يقول: إن الردة تنقض الوضوء، هذا بناء على أن أعمال المرتد تبطل ولو تاب، فإذا تاب يبدأ من جديد، هذا قول بعض العلماء.

والقول الثاني: أن أعماله الصالحة بعد التوبة من الردة ترجع إليه ولا تبطل، فيبقى وضوؤه وحجه وعمله الصالح وترجع إليه، وهذا هو الصحيح؛ لأن اللَّه قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فدل على أنه إذا لم يمت وهو كافر بل تاب، أن أعماله السابقة لا تحبط.

* * *

الدرس الثاني في شرح الناقض الأول



قَالَ شَيخُ الإِسلام مُحَمَّد بن عَبدِ الوَهَّابِ -رحمه اللَّه تعالى-:

اعلَم أَنَّ نَوَاقِضَ الإِسلَامِ عَشَرَةُ نَوَاقِضَ:

الأَوَّلُ: الشِّركُ فِي عِبَادَةِ اللَّه تَعَالَى.

قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١١٦].

وَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المَائدة: ٧٢].

وَمِنهُ: الذَّبحُ لِغَيرِ اللَّه؛ كَمَن يَذبَحُ لِلجِنِّ أَو لِلقَبرِ، وأشهرها الشرك في عبادة اللَّه [١].

---

[١] الحمد للَّه رب العالمين، وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإنه يجب على المسلم أن يخاف على دينه أكثر مما يخاف على نفسه وعلى ماله.

مماذا يخاف على دينه؟ يخاف على دينه من الفتن والشبهات كما قال النبي ﷺ: **«إنها ستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**(١).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٦)، والترمذي (٢١٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالمسلم ما دام على قيد الحياة فإنه معرض للفتن، ومعرض للردة عن دين الإسلام، ولهذا إمام الحنفاء الخليل إبراهيم عليه السلام يدعو ربه فيقول: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

فهذا الخليل الذي كسر الأصنام بيده وأوذي في سبيل ذلك وألقي في النار، يخاف على نفسه أن يرتد عن التوحيد ويعبد الأصنام؛ لأن الذين عبدوها نوع من البشر وعندهم عقول وإدراك، ولم تنفعهم عقولهم وإدراكاتهم وتمنعهم من أن يعبدوا الأصنام.

فإبراهيم عليه السلام لما رأى كثرة من وقعوا وفتنوا بعبادة الأصنام خاف على نفسه فدعا ربه أن يثبته على دين التوحيد، وألا يزيغ قلبه كما زاغ هؤلاء؛ فإنه بشر مثلهم والبشر لا تؤمن عليه الفتنة، ولهذا كان نبينا محمدٌ ﷺ وهو أكمل الناس إيمانًا وأكملهم توحيدًا يخاف على نفسه فيدعو ويقول: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**.

فتقول له عائشة أم المؤمنين: تخاف على نفسك؟

فيقول الرسول ﷺ: **يا عائشة، وما يؤمنِّي وقلوب العباد بين أصعبين من أصابع الرحمن**»[(١)].

ولهذا فإن الخليلين: إبراهيم ومحمدًا -صلى اللَّه عليهما وسلم- خافا على دينهما فلجأا إلى اللَّه بأن يهديهما مما وقع فيه الأكثر من الخلق.

ومن حاله دونهما أولى بذلك، فليخف المسلم على دينه وعلى نفسه من شر

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦٠٤)، والآجري في «الشريعة» (٧٣٣)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٩٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٢٤٠)، وصححه الألباني رحمه الله، وقد وردت أحاديث عن جمع من الصحابة في دعاء النبي ﷺ، وفي كون القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن.
انظر جملة من أحاديثهم في «الشريعة» للآجري، و«السنة» لابن أبي عاصم (١/ ١٧٣)، وكذا في «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ١٨٧) باب: إثبات الأصابع للَّه عز وجل.

دعاة السوء ومن الشبهات والفتن، فتنة الشهوة وفتنة الشبهة، فليخف من كل ذلك، وإذا خاف فإنه يأخذ بأسباب السلامة ويتجنب أسباب الهلاك، أما أنه يخاف ولا يأخذ بأسباب السلامة ولا يتجنب أسباب الهلاك فالخوف لا يكفي، فلابد أن يكون مع الخوف عملٌ يقيه من هذه الفتنة.

فهذا أمر خطير ولا يمكن أن تعرف هذه النواقض والشبهات والأفكار المنحرفة إلا بالعلم النافع؛ لأن الجاهل يقع في هذه الأمور وهو لا يدري، بل يقلد الناس ومن يحسن بهم الظن فيفعل مثل فعلهم، وأما العالم الرباني فإنه ينفعه علمه بإذن اللَّه ويتجنب هذه الأمور، ومن كان باللَّه أعرف كان منه أخوف.

فيتعلم الإنسان العلم النافع لاسيما علم العقيدة فيعرف العقيدة الصحيحة من أجل أن يتمسك بها ويعرف نواقض العقيدة ومفسداتها حتى يتجنبها كما قال حذيفة ابن اليمان: «كان الناس يسألون رسول اللَّه ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»[1].

هذا هو الفقه؛ لأنه ما زكى نفسه؛ فقال: مخافة أن يدركني.

ونحن الآن في خضم فتن عظيمة، وشبهات مضللة، ودعاة سوء وأشياء كثيرة لا تخفاكم، فيجب على الإنسان أن يعتني بأمر دينه ويخاف عليه.

وُجد من يقول: لماذا تتعلمون التوحيد وتحذرون من الشرك؟! وأنتم أولاد عقيدة وأصحاب فطرة، وأنتم في بلاد التوحيد، فلا تحتاجون أنكم تدرسون التوحيد وتعرفون أنواع الشرك، ولا أن تشغلوا المناهج الدراسية بكتب العقيدة وتعلموا الأولاد هذه الأشياء، لستم بحاجة إلى أن تعرفوا الشبهات والمذاهب المنحرفة وضلالاتها، فلستم بحاجة إلى هذا!!

فهذا غرور وجهل أو تضليل، فالواجب على الإنسان أن يعرف هذه الأمور من أجل أن يسلم من شرها وفتنتها، ولا يمكن أن تتجنب الشيء وأنت لا تعرفه،

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

ولا يمكن أن تتمسك بالحق وأنت لا تعرفه، فقد تعتقد الحق باطلًا والباطل حقًّا وأنت لا تدري، فهذا أمر مهم جدًّا.

ويقولون: أنتم تُكفِّرون الناس! لماذا تظهرون هذه الأشياء؟

فنقول: نحن لا نكفِّر الناس إلا من كفَّره اللهُ ورسولُه ﷺ، ولكننا نخاف على أنفسنا ولا نزكي أنفسنا، فنأخذ بأسباب النجاة، ونحذر الناس وننصحهم.

ونحن أيضًا نتعلم هذه الأمور من أجل أن نبيِّن للناس أمرها، وندعو إلى اللَّه على بصيرة حتى نسلم ويُسلِّم اللَّه بنا من شاء من عباده، فالحقيقة إن الأمر خطير جدًّا.

ونواقض الإسلام -كما سبق- هي مفسداته ومبطلاته، فمن أسلم وشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه؛ فقد ينقض إسلامه وتوحيده بناقض من هذه النواقض وهو يدري أو لا يدري، فيكون مرتدًّا وفي عداد الكافرين.

ونواقض الإسلام كثيرة أوصلها بعضهم إلى أربعمائة، ولكن أهمها وأخطرها هذه العشرة التي ذكرها الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ؛ نصيحةً للأمة وخوفًا على الأمة من الوقوع فيها، فهو إنما كتبها وأظهرها نصيحة للأمة وخوفًا عليها وإشفاقًا عليها، لا أنه يُكفِّر المسلمين كما يقول أعداؤه وخصومه وإنما ينصح المسلمين ويذكرهم ويعلمهم لأجل أن يتجنبوها ويبتعدوا عنها.

الناقض الأول: وهو أخطر النواقض وأشدها: الشرك في عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ.

والعبادة: مأخوذة من التعبد والتذلل والخضوع الاختياري، والتقرب إلى اللَّه بما شرعه، هذه هي العبادة.

وبعض العلماء يعرفها بأنها: غاية الحب لله عَزَّ وَجَلَّ مع غاية الذل له[1]، هذا

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٥٣).

تعريفها المجمل.

وأما تعريفها المفصل فكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة»[١].

هذه هي العبادة بمعناها الشامل: اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، فهي ظاهرة على اللسان والجوارح، وباطنة في القلوب فهي التقرب إلى اللَّه بما شرعه.

وأنواعها كثيرة مذكورة في الكتاب والسنة.

وقولنا: «**هي التذلل والخضوع الاختياري**»؛ يخرج بذلك الذل والخضوع الاضطراري، فكل الناس عباد للَّه -المؤمن والكافر- بمعنى: أنهم خاضعون منقادون لأقدار اللَّه النافذة فيهم، هم عباد اللَّه يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا أحد يخرج عن قضاء اللَّه وقدره، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

هذه هي العبودية العامة وهي ليست اختيارية وإنما هي اضطرارية، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقولنا: «**وهي التقرب إليه بما شرعه**». يخرج التقرب إليه بما لم يشرعه من البدع والمحدثات، فلابد أن يكون التقرب إلى اللَّه بما شرعه اللَّه لعباده وعلى لسان رسوله ﷺ، أما أن يُحدِثَ الإنسانُ عبادة من عنده أو من عند شيخه أو من عند فلان أو علان غير رسول اللَّه ﷺ فهي عبادة مبتدعة باطلة ومردودة، كما قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧١٨/ ١٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١].

وقال ﷺ: «**وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[٢]. هذا هو تعريف العبادة.

وأما الشرك فهو: صرف شيء من أنواع العبادة لغير اللَّه ﷻ.

قلنا: إن العبادة أنواع كثيرة تؤخذ من الكتاب والسنة فلو صرف شيئًا من أنواع هذه العبادة لغير اللَّه فهو مشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة.

فمن ذبح لغير اللَّه أو نذر لغير اللَّه أو سجد لغير اللَّه، أو دعا غير اللَّه من الأموات والغائبين، أو استغاث بالأموات، أو غير ذلك فهذا قد أشرك باللَّه ﷻ؛ لأن العبادات كلها بجميع أنواعها للَّه ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

والعبادة لا تصح إلا بشرطين:

الشرط الأول: الإخلاص للَّه ﷻ بأن تكون سالمة من الشرك، فإن كان فيها شرك فإنها لا تُقبل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

الشرط الثاني: أن تكون موافقة لسنة الرسول ﷺ؛ فلا يكون فيها ابتداع وإحداث؛ لقوله ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»؛ أي: مردود عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) عن عائشة ﵂.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير اللَّه فهو مشرك أيًّا كان هذا المصروف له، سواءً كان صنمًا أو حجرًا أو شجرًا أو جنًّا أو إنسًا أو حيًّا أو ميتًا؛ فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير اللَّه فهو مشرك باللَّه ﷻ.

والشرك هو أعظم الذنوب، لذا ذكر في أول المحرمات، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

فلا يجوز أن يتخذ مع اللَّه سواه في العبادة، لأن العبادة حق خالص للَّه ﷻ لا يستحقها أحد غير اللَّه ﷻ.

هناك من يفسر الشرك بأنه عبادة الأصنام فقط، وأما عبادة الأولياء والصالحين والأضرحة فليست بشرك عنده، وإنما هي توسل وطلب للشفاعة وما أشبه ذلك، والشرك عندهم فقط عبادة الأصنام!

فنقول: إن عبادة الأصنام نوعٌ من أنواع الشرك، والشرك هو دعوة غير اللَّه سواء كان صنمًا أو غيره، والمشركون متنوعون في معبوداتهم فما اقتصروا على عبادة الأصنام، منهم من يعبد الأصنام، ومنهم يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الشياطين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد المسيح وعزيرًا، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، فهم متفرقون في عباداتهم، ولم يقتصروا على عبادة الأصنام وإنما الأصنام نوع من أنواع المعبودات.

وبعضهم يقول: الشرك أن تعتقد أن أحدًا يخلق مع اللَّه أو يرزق مع اللَّه أو يدبر مع اللَّه، فإذا كنت تعتقد أن أحدًا لا يرزق مع اللَّه ولا يخلق ولا ينفع ولا يضر فأنت موحد، ونقول له هذا لم يقله المشركون الأولون، وهذا هو

توحيد الربوبية وهم لا يشركون في الربوبية.

فما كانوا يعتقدون أن أصنامهم تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت أو تدبر، وإنما يتخذونها وسائط بينهم وبين اللَّه، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]. ما قالوا: هؤلاء يخلقون ويرزقون بل قالوا: يشفعون لنا عند اللَّه، يتوسطون عند اللَّه، فهذا القول قول باطل، وهو حصر للشرك في توحيد الربوبية، بل الشرك القبيح هو الشرك في الألوهية وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير اللَّه ﷻ.

هذا هو الشرك الذي حذَّر اللَّه منه وأرسل الرسل لإنكاره وشرع الجهاد لإزالته، أما الشرك في الربوبية فلا يكاد يوجد في البشرية أن أحدًا يعتقد أن الأصنام تخلق وتدبر وترزق وإنما يقولون هذه وسائط وشفعاء لنا عند اللَّه، فهذا التفسير للشرك تفسير باطل.

ومن الناس من يفسر الشرك أنه شرك الحاكمية ويغفلون ما عداه، ويقولون: التوحيد هو توحيد الحاكمية والشرك هو شرك الحاكمية.

ونقول: هذا نوع من أنواع الشرك؛ لأن التشريع حق للَّه ﷻ والحكم بما أنزل اللَّه عبادة، لكن ليس الشرك محصورًا في هذا النوع، بل الشرك عام في الدعاء والذبح والنذر والاستغاثة، أما أن يحصر في نوع معين ويقال: هذا هو الشرك فهذا غلط وتضليل، فلا يجوز أن يدخل هذا في عقل طالب العلم إلا لأناس لهم أغراض من وراء ذلك، فلو حكم بالشريعة وهو يدعو غير اللَّه فهو مشرك.

فالحاصل: أنه لابد أن نعرف ما هو الشرك؛ لأنهم يفسرونه بغير تفسيره، وإذا تدبرت القرآن تجد أن الشرك هو عبادة غير اللَّه قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢]. هذا شرك في الدعاء.

وكذلك الذبح لغير اللَّه؛ قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

فالذبح والصلاة لغير اللَّه شرك والشرك أنواع كثيرة.

وضابطه: أن من صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير اللَّه فهو مشرك.

والشرك نوعان:

النوع الأول: شرك أكبر.

النوع الثاني: شرك أصغر.

الشرك الأكبر: هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير اللَّه كما سبق.

وهذا النوع يخرج صاحبه من الملة، ويحرم على صاحبه دخول الجنة ويخلده في النار، ويحبط جميع الأعمال، ويبيح دمه وماله، فهو قبيح من عدة وجوه:

أولًا: أنه يجعل صاحبه كافرًا مشركًا.

ثانيًا: أن المشرك قد حرم اللَّه عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار، والتحريم بمعنى المنع من دخول الجنة منعًا باتًّا، ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]. لما حرم من الجنة صارت النار مأواه أبد الآباد ولا يخرج منها أبدًا -والعياذ بالله-.

ثالثًا: أن اللَّه حَرَم المشرك من المغفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فالمشرك إذا مات على الشرك لا طمع له في مغفرة اللَّه ﷻ ما لم يتب منه، وإنما المغفرة من دون توبة لمن شاء اللَّه خاصة بالذنوب التي هي دون الشرك ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ كالزنا والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك من المحرمات والكبائر التي لا تصل إلى حد الشرك، فهي تحت مشيئة اللَّه، إن

شاء غفر لأصحابها، وإن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم ثم يخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بتوحيدهم وإيمانهم.

وهؤلاء يقال لهم: «عصاة الموحدين»، لكن إذا لم يغفر لهم فإنهم لا يخلدون في النار كما يخلد الكفار وعبدة الأصنام والمشركون.

رابعًا: الشرك يحبط جميع الأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

ولهذا يقولون إن الشرك يبطل الأعمال كما يبطل الحدث الطهارة.

فالإنسان إذا توضأ ثم أحدث بطلت طهارته كذلك إذا شهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، ثم أشرك شركًا أكبر بطل توحيده، وبطلت أعماله؛ لأن الشرك يبطل الأعمال كما يبطل الحدث الطهارة، وقال تعالى لما ذكر بعض الأنبياء في سورة الأنعام: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٨].

مع أنهم أنبياء ولكن لو قُدِّرَ أنهم أشركوا لحبطت عنهم أعمالهم كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] فلا ينفع الإنسان أي عمل عمله مع الشرك أو عمله قبله ولم يتب منه كله؛ لأنه يبطل الأعمال.

فإذا مات عليه صار من أهل النار الخالدين فيها، قال ﷺ: «**من مات وهو يدعو من دون اللَّه ندًّا دخل النار**.

وقلت أنا[1]: ومن مات وهو لا يدعو للَّه ندًا دخل الجنة»[2].

---

(١) أي: الراوي عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه وقد جاء قوله هذا مرفوعًا عن النبي ﷺ من حديث جابر، رواه مسلم (٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٩٧)، ومسلم (٩٢) عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

خامسًا: أن الشرك يبيح دم المشرك وماله ويوجب جهاده، قال ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللَّه**»(١).

فلا يعصم المال والدم إلا التوحيد، أما الشرك فإنه يبيح الدم والمال بمقاتلة أصحابه، هذا هو الشرك وما يترتب عليه من العقوبات في الدنيا والآخرة، وهو أنواع كثيرة أعظمها: دعاء غير اللَّه، والاستغاثة بغير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، والذبح لغير اللَّه، والسجود لغير اللَّه، والنذر لغير اللَّه، والركوع لغير اللَّه، إلى آخره. . .

ومن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير اللَّه فقد أشرك الشرك الأكبر.

النوع الثاني: الشرك الأصغر: وهو ما ورد في الكتاب والسنة تسميته شركًا ودلت الأدلة على أن صاحبه لا يخرج من الملة.

وهو نوعان:

النوع الأول: شرك في الألفاظ: كالحلف بغير اللَّه، قال ﷺ: «من حلف بغير اللَّه فقد كفر أو أشرك»(٢). ومثل قول: لولا اللَّه وأنت، ما شاء اللَّه وشئت، هذا شرك في الألفاظ.

النوع الثاني: شرك خفي في القلوب: وهو أنواع: من أبرزها الرياء، فهو يعرض لما يرى من الأعمال وهو على نوعين:

١- رياء المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، الذين يراءون

---

(١) أخرجه مسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد أخرج نحوه بذكر الصلاة والزكاة: البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٤٩٠٤)، والترمذي (١٥٣٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

والحاكم (١/ ١٨)، و(٤/ ٢٩٧)، وصححه من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

الناس بأعمالهم ويعتقدون بقلوبهم الكفر، هذا -والعياذ بالله- رياء كفر؛ لأن أصحابه لا يؤمنون باللَّه ﷻ وإنما يتظاهرون بالأعمال الصالحة لأجل مطامع دنيوية.

٢- الرياء الذي يحصل من المسلم، قال ﷺ لأصحابه لما خرج إليهم وهم يتذاكرون الدجال قال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**

قالوا: بلى يا رسول اللَّه.

قال: **الرياء، يقوم أحدهم فيصلي ويزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه**»[1].

فهذا قد يقع من المسلم والمؤمن، فإذا وجد في نفسه شيئًا من هذا الرياء قاومه وعاد إلى الإخلاص للَّه ﷻ فلا يضره إذا دفعه، وأما إذا استمر معه فإنه يبطل العمل إذا كان معه من بدايته، وكذلك إذا طرأ في أثناء العمل واستمر على الراجح.

وكذلك السمعة وهي لما يسمع من الأقوال كالذكر وتلاوة القرآن من أجل أن يسمعه الناس ويثنوا عليه، ويقع في الأقوال المشروعة من قراءة وأذكار وغير ذلك ممن يفعلها يريد أن يمدحه الناس حين يسمعونه، أو أن يقع في نفسه شيء من حب الثناء فهذا شرك أصغر.

وكذلك من الشرك الخفي: أن يريد الإنسان بعمله الدنيا، فيعمل عملًا صالحًا وهو يريد طمع الدنيا كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا

(١) أخرجه أحمد (١١٢٥٢)، وابن ماجه (٤٢٠٤)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، وصححه الحاكم وحسنه الألباني.

ٱلنَّارُۖ﴾ [هود: ١٥-١٦].

فالذي يأتي بعبادة يريد بها طمع الدنيا، كالذي يطلب العلم الشرعي لأجل الدنيا، وأما الذي يطلب العلم غير الشرعي فلا بأس أن يتعلمه من أجل الحرفة والمهنة ليتعيَّش بها كأن يتعلم الحساب والصناعة والكتابة، يقصد بذلك أن يحصل على وظيفة؛ فهذا لا بأس به، وهو من الأسباب المباحة وليس عبادة.

أما العبادات كأن يصلي من أجل طمع الدنيا أو يجاهد من أجل طمع الدنيا أو يطلب العلم أو يحج؛ فهذا داخل في هذه الآية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ وعليه الوعيد الشديد، وهو نوع من الشرك، قال ﷺ: «**تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الدينار والدرهم، إن أُعطي رضي وإن لم يعطَ لم يرضَ**»(١). فهذا نوع من الشرك.

فالإنسان يخلص أعماله لله ﷻ، فإن جاءه شيء من الدنيا فهو رزق ساقه اللَّه إليه، وأما إن عمل عملَ الآخرة لأجل الدنيا فهذا هو المذموم وهو من الشرك وعليه الوعيد الشديد، فعلى المسلم أن يخلص أعماله للَّه ﷻ.

وهناك فروق كثيرة بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وهي:

١- أن الشرك الأكبر يخرج من الملة، والشرك الأصغر لا يخرج من الملة ولكنه كبيرة من كبائر الذنوب، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر.

٢- أن الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال، وأما الشرك الأصغر إذا كان رياءً أو سمعة فإنه يحبط العمل الذي وقع فيه، ولا يحبط بقية الأعمال التي ليس فيها رياء.

٣- أن الشرك الأكبر يحل الدم والمال بخلاف الشرك الأصغر؛ فإنه لا يحل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

دم الإنسان وماله لأنه لم يخرج من الإسلام.

واختلف العلماء في الشرك الأصغر: هل يغفر كسائر الذنوب التي دون الشرك الأكبر أو لا يغفر؛ لأن اللَّه عمَّم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]؟ فهذا يعم الشرك الأكبر والأصغر.

ولكن هناك فرق بحيث أن الشرك الأكبر يخلد صاحبه في النار والشرك الأصغر لا يخلد صاحبه في النار، وإنما لابد من تعذيبه ولا يقبل المغفرة لكن لا يخلد في النار.

فهذه بعض الفروق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وكلها خطيرة ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

ولا يُقال هذا شرك أصغر فيتساهل الإنسان فيه؛ ولهذا يقول عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف باللَّه كاذبًا أحب إليَّ أن أحلف بغيره صادقًا»(١). لأن سيئة الكذب أخف من سيئة الشرك.

وهناك شبهات يدلي بها عبَّاد القبور وعباد الأولياء والصالحين اليوم، يلبسون بها على الناس.

منها: أنهم يقولون: إن الشرك عبادة الأصنام فقط، وأما من عبد غير الأصنام كالذي يعبد الأولياء والصالحين فهذا ليس شركًا، وإنما هو توسل إلى اللَّه، واللَّه تعالى يقول: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

والجواب على هذه الشبهة: أن الذين قاتلهم رسول اللَّه ﷺ منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشجر والحجر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين؛ قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٩٢٩)، والطبراني في «الكبير» (٨٩٠٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٧٧): (رجاله رجال الصحيح).

وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨].

وكذلك النصارى عبدوا المسيح، فهم لا يعبدون صنمًا وإنما يعبدون المسيح -عليه الصلاة والسلام- فهل يقال: إنهم غير مشركين لأنهم لا يعبدون صنمًا؟ من يقول هذا؟

فالشرك هو عبادة غير اللَّه أيًّا كان هذا الغير، والمشركون الأولون ليس شركهم مقصورًا على عبادة الأصنام، بل هم مختلفون في عباداتهم كما ذكر ذلك الشيخ في كتابه «كشف الشبهات»، وفي «القواعد الأربع»، وهو: أن النبي ﷺ ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم وحاربهم جميعًا وقاتلهم ولم يفرق بينهم، لم يفرق بين من عبد صنمًا، وبين من عبد قبرًا أو شجرة أو حجرًا أو وليًّا من الأولياء، بل قاتلهم ولم يفرق بينهم.

فلا فرق بين من عبد الصنم أو عبد الشجر والحجر أو الملَك أو الجن أو الإنس، وهذا شيء واضح.

ومن شبهاتهم أنهم يقولون: إننا لا نعبد الأولياء والصالحين لأنهم ينفعون أو يضرون وإنما نعبدهم لأجل أن يشفعوا لنا عند اللَّه، ويتقربون لهم بالذبح والنذر والاستغاثة من أجل أن يشفعوا لهم عند اللَّه.

أما المشركون الأولون فإنهم يعتقدون أن هذه الأشياء تنفع وتضر من دون اللَّه ﷻ، ويقولون: ونحن لا نعتقد ذلك، ونحن نعلم أنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولكن اتخذناهم شفعاء.

والجواب عن هذه الشبهة: أن هذا هو الذي ذكره اللَّه ﷻ عن المشركين الأولين؛ قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨].

لا فرق بين شرك هؤلاء وبين شرك الأولين؛ فكلهم يقصدون الشفاعة، أن تشفع لهم هذه الأشياء والمعبودات.

فالشفاعة حق ولكن ليس هذا هو طريقها، بل لها طرق شرعية بيَّنها اللهُ تعالى وبيَّنها الرسول ﷺ، ليس من طرقها أن الشافع يُتخذ إلهًا من دون اللَّه يذبح له وينذر له ويستغاث به، هذا هو فعل المشركين الأولين لا فرق.

ومن شبهاتهم: أنهم يقولون: إن المشركين الأولين لا يقولون: «لا إله إلا اللَّه»، أما هؤلاء الذين يعبدون الأولياء والصالحين فإنهم يقولون: «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه»، فكيف تجعلون من لا يقول: «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه» مثل الذي يقول: «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه»؟!

فنقول: سبحان الله! هؤلاء قالوا: «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه» ولكن ناقضوها، و«لا إله إلا اللَّه» لا تنفع إلا إذا سلمت من المناقضات، فهؤلاء تلفظوا بها ولكنهم ناقضوها بفعل الشرك، فما معنى «لا إله إلا اللَّه»؟

معناها: لا معبود بحقٍّ إلا اللَّه، وهؤلاء يقولون هذه الكلمة ولا يعملون بها؛ فهم يعبدون القبور والأولياء والصالحين وهم يقولون: «لا إله إلا اللَّه».

فالمشركون الأولون أعرف بـ «لا إله إلا اللَّه» من هؤلاء؛ لأنه لما قال لهم رسول اللَّه ﷺ: «قولوا: لا إله إلا اللَّه»، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥].

عرفوا معنى «لا إله إلا اللَّه» وأن من قالها لابد أن يترك عبادة غير اللَّه، وهؤلاء -من جهلهم وغباوتهم- جمعوا بين النقيضين، بين قول: «لا إله إلا اللَّه» وبين عبادة غير الله ﷻ، فهم لم يفهموا من «لا إله إلا اللَّه» ما فهمه المشركون من قبل، وهذا في منتهى الغباوة والسذاجة، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم، ولكن الهوى -والعياذ بالله- يوقع في الضلال.

ومن شبهاتهم أنهم يقولون: إن المشركين الأولين يعبدون أشجارًا وأحجارًا وجمادات، أما نحن فندعو ونتوسل بعباد صالحين وأولياء لهم جاه عند اللَّه، فنحن نتخذهم وسيلة عند اللَّه، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. فنحن اتخذنا الوسيلة، فهؤلاء هم الوسيلة.

فنقول لهم: الوسيلة في كتاب اللَّه الطاعة والعبادة، وهي ما يوصل إلى اللَّه ﷻ بطاعته وفعل أوامره وترك نواهيه، وليس الوسيلة أنك تجعل بينك وبين اللَّه واسطة، هذا لم يدل عليه القرآن ولا السنة وما قال به أحد من أهل العلم المعتبرين، بل الوسيلة في الكتاب والسنة هي التقرب إلى اللَّه بطاعته.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾؛ أي: القربى إلى اللَّه والطاعة، أما من فسر الوسيلة باتخاذ الوسائط فهذا تفسير باطل ومحدَث ولم يقل به أحد من أئمة التفسير، ولله الحمد.

وعلى كل حال: فهذه شبهات داحضة لا قيمة لها -ولله الحمد- ولكن هي التي يعتمدون عليها.

وهناك من يعتذر عنهم ويقول: هؤلاء الذين يعبدون الأضرحة والقبور يعذرون بالجهل، وما أكثر ما نسمع هذه المقالة أو نقرؤها في كتبهم، وأن فعلهم هذا لا يجوز لكنهم جهال.

فنقول لهم: كيف يكونون جهالًا وهم يقرءون القرآن وفيه النهي عن الشرك؟ والنهي عن اتخاذ الوسائط من دون اللَّه ﷻ؟

ومن بلغه القرآن وهو عربي يفهم معناه قامت عليه الحجة، قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه القرآن وهو عربي قامت عليه الحجة، وإن كان غير عربي فيترجم له معناه حتى يفهمه، وهؤلاء الذين يتخذون القبور والأضرحة في بلاد العرب هم عرب فصحاء وربما أن أحدهم يحفظ كتاب سيبويه، ويعرف اللغة العربية والبلاغة ومع هذا يعبد القبور، هل هذا معذور بالجهل؟

وأكثر ما تكون هذه القبور والأضرحة في بلاد العرب الذين نزل القرآن

بلغتهم، فكيف تقولون هؤلاء جهال؟ إلى متى الجهل؟ لأنه بعد بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن زالت الجاهلية وجاء العلم والحجة، فهل يعذر بالجهل وهو يعيش في بلاد المسلمين ويحفظ القرآن، ويقرأ القرآن ويسمعه، ويسمع كلام أهل العلم خصوصًا بعدما جاءت وسائل الإعلام التي تنقل إلى الناس كلام أهل العلم، ويقرأ فيها القرآن صباحًا مساءً بصوت يسمعه من في المشرق والمغرب؟!

كيف يقال: إن هؤلاء ما بلغتهم الحجة؟ هؤلاء جهال! مع أن أكثرهم معهم شهادات عليا في اللغة العربية وعلوم الشريعة والقراءات والفقه والأصول.
فالحاصل: أنهم لا حجة لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، ونسأل اللَّه أن يهديهم إلى الصواب، وأن يستبين لهم الحق، وأن يتركوا العناد، ويتركوا التقليد الأعمى، ويرجعوا إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم محمد ﷺ حتى يحققوا إسلامهم ويصححوا دينهم ويكونوا من أمة محمد ﷺ، ولا يكونوا من أمة المشركين وأتباع أبي جهل وأبي لهب.

فهذا في الواقع أمر عظيم وخطير، وأنتم يا عباد اللَّه تقرءون وتسمعون ومنكم من سافر ورأى العجب العجاب من أفعال هؤلاء وشركياتهم ووثنياتهم ولا يقبلون نصيحةً، ولا يصغون إلى من يناديهم إلى الحق إلا من شاء اللَّه.

فهذا أمر خطير ولا يجوز لطالب العلم والعالم أن يسكت على هذا، بل عليه أن يبين للناس ويوضح للناس ويدعو إلى اللَّه تعالى.

ويجب على ولاة المسلمين جهاد هؤلاء حتى يكون الدين للَّه وحده.

ما معنى الدعوة إلى اللَّه ما دمنا ساكتين عن هؤلاء؟ ندعوهم إلى الصدق، وعدم الغش في البيع والشراء، وعدم الزنا ونترك الشرك لا ندعوهم إلى تركه، نترك الخطر العظيم ولا نبدأ بالتوحيد والنهي عن الشرك، وأما بقية الذنوب؛ فإنها تحت المشيئة لكن الشرك لا يقبل المغفرة ولا يدخل تحت مشيئة اللَّه في المغفرة.

وكوننا نبدأ بالفروع ونترك الأصل هذه ليست طريقة الدعوة إلى اللَّه ﷻ؛ فإن الرسل أول ما يبدءون بتصحيح العقيدة في الدعوة إلى اللَّه ﷻ، لا يبدءون بالأطراف والجوانب التي لا تنفع مع عدم التوحيد وعدم العقيدة الصحيحة.

فلو أن الإنسان ترك الزنا وترك شرب الخمر والربا وترك جميع المحرمات إلا أنه مشرك لم ينفعه ذلك كله، ولو يصلي الليل والنهار، ولو تصدق بجميع أمواله ما دام عنده شرك أكبر فلن ينفعه ذلك.

أما لو كان عنده توحيد وسلامة من الشرك وإخلاص للَّه فهو لو عمل الكبائر التي دون الشرك فإنه يُرجى له المغفرة، وإن عُذِّب فإنه لا يخلد في العذاب، فكيف نترك الأمر الخطير ونتجه إلى ما دونه ونقول هذا العمل هو الدعوة إلى اللَّه ﷻ.

الآن تعرفون جهود الدعوة وكثرة الدعاة، وأن لها مؤسسات ومراكز لكن الأضرحة على حالها، بل تزيد في العالم الإسلامي، والتصوف والبدع يكثران! أين الدعوة إلى اللَّه؟ أين هذه الجهود وثمراتها؟

فالواجب علينا أن نتنبه لهذا الأمر وأن ندعو إلى اللَّه على بصيرة ونبدأ بما بدأت به الأنبياء والرسل، وهو تصحيح العقيدة ثم البناء عليها؛ لأنها هي الأساس وما عداها مبني عليها؛ فإذا كان الأساس صحيحًا كان البناء صحيحًا، وإذا كان الأساس فاسدًا انهار البناء ولا ينفع صاحبه ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

هذا مثال واضح لمن أسس دينه على عقيدة صحيحة ونية صالحة ومن أسس بنيانه على شرك وعلى أمور أخرى مخالفة لدين اللَّه.

هذا، ونسأل اللَّه أن يرينا الحقَّ حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، إنه سميع مجيب.

الأسئلة

سؤال: ذكر بعض العلماء أن الذنوب كلها داخلة تحت الشرك الأصغر، فهل هذا القول صحيح؟

جواب: ما كل الذنوب شرك، منها ما هو شرك ومنها ما هو غير شرك، وجعل الذنوب كلها من الشرك هذا غلط.

سؤال: لقد ذكرتم أن العلماء -رحمهم الله- اختلفوا في الشرك الأصغر هل يغفر أم لا؟ وما هو الراجح من اختلافهم؟

جواب: الراجح -واللَّه أعلم- أنه لا يغفر لعموم الآية ولكن صاحبه لا يخلد في النار كما يخلد صاحب الشرك الأكبر.

سؤال: التبرك متى يكون شركًا ومتى لا يكون شركًا؟

جواب: إذا اعتقد أن البركة تحصل من غير اللَّه ﷻ بأن تبرك بالشجر أو الحجر يعتقد أنه يمنح البركة، فهذا شركٌ أكبر، أما إذا اعتقد أن هذا الشيء سببٌ للبركة، والبركة من اللَّه وهذا سبب لحصولها؛ فهذا شركٌ أصغر.

سؤال: لو ذبح رجلٌ أضحيته عند قبر فلان، رجاء أن تنزل البركة على ذبيتحه، فهل يعد هذا الذبح شركًا أكبر، أم شركًا أصغر؟

الجواب: إذا كان ذبح للميت، أو ذبح للقبر فهذا شركٌ أكبر، أما إن كان ذبح لله، ولكن يظن أن هذا المكان فيه فضيلة فهذا شركٌ أصغر ووسيلة من وسائل الشرك الأكبر.

سؤال: هل لثبوت الردة شروطٌ معتبرة؟

جواب: شروط الردة:

أولًا: ألا يكون معذورًا بالجهل، كأن يكون ما بلغه شيء، أو عاش في بيئة بعيدة عن المسلمين ولم يسمع بشيء ولا بلغه شيء، هذا لا يحكم عليه حتى يبين له ويشرح له أن هذا شرك وهذا كفر.

ثانيًا: عدم الإكراه، أما إذا أكره على قول الكفر أو كلمة الكفر مع صحة إيمانه في قلبه وعقيدته، فهذا يعذر بالإكراه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

سؤال: ما رأيكم فيمن يقول أن كتاب نواقض الإسلام وكتاب كشف الشبهات تعلم الناس التكفير، وتجرؤهم على ذلك، فالأولى عدم تدريسها للناس؟

جواب: ألم نقل لكم أثناء الدرس أن هناك من يقول لكم: لماذا تدرِّسون الناس مثل هذه الأشياء؟ لماذا تشرحونها؟ الناس مسلمون ويكفي اسم الإسلام ولو فعلوا ما فعلوا، هذا كلام قالوه ويقولونه، وهم أعداء التوحيد، شارقون بالتوحيد، لا يريدون التوحيد ولا ذكر التوحيد، هذا قصدهم.

ولكن سندرس هذا -إن شاء اللَّه- وسيقرر في المدارس وسيشرح في المساجد رغم أنوفهم، وهذا واجب على أهل العلم وواجب على الناس أن يتعلموا هذا الأمر؛ لأن هذا هو أساس الدين.

سؤال: رجل يدعو غير اللَّه، فأخبرته أن هذا العمل شرك، فلم يستجب فهل أحكم عليه بالشرك؟ أم أنه لابد أن يحكم عليه بذلك عالم من العلماء؟

جواب: ما نحكم عليه حتى نسمع كلامه، ونستقرئ حالته، هل هو صحيح العقل أو مخبول؟

هذا لابد يرجع فيه إلى أهل العلم ويبلغ عنه أهل العلم في بلده، من أجل أن يتخذوا معه الإجراء اللازم.

* * *

الدرس الثالث
في شرح الناقض الثاني

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن جعل بينه وبين اللَّه وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم؛ كفر إجماعًا [٢].

---

[٢] **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الثاني**»؛ أي: من نواقض الإسلام: «من يتخذ بينه وبين اللَّه وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم؛ كفر إجماعًا».

قوله: «**من يتخذ بينه وبين اللَّه وسائط**»؛ أي: وسائط من الخلق يتوسطون له عند اللَّه بزعمهم، وهذه المسألة -مسألة الواسطة بين اللَّه وخلقه- وفيها تفصيل(١) كم قال شيخ الإسلام.

فمن قال لابد من واسطة بين اللَّه وبين خلقه فإنه يُسأل: ما مقصوده بالواسطة؟

فإن كان المقصود: أنه لابد لنا من واسطة في تبليغ الرسالة فيما بيننا وبين اللَّه فهذا صحيح، هذه واسطة لابد منها من أنكرها كفر، فلابد من واسطة في تبليغ شرعه وهم الرسل من الملائكة والبشر، فمن أنكر هذه الواسطة كفر، فمن أنكر الملائكة والرسل الذين يأتون بشرع اللَّه وقال: لا حاجة إليهم نحن نتصل باللَّه بدونهم كما تقوله الصوفية إنهم يأخذون عن اللَّه مباشرة بلا واسطة؛ فهذا كفر بالإجماع.

وهناك واسطة من أثبتها فقد كفر، وهي التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وهي أن يُتخذ واسطة بينه وبين اللَّه، يدعوهم ويطلب منهم الشفاعة ويتوكل عليهم.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٢١-١٢٣).

فهذه الواسطة من أثبتها كفر إجماعًا؛ لأنه لا واسطة بيننا وبين اللَّه في عبادته، بل يجب علينا أن نعبد اللَّه وندعوه مباشرة وبدون واسطة، وأن نطلب منه الشفاعة بدون واسطة، وأن نتوكل عليه بدون واسطة بيننا وبين اللَّه، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠].

ما قال: ادعوني بواسطة فلان، أو اتخذوا واسطة، فهذه الواسطة من أثبتها فقد كفر وهي أنه يجعل بينه وبين اللَّه وسائط يصرف لهم شيئًا من العبادة من أجل أن يقربوه إلى اللَّه، كما يقول المشركون من قبل: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ فسمى هذا عبادة.

﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]. سمى هذا شركًا ونزه نفسه عنه.

وهذا هو حال عبَّاد الأموات والأضرحة الآن، يتخذون الأولياء والصالحين وسائط عند اللَّه، يذبحون لهم عند قبورهم وينذرون لهم ويستغيثون بهم ويدعونهم من دون اللَّه.

فإذا قيل لهم: هذا شرك!

قالوا: هؤلاء وسائط بيننا وبين اللَّه، نحن لا نعتقد أنهم يخلقون مع اللَّه، ويرزقون مع اللَّه، ويدبرون مع اللَّه، وإنما اتخذناهم وسائط بيننا وبين اللَّه، ويبلغون اللَّه حوائجنا، فيذبحون لهم ويعظمونهم وينذرون لهم بحجة أنهم وسائط بينهم وبين اللَّه.

فهذا هو شرك الأولين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]. فسمى فعلهم هذا كذبًا وكفرًا.

وأما الذي يتخذ الوسائط ويعتقد أنها سبب، ولا يدعوها، ولا يذبح ولا ينذر لها ويعتقد أن العبادة للَّه ولا يعبد إلا اللَّه لكن يتخذ الوسائط على أنها

أسباب تقربه إلى اللَّه بزعمه ويسأل اللَّه بجاههم وحقهم.

فعمله هذا بدعة ووسيلة إلى الشرك؛ لأن اللَّه لم يأمرنا باتخاذ الوسائط في الدعاء وطلب الشفاعة، وليس هذا سببًا لإجابة الدعاء بأن توسط بينك وبين اللَّه صالحًا من الصالحين أو نبيًّا من الأنبياء، هذا قول على اللَّه بلا علم.

فاللَّه أمرنا بدعائه ولم يأمرنا باتخاذ واسطة بيننا وبينه، فيجب التفريق بين الحالتين، حالة من يعبد الوسائط ويذبح لها وينذر ويتقرب إليها، وحالة من لا يعبدها وإنما يتخذها بمثابة وسائط تبلغ حاجته للَّه ﷻ بجاهها وصلاحها ومكانتها عند اللَّه، فهذا باطل وهو بدعة؛ لأنه إحداث شيء في الدين لم يأذن اللَّه به، وهو وسيلة من وسائل الشرك.

والمتأخرون لا يقتصرون على جعل الوسائط مجرد وسائط لا يصرفون لها شيئًا من العبادة، بل الغالب أنهم يعبدونها وينذرون ويذبحون لها كما يفعلون عند الأضرحة فيتبركون بترابها وأعتابها ويحجون إليها في أوقات معينة، ويعكفون عندها، ويأتون بقطعان الأنعام فيذبحونها في ساحات الأضرحة يتقربون بها إلى الأضرحة، وأصحاب الأضرحة -بزعمهم- يقربونهم إلى اللَّه ويبلغون اللَّه حوائجهم.

وهذا هو شأنهم وديدنهم من قديم منذ بنيت المساجد على القبور كما أخبر النبي ﷺ، وقد وقع ما أخبر به ﷺ، ووقع هؤلاء فيما وقعت فيه اليهود والنصارى من البناء على القبور كما قال ﷺ: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألَا فلا تتخذوا القبورَ مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»(١).

وكان هذا ممنوعًا في الصدر الأول من هذه الأمة في عصر القرون المفضلة

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد اللَّه ﵁.

ولا يوجد شيء من البنايات على القبور حتى جاءت دولة الفاطميين الشيعة، واستولوا على مصر وكثير من البلاد وهم شيعة باطنية فبنوا المشاهد على القبور في مصر وغيرها، ثم تكاثرت الأضرحة في بلاد المسلمين بعد ذلك بسبب هؤلاء الشيعة -قبحهم الله-، فهم أول من بنى على القبور كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

□ **وهؤلاء لهم شبهات يستدلون بها بزعمهم يظنون أنها أدلة:**

- **الشبهة الأولى:**

أن هذا من اتخاذ الوسيلة، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

فسروا الوسيلة بأن تجعل بينك وبين الله واسطة من الخلق.

وفي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ففسروا الوسيلة في الآيتين: بأنه اتخاذ الوسائط بينهم وبين الله وهذا تفسير باطل لم يقله أئمة التفسير، بل أئمة التفسير فسروا الوسيلة: بأنها الطاعة والتقرب إلى الله بعبادته.

والوسيلة: هي الطريق الموصل إلى الله بعبادته وذلك بعبادته وحده لا شريك له، والتقرب إليه، فالطريق الذي يوصل إليه وهو عبادته وحده لا شريك له.

فالوسيلة: هي العبادة والطاعة بفعل الأوامر وترك النواهي.

وأما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾؛ فالمعنى: أن الذين يعبدون الملائكة من العرب والذين يعبدون المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من النصارى رد الله عليهم بأن هؤلاء الذين تعبدون

من دون اللَّه هم من عبادي، يتقربون إليَّ ويعبدونني، وليس لهم من الأمر شيء ولا من الربوبية شيء، فهم عباد يتقربون إلى اللَّه بالعبادة ويرجون رحمة اللَّه ويخافون عذابه.

فلا يجوز أن يُتخذوا وسائط ووسائل يُتقرب بواسطتهم إلى اللَّه، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾؛ أي: يدعوهم المشركون من الملائكة وبعض الرسل كالمسيح ﷺ هؤلاء عباد للَّه ليس لهم من الأمر شيء.

﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ فهم فقراء إلى اللَّه محتاجون إليه: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

فكيف يتخذون آلهة يعبدون مع اللَّه وهم عباد يخافون من عذاب اللَّه ويرجون رحمته ويتقربون إليه؟ هذا هو تفسير الآية الذي فسرتها به أئمة التفسير.

وقيل: إن أناسًا كانوا يعبدون ناسًا من الجن فأسلم الجن ولم يعلم الذين يعبدونهم بإسلامهم، فاللَّه أخبر أن هؤلاء الذين تعبدونهم من دون اللَّه قد أسلموا وصاروا يتقربون إليه ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فكيف يتخذون مع اللَّه تعالى وهم من عباده، ويعبدون اللَّه ويرجون رحمته ويخافون عذابه؟

فالآية لها تفسيران صحيحان:

التفسير الأول: أن المراد بهم الملائكة وبعض الرسل.

والثاني: أن أناسًا من الجن يعبدهم المشركون فأسلموا ولم يعلم من يعبدونهم أنهم أسلموا، فاللَّه أخبر عنهم، وعلى كل ما داموا كذلك فهم عباد يتقربون إلى اللَّه ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

فلا يجوز أن يُتخذوا مع اللَّه ﷻ؛ ولهذا بطل تفسيرهم أن الوسيلة هي اتخاذ الوسائط من المخلوقين بينهم وبين اللَّه وسقطت حجتهم، ولله الحمد.

- **الشبهة الثانية:**

أنهم يتخذون الوسائط بينهم وبين اللَّه من باب التعظيم لله، فإن اللَّه عظيم ولا يتوصل إليه إلا بالوسائط وهم الشفعاء الذين يشفعون عنده، ويتوسطون عنده، فهذا -بزعمهم- من تعظيم اللَّه بحيث لا يتوصل إليه إلا بوسائط، كما أن ملوك الدنيا لا يتوصل إليهم إلا بالوسائط والشفعاء.

فحصل من زعمهم هذا:

أولًا: أنهم قاسوا اللَّه ﷻ على ملوك الدنيا، وهذا أمر باطل، وليس من تعظيم اللَّه ﷻ، بل هو من تنقص اللَّه بحيث إنهم قاسوه بخلقه وصرفوا شيئًا من عبادته لغيره، والشرك تنقص للَّه ﷻ، وليس تعظيمًا كما يزعمون.

ثانيًا: أن قياس اللَّه على البشر تنقص للَّه تعالى، فاللَّه -جل وعلا- يعلم أحوال عباده، أما البشر والملوك فلا يعلمون أحوال الرعية إلا بأحد يبلغهم عنها لأنهم بشر، وأما اللَّه ﷻ فإنه يعلم ما في السموات والأرض ولا يحتاج من يبلغه حوائج عباده.

ثالثًا: أن ملوك الدنيا بحاجة إلى أن يقبلوا شفاعة الشافعين لأنهم بحاجة إلى الأعوان والوزراء، فلو ردوا شفاعتهم لتنكَّروا عليهم وعادوهم، فهم يقبلون شفاعتهم وإن كانوا يكرهون ذلك من أجل الإبقاء على ملكهم واستجلاب الناس للخضوع لهم، أما اللَّه -جل وعلا- فإنه غني عن عباده لا يحتاج إلى وزراء وشفعاء كملوك الدنيا.

رابعًا: أن ملوك الدنيا -في الغالب- لا يريدون الخير ولا يعطون الطلب إلا مع تثاقل، وأما اللَّه -جل وعلا- فكريم ولا يؤثر عليه أحد في إرادة الخير لعباده كما يؤثر على ملوك الدنيا.

اللَّه -جل وعلا- إذا طلبته ودعوته؛ فإنه قريب مجيب لا يحتاج إلى وساطة

بخلاف ملوك الدنيا؛ فإنهم لا يعطون الطلب إلا بعد التي واللتيا كما هو معروف؛ لأنهم بشر، وصفة البشر الشح والبخل والتمنع والتنكر، أما اللَّه -جل وعلا- فإنه كريم مجيب قريب غني.

خامسًا: أن ملوك الدنيا فقراء ينفد الذي عندهم، وقد لا يكون عندهم شيء ويحتاجون إلى القرض وإلى الاحتيال، وأما اللَّه -جل وعلا- فعنده خزائن السموات والأرض، فهو غني كريم، كل حوائج الخلق عنده، قال اللَّه تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر**»(١).

فلو أن كل الخلق أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم اجتمعوا في صعيد واحد وسألوا وأعطاهم اللَّه حوائجهم كلها لا ينقص ذلك من ملكه شيئًا، بخلاف ملوك الدنيا فلو أعطوا نفد الذي عندهم، قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

فقياس الخالق سبحانه على المخلوق باتخاذ الوسائط عنده قياس باطل من وجوه متعددة.

- **الشبهة الثالثة:**

الوسائط رجال صالحون ولهم مكانة عند اللَّه ﷻ، فنحن نسأل اللَّه بهم، لأننا مذنبون وهؤلاء رجال صالحون ولهم مكانة عند اللَّه فنطلب منهم أن يقربونا إلى اللَّه زلفى، وأن يشفعوا لنا عند اللَّه ﷻ.

والجواب عن ذلك: أن صلاح الآخرين وعمل الآخرين ليس لك فيه استحقاق وعملهم لهم، وأنت لا ينفعك إلا عملك، فإذا لم يكن لك عمل فهؤلاء

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.

لا ينفعونك ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

فصلاحهم لا ينفعك ما دمت ليس لك عمل!

فلماذا لا تعمل أنت حتى تكون صالحًا وقريبًا من اللَّه؟ أما أن تعتقد أنه يقربك إلى اللَّه عمل غيرك هذا من الخبال، قال اللَّه -جل وعلا-: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

فلا ينفعك صلاحهم وقربهم من اللَّه إذا لم تكن أنت على عمل صالح وعلى عقيدة سليمة؛ فإنهم لا ينفعونك أبدًا.

وأيضًا عملك هذا شرك، والمشرك لا تقبل فيه الشفاعة؛ لأن اللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

فالمشرك لا تُقبل فيه شفاعة، وعبادة غير اللَّه شرك وإن كنت تزعم أنك تعبدهم لأجل أن يتوسطوا لك عند اللَّه فأنت مشرك، والمشرك لا تنفعه شفاعة.

فعليك أن تصلح عملك مع اللَّه ﷻ، ولا تلتفت إلى أعمال الآخرين لأنها لهم، فصلاحهم وعملهم لهم، ولا ينفعك أنت إلا عملك الصالح؛ فإن لم يكن لك عمل صالح فلا أحد ينفعك بعمله حتى ولو كان أقرب الناس إليك.

- **الشبهة الرابعة:**

وهي شبهة عريضة عندهم، أن عمر رضي الله عنه توسل بالعباس رضي الله عنه في الاستسقاء لما أجدبوا واستسقوا، فإن عمر رضي الله عنه طلب من العباس رضي الله عنه عم النبي ﷺ أن يدعو اللَّه لهم بالغيث؛ فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قم يا عباس فادعُ، فقام العباس

فدعا لهم فاستجاب اللّه لهم(١) .

قالوا: توسل عمر بالعباس دليل على أن اتخاذ الوسائط جائز .

فنقول لهم: سبحان اللّه ، إن عمر توسل بدعاء العباس ، ولم يتوسل بذات العباس أو بجاهه وإنما توسل بدعائه فقال: قمْ فادعُ ، وطلب الدعاء من الصالحين أمر مشروع .

والنبي ﷺ قال لعمر لما أراد عمر رضي الله عنه أن يسافر للعمرة وودعه الرسول ﷺ قال له: «**لا تنسنا يا أخيَّ من صالح دعائك**»(٢) .

فطلب الدعاء من الصالحين الأحياء أمر مشروع ، وأما الميت فلا يطلب منه شيء ، لكن الرجل الصالح الحي الحاضر يجوز لك أن تطلب أن يدعو اللّه لك أو يدعو للمسلمين .

وكذلك معاوية رضي الله عنه لما استسقوا أمر يزيد -وهو ابن الأسود- الجرشي أن يدعو اللّه فدعا الله(٣) .

ولذا قال الفقهاء في كتاب الاستسقاء: ويستحب التوسل بالصالحين(٤) ؛ أي: بدعائهم ، ولو كان المقصود التوسل بذواتهم أو بفضلهم ومكانتهم لما عدل الصحابة عن الرسول ﷺ ؛ لأن الرسول ﷺ له مكانة عند اللّه وله جاه لا يزولان

(١) أخرجه البخاري برقم (١٠١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد (١٩٥)، وأبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح» .

(٣) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في «التاريخ» (١/ ٦٠٢)، واللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة» (٩/ ٢١٤-٢١٥) .

وصحح إسناده الألباني، وقال ابن الملقن: «مشهور، قاله النووي»، «خلاصة البدر المنير» (١/ ٢٥٢) .

(٤) انظر: «المغني» (٣/ ٣٤٦)، «الكافي» (١/ ٥٣٥) .

بموته ﷺ، ومع هذا لم يسألوا اللَّه بجاه الرسول، ولا بحق الرسول ولا بعمل الرسول ﷺ، فعدلوا عن الرسول ﷺ وهو أفضل الخلق إلى المفضول وهو عمه العباس.

فما عدلوا عن الفاضل إلى المفضول؟ إلا لأن الفاضل ميِّت والميت لا يطلب منه شيء وإنما يطلب من الحي.

فيطلب منه المال ويطلب منه الدعاء ويطلب منه المساعدة، إذا كان قادرًا وحاضرًا، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

فهذا هو الرد عليهم في قضية توسل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه لم يتوسل بذات العباس أو بحق العباس، أو بجاه العباس؛ لأن هذا أمر باطل وإنما عمر رضي الله عنه توسل بدعاء العباس قال له: قم فادعُ. وهذا أمر جائز لا بأس به.

وحينئذٍ لابد أن نبين التوسل الجائز والتوسل الممنوع.

فالتوسل ينقسم إلى قسمين: توسل جائز، وتوسل ممنوع.

- **أولًا: التوسل الجائز، وهو أنواع:**

١- التوسل إلى اللَّه بأسمائه وصفاته جل جلاله؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فادعوه بها؛ أي: توسلوا إلى اللَّه بها، فتقول: يا رحمن ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا كريم أكرمني وأعطني، يا غني أعنني، وهكذا، تتوسل إليه بأسمائه، كما توسل أيوب عليه السلام فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

توسل إلى اللَّه بأنه أرحم الراحمين، فاستجاب اللَّه له.

وتوسل يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت في الظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

فتوسل إلى اللَّه بالتوحيد: لا إله إلا أنت، وتوسل إلى اللَّه بتسبيحه؛ أي: تنزيهه، وتوسل إلى اللَّه باعترافه بذنبه: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاستجاب اللَّه له.

٢- كذلك التوسل بدعاء الصالحين الأحياء جائز، كما توسل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه وطلب منه الدعاء(١)، وكما توسل معاوية بدعاء يزيد الجرشي(٢).

ولهذا قال الفقهاء في كتاب الاستسقاء: ويستحب التوسل بالصالحين، يعني: بدعاء الصالحين كما فعل عمر رضي الله عنه، وليس المقصود التوسل بحقهم وذواتهم وجاههم.

فالتوسل بالجاه أو التوسل بحق الشخص أو التوسل بمكانة الشخص عند اللَّه هذا كله توسل مبتدع ومحرم، وهو وسيلة من وسائل الشرك.

- **ثانيًا: التوسل الممنوع:**

هو التوسل إلى اللَّه بجاه الشخص أو بحق الشخص على اللَّه، أو بذات الشخص، هذا توسل ممنوع، وهو وسيلة من وسائل الشرك، فيجب التفريق بين التوسل الجائز والممنوع.

وقد ذكر الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله في كتاب «التوسل والوسيلة»؛ أنه بسبب اللَّبس والخلط بين أنواع التوسل حصل الغلط في هذا الباب.

فلابد من معرفة التوسل الجائز والتوسل الممنوع حتى لا يقع الإنسان في الخلط والخطأ.

فهذا باب عظيم، يجب العناية به لئلَّا يختلط الأمر؛ ولأن شبهات هؤلاء المضللين تنطلي على بعض الناس والعوام فيجب معرفة الجواب عنها حتى لا يلتبس الأمر.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن اتخذ بينه وبين اللَّه وسائط».

يدعوهم كأن يقول: يا أحمد البدوي، ويا عبد القادر، ويا حسين، ويا علي، يا فلان أغثني أنقذني، اشف مريضي، رد غائبي، فيهتفون بأسمائهم، فهذا هو الشرك الأكبر؛ لأنه دعاء لغير اللَّه، والدعاء أعظم أنواع العبادة كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(١)؛ يعني: أعظم أنواع العبادة، فإذا دعا غير اللَّه فهذا أعظم الشرك -والعياذ بالله-، سواء دعا ملكًا أو نبيًّا أو صالحًا أو جنًّا أو إنسانًا.

وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن الشياطين قد تتمثل بصور الأموات فيخرجون إلى الناس عند القبور فيقول: أنا فلان صاحب القبر، ماذا تريد؟ وهو شيطان تمثل في صورة الميت، فيظن الناس أن هذا هو الميت، هذا معنى ما ذكره الشيخ.

قلت: وقد يمد يده كما قالوا: إن الرسول ﷺ مدَّ يده إلى الرفاعي وصافحه، وهذا كذب! وإن كان واقعًا فالذي مدَّ يده شيطان؛ لأن الشياطين تتمثل عند الأضرحة والقبور بصور أصحاب القبور، أو أنهم يتكلمون من داخل القبر فيظن الناس أن هذا الميت يتكلم فيسمعون صوته، فيظن من يسمعه أنه صوت الميت، وهذا وقع منه كثير.

والشيطان يريد أن يغريهم في الشرك من حيث لا يدرون، فيدعون القبر ويطلبون منه الشفاعة.

والشفاعة حق ولكنها لا تطلب من الأموات، وإنما تطلب من اللَّه، تقول: اللهم شفِّع فيَّ نبيك، اللهم شفِّع فيَّ عبادك الصالحين.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٨٦)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

فلا تقف عند القبر وتقول: يا فلان، أو يا رسول اللَّه، اشفع لي؛ لأنه لا يطلب من الميت شيء، وإنما يطلب من اللَّه، والشفاعة ملك للَّه وليست ملكًا لغيره ولا تكون إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن اللَّه بها.

الشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، لا يكون مشركًا.

وهذان الشرطان مأخوذان من القرآن، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وكما قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ أي: ارتضى اللهُ قوله وعملَه وهو الموحد.

وأما المشرك فيقول اللَّه -جل وعلا-: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

فذكر الشرطين: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ هذا هو الشرط الأول.

﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾ هذا هو الشرط الثاني، وهو لا يرضى إلا عن أهل الإسلام والتوحيد، ولا يرضى عن المشركين.

إذن؛ الشفاعة حق فتطلب من اللَّه -جل وعلا-، أما طلب الشفاعة من الأموات فهو باطل.

فبطل قولهم إنهم يطلبون من الأموات الشفاعة ويقولون: الشفاعة حق.

فنقول: نعم، الشفاعة حق، ولكن طلبها من الأموات باطل، وإنما تطلب من اللَّه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر: ٤٤].

فالشفاعة ملك لله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

﴿شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: شهد أن لا إله إلا اللَّه.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يعلمون معنى هذه الكلمة ويعملون بها، لا يكفي مجرد التلفظ بالكلمة فقط وهو لا يعلم معناها أو يعلمه وهو لا يعمل به، فلا تنفعه.

وكذلك تطلب الشفاعة من الحي الحاضر بمعنى أنه يطلب منه الدعاء.

فتقول: يا فلان ادع اللَّه لي بكذا وكذا كما طلب عمر الدعاء من العباس، وكما يطلب الناس يوم القيامة الشفاعة من الرسول ﷺ في المحشر.

- **الشبهة الخامسة:**

إن المشركين الأولين يدعون الأصنام والشياطين والجن أما نحن فندعو أناسًا صالحين، فكيف تجعلون الصالحين كالأصنام؟

فنقول: سبحان اللَّه! أما تقرءون القرآن؟ أليس المشركون الأولون يطلبون الشفاعة من الملائكة وهم صالحون، ويطلبون الشفاعة من الأنبياء بعد موتهم، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. وهم يعبدون الملائكة وعزيرًا والمسيح وهؤلاء أناس صالحون.

فالجاهليون متفرقون في عباداتهم، منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم يعبد الشجر والحجر، ومنهم يعبد الملائكة والصالحين والأولياء.

فما عليه عُبَّاد القبور اليوم من جنس شرك الأولين، الذين يعبدون الملائكة والصالحين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ

إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣].

فلا فرق بين عبادة المتأخرين للقبور وعبادة السابقين من المشركين، فليست عبادة المشركين الأولين مقصورة على الأصنام كما تقولون ولا على الأشجار والأحجار، ولكن منهم من يعبد الصالحين بدليل القرآن؛ فإن اللَّه ذكر أنهم يعبدون الملائكة وأناسًا من عباده، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧].

دلَّ على أنهم يعبدون الصالحين الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة بطاعته سبحانه وتعالى.

فالأمر واضح ولكن المغالطات من هؤلاء لا حصر لها، فيجب على طالب العلم أن يكون على بصيرة بهذه الأمور، خصوصًا الدعاة الذين ينتظمون في سلك الدعوة؛ لأنهم سيواجهون مثل هذه الشبهات؛ فعليهم أن يتعلموا هذه الأمور ويعرفوها من أجل أن يردوا على هؤلاء المشبِّهين الذين أهلكوا الناس بشبهاتهم.

فعُبَّاد القبور يتوكلون على الأموات فمنهم من يقول للميت أنا في حسبك يا فلان ولا يتوكلون على اللَّه جل وعلا، ولا تسمع من ألسنتهم ذكر اللَّه، وإنما دائمًا لهجهم بمن يعبدونهم من دون اللَّه، ويتوكلون عليهم ويعتمدون.

والتوكل من أعظم أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

أي: من صفاتهم أنهم على ربهم يتوكلون، فقدم المعمول للحصر ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، ولم يقل: ويتوكلون على ربهم، وإنما قال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ

يَتَوَكَّلُونَ﴾ .

فتقديم الجار والمجرور -وهو المعمول على العامل- لإفادة الحصر مثل: إياك نعبد، أي: لا نعبد سواك، فهذا أبلغ من قول: نعبدك؛ لأن نعبدك لا يفيد حصرًا، أما: إياك نعبد فيفيد الحصر.

فالتوكل عبادة عظيمة وهو الاعتماد على اللَّه -جل وعلا- وتفويض الأمور إليه، وهذا لا يمنع من اتخاذ الأسباب النافعة مع التوكل على اللَّه فيجمع بين الأمرين، لا يأخذ التوكل فقط ويهمل الأسباب النافعة، ولا يعتمد على الأسباب ويهمل التوكل، بل يجمع بين الأمرين، هذا شأن المؤمن.

والرسول ﷺ كان أعظم المتوكلين ومع هذا كان يأخذ بالأسباب، فكان يعد القوة للجهاد، وكان يلبس الدروع عند الجهاد، هذه أسباب نافعة بإذن اللَّه.

فالمؤمن يجمع بين الأمرين: الأخذ بالأسباب النافعة مع التوكل على اللَّه، فلهذا يقولون: الاعتماد على السبب شرك، وترك الأسباب قدح في الشريعة؛ لأن الشريعة أتت باتخاذ الأسباب النافعة.

فهؤلاء -المشركون- يتوكلون على الأموات والأشجار والأحجار فيتوكلون على مخلوق، والنبي ﷺ يقول: «**من تعلَّق بشيء وُكِلَ إليه**»[(١)].

فمن تعلق باللَّه وتوكل عليه كفاه، ومن توكل على غير اللَّه؛ فإن اللَّه يكِله إلى ذلك المخلوق الضعيف فيضيع؛ لأنه توكل على غير من يُتوكل عليه، توكل على ضعيف مثله أو من هو أضعف منه، ولا شك أن الحي ليس كالميت.

فالحي يستطيع أن يمشي ويأكل ويشرب ويكتسب ويعمل، أما الميت فقد انتهى عمله، فكيف إذا ماتوا جعلوهم آلهة من دون اللَّه وهم أموات لا يملكون شيئًا لأنفسهم، لا يستطيع أن يكسب لنفسه شيئًا فهو مرتهن.

(١) أخرجه أحمد (١٨٧٨١)، والترمذي (٢٠٧٢)، والحاكم (٤/ ٢١٦) وحسَّنه محققو المسند، وذكروا شواهده فانظرها.

فكيف يُتوكل عليه ويعتمد عليه ويطلب منه الحوائج وهو ليس عنده شيء ولا يستطيع؟ لكن إذا انتكست الفِطَر، جاء التقليد الأعمى -والشيطان يزين للناس هذه الأمور- بل إنهم يسمون هذه الأمور هي التوحيد، ويسمون التوحيد كفرًا أو شركًا، ويقولون لمن ينكر عليهم أنت لا تحب الأولياء، لأنك لا تدعوهم ولا تذبح لهم ولا تنذر لهم، عندهم حب الأولياء أن يتخذوا من دون اللَّه أندادًا.

نعم؛ نحن نحب أولياء اللَّه ونقتدي بهم وندعو لهم، أما أن نتخذهم أندادًا مع اللَّه ﷻ ونتقرب إليهم بالعبادة، فليست هذه هي محبة الأولياء والصالحين وإنما هي شرك.

والصالحون لا يرضون بالشرك أو أن يعبدوا مع اللَّه ﷻ.

فمن الذي يحب الصالحين؟

إن الموحد هو الذي يحب الصالحين، ويتولاهم، ويدعو لهم، ويقتدي بهم، ويستغفر لهم، لا الذي يدعوهم من دون اللَّه ويذبح لهم وينذر لهم، وهم لا يرضون بهذا ولا يملكون من الأمر شيئًا، وأنت حين تعبدهم أنزلتهم في غير منزلتهم.

أنت لو جئت لواحد من الناس وقلت له: أنت ملك.

أمَا يشعر هذا بأنك تسخر منه؟ هل الإنسان العادي تقول له: أنت مثل الملك أو أنت ملك؟ فيعتبر هذا سخرية حيث أنزلته منزلة لم يصل إليها.

فالذي يُنزل الصالحين منزلة اللَّه فهذا في الحقيقة تنقَّصهم واحتقرهم ولا يحبهم، وإنما يحبهم من يقتدي بهم ويدعو لهم.

* * *

الأسئلة

سؤال: ما الفرق بين الناقض الثاني والأول؟

جواب: الثاني نوع من الأول، الأول عام وهذا خاص، والشيخ ركز عليه لأنه واقعٌ في الناس، من عبادة الأضرحة وعبادة القبور والأولياء والصالحين هذه واقعة بالناس كثيرًا، أما عبادة الأحجار والأشجار وغيرها، فهذه لا أحد من المسلمين في الغالب يقرها، أما عبادة القبور فكثيرًا ممن ينتسبون إلى الإسلام يقرونها ويعتبرونها من الإسلام.

فلذلك ركز الشيخ على هذه وخصصها، وهي نوع من الأول، لكن هي الواقع في حياة كثير ممن ينتسبون -ما نقول: المسلمين ولكن نقول ممن ينتسبون- إلى الإسلام.

سؤال: ما الفرق بين من يتخذ الواسطة سببًا وبين من يذبح لها أو يركع أو يسجد؟ هل هناك فرقٌ بينهما؟

جواب: إذا كان يدعوها صار من الأول، ولكن إذا لم يدعُها ولم يذبح لها ولم ينذر لها، ولكن يظن أنها سبب توصله إلى اللَّه فنقول هذا بدعة ووسيلة إلى الشرك؛ لأن اللَّه لم يجعل هذا سببًا.

سؤال: بعض الناس الموجودين، يطوفون مع المشركين على القبور، ويقولون: من باب تحبيبهم لنا، ثم ندعوهم إلى ترك هذا الطواف، فما حكم هذا الفعل؟

جواب: من طاف معهم فقد عمل عملهم ووافقهم، وسيأتي في الناقض

الثالث، من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم . . . إلخ، هذا يأتي إن شاء اللَّه .

فلا يجوز للمسلم أن يشارك المشركين في عملهم ويطوف معهم على القبور من أجل مجاملتهم وإرضائهم وعدم الإنكار عليهم، هذا لا يجوز، وليس هو من منهج الدعوة إلى اللَّه .

سؤال: ما صحة هذه العبارة: واسطتي هو اللَّه عندما يسأل الإنسان عمن يتوسط له في أي مكان؟

جواب: إن كان يقصد التوكل، فقد أساء التعبير، ولكن المعنى صحيح، ولكن ينبغي ألا يقول هذا اللفظ؛ لأنه يوهم أن اللَّه يتوسط به إلى غيره .

سؤال: ما حكم هذه المقولة: فلان قد قضى لزومه، أما فلان فهو ضعيف ما له إلا اللَّه؟

جواب: نعم الضعيف ما له إلا اللَّه لا أحد من الناس يريد أن يساعده ولا ينظر إليه، ولكن اللَّه -جل وعلا- هو الذي يساعد الضعيف والفقير، فلا محذور في هذا اللفظ .

سؤال: هل يجوز للداعي أن يقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا، هل هذا الدعاء يكون دعاء للصفة؟

جواب: أسألك بأسمائك الحسنة وصفاتك هذا توسل إلى اللَّه بأسمائه وصفاته وليس دعاءً للصفة، وإنما هو دعاء لله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] .

فالباء باء التوسل، مثل: «برحمتك أستغيث ومن عذابك أستجير» وهذا حديث .

سؤال: ما المثال على دعاء الصفة الممنوع؟

جواب: كأن تقول يا وجه اللَّه ويا رحمة اللَّه وما أشبه ذلك .

سؤال: هل هناك فرقٌ بين التوسل بذات الشخص أو التوسل بجاهه؟

جواب: لا فرق بينهما؛ كلاهما ممنوع لا يتوسل بالشخص، لا بذاته ولا بجاهه.

سؤال: ما حكم من اتخذ واسطة بينه وبين اللَّه؟ ولكن بدون صرف شيء من العبادة، فهل هذا شركٌ أصغر؟

جواب: هذا بدعة وهو وسيلة إلى الشرك.

سؤال: حديث الأعمى ديدن لأهل البدع، وشبهة لهم، فما مفهوم هذا الحديث؟ وما صحته؟

جواب: حديث الأعمى إن صح ليس فيه توسل بالنبي ﷺ، وإنما فيه طلب الدعاء من الرسول ﷺ، والرسول حي وحاضر وطلب الدعاء من الحي الحاضر جائز فهو من التوسل بدعاء الرسول ﷺ، وليس لهم فيه حجة، على ما في سنده من مقال.

* * *

الدرس الرابع
في شرح الناقض الثالث

وهو: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر[٣].

---

[٣] **قوله: «الثالث»**؛ أي: الناقض الثالث من نواقض الإسلام: من لم يكفر المشركين؛ لأنه يجب على المسلم أن يكفر من كفَّره اللَّه ورسوله ﷺ واللَّه -جل وعلا- كفر المشركين عبدة الأوثان وغيرهم ممن يعبد مع اللَّه غيره، وكفَّر من لم يؤمن بالرسل أو بعضهم كما في القرآن والسنة النبوية؛ كفر المشركين من اليهود والنصارى والوثنيين.

فيجب على المسلم أن يعتقد بقلبه كفرهم عملًا بتكفير اللَّه لهم وتكفير رسول اللَّه ﷺ لهم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١].

إلى غير ذلك من المقالات التي حكاها اللَّه عنهم، وهم أهل كتاب، ويكفي في تكفيرهم أنهم كفروا بمحمد ﷺ الذي أرسله اللَّه للناس كافة، والذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٧-١٥٨].

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ عام في جميع الناس من أهل الكتاب وغيرهم ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

فمن لم يؤمن بعموم رسالة النبي محمد ﷺ حتى ولو أقر أنه رسول اللَّه ﷺ، ولكن قال: إن رسالته خاصة بالعرب دون غيرهم فهو كافر، فكيف بالذي يكفر برسالته أصلًا ولا يؤمن بها؟! فهذا أشد كفرًا.

فالذي يشك في كفر المشركين عمومًا سواء كانوا من الوثنين أو من اليهود والنصارى أو من المنتسبين إلى الإسلام وهم يشركون باللَّه يجب اعتقاد كفرهم.

فكل من أشرك باللَّه وعبد معه غيره من الأشجار، والأحجار، والأصنام، والأوثان، والقبور، والأضرحة؛ فإنه مشرك كافر يجب تكفيره حتى ولو كان يدعي الإسلام ويقول: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه؛ لأن الشرك يبطل الشهادتين ويناقض الإسلام ويفسد التوحيد.

فيجب على المسلم أن يكفِّر المشركين الذين يعبدون غير اللَّه سواء كانوا من العرب أو من العجم، سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو المتسمين بالإسلام.

هذه عقيدة ليس عليها مساومة، فمن لم يكفِّر المشركين فإنه يكون مرتدًّا كافرًا مثلهم؛ لأنه تساوى عنده الإيمان والكفر، لا يفرق بين هذا وهذا، فهذا كافر.

وكذلك من شك في كفر المشركين وقال: ما أدري هل هم كفار أو غير كفار؟ فإنه يكون كافرًا؛ لأنه متردد في دينه بين الكفر والإيمان، ولم يفرق بين هذا وهذا.

وأشد من ذلك «من صحح مذهبهم»؛ أي: من صحح مذهب المشركين، وما أكثر من يصحح مذهبهم ويدافع عنهم، خصوصًا اليهود والنصارى.

ففيه الآن دعوى قائمة وهي الدعوة إلى الوحدة بين الأديان الثلاثة كما يزعمون: الإسلام واليهودية والنصرانية، ويقولون كلها أديان صحيحة، وكلهم مؤمنون بالله فلا نكفِّرهم، فهذا أشد كفرًا من الذي شك في كفرهم؛ لأنه صحح مذهبهم، وقال: إنهم يؤمنون بالله ويتبعون الأنبياء، فاليهود يتبعون لموسى والنصارى يتبعون لعيسى!!!!

فنقول له: إنهم لم يتبعوا موسى ولا عيسى، لو كانوا يتبعونهما لآمنوا بمحمد ﷺ؛ لأن موسى وعيسى عليهما السلام بشَّرا بمحمد ﷺ وهو موجود في التوراة والإنجيل.

فالتوراة التي أنزلت على موسى موجود فيها ذكر محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والإنجيل الذي نزل على عيسى فيه ذكر محمد ﷺ، بل صرح عيسى عليه السلام بذلك فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

من الذي جاء بعد عيسى عليه السلام؟ هو نبينا محمد ﷺ وله أسماء كثيرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فكيف يقارن بين اليهودية والنصرانية والإسلام؟

فاليهودية والنصرانية بعد بعثة محمد ﷺ قد نُسخا بالإسلام، والإسلام هو دين الحق لم يبقَ دينٌ غير دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ.

فمن لم يدخل في الإسلام ويؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر سواء كان يهوديًّا أو

نصرانيًّا أو وثنيًّا أو ملحدًا، فكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر.

وهؤلاء يقيمون الآن مؤتمرات للتقارب بين الأديان ومع الأسف يؤيدهم من ينتسبون إلى الإسلام ويحضرون هذه المؤتمرات ويسمونها الحوار بين الأديان، أو الحوار بين الحضارات وما أشبه ذلك.

فهم لا يحضرونها من أجل أن يبطلوا شبه اليهود والنصارى، وإنما يحضرونها ليتصالحوا معهم، ويكفيهم أن اليهود والنصارى يعترفون أن محمدًا ﷺ نبي، ولو في الظاهر، وهم لا يعترفون بعموم رسالته، فيكفرون بعموم رسالته، فكأنهم يقولون: ارضوا عنا ونرضى عنكم!

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. فهم يخادعون.

فالواجب: تكفيرهم والجزم بكفرهم وعدم التردد في كفرهم حتى يؤمنوا بعموم رسالة محمد ﷺ ويتبعوه، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

هل هم يتبعون النور الذي أنزل مع نبينا محمد ﷺ؟ لا، لا يتبعونه وإن قالوا إن محمدًا ﷺ نبي لكنهم لا يتبعونه فهم كفار بلا شك، قال ﷺ: «**لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا دخل النار**»[1].

فيجب الجزم بكفر الكفار، وفي مقدمتهم اليهود والنصارى وهم أشدا كفرًا لأنهم عصوا اللَّه على علم وبصيرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فيجب على المسلم: أن يعتقد كفر الكفار أيًّا كانوا، كل من أشرك باللَّه ودعا غير اللَّه بأي نوع من أنواع الشرك الأكبر فيجب تكفيره بالحكم عليه بالكفر،

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يجوز الشك في كفره، ولا يجوز تصحيح ما هو عليه من الكفر؛ فيقال: هذا صاحب دين، هذا أحسن من الوثنيين، فالكفر ملة واحدة.

نقول: من لم يؤمن بمحمد ﷺ ولم يتبعه فهو كافر مهما كان، هذه عقيدة يجب على المسلم أن يعتقدها لئلا يخرج من الإسلام وهو لا يدري، فيخرج من الإسلام بعدم تكفير الكفار أو تصحيح مذهبهم، بأن يصحح ما عليه اليهود، أو يصحح ما عليه النصارى ويقول: هم من أصحاب الأديان الصحيحة، بل هناك من ينتسب إلى الدعوة ويقول: إخواننا المسيحيون.

فنقول لهم: هؤلاء لم يؤمنوا، فلو آمنوا لاتبعوا محمدًا ﷺ؛ لأن المسيح قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦].

فلم يؤمنوا بهذا، بل إن المسيح إذا نزل في آخر الزمان فإنه يتبع محمدًا ﷺ ويحكم بشريعة الإسلام، ويكون مجددًا من المجددين، ومن كفر بنبي واحدٍ فهو كافر بجميع النأنبياء.

فالواجب معرفة هذا الأمر وألا تنطلي هذه الشبهات التي تروج من اليهود والنصارى، فهم لا يريدون بقاء المسلمين على دينهم ولكنهم يريدون أن يجتذبوا المسلمين إلى دينهم هم، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة:١٢٠]. هذا كلام اللّٰه.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة:١٣٥]؛ أي: عندهم أنه من لم يكن يهوديًّا أو نصرانيًّا فإنه ليس بمهتدٍ.

هذا كلام اللّٰه أصدق القائلين، فكيف لا نكفِّرهم؟ وكيف نشك في كفرهم؟ نسأل اللّٰه العافية.

وقد كفَّر اللهُ ورسوله ﷺ من أشرك باللّٰه وعبد غير اللّٰه أيًّا كان، أو كفر بنبي من الأنبياء، أو جحد ركنًا من أركان الإيمان الستة؛ فإنه يحكم بكفره ولا يُتردد

في ذلك ولا يُشك فيه، ولا يصحح ما هو عليه، فيلتمس له الأعذار، الدين ليس فيه مساومات وليس فيه تنازلات، فيجب التصريح به والبراءة من ضده.

ثم بعد أن نعلم وجوب تكفير المشركين والكفار أيًّا كانوا، وأن هذه عقيدة لا يصح الإسلام ولا يستقيم الدين إلا بها، ولا يكون الناس عند المسلم سواء، بل يفرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر والموحد والمشرك، كما فرق اللَّه بينهم في الحكم.

فينبني على تكفير الكفار أحكام كثيرة نذكر منها ما تيسر:

أولًا: أنه يجب بغض الكفار ومعاداتهم وعدم موالاتهم حتى ولو كانوا من أقرب الناس إلى المسلم، قال اللَّه -جل وعلا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِى سَبِيلِى وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِىۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣﴾ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ١-٤].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

دلَّ على أنه لا يجتمع الإيمان باللَّه والإيمان بالطاغوت، فإنه لابد من الكفر بالطاغوت أولًا ثم الإيمان باللَّه.

فيجب الكفر بالطاغوت ومعاداة الكفار وبغضهم ولو كانوا من أقرب الناس إلى المسلم، ولو كان الكافر أمه أو أباه أو أخاه، أو كان من قبيلته وعشيرته؛ فإنه يبغضه ويتبرأ منه، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٣-١١٥].

لما أنزل اللَّه هذه الآيات تأسف أناس من المسلمين الذين كانوا يستغفرون لآبائهم من المشركين الذين ماتوا وخافوا من هذه الآية فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

فما كان قبل أن تنزل الآية وقبل أن يعلم المسلم تحريم ذلك؛ فإنه لا يؤاخذ عليه.

ثانيًا: مما يترتب على تكفير المشرك أنه إذا مات المشرك والكافر؛ فإن المسلم لا يتولى جنازته إلا إذا لم يوجد من يدفنه من الكفار؛ فإنه يوارى بالتراب ولا يدفن في مقابر المسلمين.

فالمسلمون لا يتولون جنازة الكافر، فلا يغسلونها ولا يكفنونها، ولا يحملونها ولا يشيعونها ولا يحضرون دفنها ولا تدفن في مقابر المسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

فالمسلم لا يشيع جنازة الكافر ولا يجهزها ولا تدفن في مقابر المسلمين، وأما عيادة المريض من الكفار إذا كان من أجل دعوته إلى اللَّه؛ فإن المسلم يعود المريض الكافر ويدعوه إلى اللَّه، فقد عاد النبي ﷺ يهوديًا ودعاه إلى الإسلام؛ فأسلم ومات على الإسلام وشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا

رسول اللَّه[١].

وعادَ النبي ﷺ عمَّه أبا طالب في مرض الموت وقال له: «**يا عم، قل لا إله إلا اللَّه**»[٢].

فإذا كانت عيادة المريض الكافر من أجل دعوته إلى الإسلام فلا بأس بها، وأما إذا مات على كفره؛ فإن المسلم لا يتولاه ولو كان أقرب الناس إليه ولو كان أباه، ولما مات أبو طالب على الكفر لم يتولَّ الرسول ﷺ دفنه ولا تجهيزه، بل أمر ابنه عليًّا أن يواريَه في الأرض ولا يترك على ظهر الأرض لئلَّا يتأذى به الناس[٣].

ثالثًا: المسلم لا يرث الكافر والكافر لا يرث المسلم؛ لأن اللَّه قطع الصلة بينهما، فلا يتوارث المسلمون والكفار، قال ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم».

وهذا في الصحيح عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما[٤]، وإنما يكون ميراث الكافر لأقاربه الكفار ولا يرثه أقاربه المسلمون، فالكفر من موانع الإرث عند أهل العلم.

رابعًا: لا يجوز أن يُزوج الكافر من مسلمة خشية على دينها منه لئلَّا تكون تحت سلطانه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٦)، وأبو داود (٣٠٩٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٤٥٨)، وأحمد (١٣٩٧٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٣٩) من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢١٤)، والنسائي (٢٠٠٦) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فلا يجوز أن تتزوج المسلمة من كافر مطلقًا لا يهودي ولا نصراني ولا وثني، وأما تزوج المسلم من الكافرة؛ فإن كانت وثنية فإنه لا يجوز أن يتزوج بها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وأما إذا كانت يهودية أو نصرانية فيجوز للمسلم أن يتزوجها بشرط أن تكون عفيفة في عرضها، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. والمحصنات: هن العفيفات من الزنا.

فالنصرانية التي تسافح أو تتخذ الأخدان لا يجوز للمسلم أن يتزوجها؛ وإنما يجوز أن يتزوج اليهودية والنصرانية العفيفة في عرضها، لأن المرأة تحت سيطرة الرجل، وربما تسلم وهي تحت سلطته فيكون السلطان للمسلم على الكافرة بخلاف العكس فلا يكون السلطان للكفار على المسلمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

فهذا هو التفصيل في التزاوج بين المسلمين والكفار، فإن كانت المرأة وثنية أو ملحدة أو مرتدة فلا يجوز للمسلم أن يتزوجها مطلقًا، وأما إن كانت كتابية جاز بشرط أن تكون محصنة؛ يعني: عفيفة عن الزنا؛ لأنها تدخل تحت سلطة الرجل المسلم فتتاح لها الفرصة لأن تسلم.

خامسًا: ومن الأحكام المترتبة على تكفير الكفار والبراءة منهم وجوب الهجرة على المسلم من بلادهم.

فيجب على المسلم الذي لا يقدر على إظهار دينه: أن يهاجر إلى بلاد المسلمين كما هاجر النبي ﷺ والصحابة فرارًا بدينهم، ولا يبقى المسلم في

بلاد الكفار إذا كان لا يقدر على إظهار دينه على الهجرة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هؤلاء الذين تركوا الهجرة ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

فالذي لا يستطيع أن يهاجر فإنه معذور، ولكن الذي يستطيع فتجب عليه الهجرة، فلا يجوز له أن يقيم بين أظهر المشركين قال ﷺ: «**أنا بريء ممن يقيم بين أظهر المشركين**»[١].

فيجب على الذي لا يقدر على أن يظهر دينه أن يهاجر، والهجرة قرينة الجهاد في سبيل اللَّه ﷻ، فجاء ذكرها مقرونة مع الجهاد؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فالهجرة أمرها عظيم في الإسلام، وهي الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين فرارًا بالدين.

سادسًا: ومما يترتب على تكفير الكفار عدم بداءة المشركين والكفار بالسلام، قال ﷺ: «**لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام...**»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)، والنسائي (٤٧٨٠)، وقد رجَّح الترمذي فيه الإرسال ونقله عن شيخه البخاري.

وقال العَّلامة المحقق إسحاق ابن الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: «وهو إن صح مرسلًا فهو حجة من وجوهٍ متعددة يعرفها علماء أصول الحديث، منها أن المرسل إذا اعتضد بشاهدٍ واحدٍ فهو حجة، وقد اعتضد هذا الحديث بأكثر من عشرين شاهدًا، وتشهد له الآيات المحكمات مع الكليات في الشرع وأصول يسلمها أهل العلم». اهـ

«سلوك الطريق الأحمد» (ص٢٤)، ط. مكتبة الهداية.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢١٦٧).

سابعًا: لا يُصدَّرون في المجالس ولا يُفسح لهم الطريق، قال ﷺ: «**إذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه**»[(١)].

فلا يمنعون من العبور والمرور، ولكن لا يفسح لهم ويقدَّمون في المرور، كما يفسح للمسلم، ولكن يتركون فيأتون من جوانب الطريق إهانةً لهم؛ لأن اللَّه أهانهم.

ثامنًا: عدم تمكينهم من دخول الحرم المكي قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

فلما نزلت هذه الآية أرسل النبي ﷺ عليًّا رضي الله عنه ينادي في موسم الحج ألَّا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان[(٢)]، فمُنعوا من دخول الحرم من ذلك التاريخ ويستمر منعهم إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨].

وليس المقصود منعهم من دخول المسجد الحرام فقط، بل منعهم من دخول الحرم كله ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

تاسعًا: ومما يترتب على تكفير المشركين والكفار: أنه يلزم ولي الأمر إخراجهم من جزيرة العرب[(٣)]؛ لأن جزيرة العرب منبع الرسالة والدعوة فلا يجوز

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٠٣)، ومسلم (٢١٦٧)، والترمذي (١٦٠٢)، وأبو داود (٥٢٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأحمد (٧٥٦٧).
وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) **قال شيخنا معلقًا هنا**: وهذا من اختصاص ولي أمر المسلمين فلا يجوز لآحاد الناس إخراجهم كما يقوله الآن الجهلة من الشباب ومن تأثر برأي الخوارج فصاروا يقتلون المعاهَدين والمستأمنين، ويفجرون المباني التي يسكنها هؤلاء الكفار المعاهَدون والمستأمنون فيغدرون بذمة المسلمين، ويخونون العهود، وقد قال النبي ﷺ: «من قتل معاهَدًا لم يرح رائحة الجنة».

أن يبقى فيها دين آخر غير دين الإسلام، فلا يُمكَّنون من سكنى الجزيرة العربية بصفة دائمة، أما إن أتوا مسافرين لتجارة أو لسفارة أو غير ذلك من المهمات أو استقدمهم المسلمون لعمل لا يحسنه غيرهم فلا مانع من ذلك وإنما الممنوع أن يمكَّنوا من الاستقرار والتملك في جزيرة العرب؛ لأن النبي ﷺ قال عند موته: «**أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»(١).

وقال ﷺ: «**لا يبقى في جزيرة العرب دينان**»(٢).

فنفذ عمر رضي الله عنه وصيته ﷺ فأخرج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وأجلاهم، وأما إذا دخلوا دخولًا مؤقتًا لمهمة من المهمات أو لسفارة في جزيرة العرب فلا يُمكَّنون من إظهار شعائرهم، ولا يُمكَّنون من بناء الكنائس في بلاد المسلمين، وإنما يقصر أمرهم بينهم في أماكن إقامتهم المؤقتة

(١) ورد ذلك في جملة من الأحاديث منها:
- عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**». أخرجه البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧)، وأبو داود (٣٠٢٩).
- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ: «**لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا**». أخرجه مسلم (١٧٦٧)، وأبو داود (٣٠٣٠).
عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بلفظ: «**أخرجوا اليهود والحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب**». أخرجه أحمد (١٦٩١) و(١٦٩٤)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٠٦٦)، عن عائشة رضي الله عنها بلفظ. «**لا يترك في جزيرة العرب دينان**».
وأخرجه أبو عبيد في «الأموال» (ص١٠٧) رقم (٢٧٢) موقوفًا على عمر بلفظ: «لا يجتمع».
ومالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٢-٨٩٣) عن ابن شهاب الزهري مرسلًا أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**». قال مالك: قال شهاب: ففحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى أتاه الثلج واليقين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**». فأجلى يهود خيبر.
وانظر: «التمهيد» (١٢/ ٣١١-٣١٣)، ط. الفاروق الحديثة.

ولا يظهرون كفرهم في بلاد المسلمين، فينصبوا الصليب أو يدقوا الناقوس، بل يكون ذلك بينهم مدة إقامتهم ولا يظهر هذا في بلاد المسلمين.

وهذا ليس خاصًا باليهود والنصارى، بل كل المشركين عبدة القبور وغيرهم لا يمكنون من بناء الأضرحة، ولا يمكنون من بناء المساجد على القبور، فيجب على ولاة المسلمين هدم هذه الأضرحة، فكل مشرك لا يمكَّن من إظهار شركه في بلاد المسلمين.

عاشرًا: ومما يترتب على تكفير المشركين والكفار عدم الثناء عليهم ومدحهم؛ لأن اللَّه تعالى ذمهم وهم أعداء اللَّه ورسوله ﷺ فكيف تمدحهم؟

فبعض الناس يقول: عندهم أمانة، وعندهم حسن معاملة ويثني عليهم ويقول: المسلمون عندهم خيانة وغش وكذا.

فنقول: المسلمون ولو كانوا عند بعضهم معاصٍ وغشٌ فهم أفضل أهل الأرض، أما الكفار فهم أعداء اللَّه ورسوله ﷺ، ولو كان لهم شيء من الصفات التي يتعاملون بها في دنياهم فلا يجوز مدحهم واللَّه ذمهم، فإنما يجب علينا أن نذمهم لكفرهم باللَّه ﷻ.

حادي عشر: ومما يترتب على تكفير المشركين والكفار: تحريم التشبه بهم في لباسهم وعوائدهم الخاصة بهم، والتشبه بهم في عباداتهم أشد، قال ﷺ: «**من تشبه بقومٍ فهو منهم**»[1].

وهذا من فروع تكفيرهم ومعاداتهم؛ لأن التشبه بهم في الظاهر يدل على محبتهم في الباطن، ولو كان المسلم يبغضهم ما تشبه بهم.

فيجب على المسلمين أن يعتزوا بدينهم ولا يتشبهوا بالكفار في ملابسهم

(١) أخرجه أحمد (٥١١٤، ٥١١٥)، وأبو داود (٤٠٣١) وغيرهما، وصححه الألباني، واللَّه أعلم.

وعوائدهم الخاصة، وأشد من ذلك التشبه بهم في دينهم؛ بأن نحدث في ديننا ما يُشبه ما عندهم من البدع مثل الموالد، هذا تشبه بالكفار الذين يحتفلون بمولد المسيح، فنحن لا نتشبه بهم في عاداتهم وعباداتهم، وملابسهم الخاصة بهم.

بقي أن نعرف ما يجوز التعامل به معهم، فهناك أحكام تجوز مزاولتها مع الكفار؛ لأنها ليست من الموالاة وليست من المحبة، وإنما هي من الأمور المباحة ومن المنافع المشتركة، فيجوز لنا:

أولًا: أن نتعامل مع الكفار بالتجارة فنبيع ونشتري معهم.

ثانيًا: وأن نستفيد من خبراتهم ونستأجرهم للقيام بأعمال ليس عند المسلمين من يقوم بها، ولا نستأجرهم ونطلعهم على أمورنا الخاصة كأن نتخذهم وزراء أو مستشارين، وإنما نستأجرهم لأعمال يقومون بها وهم بعيدون عن سر المسلمين كالمباني والمصانع.

والنبي ﷺ استأجر كافرًا يدله على الطريق في سفر الهجرة فاستأجر عبد اللَّه ابن أريقط ليدله على الطريق لأنه كان هاديًا خرِّيتًا[١]، فنستفيد من خبراتهم بشرط ألا نمكنهم من أسرارنا ومن بطانة أمرنا.

ثالثًا: ويجوز أن نعقد معهم المعاهدات إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين، فقد صالح النبي ﷺ اليهود في المدينة[٢]، وصالح المشركين في الحديبية[٣]، فإذا كان للمسلمين مصلحة أو أن المسلمين لا يستطيعون قتال الكفار فتجوز

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٣، ٢٢٦٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٢٦).

(٣) أخرج قصة الحديبية مطولًا البخاري برقم (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) عن المسور بن مخرمة ومروان، ومسلم (١٧٨٥) عن سهل بن حنيف، و(١٧٨٣) عن البراء، و(١٧٨٤) عن أنس رضي الله عنه.

معاهدتهم ومهادنتهم ومصالحتهم لما في ذلك من مصالح المسلمين(١).

رابعًا: يجوز أن نكافئهم إذا أحسنوا إلينا، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فإذا فعلوا جميلًا مع المسلمين فالمسلمون يردون الجميل ويكافئونهم، وليس هذا من باب المحبة، وإنما هو من باب المكافأة.

والوالد الكافر يجب على ولده أن يبر به من غير أن يحبه، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

فيجب على الولد أن يحسن إلى والده ولو كان كافرًا لكن لا يحبه بقلبه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فالمودة شيء والمعاملة الحسنة شيء آخر.

وقد جاءت أم أسماء بنت أبي بكر وهي مشركة تطلب شيئًا من المال؛ فجاءت أسماءُ رسولَ اللَّه ﷺ فقالت له: «إن أمي جاءت وهي راغبة -أي: راغبة في الصلة- أفأصلها؟

قال: **نعم، صلي أمك**»(٢).

فأمورُ الدنيا والمعاملات التجارية والمكافآت والتبادل بين المسلمين

(١) فائدة: قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح» (٦/ ٣٢٦): «وأما ما يتعلق بالجهاد فالموادعة فيه لا حد لها معلوم لا يجوز غيره، بل ذلك راجع إلى رأي الإمام بحسب ما يراه الأحظ والأحوط للمسلمين». اهـ

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٩)، ومسلم (١٠٠٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والكفار في المصالح التي لا تمس الدين، وكذلك التمثيل الدبلوماسي في السفارات لا بأس به، كان المشركون يرسلون إلى النبي ﷺ الرسل ويتفاوضون معه، ويدخلون عليه وهو في المسجد فيتفاوضون معه.

فهذه أمور ليست من الموالاة وإنما هي من المصالح المباحة بين المسلمين والكفار، فيجب أن نفرق بين هذا وهذا.

وبعض الناس يخلط بين ما يجوز وما لا يجوز، فمنهم من يقول: تجوز مودة الكفار، لأن اللَّه أباح لنا التعامل معهم والتزوج من الكتابيات فتجوز محبتهم وعدم التفرقة بيننا وبينهم، فهذا مفرِّط، وفي مقابله المفرِط الغالي الذي يقول: لا يجوز الاتصال بالكفار أصلًا لا بتجارة ولا بسفارة ولا بمكافأة بالإحسان؛ لأن هذا من الموالاة.

فنقول له: هذا ليس من الموالاة، فيجب الفرق بين هذا وهذا، بين الغالي والجافي، فالدين وسط وليس فيه غلو ولا تفريط.

فيجب أن نعرف هذه العلاقات مع الكفار ما يجوز منها وما لا يجوز خصوصًا في هذا الزمان الذي كثر فيه من يتكلم في أمور الدين بغير علم، أو يتكلم في الدين عن هوى.

فيجب على طالب العلم: أن يعرف الحكم الشرعي في هذه الأمور، وهذا أمر مهم؛ لأنه يتعلق بعقيدة المسلم.

❊ ❊ ❊

الأسئلة

سؤال: هل تكفير الكافر خاص بالكافر الأصلي أم الكافر المرتد؟

جواب: نعم، تكفير الكافر عام في الكافر الأصلي والكافر المرتد، فكلهم يعاملون معاملة واحدة، إلا أن الكافر المرتد يستتاب فإن تاب وإلا يُقتل، وأما الكافر الأصلي فيجوز معاهدته، وأما المرتد فلا يترك؛ لأنه أفسد العقيدة واعتدى عليها بعدما عرف الحق؛ فيجب قتله؛ لأنه أصبح عضوًا فاسدًا.

سؤال: هل من شك في كفر المشركين في قلبه ولم يتلفظ بلسانه يكفر؟ وما الفرق بين هذا وحديث النفس؟

جواب: الشك يكون بالقلب، فإذا تردد في المشركين هل هم كفار أم لا فإنه يرتد بذلك، وإن تلفظ فالأمر أشد، وأما حديث النفس من غير شك فإنه لا يضر.

سؤال: يوجد في القنوات الفضائية من يقول إن اليهود والنصارى إخواننا في الإيمان، فما حكم هؤلاء؟ هل يكفرون؟

جواب: من قال إن اليهود والنصارى إخواننا فإنهم يكفرون بذلك، إلا إذا كان القائل جاهلًا فإنه يُبيَّن له؛ فإن أصر فإنه يُحكم بكفره، وأما إذا تاب تاب اللَّه عليه.

سؤال: ما الضابط في تكفير المعين؟ ومنهم من يقول: لا تكفروا الشخص إن كان يهوديًّا بعينه حتى يتحقق لنا ما يكفره؟

جواب: من أظهر الكفر فإنه يُحكم عليه بالكفر، ومن أشرك باللَّه يحكم عليه بأنه مشرك، ولكن لا تجزم له بالنار، فأنت تحكم عليه بالكفر في الدنيا بموجب ما صدر منه، وأما في الآخرة فأنت لا تحكم عليه أنه من أهل النار، فقد يكون قد

تاب وأنت لا تدري.

فالسائل قد خلط بين الأمرين: مسألة التكفير، ومسألة الحكم بالنار على معين.

* * *

الدرس الخامس
في شرح الناقض الرابع

قال: الرابع: من اعتقد أن هدي غير الرسول ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذي يفضِّل حكم الطواغيت على حكمه؛ فهو كافر [٤].

---

[٤] **قال رَحِمَهُ اللَّهُ: الرابع -من نواقض الإسلام-: «من اعتقد أن هدي غير الرسول ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه...»**. إلخ.

هذا يشتمل على مسألتين:

المسألة الأولى: «من اعتقد أن هدي غير الرسول ﷺ أكمل من هديه».

وهدي الرسول دينه وطريقته التي يسير عليها في دعوته إلى اللَّه وفي تعليمه وفي أخلاقه، فإن الرسول ﷺ هو أكمل الناس هديًا كما قال الرسول ﷺ: «**إن خير الكلام كلام اللَّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ**»(١).

فهو أكمل الناس هديًا من حيث معاملته مع الناس ومع المدعوين، فكان هديه مع الناس أنه يعاملهم بأحسن المعاملة، ويدعوهم بأحسن طريقة، كما قال اللَّه -جل وعلا-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فهذا خلقه ﷺ، كان يعلم الناس بأحسن طريقة، ما كان -عليه الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) عن جابر بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

والسلام- يستعمل الغلظة أو الغضب في التعليم كما في قصة الذي دخل وبال في المسجد فأمرهم أن يتركوه حتى يكمل بوله ثم أمر بذنوب من ماء فصُبَّ عليه ثم دعاه وقال له: «**إن المساجد لم تُبنَ لذلك، وإنما بنيت لذكر الله ﷻ**»(١).

وغير ذلك من الوقائع التي يتعامل فيها ﷺ في تعليمه للناس بأحسن طريقة وأكمل هدي.

ومن ذلك أيضًا: ما كان يتحمل من أذى الناس ولا يغضب إذا أسيء في حقه ﷺ، وكان يحلم على المسيء، أما إذا انتهكت محارم اللَّه فإنه يغضب لله، فإنه ما كان يغضب لنفسه، وإنما كان يغضب لله، وهذا شيء ثابت عنه في سنته ﷺ(٢).

وكذلك لما جاءه رجلٌ يتقاضاه دَينًا فأغلظ على النبي ﷺ في القول فهمَّ الصحابة به فقال ﷺ: «**دعوه، فإن لصاحب الحق مقالًا**». ثم أمر ﷺ بأن يُعطى خيرًا مما له على النبي ﷺ فأعطاه زيادةً وقال: «**خيركم أحسنكم قضاءً**»(٣).

وكذلك هديه ﷺ في تعامله مع أهل بيته، كان ﷺ يتعامل مع أهل بيته خير المعاملة، ويقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(٤).

وهذا شيء معروف من سيرته فلا أحد يساوي الرسول ﷺ في هديه، فكيف يكون خيرًا منه؟ فمن زعم أن أحدًا أحسن من الرسول ﷺ هديًا؛ فقد كفر الكفر الأكبر المخرج من الملة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٩)، ومسلم (٢٨٤، ٢٨٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «وما انتقم رسول اللَّه لنفسه في شيء قط إلا أن تُنتهك حرمة اللَّه فينتقم بها لله».

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٧٤٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي (٣٨٩٥) عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ له. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني رحمه الله.

والمسألة الثانية: «من اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه؛ فقد كفر».

لأن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن اللَّه، فحكمه -عليه الصلاة والسلام- حكمٌ صادرٌ من اللَّه ﷻ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

فالرسول ﷺ إنما يحكم بحكم اللَّه وبما أراه اللَّه ولم يقل له: بما رأيت، بل قال: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾.

فيجب تقبل حكمه ﷺ بالتسليم والانقياد، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

فهو ﷺ يقضي بحكم اللَّه ﷻ ولو أخطأ في بعض الاجتهادات فإن اللَّه لا يقره على الخطأ، بل يبين له الصواب ولا يجوز الاعتراض على حكمه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

فسنته ﷺ وحي من اللَّه، والسنة تفسر القرآن وهي الوحي والمصدر الثاني بعد القرآن، فيجب احترامها كاحترام القرآن، ويجب قبولها كقبول القرآن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١].

فيجب على المسلم: أن يتلقى الأحكام من كتاب اللّه ومن سنة رسول اللّه ﷺ، ولا يحكم في شيء برأيه المجرد عن الدليل، أو استحسانه، بل يتلقى الأحكام من كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ.

ولا يجوز له أن يقدم قول فلان على قول اللّه وقول رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك فقد قدَّم بين يدي اللّه ورسوله ﷺ.

ولا يجوز له أن يُعمل عقله وفكره، أو أن يقبل رأي غيره مما يخالف كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ.

ويجب اعتقاد أن حكم اللّه ورسوله ﷺ هو الحق والصواب، وأن ما خالفهما هو الباطل، هذه عقيدة يعتقدها المسلم.

فمن اعتقد أن حكم المخلوق أحسن من حكم اللّه ﷻ، أو أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه فقد كفر، وهذا من نواقض الإسلام.

- **مسألة الحكم بغير ما أنزل الله:**

ومن زعم أن الوقت قد تغير، وأن حكم الكتاب والسنة كان في زمان قد مضى، وأن الحال في الوقت الحاضر يقتضي أن يؤتى بحكم يناسب الوقت الحاضر كما يقولون، فهذه ردة عن دين الإسلام.

فالذي يرى أن حكم الشريعة لا يناسب العمل به في هذا الوقت، وإنما يؤتى بأحكام وأنظمة تناسب الوقت -بزعمهم- فهذا كفر باللّه ﷻ؛ لأن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، ويجب أن يعتقد هذا، فإن كان لم يتبين له صلاحيتها فهذا من نقصه هو ومن نقص إدراكه لا من نقص الشريعة.

وهناك من يقول: إن تطبيق الحدود ورجم الزاني وقطع يد السارق وقتل المرتد إن هذه أحكام قاسية لا تتناسب مع هذا الزمان المتطور الذي تطورت فيه أفكار الناس وعقولهم، فلا يناسب أن تطبق الحدود، ولا أن يقام القصاص على القاتل لأنه وحشية.

فهذه المقالات التي تصدر من بعض المنافقين ردة واضحة عن دين الإسلام؛ لأنه اعتراض على حكم اللَّه واعتبار أن حكم اللَّه قاصر وغير مناسب، فهذا ردة صريحة عن دين الإسلام.

وكذلك من قال: إنه مخيَّر بين أن يحكم بالشريعة وأن يحكم بالقوانين، إن شاء حكم بالشريعة وإن شاء حكم بالقوانين.

فالذي يقول هذه المقالة مرتدٌّ عن دين الإسلام؛ لأن حكم اللَّه ليس فيه خيار من شاء أخذه ومن شاء تركه، بل حكم اللَّه ملزم، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٩].

فحكم اللَّه ملزم، ولا يصلح للناس إلا حكمُ اللَّه ﷻ، فليس الأمر بالخيار ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فالحكم بما أنزل اللَّه نوع من أنواع العبادة، فيجب على العباد كلهم أن يخضعوا لحكم اللَّه -جل وعلا-، وأن يعتقدوا أنه لا شيء يساويه أو أفضل منه، فلا يظن أحد أن الأمر بالخيار وأن الناس أحرار كحرية الرأي وحرية التفكير وما أشبه ذلك مما ينادي به بعض الزنادقة والمنافقين والعلمانيين.

فالذين يقولون هذه المقالة قد كفروا؛ لأنهم لا يمتثلون حكم اللَّه ﷻ ويتكبرون على حكم اللَّه ﷻ.

وكذلك من يقول: إن حكم اللَّه حق ولكن لا يلزم الالتزام به، ويجوز للإنسان أن يحكم بغيره، وأن يتمشى مع الزمان إذا رأى المصلحة في ذلك، فهذا مرتدٌّ عن دين الإسلام؛ لأنه لا يجوز أن يحكم بغير ما أنزل اللَّه ﷻ.

وكل حكم سوى حكم اللَّه ﷻ فإنه باطل، وأيضًا ذلك لا يحل المشاكل بين الناس، بل يزيد الإشكال إشكالًا، فإذا قلت لهذا: إن هذا حكم اللَّه -جل وعلا- فلا يسعه إلا أن يقبل حكم اللَّه ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ [النور: ٥١]؛ أي: لا خيار في حكم اللَّه ورسوله ﷺ إن شئت قبلتَ وإن شئت لم تقبل! ولكن إن شئت أن تتنازل عن حقك فهذا شيء آخر، أما أن تقول ما أقبل، وأذهب إلى المحاكم القانونية، فهذه ردة عن دين الإسلام.

وأما من اعتقد أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل اللَّه وما جاء به الرسول ﷺ ولكنه خالفه لهوًى في نفسه مع اعتقاد أنه فعل محرمًا وحملته الشهوة والهوى على أن حكم بغير حكم اللَّه، أو حمله الطمع كأن دُفع إليه رشوة أو مال فحكم بغير ما أنزل اللَّه طمعًا بالمال، وهو يعتقد أنه عاصٍ ومخالف لأمر اللَّه ورسوله ﷺ.

أو حكم بغير ما أنزل اللَّه طمعًا في منصبه وهو يرى أنه مخطئ وأن عمله هذا لا يجوز فهذا لا يكفر الكفر المخرج من الملة، وإنما يكفر الكفر الأصغر -كفرًا دون كفر- كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما[1]، فهذا الذي يكون كفره دون كفر، من حكم بغير ما أنزل اللَّه لهوًى في نفسه لا أن يعتقد أن هذا يجوز أو أحسن من حكم اللَّه أو أن هذا مساوٍ لحكم اللَّه، وإنما حمله هواه على هذا، أو أنه طمع في مال أو منصب فحكم بخلاف حكم اللَّه ورسوله ﷺ من أجل هذا الذي صرفه من غير اعتقاد.

فهذا يسمى كفرًا عمليًّا وهو من الكفر الأصغر وهو كبيرة من كبائر الذنوب وخطير جدًّا، ولكن لا يحكم بأنه خرج من الملة؛ لأن عقيدته باقية.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٣٠٦-٣٠٧)، وابن أبي حاتم (٤/ ١١٤٣)، والحاكم (٢/ ٣١٣)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وأقره الذهبي.

ولهذا الأثر طرق كثيرة ثابتة عن ابن عباس وتلامذته طاوس وعطاء وغيرهم انظرها في تفسير ابن جرير.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **بعد إثبات هذا الأثر عن ابن عباس وتلامذته**: «وقد اتبعهم على ذلك أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة». «الإيمان» (ص٢٤٤)، ط. المكتب الإسلامي.

ومن حكم بغير ما أنزل اللَّه نتيجة خطأ في الاجتهاد وهو أهلٌ للاجتهاد ولم يتعمد مخالفة الكتاب والسنة، فهو يريد الحكم بما أنزل اللَّه ولكنه لم يوفق للصواب، فهذا كما قال النبي ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد**»(١).

فخطؤه مغفور؛ لأنه لم يتعمد هذا الشيء وهو حريص على أن يحكم بالشريعة واجتهد يطلب الحكم الشرعي ولكنه لم يُوفق، وهذا يؤجر على اجتهاده ونيته ويغفر له؛ لأنه لم يتعمد هذا الخطأ.

فهذه هي الأمور التفصيلية في هذه المسألة العظيمة، التي هي مشكلة العصر الآن.

ومما يتعلق بهذه المسألة: أن الحكم بما أنزل اللَّه ليس كما يفهم بعض الناس الذين ينتسبون إلى الدعوة إنه الحكم في المنازعات المالية والحقوقية فقط، ولا يطالبون إلا بهذا الشيء أن يحكم بما أنزل اللَّه في المحاكم فقط.

نعم هذا حق يجب أن يحكم بما أنزل اللَّه في الخصومات التي تجري في المحاكم، وأن تحل الخصومات والمنازعات بين الناس بالشريعة لكن ليس الأمر قاصرًا على هذا، بل يجب الحكم بما أنزل اللَّه في العقائد التي هي أهم شيء، فأهم شيء العقيدة، والناس مختلفون فيها فلابد أن يحكم بينهم بما أنزل اللَّه فتبين لهم العقيدة الصحيحة من العقيدة الباطلة، أما أن يقال: دعوا الناس على ما هم عليه من العقائد ولا تنفروا الناس وكل له عقيدته، فهذا لا يجوز وهو كلام باطل.

ومن أجاز أن يختار كل إنسان العقيدة التي يريدها وأن الناس أحرار في الاعتقاد فهذا يرتد عن دين الإسلام.

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

فالواجب: أن تكون العقيدة وفق كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ في توحيد الربوبية وفي توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

فتوحيد الألوهية يجب الحكم فيه بما أنزل اللَّه بأن العبادة لا تكون إلا لله، وأن عبادة ما سواه شرك أكبر يخرج من الملة، لابد من الحكم بهذا، وهذا هو الأساس.

والنبي ﷺ لما أرسل معاذًا إلى اليمن قال له: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه**»[١]. ما أرسله من أجل أنه يفصل الخصومات فقط، بل أرسله لكي يدعو إلى العقيدة ويصححها.

وهذا هو الأمر الذي بدأت به الرسل، فهي تبدأ بالعقيدة، وليس مرادهم حل الخصومات فقط، بل تبيين العقيدة الصحيحة، ويحكم على من خالف العقيدة الصحيحة أنه كافر ومشرك: من عبد غير اللَّه، من ذبح لغير اللَّه، من نذر لغير اللَّه، من استغاث بالأموات فهل يترك هذا ولا يحكم عليه بما أنزل اللَّه؟ وإن تخاصم مع أحد في شاة يقال احكموا بينهما بما أنزل اللَّه واتركوه على عقيدته وإن كان مشركًا، فهذا لا يجوز، لابد من الحكم بما أنزل اللَّه أولًا في العقيدة.

وكذلك الحكم في الأسماء والصفات فيحكم على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية والخوارج والمرجئة بما أنزل اللَّه ويبين بطلان عقائدهم وأما توحيد الربوبية فلا نزاع فيه.

أما أن يقال: اتركوا الناس على عقائدهم؛ فهذا أمر باطل ومنكر، وهذا مخالف لدعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- خصوصًا نبينا محمد ﷺ.

والأسماء والصفات قد حصل فيها نزاع بين الطوائف، بين أهل السنة

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية، فلابد من أن يحل هذا النزاع الذي حصل بين هذه الطوائف بأن يرجع إلى كتاب اللَّه، ويحكم بما أنزل اللَّه ﷻ، ويبين صواب المصيب وخطأ المخطئ، ولا يترك الناس بدون بيان وبدون حكم، وحكم اللَّه شامل في العقيدة وفيما دونها.

وكذلك لابد من تحكيم الشريعة في العبادات؛ لأن هناك عبادات تتمشى على الكتاب والسنة، وهناك عبادات محدثة ليس لها أصل في الكتاب والسنة، فهذه بدع يجب بيان بطلانها، وقد بينه ﷺ وفصَّل فيه فقال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(١)].

وقال ﷺ: «**وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[(٢)].

فلابد من تطبيق حكم اللَّه ﷻ في العبادات، فما وافق الكتاب والسنة فهو صحيح، وما خالف الكتاب والسنة فهو باطل، ولا يجوز التساهل في هذا الأمر والتغاضي عنه، وأن يقال: اتركوا الناس لا تنفروهم.

فنقول: نحن لا ننفر ولكننا نريد الخير للناس، ونريد أن يرجعوا إلى الصواب وإلى الحق؛ لأن هذا أصلح لهم في دنياهم وآخرتهم وهذا هو الاجتماع الصحيح، وأما إذا تركناهم على ما هم عليه من بدعة وشرك وتعطيل لأسماء اللَّه وصفاته فهذا غش للأمة، والنبي ﷺ يقول: «**الدين النصيحة**. قلنا: لمن يا رسول اللَّه؟

قال: **للَّه، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»[(٣)].

وكذلك التحاكم إلى اللَّه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن اللَّه

---

(١) تقد تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٩٥)، وأبو داود (٤٩٤٤) من حديث أبي رقية تميم بن أوس الداري ﵁.

أمر بطاعته ونهى عن معصيته، فكون الناس يتركون ولا ينكر عليهم ولا يؤمرون ولا ينهون فهذا من تعطيل حكم اللَّه تعالى، قال ﷺ: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**(١).

فحكم اللَّه يأتي أيضًا في أمور المخالفات التي هي دون الشرك والكفر فلابد من بيان حكم اللَّه فيها، ويبين ما هو طاعة وما هو معصية، وما هو معروف وما هو منكر، ويلزم بذلك، ويؤخذ على يد المخالف حتى يسلم المجتمع من الهلاك، أما إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا سبب لهلاك المجتمع جميعًا الصالح والطالح.

فالناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب من عنده.

فالحكم بما أنزل اللَّه عام وليس خاصًا بمسائل المنازعات والخصومات في الأموال فقط كما يظن بعض الناس، وأما أمور العقائد فالناس يتركون كل يختار ما يريد ويبقى على ما يريد؛ فهذا أمرٌ عظيمٌ وخطيرٌ جدًّا!

فحكم اللَّه شامل لكل هذه الأمور وما هو أكثر منها.

ويجب على الحكام أن يحكموا بما أنزل اللَّه، وهذا من أعمالهم، وأن يلزموا الناس بحكم اللَّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. هذه في الحكام.

وفي المحكومين الآية التي بعدها مباشرة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. فهذه في المحكومين.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨)، والترمذي (٢١٧٢)، والنسائي (٥٠٠٨)، وابن ماجه (١٢٧٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

فيجب عليهم أن يتحاكموا إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

فيجب على الحكام أن يحكموا بشرع اللَّه ويجب على الرعية أن يتحاكموا إلى شرع اللَّه، ولا يجوز أن يتحاكموا إلى الطاغوت والقوانين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

وسبب نزول هذه الآية كما هو معلوم: أنه حصلت خصومة بين رجل من المنافقين الذين يزعمون أنهم مسلمون وبين يهودي، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد -لعلمه أن محمدًا لا يأخذ الرشوة-، وقال المنافق: نتحاكم إلى كعب ابن الأشرف اليهودي؛ لأنه يأخذ الرشوة، مع زعمه أنه مؤمن، فأنزل اللَّه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهو كعب بن الأشرف[1]، وغيره ممن يحكم بغير ما أنزل اللَّه.

فكل من حكم بغير ما أنزل اللَّه متعمدًا فهو طاغوت.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٥/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٩١)، رقم (٥٥٤٨) و(٥٥٤٩) من مراسيل الشعبي والسدي ومجاهد.

وقد أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٤٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥٥٤٧)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في «اختصار ابن كثير» (١/ ٥٣٢)، ط. طيبة.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٦): ورجاله رجال الصحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهنًا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

وهذا أصح من الأول، وإذا صح الأول بشواهد فلا مانع من تعدد أسباب النزول للآية كما هو مقرر في أصول التفسير.

والطاغوت: من الطغيان، وهو الخروج عن الحق ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٠-٦٥].

فيحكِّمون الرسول ﷺ في حياته ويحكِّمون ما جاء به من الكتاب والسنة بعد مماته، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

فيجب على المسلمين حكامًا ومحكومين: أن يحكموا وأن يتحاكموا إلى شرع اللَّه ﷻ، ولا يستبدلوه بغيره، ولا يقول الحكام: نحن نخشى من الدول الكبرى، وهذا شيء يفرضونه علينا، فهذا لا يجوز لهم؛ لأنهم مسلمون يجب عليهم التزام الإسلام، فعندهم في الأعراف الدولية: ألا تتدخل دولة في شأن دولة أخرى في سياساتها الداخلية، هذا في حكمهم هم، أما حكم اللَّه ﷻ؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكن إذا رجعنا إلى أنظمتهم وجدنا أنه لا يجوز عندهم أن تتدخل دولة في أنظمة دولة أخرى وشئونها الداخلية.

فكيف يقول هؤلاء: نحن مفروض علينا؟ فهذا لا يجوز أبدًا للحاكم المسلم أن يخضع لغير حكم اللَّه ﷻ، اللَّه -جل وعلا- يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. وهذا خطاب يشمل كل حاكم من حكام المسلمين بعد الرسول ﷺ.

فمسألة الحكم بما أنزل اللَّه مسألة عظيمة وفيها تفاصيل كما ذكر أهل التفسير، فلا يطلق الكفر على كل من حكم بغير ما أنزل اللَّه، بل يفصَّل في هذا بين من يرى أن حكم غير اللَّه أحسن أو أنه يساوي حكم اللَّه أو أنه مخيرٌ، فهذا يحكم عليه بالكفر المخرج من الملة، أما من كان يرى أن حكم اللَّه هو اللازم وهو الحق، ولكن خالفه لهوًى أو لرشوة أو لطمع دنيوي فهذا يحكم عليه بأنه كفر دون كفر، وأن هذا فسق، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]. فيحكم عليه بالفسق ونقص الإيمان.

وهذا الناقض الرابع من نواقض الإسلام التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتضمن مسألة مهمة وهي مشكلة العصر الآن.

نسأل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أن يوفق ولاة أمور المسلمين للحكم بما أنزل اللَّه، وأن يوفق المخالفين لذلك بأن يرجعوا إلى الحق والصواب.

* * *

الأسئلة

سؤال: ما حكم من قال: نحن أعلم بمصالح الدعوة من الرسول ﷺ؟

جواب: هذا كلام باطل وكفر، وهذا تجهيل للرسول ﷺ، هذا يدخل في الشق الأول وهو قول الشيخ: «من اعتقد أن هدي غير الرسول ﷺ أكمل من هديه فهو كافر».

سؤال: في قول اللَّه تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، نفي الإيمان في هذه الآية، ألا يدل على الكفر بنوعيه من غير استثناء سواء اعتقد أو لم يعتقد؟

جواب: قد يكون هناك عذر، والأصل أنهم لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ولكن قد يكون هناك أشياء تدرأ عنهم الكفر، مثل ما فصل العلماء.

* * *

الدرس السادس
في شرح الناقض الخامس

قال الشيخ رحمه الله: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به كفر [٥].

---

[٥] قال الشيخ رحمه الله: «من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به كفر».

والدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]؛ أي: أبطلها. فدل على أن بغض شيء مما جاء به الرسول ﷺ ردة عن الإسلام وأنه يحبط العمل، وذلك أن أصول الإيمان وأركانه: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فمن نقص شيئًا منها لم يكن مؤمنًا.

والمراد بقوله: ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يشمل القرآن ويشمل السنة التي جاء بها الرسول ﷺ.

فالذي أنزل الله على قسمين:

القسم الأول: القرآن، وهذا هو الوحي الأول والمصدر الأول من مصادر الإسلام.

القسم الثاني: السنة التي جاء بها الرسول ﷺ؛ لأنها وحي من الله -جل وعلا-، والله -جل وعلا- يقول عن نبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

فالسنة هي الوحي الثاني والمصدر الثاني من مصادر الإسلام.

فمحبة اللَّه ﷻ ومحبة ما أنزله أعظم أنواع العبادة، ثم محبة الرسول ﷺ ومحبة سنته.

فمحبة اللَّه ومحبة رسوله ﷺ يقتضيان محبة ما جاء عن اللَّه ورسوله ﷺ، وبغض شيء مما جاء عن اللَّه أو جاء عن الرسول ﷺ يقتضي بغض اللَّه -جل وعلا- أو بغض الرسول ﷺ فهذا ردة وكفر باللَّه ﷻ.

فالواجب على المسلم: أن يحب ما جاء عن اللَّه من القرآن ويحب ما جاء عن الرسول ﷺ من السنة تبعًا لمحبة اللَّه ورسوله ﷺ، ومحبة هذا الدين، فإن كره شيئًا من ذلك فهذا دليل على عدم إيمانه.

وقوله: «**ولو عمل به**»؛ أي: فإنه لا يكون مؤمنًا؛ فإن المنافقين لما كانوا يبغضون اللَّه ورسوله ﷺ وكانوا يبغضون الوحي المنزل ولا يريدونه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

لماذا يصدون؟ لأنهم يبغضون الكتاب والسنة وإن كانوا يعملون بهما في الظاهر ولكن يبغضون ذلك بقلوبهم وعملهم في الظاهر لا يفيد شيئًا لأنه تقية وجُنة وإلا فهم في قرارة أنفسهم يبغضون القرآن والسنة؛ ولهذا حكم اللَّه عليهم بكفرهم وأنهم في الدرك الأسفل من النار، مع أنهم يعملون في الظاهر بالكتاب والسنة لكن لما كانوا يبغضون ذلك في قلوبهم صاروا كفارًا أشد الكفر وعذابهم أشد العذاب، فهم في الدرك الأسفل من النار.

أما الكفار الأصليون: فهم من الأصل يبغضون الرسالات والكتب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]. قالوا يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا من العادات والأحكام الجاهلية.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فالذين يبغضون ما أنزل اللَّه ﷻ على فريقين:

الفريق الأول: الكفار الأصليون، وهذه مقالتهم.

الفريق الثاني: الذين يدَّعون الإسلام، وهم المنافقون وقد تقدمت مقالتهم.

أما المؤمنون: فإنهم يحبون ما جاء عن اللَّه ورسوله ﷺ؛ ولذلك قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

يقولون: سمعنا وأطعنا؛ لأنهم يحبون ما جاء عن اللَّه ورسوله ﷺ، ولا يجدون في أنفسهم حرجًا من حكم اللَّه وحكم رسوله ﷺ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]؛ أي: لا يجدون في أنفسهم وقلوبهم حرجًا.

فلا يكتفون بالانقياد الظاهري، بل ينقادون ظاهرًا وباطنًا، ويحبون حكم اللَّه وحكم رسوله ﷺ ظاهرًا وباطنًا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ فلا يعترضون على حكم اللَّه ورسوله ﷺ؛ لأنهم يعلمون أنه الحق والعدل، وأن عاقبته حميدة.

فهم لا يقدمون شيئًا على حكم اللَّه ورسوله ﷺ ولو خالف أهواءهم ورغباتهم، فهم يتركون آراءهم ورغباتهم ويقبلون حكم اللَّه ورسوله ﷺ؛ لأنهم يعلمون ما فيهما من الخير آجلًا وعاجلًا، هؤلاء هم المؤمنون إذا بلغهم حكم اللَّه ورسوله ﷺ؛ فإنهم لا يريدون بهما بديلًا أبدًا ولا يؤثرون على كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ أي مصدر أو أي حكم.

هذه هي صفة المؤمنين، ولذلك تجدهم يحرصون ويقبلون على تعلم الكتاب والسنة ويتحملون التعب والمشقة؛ لأنهم يحبون الكتاب والسنة، ويألفون الكتاب والسنة ويحبون ويشتاقون إلى الكتاب والسنة أشد مما يشتاقون

إلى الطعام والشراب؛ لما في قلوبهم من المحبة لكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ بخلاف المنافقين؛ فإنهم ينفرون من الكتاب والسنة وتعلمهما، أو يقرءون القرآن بألسنتهم فقط، وينفرون من سنة الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]. هذه علامة على أنهم يبغضون كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ.

ولا فرق كما ذكرنا بين كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ؛ لأنهما من عند اللَّه، وإنما يفرق بين القرآن والسنة أهل الضلال الذين يقولون: لا نقبل إلا القرآن، لأن القرآن لا يتطرق نقله احتمال أو شك خلاف السنة؛ فإنه يتطرق إلى أسانيدها الشك عندهم، وأما عند المسلمين؛ فإنه لا يتطرق إليها الشك؛ لأنها من رواية الثقات الأثبات الحفَّاظ الذين نقلوها بأمانة فهم لا يشكون في أحاديث الرسول ﷺ، وأنها من عند اللَّه ﷻ.

وأما أهل النفاق والذين في قلوبهم نقص إيمان كالخوارج والمعتزلة وسائر الطوائف؛ فإنهم يشكون في السنة، بعضهم يشك في أحاديث الآحاد، وبعضهم يشك في السنة كلها ولا يرى لها مكانة ويقولون: يكفينا القرآن، وبعضهم يشك في بعض السنة فيقول لا نقبل إلا المتواتر من السنة ويردون أخبار الآحاد، ويقولون: إنها تفيد الظن.

وأما أهل الحق فإنهم يقولون: ما صح عن الرسول ﷺ سواء كان متواترًا أو آحادًا فإنه يفيد العلم واليقين ويحتجون به في العقائد والعبادات والمعاملات؛ لأنهم لا يشكون فيه، وأما أهل الضلال فإنهم يقولون إن أخبار الآحاد لا يحتج بها في العقائد لأنها تفيد الظن بزعمهم والعقائد تبنى على اليقين.

ومن العجيب: أنهم يبنون عقائدهم على علم الكلام وعلم المنطق ويقولون:

إنهما يفيدان اليقين، وكلام الله لا يفيد اليقين عندهم! والسنة لا تفيد اليقين عندهم! هذا من الضلال والانتكاس.

أما أهل السنة والحق فيقولون: ما صح عن النبي ﷺ فإنه يفيد اليقين والعلم ويحتج به في العقائد والعبادات والمعاملات، لا فرق في ذلك، هذه طريقة أهل السنة والجماعة.

والحاصل: أن الذي يكون في قلبه بغض لشيء مما جاء به الرسول ﷺ فإن هذا دليل على نفاقه وعلى عدم إيمانه، وإن كان يدعي الإيمان وإن كان يعمل بهذه الأحاديث ظاهرًا ما دام أنه يبغضها بقلبه؛ فإن هذا ناقض من نواقض الإسلام.

وفي هذه الآية الدليل على ذلك قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨-٩].

وفي آخر السورة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]. هذا هو السبب.

فهذا ناقض من نواقض الإسلام أن يبغض الإنسان شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ.

وقوله: «شيئًا»؛ يعني: أنه ليس لازمًا أن يبغض كل ما جاء به الرسول ﷺ، ولكن لو أبغض شيئًا منه كبعض الأحاديث الصحيحة الثابتة؛ فإنه يحبط عمله وينتقض إسلامه، والنبي ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لِمَا جئت به». والحديث صححه الإمام النووي في الأربعين، وتكلم عليه بعض العلماء كالحافظ ابن رجب رحمه الله[1]، ولكن تشهد له الآية ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾، فلم يكن هواهم تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ، فلذلك أحبط الله أعمالهم، فالآية تشهد للحديث.

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٣٩٣)، ط. مؤسسة الرسالة.

وفي وقتنا الحاضر كثر من يكره السنن الثابتة عن النبي ﷺ إذا خالفت أهواءهم وما يشتهونه.

ومن ذلك: مسائل المعاملات مثل الربا الذي فشا في الناس اليوم، فإذا قلت لهم: هذا ربا والله ورسوله ﷺ حرَّم الربا تجد عندهم تكرهًا وتبرمًا من ذلك، وإن كانوا لا يصرحون أو بعضهم يصرح، فيكرهون ذلك ويتبرمون ويقولون: العالم كله على هذا، هذا اقتصاد عالمي، أنتم تخالفون العالم، فهذه ردة عن دين الإسلام إذا كره النصوص التي تحرم الربا والقمار والميسر والمعاملات المخالفة للأدلة.

فإذا وجد في نفسه شيئًا من كراهة تحريمها؛ فإن الله يحبط عمله حتى ولو كان يعمل بها ظاهرًا!

فالخطر شديد وعلى المسلم أن يتفقد نفسه ويحفظ لسانه، وأن يدور مع الحق أينما دار، ولا يدور مع هواه وشهوته.

وفي قضايا المرأة: لما كان الإسلام قد وضع ضوابط للمرأة تخالف ما عليه المرأة في أمم الكفر والإباحية، صار كثير ممن يدَّعون الإسلام يكرهون الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة.

ومن ذلك: مناداتهم بمساواة المرأة بالرجل في الميراث والأعمال، وفيما هو من خصائص الرجال، ولا يريدون أن يكون بين الرجل والمرأة فارقٌ أبدًا؛ لأن الغرب سووا النساء مع الرجال، أو قدموا النساء على الرجال.

فهم يريدون أن يلحقوا بركب الغرب الكفرة، ولا يريدون أن يتميز النساء عن الرجال فيما يخص النساء، ولا يريدون أن يكون ميراثها نصف ميراث الرجل، ولا يريدون أن تكون ديتها نصف دية الرجل، لا يرضون أن تكون شهادتها على النصف من شهادة الرجل كما جاء به الشرع المطهر، والله خلق المرأة والرجل وهو أعلم ﷻ بما يليق بالرجل والمرأة.

ومن ذلك: الحملة الشنيعة على الحجاب والتنديد به وبأدلة الشرع التي جاءت بالحجاب، وإن استطاعوا تضعيفها لم يألوا جهدًا، ولما لم يستطيعوا ذلك راحوا يؤولونها ويفسرونها على غير تفسيرها، وعلى غير مراد اللَّه ورسوله ﷺ، أليس هذا من كراهة ما أنزل اللَّه على رسوله ﷺ؟

وهذه من الأمور التي حدثت الآن في المجتمع وظهرت في مقالاتهم ومجادلاتهم ومحاوراتهم، لا يريدون أن يفرقوا بين ما فرق اللَّه، واللَّه تعالى فرق بين المؤمنين والكفار، وفرق بين المؤمنين واليهود والنصارى، وهم يقولون: لا فرق بين المؤمنين واليهود والنصارى، كلهم مؤمنون.

واليهود والنصارى أهل كتاب ولهم أحكام خاصة لكن لا يسوون بالمؤمنين ولا يسوى دين النصارى واليهود بدين الإسلام، دين الإسلام هو الحق وحده، فلا يسوى به دين اليهود والنصارى وإن كانوا لهم أحكام خاصة يمتازون به على الكفرة الآخرين، ولكن ليس معنى هذا أن نسوي دينهم بدين الإسلام، فمن سوَّى دين اليهود والنصارى بدين الإسلام فهو كافر.

وهم لا يريدون أن تذكر الآيات التي في الولاء والبراء والتي أنزلها اللَّه في القرآن، ولا يريدون أن تذكر الآيات التي تتكلم عن اليهود والنصارى وتذمهم وتلعنهم وتبين مذاهبهم ومخازيهم، والآيات التي تأمر ببغض اليهود والنصارى لا يريدون أن يسمعوها.

أليس هذا من كراهة ما أنزل اللَّه على رسوله ﷺ؟ هذا أمر شديد جدًّا، قال اللَّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

فالواجب على المسلم: أن يتقي اللَّه، ولا يداهن الكفرة واليهود والنصارى، لا يداهنهم في دين اللَّه ﷻ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١].

لا تجوز المداهنة في دين اللّه، أما أننا نتعامل مع اليهود والنصارى والكفار بموجب ما جاء في الكتاب والسنة فهذا حق، أما أننا نساويهم بالمسلمين فهذا باطل، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

فلا يجوز هذا أبدًا، فاللّه -جل وعلا- أنزل القرآن بالفرق بين المؤمن والكافر سواء كان وثنيًّا أو دهريًّا، أو نصرانيًّا، أو يهوديًّا، فيجب أن ننزل الناس منازلهم ولا تأخذنا في اللّه لومة لائم، ولا شك أن محبة القرآن ومحبة السنة هي الإيمان.

كان رجل في عهد النبي ﷺ يصلي بأصحابه وكان يقرأ في كل ركعة سورة الإخلاص، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فسأله عن ذلك فقال: «أنا أحبها لأنها صفة الرحمن. فقال له النبي ﷺ: **إن حبك لها أدخلك الجنة**».

وفي رواية: «**أخبروه أن اللّه يحبه**»[1].

---

(١) هذا المذكور أعلاه مجموع حديثين:

الأول: عن عائشة ﵂ أن رجلًا بعثه رسول اللّه ﷺ على سرية... فذكرته، وفيه: فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن اللّه يحبه**». أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

والثاني: عن أنس أن رجلًا من الأنصار كان يؤمهم في مسجد قباء... فذكره، وأنه كان يقرأها في كل ركعة وفيه: فقال: إني أحبها. فقال ﷺ: «**حبك إياها أدخلك الجنة**». أخرجه البخاري (٧٧٤) تعليقًا، ووصله الترمذي (٢٩٠١)، وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح». واللّه أعلم.

فالذي يحب القرآن فيه إيمان وهذا يدخله الجنة، والذي يكره القرآن أو السنة لأنه يخالف شيئًا من هواه فإنه يحبط عمله وإن كان لا يتكلم، فكيف إذا تكلم وأنكر؟ فالأمر أشد!

وكذلك الذي يكره الكتاب والسنة، لأنهما يخالفان مذهبه أو مذهب من يقتدي به فهو يكره أن تذكر له الدليل من الكتاب والسنة؛ لأنه يخالف مذهبه، وهو يحب مذهبه أكثر من الكتاب والسنة؛ فإذا وقعت في قلبه كراهية لما جاء في الكتاب والسنة، فهذا دليل على عدم إيمانه، وهذا يحبط عمله؛ لأن المؤمن لا يقدِّم على كتاب اللَّه وسنة رسوله شيئًا، لا يقدِّم عليها شهوة أو مذهبًا أو متبوعًا، بل يقدِّم الكتاب والسنة على كل شيء، ولو خالف شهوته وهواه ومذهبه ومذهب من يقلده.

المسلم لا يعدل بالقرآن والسنة شيئًا، قال الإمام الشافعي رحمه الله: أجمع المسلمون على أنه من استبانت له سنة رسول اللَّه ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد[1].

ويقول عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما للصحابة رضي الله عنهم: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم: قال رسول اللَّه، وتقولون: قال أبو بكر وعمر[2]؟!

فإذا كان تقديم قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على قول رسول اللَّه ﷺ يوشك أن ينزل بسببه حجارة من السماء، فكيف بمن يقدِّم مذهب فلان أو علان من سائر الناس على كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ إذا خالفت مذهبه أو مذهب شيخه؛ فإنه يقف موقف المعادي ولا يريدها.

---

(١) ذكره ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢١) بنحوه وصححه أحمد شاكر رحمه الله، وأخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (٣٧٩ و٣٨٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (٢٣٧٨) وإسناده صحيح بلفظ: «أراهم سيُهلكون؛ أقول: قال النبي ﷺ، ويقولون: نهى أبو بكر وعمر؟». وهذا لفظ الخطيب في الرقم الأول.

نسأل اللَّه العافية، ويخشى أن يكون من الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ [الحج: ٧٢]. لماذا؟ لأنهم يبغضون آيات اللَّه ﷻ، فالخطر شديد في هذا الباب!!!

وهذا الناقض خطره شديد وهو خفي في الضمائر والنفوس.

فعلى المسلم أن يتفقد نفسه مع هذا الناقض لئلا يكون فيه شيء منه، أو يبغض شيئًا مما جاء عن الرسول ﷺ إما لمخالفته لشهوة نفسه أو مخالفة مذهبه أو مخالفة حزبه أو إمامه، فهذا على خطر عظيم.

فتبين من هذا أنه يجب على المسلم أن يوقر ويحترم كتاب اللَّه ﷻ وأحاديث الرسول ﷺ، وألا يقدم عليهما شيئًا من الآراء والمذاهب، والرغبات، والشهوات، هذا هو مقتضى الإيمان، وأن يحب كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، ويبغض ما يخالف كتاب اللَّه ويخالف سنة رسول اللَّه ﷺ، هذه علامة الإيمان والاتباع والاقتداء.

واللَّه ﷻ أنزل الكتاب وأنزل السنة وأمرنا باتباع الكتاب والسنة ونهانا عن مخالفتهما.

فالذي يريد النجاة والدار الآخرة عليه أن يتمسك بالكتاب، والسنة حتى لو خالف ذلك ما يريده ويشتهيه؛ فإن العاقبة حميدة، واللَّه -جل وعلا- حكيم عليم يحرم عليك هذا الشيء؛ وإن كنت تميل وترغب فيه ولكن اللَّه أعلم بالمآل والعواقب قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٦].

يكرهون القتال لِمَا فيه من المشقة والجرح والقتل والخطر كراهة نفسية لا كراهة دينية، لأن النفوس تكره الجرح والقتل ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فالمسلم يعلم أن ما حكم اللَّه به أو حكم به الرسول ﷺ فإنه هو الخير

عاجلًا أو آجلًا، ولو كان يظهر له أن فيه مشقة أو مخالفة لهوى نفسه فإنه يعتقد أن الخير فيما قال اللَّه ورسوله ﷺ ولا يقدم عليهما شيئًا ولا يقدِّم رأيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وعمر رضي الله عنه يقول: يا أيها الناس، اتهموا الرأيَ في الدين، فلو رأيتني يوم أبي جندل أن أرد أمر رسول اللَّه ﷺ فأجتهد ولا آلو[(١)].

والقصة: أنه لما صالح النبي ﷺ المشركين في الحديبية على أن يرجع ويأتي من العام القادم؛ شق ذلك على عمر رضي الله عنه وعلى غيره من الصحابة؛ لأنه ظهر لهم أن هذا انتصار للكفار وفيه ذلة للمسلمين، فشقَّ عليهم ذلك فكلم عمر أبا بكر فقال له أبو بكر: هذا رسول اللَّه، أمسك بغرزه[(٢)].

فتم الصلح وكان خيرًا للمسلمين وذلة على الكافرين فسماه اللَّه فتحًا ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١]. مع أن عمر رضي الله عنه كره ذلك؛ لأنه ظن أن في ذلك غضاضة على المسلمين وانتصارًا للكفار، لكن ما حكم به الرسول ﷺ هو الخير؛ لأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحى.

فالواجب: أن تقدم كلام اللَّه وكلام رسوله ﷺ دائمًا وأبدًا، فلا تعترض ولا يكن في نفسك حرج من ذلك، أما إذا أبغضت ذلك فهذه ردة، نسأل اللَّه العافية.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٨٩)، ومسلم (١٧٨٥) من قول سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

الأسئلة

سؤال: هل يجب تكفير من يبغض شيئًا من كتاب اللَّه أو سنة نبيه ﷺ وهذا البغض ظاهر؟

جواب: إذا أظهر البغض وقال: أنا أبغض ما جاء عن اللَّه تعالى أو عن رسوله ﷺ فلا شك في كفره، أما إذا لم يُعلم هذا وإنما هذا في قلبه، هذا لا يعلمه إلا اللَّه ﷻ، لكن إذا تكلم وقال: أنا أبغض الحديث أو أكره هذه الآية أو ما أشبه ذلك، فهذا صرح بالكفر -والعياذ بالله- يحكم عليه بنطق لسانه، أما إذا لم يتكلم فنحن ما لنا إلا الظاهر ولا يعلم ما في القلوب إلا اللَّه ﷻ.

سؤال: بعض الناس قد يصعب عليه بعض الأعمال فيقوم بها مع المشقة وأحيانًا قد تكره أنفسهم شيئًا مما أنزله اللَّه، كالاستيقاظ لصلاة الفجر وغير ذلك، فهل هذا يُعد ممن أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ؟

جواب: هناك فرق بين كون الإنسان يبغض ما أنزل اللَّه وكونه يصيبه الكسل عن قيام الليل أو صلاة الفجر، هذا لا يكون كافرًا، هذا يلام على كسله وعلى تثاقله ولكن لا يقال أنه كافر، لأن هذا أمر طبيعي ولا يرجع إلى الإيمان، كما إن الناس لما فرض القتال، ثقل عليهم، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ليس معناه أنهم يكرهون أن اللَّه فرضه؛ وإنما يكرهون نفس القتال ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾؛ يعني: القتالَ بما فيه من المشقة، فلا شك أنه يلام على هذا ولكن ما يصل إلى حد الكفر، الكسل عن الصلاة مثلًا وصلاة الليل، قيام الليل أو بعض الأحيان عن صلاة الفجر ما يحضرها بسبب الثقل والكسل والنوم.

هذا نقصٌ في إيمانه بلا شك وهذا نوع من أنواع النفاق ولكن لا يصل إلى حد الكفر، ولكن لو كره الصلاة وقال ما هذه الصلاة، ولماذا نقوم بالليل ونذهب ونصلي؟ هذا الذي يكفر، إذا كره التشريع.

سؤال: من رد خبرًا من أخبار النبي ﷺ في أبواب العقائد على أنها من أخبار الآحاد، هل يعتبر ذلك ردة عن الإسلام؟

جواب: إذا علم أنه صح عن الرسول ﷺ وأنه نصٌّ في الموضوع ليس فيه احتمال، نعم يعتبر ردة لأنه ليس له عذرٌ.

أما إذا لم يعلم صحته وثبوته عن الرسول ﷺ أو علم عن صحته وثبوته ولكن الحديث فيه احتمال وليس نصًّا في الموضوع أو تأوله، فهذا يعذر بالاحتمال وبالتأويل.

سؤال: من أبغض أمرًا مباحًا أو مختلفًا فيه فهل يدخل في الناقض الخامس؟

جواب: المباح أو المختلف فيه هذا له عذر في الاختلاف إذا كانت المسألة فيها خلاف وهو أخذ بأحد الاحتمالات أو أحد المذاهب، فهذا إن كان مجتهدًا ومتحريًا للحق فيعذر وإن كان أخذ به لأنه يوافق هواه فهذا لا شك أنه أخطأ ويأثم ولكن ما يصل إلى حد الردة.

سؤال: هل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]. **دليلٌ على بغضِ بعض ما جاء به الرسول ﷺ، أو هو دليل على بغضِ جميع ما جاء به الرسول ﷺ حيث سمعنا من ينزل الآية على بغض جميع ما جاء به الرسول ﷺ، فيجعل الناقض في الجميع لا في البعض؟**

جواب: الحكم يشمل الجميع ويشمل البعض، أليس البعض مما أنزله اللَّه؟ ولذلك الشيخ عبر بقوله: من أبغض شيئًا، ما قال: من أبغض ما أنزل اللَّه قال:

من أبغض شيئًا مما جاء به النبي ﷺ، هذا يشمل الكل ويشمل البعض؛ لأن البعض أنزله اللَّه كما أن الكل أنزله اللَّه ﷻ وكلمة «ما» من ألفاظ العموم.

سؤال: ما حكم من أبغض صحابة النبي ﷺ؟ وهل داخل في هذا الناقض من نواقض الإسلام؟

جواب: نعم، من أبغض صحابة الرسول ﷺ فهذا دليلٌ على النفاق، لا يبغض الصحابة إلا منافق، بل إن اللَّه تعالى سماه كافرًا، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

فاللَّه -جل وعلا- أوجد الصحابة ليغيظ بهم الكفار، فالذي يبغض الصحابة هذا دليل على كفره ونفاقه -نسأل اللَّه العافية-، واللَّه -جل وعلا- وصف المؤمنين بأنهم يترحمون، ويدعون لمن سبقهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

هذا موقف المسلم من الصحابة؛ أنه يستغفر لهم ويترضى عنهم ويقول ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ويثني عليهم.

سؤال: الذين يتكلمون في علمائنا ويقولون: إنهم فقهاء حيض ونفاس ويقولون: لا تفرقوا بين شباب الأمة، بل نريد وحدة الصف، هل هذا من الكفر بما أنزله اللَّه على رسوله؟

جواب: هذا ليس من الكفر، ولكن هذا من الغيبة والوقيعة في أعراض العلماء وهذا حرامٌ بلا شك؛ لأنه غيبة شديدة التحريم، وعليهم أن يتوبوا إلى الله ﷻ.

ثم إن الكلام في العلماء ماذا يجدي؟ ما يجدي إلا شرًّا يبغضهم إلى الناس

ويقلل الثقة بهم، وأين يذهب الناس إذا لم يرجعوا إلى العلماء؟ أين يذهبون؟ هذا خطرٌ عظيم، ويلزم عليه تقليل الثقة في العلماء وإسقاط منزلتهم عند الناس وهذا أمرٌ لا يجوز، وهذا معناه أن الناس يرجعون إلى غير العلماء فيحصل الشر ويحصل الفساد وهذا ما يريده دعاة الشر.

* * *

الدرس السابع
في شرح الناقض السادس

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى:** ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] [٦].

---

[٦] **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**السادس**»؛ أي: الناقض السادس من نواقض الإسلام «**من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى:** ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾». هذا باب عظيم، والذي قبله: «من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ».

والبغض والكراهة من أعمال القلوب، وأما الاستهزاء فهو من أقوال اللسان.

وهذه الآية الكريمة جاء في سبب نزولها[١] أن جماعة من المسلمين كانوا غزاة مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فاجتمعوا في مجلس فتكلم واحد منهم فقال: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء -يعنون رسول اللَّه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم-.

وكان في المجلس شاب من الأنصار يقال له: عوف بن مالك فقال لهذا الرجل: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول اللَّه ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

فقام ذاهبًا إلى الرسول ﷺ ليخبره فوجد أن الوحي سبقه ونزل على الرسول ﷺ فأخبره اللَّه -جل وعلا- بما قاله هؤلاء في مجلسهم، أو قاله واحد منهم والبقية لم ينكروا عليه.

ولما نزل ذلك على رسول اللَّه ﷺ ارتحل من مكانه هذا وركب راحلته لما بلغه هذا القول الشنيع، فجاء هذا الرجل الذي تكلم يعتذر للرسول ﷺ ويقول: يا رسول اللَّه، إنما كنا نخوض ونلعب، نتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، والرسول ﷺ لا يلتفت إليه، وهو متعلقٌ بنسعة ناقة رسول اللَّه ﷺ، والرسول لا يلتفت إليه، ولا يزيد على قراءة الآية: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة: ٦٥].

فقوله -جل وعلا-: ﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ هذا دليل على أنهم كانوا مؤمنين وليسوا منافقين، ودل على أن مَنْ استهزأ باللَّه أو برسوله أو بما جاء عن اللَّه ورسوله ﷺ أنه يكفر بعد إيمانه ويرتد عن الإسلام، وهذا محل الشاهد من الآية؛ إذ لو كانوا قبل مقالتهم منافقين لم يقل: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾؛ لأن المنافقين ليسوا مؤمنين من الأصل فلا يسمون بالمؤمنين وإنما يسمون بالمنافقين، وقد قال اللَّه -جل وعلا- في الآية الأخرى في المنافقين: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ ولم يقل بعد إيمانهم.

والإسلام معناه: إعلان الدخول في الإسلام وإن لم يكن صادقًا في قلبه، فقد يكون كافرًا في الباطن وإن كان يظهر الإسلام؛ وهذا هو المنافق، والآية ليس فيها أنهم كفروا بعد إيمانهم، بل فيها: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾، ففرق بين مجرد الإسلام وبين الإيمان.

فهذه الآية تدل على أمور عظيمة:

أولًا: أنه يجب احترام وتعظيم اللَّه -جل وعلا- وإجلاله، وأن من تنقص اللَّه

فإنه يكفر مثل ما قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ومثل مقالة النصارى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ﴾ [المائدة: ١٧]. هذا تنقص للَّه وكفر باللَّه ﷻ.

ثانيًا: أن تنقص الرسول ﷺ كفر أيضًا؛ لأن اللَّه -جل وعلا- أمر بتعظيم الرسول ﷺ وتوقيره واحترامه؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١-٥].

وقال -جل وعلا-: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: ٦٣].

والرسول ﷺ يُنادي بالرسالة: يا رسول اللَّه، يا نبي اللَّه، ولا يقال يا محمد باسمه، وإنما يخاطب بالرسالة والنبوة تعظيمًا له ﷺ؛ ولهذا فاللَّه -جل وعلا- يخاطبه باسم الرسالة والنبوة: يا أيها الرسول، يا أيها النبي، ولم يذكر اسمه إلا في مقام الإخبار لا في مقام النداء قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ هذا إخبار ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۙ﴾ [محمد: ٢]. هذا من باب الإخبار، أما المخاطبة فيخاطب الرسول ﷺ باسم النبوة والرسالة؛ فلا تقل: قال محمد، وإنما تقول: قال رسول اللَّه ﷺ، أو تقول: قال نبي اللَّه ﷺ.

وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: الرسول ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ أي: وقَّروه.

والتعزير يطلق فيراد به: التوقير والاحترام، ويطلق ويراد به: التأديب مثل تعزير المخطئ، وليس هذا هو المراد في حق رسول اللَّه ﷺ، بل المراد التوقير والاحترام.

وقال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

فقوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هذا راجع إلى الرسول ﷺ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا راجع إلى اللَّه ﷻ، هذا هو الواجب للَّه وللرسول ﷺ.

ثالثًا: أن الواجب نحو القرآن احترامه، وتعظيمه؛ لأنه كلام اللَّه ﷻ وفضل كلام اللَّه على سائر الكلام كفضل اللَّه على خلقه؛ لأنه من كلام اللَّه وكلام اللَّه صفة من صفاته ﷻ، فالواجب احترام كتاب اللَّه وتعظيمه وتوقيره.

رابعًا: أن الواجب احترام دين الإسلام، وعدم تنقصه، أو انتقاد شيء منه؛ لأنه دين اللَّه وشرعه، فلا يجوز لأحد أن ينتقد هذا الدين أو يتنقصه أو يتكلم فيه بكلام فيه تنقص واستهزاء وسخرية، فهذا هو الواجب نحو اللَّه -جل وعلا- ورسوله ﷺ ونحو دين الإسلام.

خامسًا: أنه يجب احترام سنة الرسول ﷺ وتوقيرها واحترامها لأنها كلام الرسول ﷺ، وهي وحي من اللَّه -جل وعلا-: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

فيجب احترام سنة رسول اللَّه ﷺ ولا يجوز انتقادها والاستهزاء بشيء منها، ومن فعل ذلك فقد ارتد عن دين الإسلام.

سادسًا: احترام العلماء؛ لأنهم ورثة النبي ﷺ، واللَّه رفع من شأنهم وأعلى من مكانهم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فهؤلاء -والعياذ بالله- وقعوا في هذه الجريمة، تكلم هذا الرجل الشقي فقال: ما رأينا مثل قرائنا، ويعني بالقراء: رسول اللّه ﷺ وأصحابه ويشمل لفظ القراء في ذلك الوقت العلماء؛ لأنه كان في ذاك الوقت الذي يقرأ القرآن يكون عالمًا، أما في زمان المتأخر فقد يكون القارئ لا يفهم شيئًا من معاني القرآن ولا يفقه وإنما يجيد القراءة فقط؛ لأنه في آخر الزمان يكثر القراء ويقل الفقهاء، أما في الزمان الأول فالقراء هم الفقهاء.

فقوله: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ أي: العلماء، وهم الرسول ﷺ وصحابته الكرام ﷺ.

ويؤخذ من هذا: أن الذي يتنقص العلماء من أجل علمهم في أي وقت أنه يدخل في معنى هذه الآية الكريمة؛ لأن هذا قال: ما رأينا مثل قرائنا، والقراء: هم العلماء، وهذا يتناول العلماء في كل وقت.

والعلماء لهم احترامهم وإجلالهم؛ لأنهم يحملون كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، ويحملون العلم ويبلغونه إلى الناس؛ فيجب احترامهم، والنبي ﷺ يقول: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**»[1].

وقال ﷺ: «...**وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء**»[2].

فالعالم له قدره، والمراد العالم بشرع اللّه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

فالعلماء هم أهل خشية اللّه؛ لأنهم يعرفون اللّه حق المعرفة فهم يجلونه

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٥٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٩) من حديث أبي الدرداء ﷺ، وقال الحافظ في «الفتح» (١/ ١٩٣): «له شواهد يتقوى بها».

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٤٨)، وصححه الألباني.

ويعظمونه ويخشونه، وكلما زاد علم الإنسان زادت خشيته للَّه ﷻ.

فيجب احترام العلماء وتوقيرهم، فمن تنقَّصهم فإنه يكون داخلًا في معنى هذه الآية ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

سابعًا: احترام عموم المسلمين أفرادًا وجماعات.

ثامنًا: من العجب: أن الذي تكلم في المجلس واحد واللَّه عمم الحكم فقال: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ نسب الاستهزاء إليهم جميعًا لماذا؟ لأنهم لم ينكروا فعمهم الحكم؛ لأنهم لما سكتوا على المنكر صاروا شركاء مع فاعل المنكر.

ولهذا لما أنكر عليهم هذا الشاب برئ من الإثم وأنزل اللَّه تصديقه في كتابه، وأما هؤلاء فلم ينكروا فدل أن الذي يحضر مجالس الكفر والاستهزاء بالدين وبالرسول ﷺ والصحابة والعلماء ولا ينكر يتناوله الحكم، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

فدل على أن الذي لا ينكر سب اللَّه أو سب الرسول ﷺ والصحابة أو سب الدين أو سب العلماء أنه يكون مثل الساب سواء بسواء؛ لأن اللَّه نسب الاستهزاء إلى المجموعة مع أن المتكلم واحد.

فهذه الآية فيها عبر وأحكام عظيمة ينبغي للمسلم أن يتأملها ويتدبرها لئلا يقع في شيء مما حذرت منه، وهذه الأمور كثيرة في الناس اليوم.

فالاستهزاء بالدين والعلماء، والاستهزاء بالسنة والقرآن كثير، ويقولون الكتاب والسنة لا يصلحان في هذا الوقت والسنة لا يحتج بها لأنها من نقل

الرواة كما أن خبر الواحد لا يحتج به، وغير ذلك من المقالات الشنيعة.

وكذلك مما يكتب في الصحف، ويذاع، أو يبث في وسائل البث من تنقص دين الإسلام والاعتداء عليه الشيء الكثير، فلو كان هذا من الكفار لهان الأمر؛ لأنه ليس بعد الكفر ذنب، ولكن المشكلة أن هذا يحدث ممن ينتسب إلى الإسلام ويدعي العلم أنه يتنقص الأحكام الشرعية والآيات والأدلة الشرعية، وأنها ظنية ولا تفيد العلم، وما أشبه ذلك من المقالات الشنيعة، أو الكلام في العلماء والوقيعة في أعراضهم، وأنهم علماء حيض ونفاس، وأنهم علماء سلاطين ومداهنة، وما أشبه ذلك من المقالات الشنيعة التي يرددونها ويكتبونها مما لا يخفى، وكل هذا داخل في معنى الآية الكريمة وعلى صاحبه من الوعيد ما ذكره اللَّه في هذه الآية.

واللَّه تعالى ذكر أن الكفار يسخرون من المؤمنين ويتنقصونهم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

يصفون المؤمنين بأنهم ضالون، ويصفون هذا الدين بأنه ضلال، يقولون: هذا الدين يعوق عن المدنية والرقي والحضارة وما أشبه ذلك من المقالات وأنه لا يصلح لهذا الزمان.

وكذلك يستهزئون بسنة الرسول ﷺ ويقولون إنها قشور، كإعفاء اللحية وحف الشوارب، ويقولون: أنتم مشغولون بالقشور، وأن استعمال السواك من القشور، وإن إنكار الإسبال للثياب من القشور، يقولون: دعوا الناس يلبسوا ما يشاءون، وأن سفور النساء من الكمال، وأن الحجاب من القشور.

إذن؛ ماذا بقي؟ صار الدين كله قشورًا!! بل إنهم يقولون: إن الشرك وعبادة القبور من الأمور الهينة، هذه عقيدتهم وهم أحرار في عقيدتهم، وهذا من احترام الرأي الآخر، وهم مجتهدون، فلا تغلظوا ولا تنكروا عليهم، وكل هذا

يقال الآن، وهذا لا شك أنه محادة للَّه ورسوله ﷺ وتنقص لكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، فإذا كان القرآن جاء بالقشور والسنة جاءت بالقشور فماذا بقي؟!!

ويقولون: نتحد فيما بيننا ولو كان بيننا قبوري أو شيعي من أجل أن نقاوم الإلحاد؟

فنقول لهم: ما هو الإلحاد؟

فيقولون: الإلحاد هو إنكار الخالق.

فنقول لهم: والشرك وعبادة غير اللَّه أليس هو من أعظم الإلحاد؟ بل هو من أشد الإلحاد، والذي يسب الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم هو من الإلحاد، كالذي يسب الصحابة ويتنقص عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ويصفها بما برأها اللَّه منه هذا متنقص للرسول ﷺ ومتهم له، وأن في أهله سوءًا، وأنه يقر السوء في أهله -نسأل اللَّه العافية-، وأن اللَّه اختار لرسوله ﷺ زوجة فاسدة، هذا تنقص للَّه ولرسوله ﷺ، وأن الرسول ﷺ رضي بها وهي فاسدة، فهذا كفر صريح.

وكذلك الذين يتنقصون الصحابة يكذِّبون اللَّه تعالى؛ لأن اللَّه تعالى أثنى على الصحابة في آيات كثيرة قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فهؤلاء المهاجرون والأنصار هم الصحابة رضي الله عنهم، وهؤلاء يقولون: الصحابة كفروا ولم يبقَ منهم على الإسلام إلا أربعة، وما هذا إلا تكذيب للَّه -جل وعلا-، ويقول اللَّه -جل وعلا-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

فيقولون: الصحابة كفار، سبحان الله!! يذمون من أثنى اللَّه عليهم ويكفرون من أثنى اللَّه عليهم، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن

دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]. هؤلاء هم المهاجرون.

ثم قال في الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. هؤلاء هم الأنصار وهذه صفاتهم.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ولكن إذا كان ممن جاء بعدهم من يقول: اللهم العن أبا بكر وعمر، والعن عائشة أم المؤمنين والعن فلانًا وفلانًا من الصحابة ﭬ، ما حكمهم عند اللَّه تعالى؟! نسأل اللَّه العافية.

لكن يجب على شباب المسلمين أن يتنبهوا إلى هذه الأمور ولا ينخدعوا بهذه الدعايات والتضليلات، وأن من قال إنه مسلم فهو مسلم ولو صدر منه ما ينقض إسلامه ولا نفرق بين الطيب والخبيث؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

فنحن لا نفرق بين المسلمين -حاشا وكلا-، وإنما نفرق بين الطيب والخبيث ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

فاللَّه ﷻ ميَّز بين الخبيث والطيب، فالذي لا يميز بين الخبيث والطيب إما أنه ليس عنده عقلية يميز بها، وإما أنه ليس عنده إيمان، فكل الناس عنده سواء، ولا عنده إيمان يفرق به بين المؤمن والمنافق، والكافر والمسلم، والملحد والزنديق، ما عنده تفريق بين الناس، هذا إما أنه فاسد العقل وإما أنه فاسد

العقيدة -والعياذ بالله-.

فيجب على المسلم: أن يعرف هذه الأمور ويتأمل هذه الآية: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

لا يقبل عذر من استهزأ بالله ورسوله، ودل على أن من سبَّ الله ورسوله ﷺ يكفر.

وقد ذكر العلماء أن الاستهزاء ينقسم إلى قسمين:

استهزاء صريح بالقول، واستهزاء بالإشارة.

والاستهزاء بالإشارة كأن يمد شفته استهزاء، أو يمد عينه استهزاءً، أو يشير إشارة تعطي التنقص والاستهزاء؛ فهذا يُعد تنقصًا واستهزاء وإن لم يتكلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠].

وعلى المسلم أن يتنبه لهذه الأمور ويتجنب الكلام السيئ، ولاسيما الكلام في أمور الشرع وأهل الشرع والعلماء، وأن يحفظ لسانه، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ولا تعرف الحق من الباطل إلا إذا تعلمت العلم النافع، وقد أنزل الله الفرقان وهو القرآن للتمييز بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

فيجعل في قلوبكم نورًا تعرفون به الحق من الباطل.

فالقرآن فرقان، والتمييز الذي يجعله الله في قلب المؤمن فرقان أيضًا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، فلا يلتبس عليه هذا وهذا، ولا تؤثر عليه الدعايات المضللة والشبهات المزوقة، ولكن هذا يحتاج إلى عناية وتعلم، ويحتاج إلى حذر من المنافقين والزنادقة المندسين بين صفوف المسلمين، وألا يحضر

مجالسهم، وإذا حضر فليكن على استعداد للإنكار عليهم وإنكار مقالتهم ورد شبهاتهم.

تاسعًا: في الآية الكريمة أيضًا مسألة دقيقة: وهي أن من سب اللَّه أو رسوله ﷺ أو كتابه أو سنة رسوله ﷺ؛ أنه يكفر سواء كان جادًّا، أو هازلًا، أو مازحًا؛ لأن هذا الأمر ليس فيه مزح ولا هزل، فلا يجوز الهزل والمزح في هذا الأمر، فمن سب اللَّه، أو الرسول، أو القرآن، أو الصحابة أو من تبعهم من أهل العلم، فإنه يناله هذا الوعيد الشديد ولو كان مازحًا؛ لأن هؤلاء الذين نزلت فيهم الآية قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فلم يقبل اللهُ عذرهم، بل قال: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

علق الحكم بمجرد الاستهزاء؛ فالاستهزاء باللَّه ورسوله ﷺ والاستهزاء بالآيات ليس فيه مزح ولا لعب، يجب احترام هذه الأمور وعدم الاستهزاء بها والمزح بها.

عاشرًا: كذلك تدل الآية أنه يكفر ولو لم يعلم أن هذا كفر؛ لأن هؤلاء ما علموا أن هذا كفر، فهؤلاء كانوا أهل إيمان كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ما علموا أنه كفر، فاللَّه لم يعذرهم بذلك فيكفر ولو كان لا يعلم أن سب اللَّه ورسوله ﷺ وآياته كفر.

فكيف إذا كان عالمًا؟ فالأمر أشد!!!

فهذه مسألة مهمة وأنه لا فرق بين الجاد والهازل، والجاهل والعالم.

نسأل اللَّه أن ينصر الإسلام والمسلمين، ويذل أعداء الدين.

وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى أصحابه أجمعين.

* * *

أسئلة

سؤال: قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]. أليس في الآية الكريمة ما يدل على أن العمل أو القول قد يخرج من الإسلام، وفيه رد على المرجئة؟

جواب: نعم، بلا شك في الآية رد على المرجئة الذين يقولون: إنه لا يكفر إلا إذا اعتقد بقلبه، والآية تدل على أنه يكفر مطلقًا سواء اعتقد أم لم يعتقد بقلبه، والمازح لا يعتقد بقلبه ومع هذا كفره اللَّه ﷻ: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

سؤال: ما أقل الاستهزاء الذي يكفر به صاحبه؟

جواب: ليس له قليل، قليله كثير -والعياذ بالله-، كل ما كان استهزاءً وسخرية فهو كفر، حتى: الإشارة بالشفة، واليد، والعين يعتبر من الاستهزاء ولو لم يتكلم.

سؤال: هل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ المقصود آيات القرآن أم جميع الآيات الكونية؟ وما المراد منها؟

جواب: الآيات الكونية موجودة ولا يستهزأ بها أحد؛ لأنه يرى الجبال والأشجار والأنهار، فلا مجال للتكذيب بها لأنها عالم مشاهد، وإنما المراد الآيات المقروءة، والوحي المنزل، وهو القرآن والسنة.

سؤال: ما أقسام الاستهزاء؟ وما الضابط في الاستهزاء بالعلماء؟

جواب: الغالب والظاهر على من استهزأ بالعلماء أنهم يستهزئون بالعلماء لما يحملونه من العلم، لا يستهزئون بهم لذواتهم فيقول: فلان أعرج أو أعور أو كذا في جسمه، وإن كان هذا لا يجوز في حق كل مسلم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]. فهو لم يسخر من العلماء إلا لأجل علمهم.

سؤال: هل يستوي الاستهزاء بالرسول ﷺ والاستهزاء بالعلماء من جهة الحكم؟

جواب: الاستهزاء بالرسول ﷺ أشد بلا شك، والاستهزاء بالعلماء قبيح؛ لأنهم ورثة الأنبياء، والنبي ﷺ قال: «**وإن العلماء ورثة الأنبياء**»(١).

فالذي يستهزئ بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء؛ فإنما يستهزئ بالأنبياء، من طريق اللزوم، لماذا يستهزئ بهم؟ إلا لوراثتهم العلم، وحملهم له.

سؤال: ما حكم من يستهزئ بالدين لإضحاك الناس؟

جواب: الحكم أنه كافر، سواء كان جادًّا أو هازلًا أو يضحك الناس فإنه يكفر بعد إيمانه، والدين ليس محلًّا للاستهزاء والسخرية.

* * *

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» (٣/ ٣١٧)، وصححه الألباني.

الدرس الثامن
في شرح الناقض السابع

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **الناقض السابع: السحر، ومنه: الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] [٧].

---

[٧] **السحر في اللغة**: عبارة عن الشيء الخفي، ولهذا يقول العلماء: السحر ما خفي ولطف سببه(١).

ومنه: السحر وهو آخر الليل؛ لأن النهار يظهر خفيًّا في أوله مغمورًا بظلام الليل ثم يظهر شيئًا فشيئًا حتى يسفر، وسمي سحرًا لخفائه.

السحر في الشرع: ينقسم إلى قسمين: حقيقي وتخييلي.

فالحقيقي منه: عبارة عن عمل يؤثر في الأبدان أو في القلوب، يؤثر في الأبدان بالمرض أو بالموت، أو يؤثر في الفكر بأن يُخيل إلى إنسان أنه فعل شيئًا وهو لم يفعله.

أو يؤثر في القلب فيورث به كراهة، أو محبة غير طبعيين، فهذا هو الصرف والعطف، بأن يعطف الإنسان ويحدث فيه محبة غير عادية لبعض الأشياء أو بعض الأشخاص، أو يكرهه إلى هذا الشيء أو يبغضه إليه، كأن يفرق بين المرء وزوجه أو يحبب أحدهما للآخر، ويسمى بالتِّولة.

والتخييلي: ما يؤثر في الأبصار والأنظار فترى الشيء على خلاف ما هو عليه.

---

(١) انظر: «فتح المجيد» (ص٢٩٥). ط. الإفتاء.

فمن النوع الأول: ما جاء في سورة الفلق؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ١-٤].

هذا هو السحر الحقيقي، والنفاثات: جمع نفاثة وهي التي تعقد العقد وتنفث فيها، وتقصد بذلك الإضرار بالمسحور، ومنه ما حصل للنبي ﷺ لما سحره لبيد بن الأعصم اليهودي صار يخيل إليه ﷺ أنه فعل الشيء وهو لم يفعله فتأثر بالسحر؛ لأن الأنبياء بشرٌ يعرض لهم ما يعرض للبشر، وهذا نوع من الأمراض فيمرضون ويصيبهم ما يصيب البشر.

ومن ذلك: السحر؛ لأنه مرض، فأرسل اللَّه إليه ﷺ ملكين يرقيانه بهذه السورة، فوقفا عنده فقال أحدهما: ما شأن الرجل؟ قال الآخر: مطبوب - يعني: مسحورًا- قال: ومن طبَّه؟ -أي: من سحره- قال: لبيد بن الأعصم في مشط ومشاطة في جف طلعة في بئر ذروان؛ فرقاه جبريل عليه السلام بهذه السورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؛ فقام ﷺ كأنما نشط من عقال، فذهب عنه السحر.

ثم أمر رجالًا أن يذهبوا إلى هذه البئر فذهبوا فاستخرجوا منها السحر وأتلفوه، وقالوا للنبي ﷺ: ألا تقتله؟ فقال ﷺ: «**أما اللَّه فقد شفاني، ولا أحب أن أفتح على الناس شرًّا**»[(١)]؛ فتركه ﷺ درءًا للفتنة.

فدل على أنه مستحقٌّ للقتل؛ لأن الرسول ﷺ لم يقل لا يجوز قتله، أولا يستحق القتل، وإنما قال: «**لا أحب أن أفتح على الناس شرًّا**»؛ يعني: فتنة؛ لأن اليهود عندهم عهد مع النبي ﷺ ولو أنه قتله لحصل منهم فتنة وشر؛ ولا شك أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح فتركه ﷺ؛ لأن الغرض حصل وهو شفاؤه ﷺ، فهذا من النوع الحقيقي الذي يؤثر.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٥)، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأما السحر التخييلي: وهو سحر الأعين فهو من جنس ما فعله فرعون مع موسى عليه السلام لما جمع السحرة ليقابلوا موسى والمعجزات التي معه فعملوا سحرًا تخييلًا، ولهذا قال -جل وعلا-: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ما قال سحروا الناس، بل قال: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

أي: يخيل إلى موسى من سحرهم أن العصا والحبال تسعى وتتحرك وتمشي وهي في الحقيقة لا تتحرك ولا تمشي من ذاتها، بل يحركها ما وضع فيها من الزئبق كما في الآية الأخرى ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ هذا سحر تخييلي ليس له حقيقة بمجرد أن يذهب تعود الأشياء إلى حقيقتها، ولهذا يأتي الساحر إلى بعض الناس فيأتي بحشرات أو جعلان أو خنافس فيلقي عليها السحر فتصبح كأنها غنم ثم بعد قليل تعود إلى طبيعتها.

ومنه ما يعمله النشالون والمحتالون فيأتون إلى بعض الناس بأوراق عادية يضعون عليها القمرة فيظنونها نقودًا، ويأخذون في مقابلها أموالًا أو صرافة نقودًا بنقود، ثم إذا ذهب الساحر عادت هذه الأشياء إلى حقيقتها، أوراقًا لا قيمة لها هذا شيء معروف ويقع كثيرًا على أيدي النشالين والمحتالين الذين يأخذون أموال الناس بالباطل.

فالسحر بنوعيه قديم في البشرية ذكره اللَّه تعالى في قوم فرعون، وأن السحرة كانوا عند فرعون، وفي رعيته، ويحترفون السحر فلما جاء موسى عليه السلام برسالة ربه ومعه المعجزات التي تدل على صدقه وهي العصا التي تنقلب إلى حية، ويده يدخلها في جيبه عليه السلام فتخرج بيضاء من غير آفة أو برص، هذه معجزات من عند اللَّه لا صنع للبشر فيها؛ لأن المعجزات التي من عند اللَّه

لا دخل للبشر فيها، ولا يستطيع بنو الإنسان أن يأتوا بمثلها؛ لأنها من عند اللَّه -جل وعلا-، والنبي لا يقدر أن يعمل المعجزة، وإنما هي من عند اللَّه ﷻ هو الذي يجعلها على يد نبيه ورسوله تصديقًا له قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

فالرسول لا يستطيع أن يأتي بآية إلا أن يأتي بما يعطيه اللَّه من معجزات.

أما السحر فإنه عمل بشري وصناعة يتعلمها الناس ويتقنونها وهي من عمل شياطين الإنس والجن، وليست معجزات، وإنما هي خوارق شيطانية، يستطيع الإنسان أن يصنعها أو يتعلمها، أما المعجزة فلا يقدر أحد على إيجادها إلا اللَّه ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

فالآيات من عند اللَّه -جل وعلا- فما هي باستطاعة الرسول ﷺ أن يأتي بها أو يعملها، أما السحر فهو باستطاعة المخلوق أنه يتعلمه ويصنعه، والمعجزة حق والسحر باطل؛ ولهذا لما جاء موسى عليه السلام بالبينات والمعجزات قالوا: هذا سحر، وأنه ساحر، وقال فرعون: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٨].

فجمعوا السحرة لمقابلة موسى وتواعدوا يومًا واجتمع الناس ليشاهدوا ما يقع بين السحرة وموسى، هل السحرة يغلبون موسى أو موسى يغلب السحرة؟

وهذا من تيسير اللَّه لظهور الحق ونصرة نبيه موسى عليه السلام، اجتمعوا فطلبوا من موسى أن يلقي أولًا؛ فقال لهم: ألقوا أنتم، فألقوا ما معهم من سحر عظيم واسترهبوا الناس به من الحبال والعصي حتى إن موسى عليه السلام خاف ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه: ٦٧-٦٩].

فألقى العصا التي كانت بيده فكانت ثعبانًا عظيمًا أرهبهم والتهم كل السحر الذي وضعوه في الوادي، وخافوا على أنفسهم أن يلتهمهم الثعبان، ثم إن موسى عليه السلام أمسكها فعادت عصًا كما كانت، فعند ذلك علم السحرة أن الذي

مع موسى ليس من السحر، وعرفوا أن هذا ليس من صنع البشر وأنما هو من عند اللَّه، فآمنوا وتابوا إلى اللَّه وخروا ساجدين للَّه ﷻ: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢].

ففضح اللَّه فرعون في هذا الموقف والمشهد العظيم، فضح اللَّه فرعون وقومه وأبطل ما معهم وظهرت المعجزة الربانية التي لا صنع للبشر فيها، عند ذلك تجبر فرعون وتكبر وعاند وتوعد السحرة بالبطش والجبروت لكن ثم ماذا؟ قالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

وتوعدهم أن يقتلهم ويصلبهم في جذوع النخل، ولكنهم صبروا وقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف:١٢٦]؛ فكانت العاقبة لأهل الإيمان أي لنبي اللَّه موسى عليه السلام وللمؤمنين، فانتصر الحق وبطل ما كانوا يعملون، فتبين أن المعجزات التي مع الأنبياء إنما هي من صنع اللَّه لا يستطيع أحد من البشر كائنًا من كان ولا من الملائكة أن يوجد شيئًا منها، وإنما هي من خلق اللَّه وصنعه.

فهذا هو الفرق بين معجزات الأنبياء والسحر، فدل على أن السحر قديم في البشرية من عهد فرعون كما ذكر اللَّه في القرآن كما قد يكون من قبل.

وقد بقي السحر في بني إسرائيل؛ فلهذا في عهد سليمان عليه السلام وهو نبي ملك من أنبياء بني إسرائيل وملوكهم سخر اللَّه له الجن والعفاريت والشياطين تعمل بأمره؛ لأن اللَّه أعطاه مُلكًا لم يعطه أحدًا من العالمين لما سأل ربه وقال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥].

ومن ذلك: أن اللَّه سخر له العفاريت ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧-٣٨].

يتصرف فيهم -عليه الصلاة والسلام- ويعملون له الأعمال الهائلة كما ذكر اللَّه سبحانه وتعالى، ثم لَمَّا مات سليمان عليه السلام جاءت الشياطين وقالت: إن سليمان ما

استطاع تسخير الشياطين إلا بالسحر، فهو يستخدم الجن والشياطين بالسحر الذي يعمله.

افتروا على سليمان، والله برأ سليمان عليه السلام من ذلك؛ لأن السحر كفر ولا يليق بنبي الله سليمان أن يعمل الكفر؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾؛ أي: ما سحر سليمان فسمى الله السحر كفرًا، فقال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣].

في هذه الآيات بيان أن السحر هو من عمل الشياطين، وأنه لا يليق بسليمان عليه السلام نبي الله ابن نبي الله، ولكن هذا من افتراءات اليهود التي ألقتها إليهم الشياطين، فهذه الآيات تدل على أن السحر كفر.

ولهذا استدل بها المصنف على أن السحر كفر وأنه من نواقض الإسلام، وذلك في عدة مواضع:

أولًا: قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾؛ أي: ما عمل السحر؛ لأن السحر كفر ولا يليق بنبي الله.

ثانيًا: قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ دل على أن تعليم السحر كفر، وأنه من تعليم الشياطين وأنه ليس من تعاليم الأنبياء عليهم السلام.

ثالثًا: قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾؛ يعني: الملكين.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ أي: لا تتعلم السحر فتكفر، فمن تعلم السحر كفر.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ إنما هذا في حق الكافر؛ لأن الكافر ليس له نصيب في الآخرة أي: الجنة، فدل على أن السحر كفر يمنع من دخول الجنة.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ هذا دليل على أن السحر ينافي الإيمان والتقوى.

فهذه مواضع من الآيات كلها تدل على أن تعلم السحر وتعليمه كفر، وأن من استبدله قد استبدل الكفرَ بالإيمان فصار كافرًا، وأنه ليس له نصيب من الجنة، وأن من تعلم السحر انتفى عنه الإيمان ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ دل على أن السحر ينافي الإيمان وأنه ناقض من نواقض الإسلام، هذا وجه استدلال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآيات.

ولكن يمكن أن تقول: كيف تعلم الملائكة السحر وتعليم السحر كفر؟

فنقول: هذا ابتلاء من اللَّه وامتحان للبشر من يؤمن ومن يكفر؟

فهذان ملكان أنزلهما اللَّه لتعليم السحر لأجل امتحان الناس من يؤمن ومن يكفر؟ ولهذا لا يعلمان أحدًا من الناس: ﴿حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فهما ينصحان المتعلم بأن يترك تعلم السحر ويبينان أنه كفر، فإنهما لا يعلمان ويسكتان ولكن ينصحان بأنه كفر فإن أقدم عليه باختياره كفر، واللَّه جعل الملكين يعلمان الناس السحر من أجل امتحان الناس ليس لأجل أن السحر لا بأس به وأنه مباح؛ وإنما من أجل أن يتبين من يكفر ومن يؤمن ومن يقبل النصيحة.

فعرفنا من هذا أن السحر كفر تعلمه وتعليمه.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أو رضي به**» إذا لم يتعلمه ولم يعمله ولكن رضي به وما أنكره؛ فهذا يكفر أيضًا بمجرد الرضا، لأن من رضي بالكفر فقد كفر، فالمؤمن

لا يرضى الكفر.

إذن؛ السحر كفر: تعلمه وتعليمه والعمل به والرضا به، كل هذه الأمور مما يدل على أنه يجب إنكار السحر ومنع السحرة وإزالتهم من المجتمع، لئلا ينشروا الشر والفساد فيه، ولهذا جاءت الأحاديث بقتل الساحر، قال ﷺ: «**حد الساحر ضربه بالسيف**»(١).

وعمل الصحابة بذلك فقتلوا السحرة:

كتب عمر رضي الله عنه إلى عماله أن اقتلوا كل ساحر وساحرة(٢).

وحفصة بنت عمر أم المؤمنين أمرت بقتل جارية لها سحرتها(٣).

وجندب بن كعب الصحابي قتل الساحر بحضرة أحد أمراء بني أمية، لما جاء ووجد الساحر يلعب عند الأمير يخيل إلى الناس أنه يقتل شخصًا ثم يحييه، يقطع رأسه ثم يعيده -من باب السحر التخييلي-، فهو لم يصنع شيئًا ولكنه تخييل على الناس، فقرب منه جندب بن كعب حتى ضربه بالسيف وقطع رأسه وقال: إن كان صادقًا فليحي نفسَه(٤).

ولهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والطبراني في «الكبير» (١٦٦٥)، والدارقطني (٣/ ١١٤)، والحاكم (٤/ ٣٦٠) من حديث جندب رضي الله عنه، وهو ضعيف مرفوعًا صحيح موقوفًا على جندب، قال الترمذي: «والصحيح عن جندب موقوفًا».

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥٧)، وأبو داود (٣٠٤٣)، وقال العلامة سليمان بن عبد اللّٰه في «تيسير العزيز الحميد» (٣٩٥): «وإسناده حسن».

(٣) أخرجه عبد اللّٰه ابن الأمام أحمد في «مسائله عن أبيه» (١٥٤٣)، والبيهقي في «الكبرى» (١٦٩٦٧)، وصححه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد».

(٤) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٢٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٦٩٧٠)، وصححه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد».

وقال العلامة سليمان في «التيسير» (ص٣٩٦) عن هذه القصة: «ولها طرق كثيرة».

النبي ﷺ عن عمر، وحفصة، وجندب بن كعب.

ولو أظهر الساحر التوبة فإنه لا يقبل منه، بل ينفذ عليه الحد؛ لأنه لا يوثق بتوبته؛ لأنه زنديق فقد يظهر التوبة وفي قلبه السحر، فيقتل على أي حال ولو كان صادقًا في توبته فيما بينه وبين اللَّه؛ فاللَّه -جل وعلا- يقبل توبته، وأما نحن فنطبق عليه الحد ونقتله بكل حال.

وبهذا يظهر لنا بطلان السحر، وأنه كفر أكبر يخرج من الملة وردة عن دين الإسلام، وأنه من نواقض الإسلام، وأن حد صاحبه القتل على كل حال؛ لأنه يفسد المجتمعات وينشر العداوة والبغضاء والشر بين الناس.

ومن هذا ندرك: أن ما يُفعل من باب «السيرك» كما يسمونه أو من باب «الألعاب البهلوانية» فيأتون بالساحر في الحفلات والمنتزهات والسياحة ليعمل القمرة، أن هذا سحر صريح ولو سموه بغير اسمه.

ونعلم بهذا أيضًا: أنه لا يجوز إقرار السحر في المجتمع الإسلامي بأي شكل، يمكن أن يقال إنهم يعالجون الأمراض فيسمونه الطب الشعبي وهو سحر، أو يأتون به باسم الرقية؛ فيرقون وهم سحرة والجهال يسمونهم المشايخ وهم سحرة، والعوام يعتقدون أنهم أطباء ومشايخ.

وكذلك لا يجوز استعمال السحر باسم الألعاب البهلوانية أو السيرك أو ما أشبه ذلك، كالذي يجر السيارة بشعره، أو أنه تمشي عليه السيارة ولا تضره، أو يطعن عينه بالأسياخ من الحديد ولا تضره، أو يطعن نفسه بالسكين، أو يأكل النار أمام الناس؛ فهذا كله كذب وكله من السحر التخييلي، فلا يجوز عمله ولا الرضا به، ولا جلب أصحابه ليعملوها أمام المسلمين؛ لأنه منكر ظاهر يجب إنكاره والقضاء عليه وتطهير بلاد المسلمين منه.

*** مسألة: في حكم حل السحر عن المسحور:**

لا شك أن السحر إصابة ومرض يحتاج إلى علاج، واللَّه -جل وعلا- ما

أنزل داء إلا وأنزل له شفاءً، فبماذا نعالج المسحور؟ نعالجه بالرقية الشرعية.

والنبي ﷺ عُولج بالرقية، رقاه جبريل بسورة الفلق، فيرقى المريض بالقرآن والأدعية والأدوية الشرعية، فهذا لا بأس به؛ لأنه حل السحر عن المسحور بما شرعه اللَّه -جل وعلا-، وأنه سبحانه ما أنزل داءً إلا وأنزل له شفاءً.

وأما حل السحر بسحر مثله: فلا يجوز، وهو علاج بما حرم اللَّه، بل علاج بالكفر، والنبي ﷺ يقول: «**تداووا، ولا تداووا بحرام**»(١).

والسحر من أعظم المحرمات فكيف نعالج به المسحور، ويقول عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: إن اللَّه لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم(٢).

والسحر من أشد المحرمات فلا يجوز أن نعالج به المسحور، وإنما نعالج المسحور بما نعالج به سائر الأمراض من الرقية بالقرآن والرقية بالأدعية والتعوذات الشرعية والأدوية المباحة، فهذا الذي يعالج به المسحور، وما يقال خلاف ذلك من جواز حل السحر بسحر مثله فهو قول مردود وباطل، فلا يجوز الأخذ به؛ لأنه يخالف الأدلة الشرعية من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

والواجب: تنقية المجتمعات المسلمة من السحرة وأعمالهم، وألا يقروا في البلد بين الناس ينشرون السحر بين الناس، والواجب محاربتهم والقضاء عليهم ومن عرف أنه يعمل السحر فإنه يقدم إلى المحكمة لينال جزاءه الشرعي حتى يستريح منه العباد والبلاد، ولا نفتح لهم المجال ونستقدمهم أو ندافع عنهم ونقول: اتركوهم يعالجون الناس، فهم يجلبون السحر وبذلك نزيد الشر شرًّا، ونزيد السحر سحرًا.

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٧٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا (١٠/ ٨١- الفتح)، وقد ذكر الحافظ ابن حجر هناك من وصله بأسانيد قال عنها: صحيحة.

الأسئلة

سؤال: ما حكم حل السحر بسحر مثله؟ أو الذهاب إلى ذلك؟ وربما نسب ذلك إلى إقرار الشيخ ابن باز وأنه موجود في كتب الفقهاء والحنابلة؟

جواب: أما نسبته إلى الشيخ ابن باز، فهي كذب صريح، لأن الشيخ ابن باز يفتي بتحريم السحر وأنه لا يجوز العلاج به، وله رسالة اسمها: «إقامة البراهين في الرد على المشعوذين والسحرة والدجالين»، وموجود في أجوبته رَحِمَهُ اللَّهُ وفي فتاواه، فنسبة القول أنه يجوز حل السحر بسحر مثله، كذب على الشيخ.

وأما أن بعض العلماء القدماء قالوا بهذا، فكلٌّ يؤخذ من قوله ويرد، فلا يجوز الأخذ بأقوال المفتين إذا خالفت الكتاب والسنة وليست حجة، إنما الدليل من كتاب اللَّه ومن سنة رسول اللَّه ﷺ أو إجماع المسلمين.

سؤال: البعض يقول إن من العلاج لفك سحر الصرف أن يطلق الرجل زوجته تطليقة واحدة، ثم ينفك السحر -بإذن الله-، ثم يراجعها بعد ذلك، فهل هذا الفعل سائغ؟ وهل له وجه من الشرع وبماذا يوصي فضيلتكم؟

جواب: ما قال بهذا أهل العلم فيما أعلم، وليست هذه المقولة بصحيحة، حل السحر ما هو بالطلاق، حل السحر بالعلاج الشرعي لا بالطلاق، واللَّه -جل وعلا- يبغض الطلاق إلا إذا دعت إليه الحاجة من عدم صلاحية العشرة بين الزوجين أو عدم الوفاق بينهما، أما أن يطلقها من أجل العلاج فلا أعلم أحدًا من أهل العلم قال بهذا.

سؤال: إذا وجدتُ سحرًا، هل أحله بالحرقِ أو التمزيق؟

جواب: إذا وجدت سحرًا فأتلفه، إما بإحراقه بالنار أو بتمزيقه، المهم أنك لا تبقيه.

سؤال: يحدُث في بعض البلاد أن يقوم شخص في جمعٍ من الناس يعمل استعراضات مثيرة، كأن يُدخل سيفًا أو سكينًا في بطنه دونَ أن يتأثر، وغير ذلك من الحركات التي لا تصدَّق في حياة الناس العاديَّة؛ فما حكم الشَّرع في مثل هذه الأعمال؟

جواب: هذا مُشعوذ وكذَّاب، وعمله هذا من السِّحر التخييلي؛ فهو من جنس ما ذكره اللَّه عن سحرة فرعون في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وهؤلاء يستعملون ما يسمَّى بالقمرَةِ، وهي التخييل للناس خلاف الحقيقة، أو يعملون شيئًا من الحيل الخفيَّة التي تظهر للناس كأنها حقيقة، وهي كذب؛ بأن يُظهِرَ للناس أنه يطعنُ نفسه، أو أنه يقتُل شخصًا، ثم يردُّهُ كما كان، وفي واقع الأمر لم يحصل شيء من ذلك، أو يُظهر للناس أنه يدخل النار، ولا تضرُّهُ، وهو لم يدخُلها، وإنما عمل حيلةً خفيَّةً ظنَّها الناس حقيقة.

ولا يجوز السَّماح لهؤلاء بمزاولة هذا الباطل والتَّدجيل على المسلمين بحيلهم الباطلة؛ لأن هذا يؤثِّر على العوامِّ، وكان عند بعض الأمراء من بني أمية رجل يلعب بمثل هذا، فذبح إنسانًا، وأبان رأسه، ثم ردَّه كما كان، فعجب الحاضرون، فجاء جُندَبُ الخير الأزديُّ رضي الله عنه فقتله، وقال: إن كان صادقًا؛ فليُحي نفسه(١).

ولا يجوز للمسلم أن يحضر هذا الدَّجل والشَّعوذة، أو يصدِّق بها، بل يجب إنكار ذلك، ويجب على ولاة المسلمين منعه والتنكيل بمن يفعَلُه، ولو سمِّي لعبًا وفنًّا!!

---

(١) تقدم تخريجه.

فالأسماء لا تغيِّرُ الحقائق، ولا تُبيح الحرام، ومثله الذي يُظهر للناس أنه يجذُبُ السيَّارة بشعره، أو ينام تحت كفرات السيارة وهي تمشي، أو غير ذلك من أنواع التدجيل والتَّخييل والسِّحر.

سؤال: هل الذين يأتون إلى الألعاب البهلوانية وغيرها التي تعتمد على السحر، يكفرون وهم لم يرضوا بها؟

جواب: إذا لم يرضوا بها فقد فعلوا محرمًا يأثمون عليه، أما إذا رضوا بها وهم يعلمون أنها سحر فإنهم يكفرون بهذا.

سؤال: قبل أن أهتدي وأداوم على الصلوات في أوقاتها وقراءة القرآن الكريم ذهبت إلى إحدى الساحرات، وطلبت مني أن أخنق دجاجة لكي تعمل لي حجابًا تربطني بزوجي؛ لأنه كان يوجد دائمًا مشكلات بيني وبينه، وقد خنقت الدجاجة فعلًا بيدي فهل علي في فعل هذا إثم؟

وماذا أفعل حتى أتخلص من هذا الخوف الذي يراودني والقلق؟

جواب:

أولًا: الذهاب إلى الساحرات حرام شديد التحريم؛ لأن السحر كفر وإضرار بعباد الله ﷻ، فالذهاب إليهم جريمة كبيرة وما ذكرتي أنك خنقت الدجاجة جريمة أخرى؛ لأن هذا فيه تعذيب للحيوان وقتل للحيوان بغير حق، وتقرب إلى غير اللَّه بهذا العمل فيكون شركًا.

ولكن ما دمتي قد تبتي إلى اللَّه ﷻ توبة صحيحة فما سبق منك يغفره اللَّه ﷻ ولا تعودي إليه في المستقبل، واللَّه تعالى يغفر لمن تاب.

ولا يجوز للمسلمين أن يتركوا السحرة يزاولون سحرهم بين المسلمين، بل يجب الإنكار عليهم ويجب على ولاة أمور المسلمين قتلهم وإراحة المسلمين من شرهم.

سؤال: ما رأيكم بفتح عيادات متخصصة للقراءة؟

جواب: ما كان هذا من عمل السلف أنهم يفتحون دورًا أو يفتحون محلات للقراءة، والتوسع في هذا يُحدث شرًّا، ويدخل فيه من لا يحسن؛ لأن الناس يجرون وراء الطمع، ويريدون أن يجلبوا الناس إليهم ولو بعمل أشياء محرمة.

* * *

الدرس التاسع
في شرح الناقض الثامن

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] [٨].

---

[٨] الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخذ نوعًا واحدًا من أنواع موالاة الكفار وهو الظاهرة، وإلا فالموالاة تشمل: المحبة بالقلب، ومظاهرة المشركين على المسلمين، والثناء والمدح للكفار، إلى غير ذلك؛ لأن اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أوجب على المسلمين معاداة الكفار وبغضهم والبراءة منهم، وهذا ما يسمى في الإسلام بباب الولاء والبراء.

فقوله: «مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين» المعاونة هي المظاهرة، والظاهر أنه من عطف التفسير، فالمظاهرة معناها المعاونة.

ثم استدل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ دليل على كفر من فعل ذلك؛ لأن ظاهر قوله ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ أي: فهو مثلهم في الكفر، هذا وجه استدلال الشيخ -رحمه اللَّه تعالى-.

وقد ذكرنا أن المولاة أقسام منها المحبة في القلوب ولو لم يظاهرهم، ومنها المظاهرة والمعاونة والمناصرة ولو لم يحبهم، ومنها مدحهم ومدح دينهم والثناء عليهم، كل هذا يدخل في الموالاة، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ يتولهم بالمحبة أو يتولهم بالمناصرة والمعاونة على المسلمين، أو يتولهم

بالثناء عليهم ومدح ما هم عليه، فالآية عامة.

ومظاهرة الكفار على المسلمين تحتها أقسام:

القسم الأول: مظاهرتهم ومعاونتهم على المسلمين مع محبة ما هم عليه من الكفر والشرك والضلال، فهذا القسم لا شك أنه كفر أكبر مخرج من الملة، فمن ظاهرهم وأعانهم وساعدهم على المسلمين مع محبة دينهم وما هم عليه والرضا عنهم وهو مختار غير مكره فإنه يكون كفرًا أكبر مخرج من الملة على ظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾.

القسم الثاني: أن يعاونهم على المسلمين لا مختارًا وهو لا يحبهم بل يكرهونه على ذلك بسبب إقامته بينهم؛ فهذا عليه وعيد شديد ويخشى عليه من الكفر المخرج من الملة، وذلك أن المشركين لما أكرهوا جماعة من المسلمين يوم بدر على الخروج معهم لقتال المسلمين.

فإن الله ﷻ أنكر عليهم ذلك حيث إنهم تركوا الهجرة وبقوا مع المشركين وعرضوا أنفسهم إلى ما وقعوا فيه من إكراههم على الخروج مع أنهم يبغضون دين الكفار ويحبون دين المسلمين ولكن بقوا في مكة شحًّا بأموالهم وبلدهم وأولادهم[1]، لا عن محبة للكفار أو محبة لدينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النساء: ٩٧]؛ يعني: مع أي فريق كنتم؟ هذا استنكار، يعني: لماذا كنتم مع المشركين وأنتم مسلمون؟

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾[النساء: ٩٧]، ما لنا حيلة، هم الذين أجبرونا وأكرهونا على ذلك: ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَاۚ﴾[النساء: ٩٧]، لماذا تصبرون على البقاء مع الكفار وأنتم مسلمون؟ وعرضتم أنفسكم لِما وقعتم فيه في هذا المشهد المخيف؟

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٩٦) عن ابن عباس ﵄، وابن جرير (٥/ ٢٧٤-٢٧٥)، وانظر: «تفسير البغوي» (١/ ٤٦٩)، ط. دار المعرفة.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، هذا وعيد شديد لهم.

﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨-٩٩].

فالذي ترك الهجرة وهو يستطيع ولم يهاجر وبقي يسكن مع المشركين وأخرجوه معهم لقتال المسلمين، هذا عليه وعيد شديد ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾؛ فهؤلاء معذورون في بقائهم لأنهم لا يستطيعون الهجرة، والله -جل وعلا- يقول ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

القسم الثالث: من يعين الكفار على المسلمين وهو مختار غير مكره مع بغضه لدين الكفار وعدم الرضا عنه؛ فهذا لا شك أنه فاعل لكبيرة من كبائر الذنوب ويخشى عليه من الكفر.

القسم الرابع: من يعين الكفار على الكفار الذين لهم عهد عند المسلمين، فهذا حرام ولا يجوز لأنه نقض لعهد المسلمين، فالكفار المعاهَدون لا يجوز لجميع المسلمين قتالهم وفاءً بالعهد الذي بينهم وبين المسلمين، والذي يعين من قاتلهم من الكفار، فهذا يكون نقضًا لعهد المسلمين ويكون غدرًا بذمة المسلمين.

قال ﷺ: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة**»[1].

وإذا كان الله ﷻ قد نهى المسلمين عن مناصرة المسلمين على الكفار إذا كان للكفار عهد عند المسلمين؛ فكيف بمن ظاهر الكفار على نقض عهد المسلمين قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فإذا استنصر بنا مسلمون على كفار يجب علينا نصرة المسلمين على الكفار إلا في حالة واحدة: إذا كان لهؤلاء الكفار عهد عند المسلمين فلا يجوز لنا أن

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄.

نناصر المسلمين عليهم، فكيف نناصر الكفار على حلفاء المسلمين، فهذا أمر لا يجوز، وكل هذا من أجل الوفاء بالعهد.

القسم الخامس: وهو مودة الكفار ومحبتهم من غير إعانة لهم على المسلمين هذا نهى الله عنه ونفى عن صاحبه الإيمان قال الله -جل وعلا-: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ١-٤].

فسورة الممتحنة كلها في تحريم مودة الكفار ولو كانوا من أقرب الناس إلى المسلم وختمها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

فكل سورة الممتحنة في موضوع معاداة الكفار وعدم محبتهم من أولها إلى آخرها[١].

---

(١) **قال الشيخ حمد بن عتيق** رحمه الله **نقلًا عن كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب** رحمه الله: «وأما **المسألة الثالثة**: وهي ما يعذر به الرجل على موافقة المشركين وإظهار الطاعة لهم، فاعلم أن إظهار الموافقة للمشركين له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يوافقهم في الظاهر والباطن فينقاد لهم بظاهره، ويميل إليهم ويوادهم بباطنه، فهذا كافر خارج من الإسلام، سواء كان مكرهًا على ذلك أو لم يكن.

وهو ممن قال الله فيه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]. =

وهاهنا مسائل:

الأولى: مسألة حكم زواج الكافر من المسلمة:

لا يجوز أن يزوج كافر بمسلمة سواء كان يهوديًّا أو نصرانيًّا أو وثنيًّا أو دهريًّا ملحدًا، لا يجوز إطلاقًا تزويج الكافر من المسلمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢١].

قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: لا تزوجوهم من المسلمات حتى يؤمنوا، فإذا تركوا الكفر ودخلوا في الإسلام جاز تزويجهم من المسلمات.

وقال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ﴾ [الممتحنة: ١٠].

= **الحالة الثانية**: أن يوافقهم ويميل إليهم في الباطن مع مخالفته لهم في الظاهر فهذا كافر أيضًا، ولكن إذا عمل بالإسلام ظاهرًا عصم ماله ودمه، وهو المنافق.

الحالة الثالثة: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن، وهو على وجهين:

الوجه الأول: أن يفعل ذلك لكونه في سلطانهم مع ضربهم وتقييدهم له، ويهددونه بالقتل فيقولون له: إما أن توافقنا وتظهر الانقياد لنا، وإلا قتلناك، فإنه والحالة هذه يجوز له موافقتهم في الظاهر مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان، كما جرى لعمار حين أنزل اللَّه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وكما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فالآيتان دلتا على الحكم كما نبه على ذلك ابن كثير في تفسير آية آل عمران.

الوجه الثاني: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو ليس في سلطانهم؛ وإنما حمله على ذلك إما طمع في رياسة، أو مال، أو مشحة بوطن أو عيال، أو خوف مما يحدث في المآل؛ فإنه في هذه الحال يكون مرتدًا ولا تنفعه كراهته لهم في الباطن، وهو ممن قال اللَّه فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]».

انتهى من كتاب مجموعة التوحيد من رسالة الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله (ص٢٩٥-٢٩٦).

فإذا علمتم أنهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى أزواجهن من الكفار؛ لأنه قد انفصل ما بينهم وانفسخ النكاح بين مسلمة وكافر، وكذلك لا يزوج الكافر من المسلمة ابتداءً كما في آية البقرة: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ ولا يستمر زواجه إذا أسلمت وهو كافر، بل تفصل عنه.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فلا يجوز إنكاح الكافر من المسلمة ابتداءً أو استدامة، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء.

أما تزوج المسلم من كافرة؛ فإن كانت الكافرة غير كتابية فلا يحل بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١].

إلا أنه يستثنى من هذه الآية تزوج المسلم من الكتابية وخص عمومها بآية المائدة وهي قوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، المراد بالطعام هنا ذبائحهم ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

المحصنات: العفيفات في أعراضهن، أما الفاسدة في عرضها فلا يجوز التزوج بها سواء كانت كافرة أو مسلمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

فأباح تزوج المسلم من الكافرة بشرطين:

الأول: أن تكون عفيفة في عرضها غير مسافحة ولا متخذة أخدان.

الثاني: أن تكون كتابية يهودية أو نصرانية.

فيحل للمسلم أن يتزوجها، لكن قد يقال: معلوم ما يكون بين الزوجين من المودة؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فكيف يتزوج كتابية كافرة ويودها، فهل يجوز مودة المسلم للكافرة؟ مع قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١].

فنقول: مودة الزوجية مودة طبيعية لأجل الزوجية، أما المودة الدينية

فلا تجوز.

الثانية: مسألة مكافأة الكفار إذا أحسنوا إلينا لا محبة لهم وإنما نكافئهم على صنيعهم فقط، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فإذا كان الكفار لم يقاتلوا المسلمين ولم يعينوا من يقاتلهم وكان لهم يد عند المسلمين، فإن المسلمين يكافئونهم على إحسانهم، والإسلام يحث على الإحسان ورد الجميل، ولئلَّا يبقى للكافر على المسلم منة، ففي رده الجميل فوائد:

ومنها: أن هذا ترغيب لهم في الإسلام إذا تعاملنا معهم معاملة حسنة وهم لم يقاتلونا ولم يعينوا من يقاتلونا؛ فإذا تعاملنا معهم معاملة حسنة فهذا سبب في دعوتهم إلى الإسلام.

ومنها: أن هذا مكافأة على جميل صنعوه مع المسلمين.

ومنها: أيضًا أنه لا يبقى لهم يد على المسلمين إذا كافأناهم على جميلهم، نقول: أعطيناكم كما أعطيتمونا ولم يبق لكم يد تذلوننا بها.

المسألة الثالثة: المعاملة الدنيوية مع الكفار كتبادل التجارات والمنافع، فهذا أمر مباح، وما زال المسلمون يستوردون من الكفار السلع منذ عهد النبي ﷺ ويشترون منهم الثياب والمواشي والأسلحة وغير ذلك، وهذا ليس من الموالاة بل من تبادل المنافع، والمصلحة للمسلمين، وليس فيه مودة لأنه بيع وشراء.

المسألة الرابعة: يجوز للمسلمين استخدام الكفار في الأمور التي لا يحسنها إلا هم، ويجوز أن نستفيد من خبراتهم التي لا يعرفها إلا هم أو أنهم أتقن لها وأعرف بها، ويجوز أن نستأجرهم لأن النبي ﷺ استأجر ابن أريقط ليدله على الطريق وهو كافر، ففيه دليل على استئجار الكافر للاستفادة من خبرته؛ لأنه يقدم لنا خدمة ونقدم له أجرة، فهو مثل البيع والشراء في المنافع التي نحتاجها.

المسألة الخامسة: بر الوالد الكافر؛ قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فالمودة لا تجوز بين الكافر والمسلم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ولو كان والدًا أو أخًا أو قريبًا، لكن يبر الولد المسلم بوالده الكافر من باب رد الجميل ومقابلة الإحسان بالإحسان، فالإسلام دين كرم ووفاء.

ومن ذلك: بر الولد المسلم بوالده الكافر؛ قال اللَّه -جل وعلا-: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

فالولد يصاحب والديه بالمعروف، ويحسن الصحبة بالإنفاق عليهما وبقضاء حوائجهما ولو كان والده كافرًا؛ لأن هذا من باب رد الجميل، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي: في الدين اتبع الرسول ﷺ ولا تتبع دين والديك، لكن لأنهما أحسنا إليك وربياك وأنفقا عليك فأنت ترد جميلهما ولو كانا كافرين.

وقد جاءت أم أسماء بنت أبي بكر وهي كافرة فطلبت منها المساعدة فاستفتت أسماء النبي ﷺ فقالت: إن أمي جاءت وهي راغبة -أي: تريد العطاء- أفأَصِلُها؟ قال ﷺ: «**نعم، صلي أمك**»[1].

فأفتها النبي ﷺ بأن تصل أمها وهي كافرة، وليس هذا من باب المودة والمحبة الدينية؛ وإنما هو من باب رد الجميل إلى الوالد الذي رباك وأحسن إليك، وهذا من باب التعامل الدنيوي أما التعامل الديني بالمحبة والمناصرة

(١) تقدم تخريجه.

والمعاونة فلا، فدين الإسلام دين كرم ووفاء لا يجحد المعروف حتى ولو من الكفار بل يقابله بالمعروف والإحسان ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

المسألة السادسة: كذلك يجوز للمسلمين أن يداروا الكفار إذا خشي المسلمون من شر الكفار فإنهم يدارونهم؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ يعني: الذي يتولى الكفار بالمحبة والمناصرة والمظاهرة فقد تبرأ اللَّه منه ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

وهي المداراة إذا خشي المسلم من شرهم، وليس هذا من الموالاة بل هو من دفع الضرر عن المسلمين فنحن نداريهم بأن ندفع شرهم بأن نعطيهم من المال دفعًا للشر، أو ما يريدون من أمور الدنيا وليس هذا من الموالاة؛ وإنما هو من المداراة لدرء شرهم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

والتقاة والتقية والمداراة بمعنى واحد.

وبعض الناس لا يفرق بين المداهنة والمداراة، فالمداراة جائزة عند الضرورة لدفع شر الكفار، أما المداهنة وهي التنازل عن شيء من الدين لإرضاء الكفار فهذا أمر لا يجوز مطلقًا، قال اللَّه -جل وعلا-: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨-٩].

وقال سبحانه لما ذكر إنزال القرآن: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١]. تتركونه من أجل إرضاء الكفار! فهذه هي المداهنة.

وقد رُوي أنه لما طلب الكفار من النبي ﷺ أن يعبدوا اللَّه سنةً والرسول يعبد آلهتهم سنة نهاه اللَّه عن ذلك وأنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ

عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[1] [الكافرون: ١-٦].

نهاه أن يجيبهم إلى ذلك أو أن يتنازل عن شيء من الدين من أجل إرضائهم، فلا يجوز التنازل عن الدين من أجل إرضاء الكفار مهما كلف الأمر، وقال ابن كثير: أي لا أعبد عبادتكم وإنما أعبد اللَّه على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾؛ أي لا تعتدون بأوامر اللَّه وشرعه في عبادته.

وقال سبحانه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ۝٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

فلا يجوز مداهنة الكفار بالتنازل عن شيء من دين الإسلام من أجل إرضائهم، فالمداهنة لا تجوز مطلقًا، وأما المداراة فإنها تجوز عند الضرورة رخصةً من اللَّه ﷻ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ ليدفعوا شرهم.

فيجب معرفة هذه المسائل، فبعض الناس يتساهل في إشاعة الموالاة للكفار فيقول هذا من باب حسن التعامل وإظهار الإسلام بمظهر المسامح وأنه ليس فيه كراهية وبغضاء، وهذا كلام باطل، فالإسلام فيه كراهية ومحبة وفيه ولاء وبراء، وليس دين محبة فقط كما يقولون.

هذا كلام باطل، الإسلام دين عزيز وقوي ولا تسامح فيه مع الكفار أو تنازل لهم في شيء من الدين، هناك فريق يدعوا إلى أن المسلمين لا يجاهدون الكفار ولا يقاتلونهم، لأن الإسلام دين رحمة لا قتال فيه.

وهناك فريق آخر يتشدد فيعتبر التعامل مع الكفار مطلقًا موالاة، ولا يفصل

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٤٠٣-٤٠٤)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٨/ ٦٥٤)، ط. دار الفكر.

هذا التفصيل الذي ذكره اللَّه في كتابه، فينبغي معرفة الأمور وتنزيل الأحكام الشرعية في منازلها، وألا نخلط بين الحق والباطل ولا نقول إن الإسلام لا يتعامل مع الكفار وأنه دين غلظة ولا رحمة فيه، فالإسلام فيه رحمة وفيه غلظة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

أي: رحماء بالمسلمين، ولكن ليس معنى أنهم أشداء على الكفار أو فيهم غلظة عليهم أنهم لا يتعاملون معهم فيما أباح اللَّه، أو أنهم لا يتزوجون من الكتابيات ولا يبيعون معهم ولا يشترون فليس هذا هو المطلوب.

فالمصالح التي يحتاجها المسلمون يتبادلونها مع الكفار لأن المسلمين بحاجة إليها، أما قضية الدين فليس فيه تنازل ولا فيه تسامح مع دين الكفر، فيجب أن يعرف هذا؛ لأن هذه المسألة التبست على كثير من الناس، ما بين متساهل يدعو إلى أن الإسلام دين مسالمة دائمًا، وبين متشدد يري أنه لا يجوز التعامل مع الكفار بأي طريقة، وكلا الفريقين مخطئ ويتجنى على الإسلام.

فالواجب دراسة هذه الأمور ومعرفة الأحكام فيها؛ لأن هذا الباب مهم جدًا خصوصًا في هذا الزمان، واللَّه أعلم.

وصلى اللَّه على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

* * *

الأسئلة

سؤال: هل إبرام الاتفاقيات معهم على إنشاء المشاريع العسكرية في بلاد المسلمين يعتبر من المظاهرة لهم والمناصرة لهم؟

جواب: هذا جائز لأنه لمصلحة المسلمين، نحن بحاجة إلى أن نتعلم الأمور الحربية وأساليب الحرب وهم يتقنونها أكثر منا، فلا مانع أن نستفيد من خبراتهم، وليس هذا من الموالاة، هذا من تبادل المصالح التي يحتاجها المسلمون.

سؤال: هناك من يفتي بقتل الكفار الذين في الجزيرة العربية وعللوا ذلك بأنهم ليسوا معاهدين ولأن دولتهم تقتل المسلمين باسم الإرهاب، فهل هذه الفتوى صحيحة؟

جواب: هذا من فتاوى الجهال والمتعالمين، فلا يجوز قتل الكفار الذين جاءوا بعهد ودخلوا بأمان؛ لأن هذا غدر وخيانة، ولا يجوز هذا ولو كانوا في جزيرة العرب، يجوز لهم أن يدخلوا جزيرة العرب للمصالح المتبادلة، إما سفراء وإما تجار وإما عمال يقومون بأعمال لا يتقنها غيرهم يجوز هذا.

الممنوع الاستيطان وتمكين الكفار من الاستيطان في الجزيرة، أما أنهم يدخلون الجزيرة للمعاملة والتعامل ثم يخرجون فهذا لا مانع منه.

والذي يخرج الكفار ويمنعهم من الاستيطان في جزيرة العرب هو ولي الأمر، وليس ذلك من حق كل أحد، فالخطاب لولاة أمور المسلمين هم يخرجونهم إذا قدروا على ذلك.

سؤال: هل معاملة الكفار الذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم بالإحسان إليهم هل هو من المودة والمظاهرة، وكيف تكون؟

جواب: إذا أحسنوا إلينا، نحسن إليهم ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

هذا إحسان منهم، إذا أحسنوا إلينا نحسن إليهم في أمور الدنيا، إذا أعطاك هدية تعطيه هدية، النبي ﷺ قبل هدية الكفار، لأن الهدية من التعامل الدنيوي ولا بأس بها.

سؤال: هناك من يقول: إن موالاة الكفار ومظاهرتهم تكون على ثلاثة أوجه:

الأول: أن تكون توليًا تامًّا مطلقًا عامًّا فهذا كفرٌ مخرجٌ من الملة.

الثاني: أن تكون لأجل تحصيل مصلحة خاصة وليس هناك ما يلجئ إليها من خوفٍ ونحوه وهذا حرامٌ ليس بكفر.

ثالثًا: أن تكون بسبب خوفٍ من الكفار والحكم في ذلك الجواز بشرط أن يكون التولي في الظاهر دون الباطن.

السؤال: هل هذا التقسيم صحيح؟

جواب: التولي على قسمين:

الأول: توليهم من أجل دينهم، وهذا كفر مخرج من الملة.

الثاني: توليهم من أجل طمع الدنيا مع بغضهم وبغض دينهم وهذا محرم وليس بكفر.

سؤال: من عاون المشركين على المسلمين بالسلاح أو غيره مكرهًا أو خائفًا على عرضه فهل يعتبر ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام؟

جواب: هذا كما ذكرنا أنه إذا كان مكرهًا يكون من المستضعفين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

أن اللَّه قد عذره إذا كان لا يستطيع حيلة ولا يهتدي السبيل، وبقي مع الكفار

اضطرارًا فهذا قد عذره اللَّه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ [النساء: ٩٩]. بشرط أن يكون مبغضًا للكفار ومبغضًا لدينهم.

سائل: هل الحكم بغير ما أنزل اللَّه من الكفر الأصغر أم من الأكبر؟ وما الدليل على ذلك من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ؟

جواب: هذه مسألة واضحة ومبينة في كلام أهل العلم والأئمة، أن من حكم بغير ما أنزل اللَّه يعتقد جواز ذلك، أو أنه أحسن من حكم اللَّه، أو أنه مساوٍ لحكم اللَّه، أو أنه مخير إن شاء حكم بحكم اللَّه وإن شاء حكم بغيره هذا كافر بالإجماع.

أما إذا كان يعتقد أن الواجب الحكم بشرع اللَّه ﷻ، وأنه هو الحق وأن حكم غيره باطل، ولكن حكم بذلك لأجل رشوة أو لأجل هوًى في نفسه في مسألة من المسائل خالف حكم اللَّه متعمدًا في مسألة من المسائل لغرض من أغراضه، إما لهوًى في نفسه، أو لأجل أخذ رشوة أو مداهنة لأحد؛ فهذه كبيرة من كبائر الذنوب ولكن لا يخرج إلى الكفر؛ لأنه يعتقد تحريم ذلك، وأنه مخطئ وأنه مخالف فيكون كبيرة من كبائر الذنوب، هذا هو التفصيل في هذه المسألة.

سؤال: هل الخوارج يعتبرون من أهل القبلة؟ وهل يصلى خلفهم؟ وما ضابط من يصلي خلفه من أهل القبلة؟

جواب: اختلف العلماء في الخوارج؛ هل هم كفار، أو هم ضلال وفساق؟ على قولين، والقول بتكفيرهم أقرب؛ لأن الأدلة دلت على كفرهم، وأما الصلاة خلفهم فلا تجوز بناءً على أنهم كفار إلا إذا تغلبوا على بلد كما ذكر ذلك الفقهاء، فالمسلم يصلي خلفهم[١].

---

(١) وممن ذهب إلى تكفير الخوارج كما ذكرهم الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البخاري، والقاضي أبو بكر، والسبكي، والقرطبي، ونقله أيضًا عن صاحب الشفا القاضي عياض، وكذلك صاحب الروضة -النووي- في كتاب الردة.
انظر: «فتح الباري» (١٢/ ٣٠٠).

سؤال: من يكفر الحكام ويطلب من المسلمين الخروج على حكامهم هل هو من الخوارج؟

جواب: هذا هو مذهب الخوارج، إذا رأى الخروج على ولاة أمور المسلمين وأشد من ذلك إذا كفرهم فهذا من مذهب الخوارج.

سؤال: ما موقفنا من الذين يكفرون حكام المسلمين اليوم جملة وتفصيلًا؟ هل هم من الخوارج؟ أفيدونا بارك اللَّه فيكم وجزاكم خيرًا؟

جواب: الذين يكفرون حكام المسلمين هؤلاء من الخوارج.

سؤال: لو تعاونت دولة مسلمة مع دولة كافرة على القبض ممن يقومون بالتفجيرات في بلاد المسلمين، فهل يعد ذلك من المظاهرة والمناصرة، أفيدونا بارك اللَّه فيكم؟

جواب: الاستعانة بالكفار في القبض على المخربين الذين في بلاد الإسلام لا بأس بها؛ لأن هذا من صالح الإسلام والمسلمين، كما يستعان بالكفار في حرب المعتدين على المسلمين عند الضرورة[١].

* * *

(١) انظر: كتاب «الإجابات المهمة في المشاكل الملمة» (٢).

الدرس العاشر
في شرح الناقض التاسع

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو كافر[٩].

---

[٩] لا شك أن اللَّه ﷻ بعث محمدًا ﷺ إلى الناس كافة عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم وإلى الثقلين الجن والأنس، فأوجب على جميع الخلق من الجن والإنس اتباع الرسول ﷺ وهذا من خصائصه كما قال ﷺ: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**»(١).

وكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال عن اليهود والنصارى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فأوجب على اليهود والنصارى أن يتبعوا محمدًا ﷺ وأن ينصروه وأن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يعزروه أي يوقروه -عليه الصلاة والسلام-.

وقال ﷺ: «**لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي وبالذي جئت به إلا دخل النار**»(١).

ورأى ﷺ في يد عمر ﵁ أوراقًا من التوراة فاستنكر ﷺ عليه ذلك وقال: «**أمتهوكون يا ابن الخطاب، لو كان أخي موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**.

فقال عمر ﵁: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا رسولًا»(٢).

والله -جل وعلا- أخذ الميثاق على الأنبياء أنه إذا بعث محمد ﷺ وأحد منهم حي أن يتبعه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٣].

فالأدلة واضحة في أن رسالة محمد ﷺ عامة، وأن دينه ناسخ لجميع الأديان ولا يبقى دين بعد بعثة محمد ﷺ إلا دين الإسلام الذي جاء به، ولذلك إذا نزل عيسى ﵇ في آخر الزمان فإنه يتبع محمدًا ﷺ ويحكم بشريعته شريعة الإسلام ويكون تابعًا لمحمد ﷺ؛ فلا أحد يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ من الإنس والجن، قال الله -جل وعلا-: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١٥١٥٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٥٠)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٠١٦٤)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٤٩٧).

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

فسورة الجن فيها عموم رسالة محمد ﷺ للجن، فرسالته ﷺ عامة إلى الثقلين تجب طاعته على جميع الإنس والجن، ومن لم يستجب ولم يتبعه فهو من أهل النار قطعًا لأنه كافر باللّه وبرسوله ﷺ.

فالذين يقولون إنه يسع أحدًا الخروج عن شريعة محمد ﷺ ويستدلون على هذا بقصة الخضر مع موسى عليه السلام، فقصة الخضر كما ذكرها اللّه في القرآن في سورة الكهف أن موسى عليه السلام قام خطيبًا في قومه فسألوه: هل هناك من هو أعلم منك على وجه الأرض؟

قال: لا، قال اللّه تعالى: إن لي عبدًا من عبادي في أرض كذا وكذا عنده علم ليس عندك، فذهب موسى إلى ذلك العبد يطلب العلم عنده قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

إلى أن وصل إلى الأرض التي فيها الخضر فقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

يعرض عليه وما يأتيه بالغلظة والشدة وإنما يتأدب المتعلم مع العالم ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٦-٦٧] إلى آخر القصة، التي فيها خرق السفينة، وقتل العلام، وبناء الجدار، واستغرب موسى عليه السلام هذه الوقائع؛ لأنه لم يكن يعلم أسبابها، بيَّن له الخضر لماذا عمل هذه الأعمال، وأن هذا بأمر اللّه تعالى وقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]. بل هو من أمر اللّه ﷻ، وقال لموسى: إنني على علم علمنيه اللّه

ليس عندك، وإنك على علم علمك اللَّه إياه ليس عندي[١].

وقد اختلفوا في الخضر: هل هو نبي أو ولي؟ على قولين:

القول الأول: أنه نبي؛ لأن هذه الخوارق من المعجزات التي لا تكون إلا لنبي.

والقول الثاني: أنه ولي وليس نبيًّا، وهذه الأمور كرامات من كرامات الأولياء وليست من المعجزات، والأولياء تجري على أيديهم كرامات وخوارق للعادات.

ثم هل الخضر حي أو ميت؟

الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة أنه ميت، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

اللَّه -جل وعلا- أخبر أنه ليس لأحد الخلد من هذا الخلق، وأن الخلق كلهم يموتون ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

والخضر عبد من عباد اللَّه من بني آدم يأتي عليه الفناء كغيره، ثم لو كان حيًّا لما وسعه إلا أن يأتي إلى محمد ﷺ ويتبعه؛ لأن الرسول ﷺ أرسل إلى الناس كافة، فلو كان حيًّا حين بعثة محمد ﷺ لجاء إليه واتبعه ولم يذكر أنه جاء إلى النبي ﷺ؛ فهذا دليل على أنه ميت، وهذا هو القول الحق، وأما من يقول إنه حي فليس له دليل واضح.

والعجيب: أن هناك رسالة نُسبت إلى شيخ الإسلام ابن تيمية فيها أن الخضر حي، وقد طُبعت في «مجموع الرسائل»[٢] خطأً، وبينما له رسالة أخرى تنفي حياة الخضر وهي في مجموع الرسائل أيضًا[٣].

---

(١) أخرج القصة البخاري برقم (٧٤)، ومسلم رقم (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٣٨)، وفي حاشيتها مكتوب: «هكذا وجدت هذه الرسالة».

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٣٧).

فهذه الرسالة التي نسبت إلى الشيخ في حياة الخضر غير صحيحة، ولو كانت صحيحة فالاعتماد على رسالته الثانية التي تابع فيها الأدلة، والإنسان إذا كان له قولان أحدهما موافق للأدلة والثاني مخالف أخذ بالذي يوافق الأدلة.

ولماذا لم يتبع الخضر موسى عليه السلام؟

الجواب: أن موسى عليه السلام ليست رسالته عامة، فرسالته خاصة لبني إسرائيل ولم يرسل إلى الناس كافة، فهو كغيره من الأنبياء قبل محمد ﷺ رسالاتهم خاصة إلى أقوامهم؛ قال ﷺ: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**»[1].

فموسى عليه السلام إنما بُعث إلى بني إسرائيل ولم يبعث إلى الناس كافة.

فلا يقال: إن الخضر خرج عن شريعة موسى؛ لأنه لم يكن من أمة موسى أصلًا حتى يقال خرج.

والخروج عن شريعة محمد ﷺ أنواع:

منه: ما هو كفر.

ومنه: ما هو ضلال دون الكفر.

ومنه: خروج كلي.

ومنه: خروج جزئي، فالذي يخرج عن الشرع أو عن شيء منه ويستحل ذلك فإنه يكفر، والذي يخرج ولا يستحل الخروج فهذا ضال ليس بكافر.

والذين يقولون: إن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما خرج الخضر عن شريعة موسى موجودون، وهم غلاة الصوفية.

فهم يقولون: إن الصوفي إذا بلغ مرتبة من المعرفة بالله؛ فإنه ليس بحاجة إلى

(١) تقدم تخريجه.

الرسول لأنه وصل إلى اللَّه، والرسول ﷺ بعث إلى العوام وهؤلاء خواص وقد وصلوا إلى اللَّه وليسوا بحاجة إلى رسول.

ويقولون: إننا نأخذ علمنا عن اللَّه مباشرة، وأنتم تأخذون علمكم عن الأموات، ميت عن ميت -يعنون الأحاديث والأسانيد- وأما نحن فنأخذ عن اللَّه، كذا يقولون؟

بل إنهم يقولون: إن التكاليف تسقط عنهم لأنهم وصلوا إلى اللَّه؛ فلا يصلون، ولا يعبدون الله ﷻ، والعبادة إنما هي للعوام عندهم وكذلك لا يحرم عليهم شيء، والأوامر والنواهي والحلال والحرام هي للعوام عندهم للذين لم يصلوا، أما هم فقد وصلوا وليس في حقهم حلال ولا حرام، فيستبيحون الزنا واللواط والمحرمات.

ويقولون: نحن ما علينا تحريم ووصلنا إلى غاية تخرجنا من دائرة التكليف، وهم في الحقيقة قد صدقوا لأنهم خرجوا من دائرة التكليف، إلى دائرة المجانين، لأن من بلغ هذا الحد فهو مجنون ليس عليه تكليف، أما أنه ليس عليه تكليف من الله ﷻ؛ لأنه وصل؛ فهذا افتراء على اللَّه ﷻ وكفر برسالات اللَّه، فلا أحد يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ مهما بلغ من العبادة والعلم والمعرفة باللَّه.

بل كلما زاد علمه فإنه تزيد طاعته واتباعه للرسول ﷺ، فيجب عليه من الطاعة والاتباع أكثر مما يجب على غيره ممن لا يعلم، هذا معنى قول الشيخ «من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ».

فمن زعم ذلك فهو مرتد عن دين الإسلام؛ لأنه كفر بالقرآن والرسول ﷺ، فكفره بالإجماع، وغلاة الصوفية - وما أكثرهم اليوم - في كتبهم من الخرافات والأكاذيب والجراءة على اللَّه ورسوله الشيء الكثير، وقد رد عليهم أهل العلم وأبطلوا تُرهاتهم وشبهاتهم.

ومن أقوى من رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم -رحمهما

....

اللَّه-، ورد عليهم جماعة من العلماء المعاصرين كعبد الرحمن الوكيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فله كتاب اسمه: «مصرع التصوف».

وهذا الناقض يشمل: العلمانيين الذين يقولون بفصل الدين عن الدولة، وأن الدين والعبادات في المساجد، وأما المعاملات وأحكامها وأحكام السياسة، فهذه لا تدخل في دين الرسول ﷺ، وأن الناس هم الذين يتحكمون فيها، هذا قول العلمانيين.

ويقولون: الدين للَّه والوطن للجميع، وهم يلحقون بركب غلاة الصوفية الذين يقولون إن أحدًا يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، وهؤلاء العلمانيون يقولون: إنه يسع الخروج عن شريعة محمد ﷺ في السياسة والمعاملات.

وكذلك علماء الكلام والمنطق لهم نصيب من هذا وهم الذين يخرجون العقائد عن أدلة الكتاب والسنة.

ويقولون: إن أدلة الكتاب والسنة سمعية تفيد الظن، أما الأدلة العقلية فهي يقينية تفيد اليقين، والعقائد لا يستدل عليها بأدلة الكتاب والسنة لأنها أدلة ظنية، وأما أدلة علم الكلام والمنطق فهي أدلة يقينية عندهم، ولذلك تجد أن عقائدهم مبنية على علم الكلام والجدل وعلم المنطق ولا يستدلون بآية ولا حديث عن الرسول ﷺ، فهذا خروج عن شريعة النبي ﷺ في أهم شيء وهو العقيدة.

والذي يجب على المسلم: أن يتبع الكتاب والسنة في جميع الأمور في الآداب والعقائد والمعاملات والأخلاق وفي جميع الأمور، لأن رسالة النبي ﷺ شاملة وصالحة لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة؛ لأن الذي أنزلها هو اللَّه العزيز الحكيم الذي يعلم أنها صالحة لكل وقت إلى أن تقوم الساعة، فهي تنزيل من حكيم حميد، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

فهي شاملة وصالحة لكل زمان ومكان لا يسع المسلم أن يخرج عنها.

ويدخل في هذا الناقض أيضًا الذين يقولون: إن الشريعة إنما هي للزمان الماضي أما الوقت الحاضر فلا تصلح له الشريعة؛ لأنها حدثت معاملات وجدت أمور لا تتناولها الشريعة، وهذا معناه أن الشريعة قاصرة عندهم وليست من حكيم حميد، فلا شك في كفر من يقول هذا المقال، وهذا داخل فيمن يزعم جواز الخروج عن شريعة محمد ﷺ ويقول: إن الشريعة لا تنطبق على هذا الزمان وإنما تنطبق على الزمان الذي مضى، وما أكثر من يقول هذا المقال.

والإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»[1].

والذي أصلح أولها هو الكتاب والسنة فلا يصلح آخرها إلا الكتاب والسنة، فشريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، لا تتهم بالنقص أو القصور لأن اللَّه ﷻ حكم لها بالكمال، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فما توفي النبي ﷺ إلا والدين كامل وشامل، ومن كماله أنه يصلح لكل زمان ومكان، ولو لم يكن يصلح لكل زمان ومكان لم يكن كاملًا، بل صار ناقصًا فاللَّه شهد له بالكمال وهؤلاء يقولون إنه ليس بكامل لأنه لا يصلح لهذا الزمان.

وكذلك يدخل في هذا: من ابتدع بدعة في الدين أو أحدث حدثًا يظن أنه خير وأنه تقرب إلى اللَّه ﷻ، هذا نوع من الخروج عن شريعة محمد ﷺ لأنه لم يسعهم ما شرعه اللَّه ﷻ إنما أتوا بزيادات، ومعنى هذا أن الدين غير كامل وأنه بحاجة إلى زيادات ولهذا قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[2].

(١) وقد روى هذا الأثر ابن عبد البر في «التمهيد» (١٥/ ٢٩٢)، ط. الفاروق بسند صحيح عن مالك قال: كان وهب بن كيسان يقعد إلينا ولا يقوم أبدًا حتى يقول: اعلموا أنه لا يصلح آخر هذه الأمر إلا ما أصلح أوله. اهـ

(٢) تقدم تخريجه.

....

وقال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١].

وقال ﷺ: «**وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[٢].

فالخروج عن شريعة محمد ﷺ يشمل هذه الأنواع كلها ولكن بعضها أشد من بعض، فبعضها كفر وردة، وبعضها ضلال دون الكفر.

فالذي عليه أقطاب الصوفية من الخروج عن شريعة محمد ﷺ هذا كفر واضح.

وكذلك من تشبه بهم في بعض الأمور فهو خروج عن شريعة محمد ﷺ بقدره.

فالواجب على المسلم: الالتزام بالكتاب والسنة واعتقاد أنهما كاملان شاملان صالحان لكل زمان ومكان وألا يكون لديه شك أو تردد في ذلك دائمًا وأبدًا.

نعم، وقد تخفى بعض الأمور على بعض الناس ولا يجدون لها حكمًا في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وذلك لقصور أفهامهم لا لقصور الكتاب والسنة، وإلا فلو كان عندهم علم صحيح وبصيرة نافذة لوجدوا أن الكتاب والسنة مشتملان على كل ما يحتاجه البشر إلى أن تقوم الساعة، والذي لا يجد هذا عليه أن يتهم علمه وفهمه ولا يتهم الكتاب والسنة ويقول: إنهما لم يشتملا على كذا وكذا.

ثم نعلم أيضًا أن أمور العادات والمباحات لا تدخل في الابتداع كالحرف والصناعات، وهذه جاء في الكتاب والسنة ما يشملها، يقول اللَّه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

حتى المباحات، والمخترعات، والمستجدات، والصناعات يشملها الكتاب والسنة، وقد وجه اللَّه في كتابه إلى أمور الدنيا وتناوُلها والانتفاع بها والاستعانة بها، لكن أفهام الناس ومذاهبهم قد تقصر عن هذا وإنما هذا عيب في إدراك الناس، فالكتاب والسنة كاملان شاملان صالحان لكل زمان ومكان، وشريعة محمد ﷺ شاملة كاملة، وهي عامة لجميع الثقلين الجن والإنس لا يسع أحدًا بعد بعثة محمد ﷺ أن يخرج عن شريعته كائنًا من كان، فإن خرج عنها خروجًا كليًّا فهو كافر.

قال ﷺ: «**لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ولم يؤمن بي إلا دخل النار**»(١).

وإذا كان هذا في أهل الكتاب فكيف بغيرهم؟ لأن الكتاب السابق انتهى بالنسخ فهذا القرآن نسخ جميع الكتب، وشريعته ﷺ نسخت جميع الشرائع، والشرائع تكون مؤقتة، واللَّه -جل وعلا- يشرع لكل أمة ما يناسبها وما يصلحها في وقتها؛ قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فيشرع لكل أمة ما يناسبها في وقتها ثم ينتهي ذلك بشرع آخر إلى أن جاءت شريعة الإسلام منذ بعثة النبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة، فهي عامة في الزمان، وعامة في المكان، وعامة في العباد إلى أن تقوم الساعة لا تتبدل ولا تتغير.

فمن زعم أن الرسول ﷺ بعث إلى العرب خاصة كما تقوله طائفة من النصارى فهذا كافر باللَّه ﷻ.

فمن النصارى من يقول: إن محمدًا ﷺ رسول من عند اللَّه ولكن رسالته إلى العرب فقط، وهذا كافر باللَّه ﷻ؛ لأنه جاحد لعموم الرسالة، ولذلك من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ فهو كافر؛ لأن اللَّه -جل وعلا- جعل محمدًا خاتم النبيين

(١) سبق تخريجه.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

والخاتم هو الذي لا يأتي بعده نبي، ولهذا قال ﷺ: «**سيكون بعدي كذابون ثلاثون كلهم يدعي أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**»(١).

فالناس ليسوا بحاجة إلى نبي؛ لأن النبي يبعث لحاجة الناس والله أغناهم بالكتاب والسنة المستمرين إلى قيام الساعة، فليسوا بحاجة إلى نبي أو إلى شريعة غير شريعة محمد ﷺ، فالفترة مملوءة بشريعة الإسلام إلى قيام الساعة، أما شرائع الأنبياء فيعمل بها في وقتها.

فكل شريعة يعمل بها في وقتها ولا تتجاوزه، ووقت هذه الشريعة هو هذا الوقت الواسع من البعثة إلى قيام الساعة، فهي غنية متجددة في أحكامها وقرآنها وسنتها.

فالبشرية ليست بحاجة إلى رسول بعد محمد ﷺ، وليست بحاجة إلى كتاب بعد القرآن، وليست بحاجة إلى شريعة بعد شريعة محمد ﷺ، ولهذا من ادَّعى أنه نبي ومن صدق ذلك يكون كافرًا مرتدًّا عن دين الإسلام، ويكون مكذبًا للَّه ورسوله ﷺ وإجماع المسلمين في عموم الرسالة التي بعث بها محمد ﷺ.

فإذن؛ لا يسع أحدًا كائنًا من كان الخروج عن شريعة محمد ﷺ.

هذا ونسأل اللَّه الفقه في دينه والعمل بشريعته، وأن يجنبنا طريق الضلال والغواية.

وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨)، والترمذي (٢٢١٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، والحاكم (٤/ ٤٤٩) وصححه على شرط الشيخين.
وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

الأسئلة

سؤال: هل من ادعى الخروج عن شريعة محمد ﷺ يكون قد ادعى النبوة وبهذا يكون كافرًا؟

جواب: ما كل من خرج عن الشريعة يكون مدعيًا للنبوة، ومن ادعى الخروج في العبادة فرأى أنه لا يلزمه أن يعبد اللَّه على طريقة الرسول ﷺ مثل الصوفية، يقولون: نحن لسنا بحاجة إلى الرسول ﷺ نحن وصلنا وعرفنا، والذي يدعي الرسالة هذا نوع آخر، والذي يدعي أنه يسعه الخروج، يكفر ولو لم يدَّع الرسالة.

سؤال: هل من شك أنه يسع بعض الناس الخروج عن شريعة محمد ﷺ، حكمه حكم من يعتقد ذلك؟

جواب: نعم من شك في عدم جواز الخروج عن شريعة محمد ﷺ، فإنه يكفر، بمجرد الشك والتردد.

* * *

الدرس الحادي عشر
في شرح الناقض العاشر

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإعراض عن دين الله تعالى لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] [١٠].

---

[١٠] الآيات الدالة على كفر الإعراض كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ﴾ [الكهف: ٥٧].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

ومثل قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

ومثل قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فاللَّه ﷻ حذر في هذه الآيات من الإعراض عن ذكره وهو القرآن والسنة وعدم تعلمهما وعدم العمل بهما بأنواع من الوعيد، وإلى جانب ذلك فإن اللَّه ﷻ رغب في تعلم العلم النافع، والنبي ﷺ رغب في تعلم العلم النافع والعمل به، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال نبينا ﷺ: «**من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين**»(١).

فالتفقه في الدين وتعلم العلم النافع من علامات الخير الذي أراده اللَّه للإنسان، والإعراض عن التفقه في الدين من علامات الشر.

وتعلم العلم على قسمين:

القسم الأول: قسم فرض عين على كل مسلم لا أحد يعذر بجهله، وهو ما لا يستقيم دين العبد إلا به من معرفة العقيدة الصحيحة وما يضادها، أو ينقصها، ومعرفة أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة، أي: أركان الإسلام الخمسة؛ فلابد لكل مسلم ومسلمة أن يتعلمها، وإلا كيف يؤدي دينه على الوجه المشروع إذا لم يتعلم هذه الأركان الخمسة؟

القسم الثاني: ما تعلمه فرض كفاية وليس على كل مسلم بل على من عنده الاستعداد لذلك، وهو تعلم بقية أبواب العلم من فقه المعاملات وفقه المواريث وفقه الأنكحة، وفقه الحدود، وإلى غير ذلك، فهذا العلم تعلمه فرض كفاية لحاجة الناس إليه، وإذا قام به من يكفي سقط الفرض عن الباقين وبقي في حق

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﵄.

الباقين سنة من أفضل السنن؛ لأنه قد لا يتسنى لكل أحد أن يتعلم هذه الأبواب من العلم، فلذلك صار تعلمها فرض كفاية على المسلمين.

و«**الإعراض**» معناه: الانصراف عن الشيء مع عدم الرغبة فيه.

«**لا يتعلمه**» أي: لا يتعلم دينه رغبة عنه لا كسلًا أو عدم قدرة، وهذا يكفر؛ لأنه لا يريد الدين، فإذا أعرض عن تعلمه كفر؛ لأنه لو كان له في الدين رغبة لتعلمه ومن هؤلاء من ينادون الآن بتنقية المناهج الدراسية من العلوم الدينية؛ لأنها بزعمهم تزرع التشدد والغلو والتطرف والإرهاب، وكذلك من يتعلمه ولكن لا يعمل به، وهذا أيضًا يكفر ويرتد عن دين الإسلام، فإذا كان لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي الزكاة، ولا يحج ولا يؤدي الواجبات ولا يتجنب المحرمات فهذا لا رغبة له في العمل فهذا يكفر.

وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون: إن العمل ليس بلازم، يكفي الاعتقاد بالقلب والتصديق بالقلب ولو لم يعمل.

فالشيخ هنا يقول: «**إذا لم يعمل**»؛ أي: رفض العمل مع قدرته عليه وتمكنه منه، أبى أن يصلي أو يصوم أو يزكي أو يحج الفريضة أو أبى أن يجتنب المحرمات، ويؤدي الواجبات فهذا يكفر؛ لأنه لم يعمل بالدين، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

فلابد من الأمرين: تعلم أمور الدين، وهي الأمور التي لا يستقيم الدين إلا بها، والأمر الثاني: العمل بها.

فلابد من العلم والعمل، لا يصلح علم دون عمل، ولا يصلح عمل دون علم، فهما قرينان، واللَّه تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

والهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، فالرسول ﷺ

بعث بالأمرين، لم يبعث بالعلم فقط، ولم يبعث بالعمل فقط وإنما بعث بالأمرين فهما قرينان.

والذين أخذوا العلم وتركوا العمل هم ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧] من اليهود ومن نحا نحوهم ممن تعلم دين اللَّه ولم يعمل به.

والذين أخذوا العمل وتركوا العلم هم النصارى، ومن وافقهم من المتعبدة والمتصوفة الذين يعبدون اللَّه على جهل وضلالة ولا يعبدون اللَّه على علم، ويقولون: تعلم العلم يعوق عن العمل، أو يقولون: إذا عملت فإن العلم يأتيك تلقائيًّا بلا تعلم، بأن يفتح على قلبك ويأتيك العلم دون أن تتعلم على العلماء.

فهذا قول الصوفية قديمًا وحديثًا، يزهدون في تعلم العلم والجلوس عند العلماء ويقولون: المطلوب العمل، وإذا عملت وعبدت اللَّه فتح اللَّه عليك العلم بدون أن تتعلم، وهذا ضلال -والعياذ بالله-.

فالذي يرفض تعلم العلم رغبة عنه يكون كافرًا، والذي يرفض العمل بالعلم نهائيًّا يعتبر كافرًا أيضًا، ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإعراض عن دين اللَّه لا يتعلمه ولا يعمل به» فلا يتعلمه هذه طريقة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] من النصارى والمتصوفة وغيرهم، ولا يعمل به: هذه طريقة اليهود ومن نحا نحوهم من كل عالم لا يعمل بعلمه.

والمراد من تعلم العلم: هو العمل به، لا يتعلم العلم لمجرد المعرفة، أو ليقال هو عالم، أو للمدح ولا يريده للعمل وإنما يريده لهذه الأمور، لمجرد المعرفة وللمدح وللثناء ولارتفاع مكانه عند الناس، فمن كان هذا همه وقصده فهو من أول مَن تُسعر بهم النار يوم القيامة، فأول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة: مجاهد، ومتصدق، ومتعلم[١].

(١) يشير الشيخ -حفظه اللَّه- إلى الحديث الذي أخرجه مسلم برقم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي (٣١٣٧)، وأحمد (٨٢٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالمجاهد الذي جاهد فقُتل يأتي يوم القيامة فيقول اللَّه له: ماذا عملت؟

فيقول: يا رب جاهدت فيك حتى قتلت.

فيقال له: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال: هو جريء؛ وقد قيل، ثم يسحب إلى النار.

ثم يؤتى بالمتصدق فيقال له: ماذا عملت؟

فيقول: ما تركت من سبيل تحب الإنفاق فيه إلا أنفقت فيه.

فيقول الله: كذبت ولكنك تصدقت ليقال: هو جواد، وقد قيل، ثم يسحب إلى النار.

ثم يؤتى بالعالم فيقال له: ماذا عملت؟ فيقول: تعلمت فيك العلم وعلمته.

فيقول الله: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: هو عالم، وقد قيل، فيسحب إلى النار.

ويبدأ به قبل عباد الأوثان فيقول: كيف نعذب قبل عبدة الأوثان؟ فيقال له: ليس من يعلم كمن لا يعلم.

فالأمر مهم جدًّا، أمر التعلم وأمر العمل، فمن رفضهما أو رفض أحدهما فإنه يكون مرتدًّا عن دين الإسلام.

ومن الناس من يرفض قبول العلم إذا بلغه استكبارًا على الحق وردًّا للحق، فهذا يكون مع المستكبرين، وهذا من كفر الاستكبار عن الحق.

ومن الناس من يرفض تعلم الدين، عن عدم رغبة، وإعراضًا، فهذا يكون مع المعرضين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

ومن الناس من يرفض الدليل وقبول الحق إذا بُيِّن له محافظة على دين آبائه وأجداده حميةً ولا يقبل الحق ويبقى على ما هو عليه وما أدرك عليه آباءه وأجداده كما كان عليه المشركون.

فالذين يعبدون القبور لا يقبلون حقًّا ولا يقبلون جدالًا، فهم مقتنعون بما هم عليه تمامًا، ولا يقبلون توجيهًا أو إرشادًا، يغلقون أسماعهم عن قبول الحق، ويصرون على ما هم عليه، بل ربما يقاتلون دونه، ويبذلون أنفسهم دون هذه العقائد الباطلة ولا يقبلون الحق مهما يسمعون من القرآن والسنة ويسمعون النهي عن الشرك والأمر بالتوحيد، ولا يلتفتون إلى ما في القرآن بل هم معرضون عنه، وهذا من الإعراض عن الدين الصحيح والرضا بالدين الباطل، وهذا كثير في الناس اليوم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

فهؤلاء يؤمنون بالباطل ويكفرون باللَّه، ويعبدون غيره ويدعون غيره ويستغيثون بغيره، ويؤمنون بعبادة غير اللَّه ويكفرون باللَّه علنًا وجهارًا، هذا هو الإعراض الكفري -والعياذ بالله- حميةً وأنفةً.

ولما حضرت أبا طالب الوفاة وكان موقفه كما تعلمون من الدعوة وحماية الرسول ﷺ وحماية الدعوة ولكنه لم يدخل في دين الرسول ﷺ جاءه النبي ﷺ إشفاقًا عليه وهو في الاحتضار فقال له: «**يا عم، قل لا إله إلا اللَّه كلمة أُحاج لك بها عند اللَّه**».

وكان عنده أناس من المشركين فقالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! -عرفوا أنه إذا قال: لا إله إلا اللَّه فقد ترك ملة عبد المطلب وهي عبادة الأصنام-، فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادوا عليه وقالوا: أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال: هو على ملة عبد المطلب، فأبى أن يقول لا إله إلا اللَّه ومات على ذلك.

حميةً لدين عبد المطلب ودين الشرك، فأعرض عن قبول التوحيد فصار في النار -والعياذ بالله-، فقال ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك» فأنزل اللَّه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

ودخل ثلاثة المسجد والنبي ﷺ يحدِّث أصحابه، فواحد من الثلاثة جاء وجلس في الحلقة راغبًا في التعلم، والثاني: استحيا أن ينصرف وجاء فجلس، والثالث أعرض وخرج، فقال النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بخبر الثلاثة؟**

قالوا: بلى يا رسول اللَّه.

قال: **أما أحدهم: فقد أوى فأواه اللَّه، والثاني: استحيا فاستحيا اللَّه منه، والثالث: أعرض فأعرض اللَّه عنه**»[(٢)]. فهذا جزاء المعرضين عن تعلم أمور دينهم.

وهناك أناس من دعاة السوء يقولون: لا تعلموا الناس التوحيد والعقيدة، لا تعلموا شباب وأولاد المسلمين العقيدة؛ لأنهم مسلمون ولا يحتاجون إلى تعليم، مسلمون بالبيئة لا يحتاجون لأن يتعلموا التوحيد.

أليس هذا من الإعراض عن تعلم الدين؟

هذا هو الإعراض عن تعلم الدين؛ لأن الدين لا يؤخذ بالوراثة والبيئة، الدين يؤخذ بالعلم والتعلم، فلابد من تعلم الدين وتعليمه والعمل به، فالذي لا يتعلم الدين رغبة عنه ولا يعمل به إذا تعلمه وإن كان يقول: لا إله إلا اللَّه فهو مرتد مرتكب لناقض من نواقض الإسلام، فهذا الأمر خطير.

والإعراض إذا كان عن تعلم أصول الدين والعقيدة وعدم رغبة فيها فهذا ناقض من نواقض الإسلام، وأما إذا كان الإعراض عن تعلم تفاصيل الدين وتفاصيل الأحكام بسبب الكسل أو عدم التفرغ لذلك فهذا معصية ولا يعد

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري(٦٦)، ومسلم (٢١٧٦)، والترمذي (٢٧٢٤) من حديث أبي واقدٍ الليثي رضي الله عنه.

ناقضًا من نواقض الإسلام.

وأما أصول الدين والتي لا يستقيم دين العبد إلا بها فمن أعرض عن تعلمها زاهدًا فيها فإنه ينتقض إسلامه.

وأما الأمور التفصيلية وأحكام المعاملات كما سبق فذلك فرض كفاية، فيكونون تاركين للسنة وعندهم نقص في تعلم الأحكام لقلة نشاطهم أو كسلهم أو عدم فهمهم، لأن من ترك العلم الذي تعلمه فرض كفاية يكون تاركًا للسنة أو تاركًا لواجب.

فيجب أن تعرف هذه الأمور وهذه الضوابط في الإعراض متى يكون كفرًا؟ ومتى يكون معصية؟

وعلى كل حال فإن تعلم العلم لا شك أنه هو الحياة، وهو النور، وهو الذي أمر اللَّه ﷻ به وأمر به رسوله ﷺ ورغب فيه قال ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل اللَّه له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم اللَّه فيمن عنده**»[١].

وقال ﷺ: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع**»[٢].

فهذا ترغيب في تعلم العلم والإقبال عليه ليستقيم به دين العبد ولينتفع به وينفع غيره، ولا شك أنه إذا فُقد العلم والعلماء هلكت الأمة كما قال ﷺ: «**إن اللَّه لا يقبض هذا العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بقبض العلماء؛ فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوسًا جهالًا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم(٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

....

فالفتوى بغير علم ضلال وإضلال، فلابد أن تكون الفتوى عن علم من الكتاب والسنة وإلا فإنها تكون ضلالًا وهلاكًا وهذا لا يحصل إلا بالتعلم قبل أن يفوت الأوان، ما دام العلماء موجودين، قبل ألا يبقى عالم فحينئذٍ يلجأ الناس إلى الجهَّال والمتعالمين والقراء فيفتون بغير علم فيَضلون ويُضلون.

* * *

الدرس الثاني عشر
في خاتمة شرح النواقض العشرة

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره»[١١].

---

[١١] **قوله: «ولا فرق في هذه النواقض»** لا فرق في جميع هذه النواقض «بين الهازل والجاد» الهازل: هو المازح الذي يقول كلامًا فيه ردة وهو يمزح، والجاد: هو الذي يقصد ما يقول.

والدليل على ذلك: قصة الذين ذكرهم اللَّه في القرآن في مرجع النبي ﷺ من غزوة تبوك فجلسوا يتحدثون فقال واحد منهم: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أكذب ألسنة وأرغب بطونًا وأجبن عند اللقاء -يعنون النبي ﷺ وأصحابه- وكان في المجلس شاب يقال له عوف بن مالك فأنكر عليهم، وقال لهذا المتكلم: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول اللَّه ﷺ، فذهب ليخبر النبي ﷺ فوجد الوحي قد سبقه بخبر هؤلاء، فجاءوا يعتذرون إلى النبي ﷺ من مقالتهم؛ فقالوا: يا رسول اللَّه، كنا نتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق.

فالرسول ﷺ لا يلتفت إليهم ولا يزيد عن تلاوة الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، فقال لهم: قد كفرتم بعد إيمانكم[(١)]، مع أنهم يقولون: ما نحن بجادين وإنما كنا نمزح، فلم يعذرهم الله ﷻ ولا رسوله ﷺ، فلا فرق بين الجاد والهزل.

---

(١) تقدم تخريجه.

قوله: «والخائف»: الذي يقول كلمة الكفر أو يفعل فعل الكفر خوفًا من الكفار لا يعذر، بأن يقول كلمة الكفر أو يفعل فعل الكفر كأن يذبح لغير اللَّه أو يسب الإسلام والمسلمين لأجل الخوف من الكفار، أو يتنازل عن شيء من أمور دينه خوفًا من الكفار، لأن هذا مداهنة، قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤].

فالمداهنة لا تجوز في دين اللَّه حتى لو كان الإنسان خائفًا، بل يجب عليه أن يتمسك بدينه مع الخوف ما لم يصل إلى حد الإكراه، فإذا وصل إلى حد الإكراه، فيجوز له أن يعطيهم شيئًا مما طلبوا ليدفع عنه الإكراه بشرط اطمئنان قلبه بالإيمان، قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦].

فلابد من هذه الشروط:

الشرط الأول: أن يكون مكرهًا، لا خائفًا فقط ولا مجاملًا للكفار ليحظى عندهم بمنزلة أو ينال منهم منفعة، فلا يجاملهم في دين اللَّه.

الشرط الثاني: أن يكون قلبه مطمئنًّا بالإيمان؛ إنما يقول بلسانه فقط مع بقاء الإيمان في قلبه.

الشرط الثالث: أن يكون قصده دفع الإكراه لا إرضاء الكفار، كما حصل لعمار بن ياسر رضي الله عنه الذي هو سبب نزول هذه الآية، وهو أن الكفار أخذوه وأكرهوه على أن يسب الرسول ﷺ ولم يطلقوه حتى قال في الرسول ما يريدونه،

فجاء نادمًا إلى الرسول ﷺ، فقال له ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**» قال أجده: مطمئنًّا بالإيمان؛ فقال ﷺ: «**إن عادوا فعُدْ**»[1]؛ فأنزل الله هذه الآية ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٧].

فمن تنازل عن شيء من دينه من أجل طمع دنيوي، أو من أجل أن يُرضي الكفار، أو أن يجاملهم فإنه يكون مداهنًا في دين الله ﷻ بخلاف التقية التي يضطر إليها الإنسان اضطرارًا وهي لأجل دفع الإكراه، وكونه يصبر على الأذى ولا يأخذ بالرخصة كما فعل الإمام أحمد رحمه الله في محنة خلق القرآن أفضل من الأخذ بالرخصة.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكلها من أعظم ما يكون خطرًا وأكثر ما يكون وقوعًا» [١٢].

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه» [١٣].

---

[١٢] هذه النواقض العشرة لماذا اختارها الشيخ مع أن النواقض كثيرة؟

اختار هذه النواقض العشرة لأنها أكثر النواقض وقوعًا في الناس، ولأنها أشدها خطرًا فهو اختارها لأمرين:

أولًا: لأنها أكثر النواقض وقوعًا.

وثانيًا: أشد النواقض خطرًا.

وما كان كذلك فهو جدير بالعناية والحذر.

[١٣] **قوله**: «**ينبغي**» معناه: يجب؛ أي: يجب على المسلم أن يخاف من الوقوع فيها.

قوله: «**أن يحذرها**»؛ أي: لا يزكي نفسه ويقول أنا عارف وأنا لست بحاجة إلى تعلمها، وأن الناس ليسوا بحاجة إلى التوحيد وتعليمه والناس مسلمون! آمنون من الخطر، والإنسان ما دام على قيد الحياة فإنه معرض للفتنة، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كسر الأصنام بيده وألقي في النار من أجل ذلك يقول في دعائه لربه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خشي على نفسه من عبادة الأصنام؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، ولأن الإنسان قد يزيغ ويضل بعد هدى، فلا يأمن الإنسان على نفسه من الزيغ والضلال، كم من عالم ضلَّ، وكم من تقي فَجرَ وانتكس، فما دام المسلم على قيد الحياة فإنه لا يأمن على نفسه من الفتن لاسيما مع اشتداد الفتن: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه» [١٤].

ثم قال: «وصلى الله وسلم على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين. انتهى» [١٥].

قوله: «ويخاف منها على نفسه» أي: يخاف ولا يأمن على نفسه.

[١٤] ختم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة بالاستعاذة بالله والاعتصام به عَزَّوَجَلَّ والالتجاء إليه من غضبه وأسباب عقابه، وهذا مما يعطي المسلم الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يأمن على نفسه من الفتن والضلال ما دام على قيد الحياة، ولهذا يقول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: من كان مستنًّا فليستنَّ بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة(١).

فالحي لا تؤمن عليه الفتنة ولو كان من أتقى الناس وأعلمهم ما دام على قيد الحياة فإنه معرض للفتنة.

[١٥] وختم شيخ الإسلام هذه الرسالة بالصلاة على النبي ﷺ، وهذا خير ختام، فالصلاة والسلام على النبي مشروعة في بداية الأعمال وفي ختامها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وهذا من حقوقه ﷺ علينا أن نصلي ونسلم عليه.

والصلاة من الله على عبده معناها: الثناء عليه في الملأ الأعلى، والصلاة من الملائكة معناها: الاستغفار له، والصلاة من الآدميين معناها: الدعاء له، فنحن إذا قلنا: صلى الله وسلم على محمد؛ فإننا ندعو الله أن يثني عليه وأن يسلم عليه في الملأ الأعلى.

---

(١) أخرجه اللالكائي في «أصول السنة» (١٣٠، ١٣١)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٤٦٠)، وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٨٨١) نحوه عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٠): «رجاله رجال الصحيح».

الأسئلة

سؤال: يوجد جماعة يسمون أنفسهم القرآنيين، وهم لا يأخذون إلا بالقرآن فهل يحكم بكفرهم؟

جواب: نعم، لا شك في كفرهم؛ ولأنهم كاذبون في قولهم ما نعمل إلا بالقرآن، فالقرآن أمرنا باتباع الرسول ﷺ، ومن اتباع الرسول ﷺ العمل بسنته لأن اللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

والقرآن فيه أشياء مجملة لا يفسرها إلا الرسول ﷺ في سنته كالصلاة، فاللَّه -جل وعلا- ذكر الصلاة في القرآن، وحث عليها ولكن هل بيَّن لنا عدد ركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، هل القرآن بيَّن لنا هذا؟ هذا بيّن في سنة الرسول ﷺ؛ لقوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(١)].

وكذلك الزكاة جاء ذكرها في القرآن والأمر بإيتائها، ولكن هل بين القرآن نصاب الزكاة والمقدار الذي يؤخذ والأموال التي تزكى، هذا كله بينه الرسول ﷺ، فالسنة مبينة للقرآن، فالذي لا يعمل بالسنة لا يكون عاملًا بالقرآن.

وهناك أشياء لم تذكر في القرآن جاء بها النبي ﷺ وأمر بها، مثل نهيه عن

(١) أخرجه البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

الجمع بين المرأة وخالتها والمرأة وعمتها[١]، هذا ليس بمذكور في القرآن، والرسول ﷺ زاد في السنة الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، ويجب علينا العمل بالسنة كالعمل بالقرآن ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وهؤلاء -أي: القرآنيون- أشار إليهم النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى بقوله: «يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول: بيننا وبينكم كتاب اللَّه، نحل حلاله ونحرم حرامه...» ثم قال ﷺ: **«ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»**[٢].

فالنبي ﷺ أخبرنا عن هؤلاء وحذرنا منهم.

سؤال: هل الناقض العاشر: الإعراض عن دين اللَّه هل يطبق على حق الرافضة؟

جواب: هذا ينطبق على كل من أعرض عن دين اللَّه لا يتعلمه ولا يعمل به سواء من الرافضة أو الصوفية أو القبورية أو من غيرهم.

سؤال: هل يقع الإكراه للذي يذبح لغير اللَّه -جل وعلا- أو يسجد للصنم؟

جواب: الإكراه يكون على القول لا على الفعل.

أما القول فيمكن أن يقول كلمة الكفر إذا أُكره عليها لدفع الإكراه، هذا الذي جاء في القرآن.

سؤال: أسلمت قبل ثلاثة أشهر ولي أبوان كافران فكيف أتعامل معهما، وهل لي أن أبغضهما بغضًا مطلقًا؟

---

(١) أخرجه البخاري(٥١٠٩)، ومسلم(١٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٧٤، ١٧١٩٤)، وأبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢) من حديث المقداد بن معديكرب رضي الله عنه، وصححه الألباني.

جواب: المعاملة تكون كما قال الله -جل وعلا-: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فتبغضهما لله ﷻ، وأما الإحسان إليهما فتبرهما وتحسن إليهما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥].

من باب رد الجميل، فالوالد له حق بالبر والإحسان إليه وأما المحبة بالقلب فلا تحب الكافر أبدًا، وإبراهيم عليه السلام لما تبين له أن أباه عدو لله تبرأ منه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *